د. سعد الدين إبراهيم

مصر تراجع نفسها

الإسلام الاحتجاجي

مصر في مفترق الطرق

مصر وأمريكا وإسرائيل

عبد الناصر والسادات وثورة يوليو

مستقبل الديمقراطية في مصر

مصر والعرب والصيف الحزين

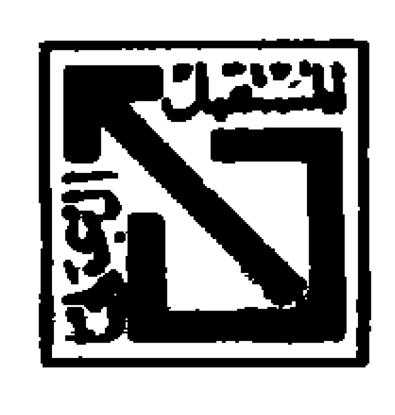




مصر
تراجع نفسها

د. سعد الدين إبراهيم

مصر تراجع نفسها



دار المستقبل العربي . القاهرة

١٩٨٣

صمم الغلاف : سعد عبد الوهاب

الطبعة الاولى

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر الجديد
ت / ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

مقدمة

كانت الرصاصات التى أودت بحياة الرئيس السادات ظهر السادس من اكتوبر ١٩٨١ حدثاً أهتز له العالم من ادناه إلى أقصاه .

الذين أطلقوا الرصاص كانوا شبابا من مصر ، أطلقوها بإسم « الاسلام » ؛ وقد تم اعدامهم بعد محاكمة صاخبة . وانتهى بذلك فصل مأساوى فى تاريخ مصر الحديث . ولكن لأن مصر تقع فى القلب من الوطن العربى ، ولأن الوطن العربى يقع فى القلب من العالم ، ولأن التاريخ متشابك الحلقات ، فإن اغتيال الرئيس السادات ، واعدام من اغتالوه ، لايمكن النظر إليه بمعزل عما سبق وعما لحق وعما سيلحق بمصر والوطن العربى والشرق الأوسط والعالم .

لقد كان حادث الاغتيال رمزاً لقمة الأزمة التى وصل اليها النظام السياسى المصرى . فمقدمات هذه الأزمة بدأت فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وارتفعت حرارتها فى أحداث يناير ١٩٧٧ ، ودخلت مرحلة الغليان طوال الشهور التسعة الأولى من عام ١٩٨١ .

والأزمة لها جوانبها العديدة والمتداخلة .

لقد كانت تنطوى عن تعثر فى « **المسألة الاجتماعية** » ، ونقصد بها قدرة النظام على التوزيع العادل للفرص ، وللثروة ، وللسلطة بين المواطنين . وكانت الأزمة تنطوى على تعثر فى « **المسألة السياسية** » ، ونقصد بها قدرة النظام على توسيع المشاركة الديموقراطية . وكانت الازمة تنطوى على تعثر فى التعامل مع « **المسألة الاقتصادية** » ، ونقصد بها القدرة على ادارة الاقتصاد وتنميته بكفاءة . وكانت الأزمة تنطوى على تعثر فى « **للمسألة الوطنية** » ،ونقصد بها القدرة على

المحافظة على إستقلال مصر وعدم الوقوع فى شرك التبعية لقوى أجنبية . وكانت الأزمة تنطوى على تعثر فى « **المسألة القومية**» ، ونقصد بها قدرة النظام على ربط مصر وإدارة علاقاتها بأقطار أمتها العربية الأكبر ، ومجابهة للخطر الصهيونى المحدق . وكانت الازمة ، أخيرا ، تنطوى على تعثر فى « **المسألة الحضارية** » ، ونقصد بها قدرة النظام على المحافظة على الأصالة ، والمواءمة بينها وبين متطلبات القرن العشرين .

أزمة النظام المصرى – إذن – فى ظل السنوات الأخيرة من حكم الرئيس السادات ، كانت أزمة سداسية الجوانب . ولم يكن الاخفاق فى جانب واحد منها كافيا لخلخة النظام . ولكن الإخفاق فيها كلها ، وفى نفس الوقت ، هو الذى فجر الأزمة بشكل درامى فى سبتمبر واكتوبر ١٩٨١ .

ولم يؤد مقتل الرئيس السادات الى اختفاء الأزمة ، ولكنه أدى الى انفراجة مؤقتة . فمازالت المسائل الستة (الاجتماعية ، والسياسية والاقتصادية ، والوطنية ، والقومية ، والحضارية) قائمة دون حسم فى ادارتها والتعامل معها . ولكن الانفراجة التى اعقبت الاغتيال المأساوى للرئيس السادات ، أدت الى فتح ملفات المسائل الست ، وإلى الحوار والجدل حولها . وليس الحوار دائماً عقلانيا . وليس الجدل دائماً هادئاً أو رصيناً . ولكنه فى مجمله كان ومايزال محاولة للبحث عن الروح الجماعية لمصر ، وللتعبير عن الهموم ، وللاستفادة من دروس النجاح والفشل . الحوار والجدل الذى أعقب اغتيال الرئيس السادات كان ومايزال يهدف الى اعادة ترتيب « البيت المصرى » أملا فى انطلاقه نحو مستقبل أفضل .

لقد شارك فى هذا الحوار العديد من مفكرى مصر ، من أجيال مختلفة ، ومن مشارب سياسية وأيديولوجية مختلفة . شارك فيه جيل من الليبراليين واليساريين والأخوان المسلمين القدامى ، بقايا ماقبل ثورة يوليو ١٩٥٢ . وشارك فيه جيل ثورة يوليو ، ومن تبقى من قياداتها ومؤيديها ومنهم من عمل مع أو ضد عبد الناصر . وشارك فيه من عملوا مع أو ضد نظام السادات . كما شارك فيه جيل جديد لم « يتشرف » أو « يتدنس » بالعمل العام فى مصر الملكية أو مصر الناصرية أو مصر الساداتية .

والحوار مايزال قائماً ... وربما لن ينتهى .

وقد أسهم هذا الكاتب ، مع الكثيرين غيره ، فى الحوار الدائر ، من خلال عشرات المقالات الصحفية والدراسات الاكاديمية . وقد نشر معظمها فى صحيفتى « **الاهرام** » و

« الجمهورية » و « مجلة الاهرام الاقتصادى » خلال عامى ١٩٨١ و ١٩٨٢ . وأشار على بعض الزملاء والأصدقاء بتجميع ماكتبته ونشره فى كتاب واحد . وقد أستجبت لهذه الاشارة ، وها أنا أقدم اسهامى المتواضع فى الحوار الدائر فى هذا الكتاب .

لقد أخترت لهذه المقالات المتناثرة عنوان « مصر تراجع نفسها » فحينما أعدت قراءاتها ، استعداداً لنشرها ، وجدت أن الخيط المشترك الذى يجرى فى ثنايا هذه المقالات هو مراجعة نقدية للتوجهات والسياسات والممارسات الرئيسية فى العقود الثلاثة الماضية . حتى المقالات التى كان لها صبغة الاهتمام المباشر بالاحداث اليومية الجارية ، كان التحليل فيها يتطرق الى سياقات أوسع ، لربط الحدث بالماضى والمستقبل ، ولربطة أفقيا ورأسيا بأحداث أخرى فى مصر والوطن العربى والشرق الأوسط والعالم .

لقد أعدت ترتيب المقالات ترتيبا نوعيا ، يلتزم بوحدة وتجانس الموضوع ، أكثر من الالتزام بالتسلسل الزمنى لظهور هذه المقالات . وأخترت لكل مجموعة عنواناً يعكس محتواها ، ووضعتها فى فصل مستقل . وربما يجد القارىء فى الانتقال من فصل الى آخربعض الاعباء النفسية نظراً للتداخل بينها من ناحية ؛ ونظرا لأنها تأخذه مرة الى الأمام ، ثم تعود به الى الوراء ، ثم الى الامام مرة أخرى ... وهكذا . ولكنى على يقين أن القارىء ، بعدما يفرغ من قراءة الكتاب كله ، سيتبين **«الرسالة »** التى يريد الكاتب أن يوصلها اليه .

لايفوتنى فى النهاية أن أتقدم بالشكر للعديد من القراء الذين اخذوا هذه المقالات عند نشرها مأخذ الجد ، سواء بالثناء عليها أو نقدها والاختلاف مع مضمونها . كما أخص بالشكر رئيسى تحرير **« الجمهورية » ، الاستاذ محسن محمد** ، و **« الاهرام الاقتصادى » ، الدكتور لطفى عبد العظيم** ، اللذان أخذا مخاطرة نشر هذه المقالات . لقد تجاوزت فيها أحياناً « هامش الحرية » المسموح به فى ظروف مصر الحالية . وكنت أعلم يقيناً أن محسن محمد ولطفى عبد العظيم يختلفان مبدئيا مع الكثير مما كتبته . ولكنهما مع ذلك أفسحا لى مجالًا كبيرا ، ربما لم يتح للآخرين .

وأخيرا ، وليس آخرا ، أتقدم بالشكر **لدار المستقبل العربى** ، ورئيسها **الاستاذ محمد فايق** لتشجيعى على تجميع هذه المقالات ونشرها فى هذا الكتاب .

سعد الدين ابراهيم

المعادى — القاهرة فى ١ / ١ / ١٩٨٣

الفصل الأول

الإسلام الاحتجاجي في مصر

- □ تعالوا إلى كلمة سواء : التطرف الديني وموضع الخلل .
- □ من الضابط أنور السادات إلى الضابط خالد الاسلامبولي .
- □ أختلف مع وزير الداخلية في تفسيره لظاهرة العنف .
- □ هل هناك حقا فراغ ديني ؟
- □ السرية في البحوث الاجتماعية .

تعالوا الى كلمة سواء :

التطرف الدينى وموضع الخلل*

هذه المقالة ليست نقدا « للتطرف الدينى » فى المقام الأول . ولكنها مجموعة من الاستغاثات ضد من يكتبون حول هذا الموضوع ، كما لو كانوا يفهمون . ويسدون لنا النصائح كما لو كانوا صادقين

— لقد سمعناهم بعد حادث الكلية الفنية العسكرية فى ابريل ١٩٧٤ .
— وقد سمعناهم بعد حادث المواجهة بين التكفير والهجرة والدولة فى يوليو ١٩٧٧ .
— وقد سمعناهم ونسمعهم منذ اغتيال الرئيس الراحل انور السادات فى اكتوبر ١٩٨١ .
— وربما سنسمع منهم مرة ومرات بعد كل مواجهة دامية بين الجماعات الدينية وسلطات الدولة الرسمية .

الغريب والمؤلم اننا نسمع من هؤلاء الكتاب فى وسائل الاعلام وعلى صفحات الجرائد **نفس التشخيص ، ونفس التحليل ، ونفس العلاج ، لنفس الظاهرة** ، التى يطلق عليها **« التطرف الدينى »** . يحدث هذا منذ اوائل السبعينات . وبالاحرى منذ سبتمبر ١٩٧٣ حينما اكتشفت اجهزة الامن اول هذه التنظيمات الدينية المتطرفة باحدى مغارات الجبل الشرقى بأبى قرقاص .

والى جانب تلك التنظيمات السرية او شبه السرية ، هناك عشرات الجماعات الاسلامية الاخرى العلنية ، والتى كانت تعمل جهارا من اجل التوعية الاسلامية ، والدعوة الى اقامة المجتمع الاسلامى ، ولكنها لم تكن تأخذ بالعنف وسيلة ومنهاجا .

* نشرت بصحيفة **الاهرام** ، ١٩٨١/١١/٢٠

نذكر كل هذا كتقديم لنقطة اساسية وهى ان هذه الجماعات الدينية الاسلامية — سواء السرى منها او العلنى ، الذى يأخذ منها بالعنف او بالموعظة الحسنة — قد استمر نموها باطراد وسرعة طيلة السنوات العشر الاخيرة .

خطأ فى تشخيص الظاهرة وعلاجها !

اذن لابد ان هناك عطبا اساسيا ، اما فى تشخيص اسباب الظاهرة او فى طريقة العلاج ، او فى التشخيص والعلاج معا .

بعد كل هزة دموية تحيق بالمجتمع المصرى كنا نسمع ان القاعدة العريضة من شبابنا بخير .. وان المنحرفين قلة غريبة .. او ان لدى الشباب فراغا دينيا او رياضيا او ثقافيا .. وان ذلك هو المسئول عن ظاهرة التطرف .

وطالما سمعنا ان سبب الظاهرة « هو ان البيت او المدرسة او الجامعة او وسائل الاعلام لاتقوم بواجبها كما ينبغى .. وان ذلك هو المسئول عن تطرف الشباب وفهمهم المعوج للاسلام .. واستخدام العنف؟ والاسلام الصحيح من كل ذلك براء . وطبعا نسمع دائما ان الازهر ورجال الدين ربما قصروا فى واجبهم فى نشر وتفسير الاسلام الصحيح » .. وفى عدم التصدى للارهابيين الذين حرفوا الاسلام وأساءوا لروحه النبيلة ويخرج علينا **محافظ** بنظرية « ان المشكلة فى اساسها اخلاقية » ، ويخرج علينا **مسئول عن الشباب** يفسر المشكلة على انها نتيجة عدم وجود وزارة مختصة » .

كما قلنا تكرر هذا التشخيص من عام ٧٤ الى ٧٧ ، ويتكرر الان . وتكررت المطالبة بان يقوم الأزهر « بدوره » ، وان تقوم الجامعات « بواجبها » ، وان تقوم وسائل الاعلام « برسالتها » ... ويتم مايعتقد الناس انه علاج ناجع لظاهرة « التطرف الدينى » .. ولكنهم يفاجأون بعد سنة او سنتين او ثلاث ان اعداد المتطرفين قد تضاعفت .

فبينما لم يتعد عدد المتهمين فى قضية الفنية العسكرية ٩١ شخصا سنة ١٩٧٤ وصل العدد فى قضية التكفير والهجرة الى ٢٥٨ متهما (قضيتى الاعتداء على الشيخ الذهبى والانتماء للتنظيم) سنة ١٩٧٧ والشواهد المبكرة تدل على ان عدد المتهمين فى « التنظيم الارهابى » الجديد قد وصل الى ٥٧٨ متهما الى يوم ٣١ اكتوبر ١٩٨١ .

وبينما صدر حكم الاعدام على ثلاثة فقط عام ١٩٧٤ ، زاد المحكوم عليهم بالاعدام الى خمسة عام ١٩٧٧ ، وربما سيتضاعف عدد المحكوم عليهم بهذه العقوبة فى جرائم عام ١٩٨١ .

الخلاصة ان عدد التنظيمات زاد ولم يقل ، وان حجم العنف امتد ولم ينحسر ،وأن عدد المشاركين فى عمليات الأرهاب تضاعف ولم يتناقص .

الا يدل كل ذلك على ان هناك خطأ اساسيا اما فى التشخيص واما فى العلاج ؟

إننا نعتقد أن ظاهرة « التطرف الدينى » قد أسيىء فهمها منذ أواخر الستينات ، وبالتحديد منذ هزيمة ١٩٦٧ وطوال عقد السبعينات .

وابسط مايمكن ان يقال عما نسمعه او نقرأه فى وسائل الاعلام ومن بعض المسئولين حول ظاهرة التطرف الدينى هو انه يتصف بالتبسيط المخل ، وبالتسطح البيروقراطى ، وبالهروب النعامى من محاولة الغوص وراء اسباب الظاهرة .

لذلك اكتب هذا المقال مستغيثاً لا من التطرف ومايصاحبه من ارهاب وعنف فحسب ، ولكن اهم من ذلك مستغيثا من التشخيص والمعالجة السطحية الكسولة .

الاستغاثة الاولى :
المتطرفون ليسوا من المريخ

تتكلم وسائل الاعلام احيانا عن المتطرفين كما لو كانوا قد نزلوا علينا من المريخ .. كما لو انهم بلا جذور او فروع فى المجتمع المصرى .. كما لو انهم غرباء وفدوا الى ارضنا بمحض الصدفة السيئة.ان ما ارتكبه ويرتكبه هؤلاء من عنف ربما هو المسئول عن محاولة وسائل الاعلام تبرئة المجتمع المصرى منهم . ولكن الخطورة فى هذه « النظرة المريخية » للتطرف وللمتطرفين هى انها تخلى نصيبنا كشعب وكمجتمع وكنظام من المسئولية . بل انها تنطوى على تسويف وطمس بليد لجذور الظاهرة .

اننى اقول مستغيثا ان هؤلاء المتطرفين هم من صلب المجتمع المصرى وبالاحرى هم ينحدرون من اهم شريحة فى الطبقات الوسطى .. والتى كانت وستظل اهم مصدر للحيوية السياسية والاجتماعية فى مصر . انها الشريحة التى افرزت معظم زعمائنا الوطنيين خلال هذا القرن ، ابتداء من سعد زغلول الى النحاس الى عبد الناصر وانتهاء بالسادات ومبارك .

انظروا الى قائمة المتهمين فى قضية الفنية العسكرية مثلا . لقد كان معظم المتهمين من طلاب وخريجى كليات الطب والهندسة والفنية العسكرية نفسها .. وكان بينهم ضابطان برتبة

عقيد .. وكان اباؤهم من موظفى الدولة ومن صغار ومتوسطى الملاك فى الريف والمدن . نفس الشيء تكشف عنه النظره المتفحصة للمتهمين فى قضايا التطرف الدينى الاخرى .

خلاصة القول فى هذه الاستغاثة هو ان المتطرفين ليسوا من اطراف المجتمع ولكن من قلبه وصلبه . ويمكن ان يكون من بينهم اخ لى او لك ، او قريب لى او لك . ولنسأل انفسنا .. من منا ليس له قريب او صديق او ابن قريب او ابن صديق فى الجماعات الدينية ؟ من منا ليس له قريبة من اللائى اخذن بالحجاب او الزى الاسلامى فى السنوات الاخيرة ؟

الاستغاثة الثانية :

المتطرفون غاضبون ساخطون

اذا كان محتوى الاستغاثة الاولى مقبولا ، فان السؤال هو لماذا ينخرط شباب من صلب المجتمع ، ومن احسن عناصره المتفوقه دراسيا ، ومن اكثر **طبقاته حيوية ونشاطا .. لماذا ينخرط مثل هذا الشباب فى جماعات دينية متطرفة تلجأ الى العنف والارهاب ؟**

الاجابة على السؤال طويلة ومعقدة .. ولكن يكفى ان نقول انهم يحسون **بمفارقات مذهلة** بين قدراتهم الذاتية وانجازاتهم التعليمية والمهنية من جانب وبين نصيبهم الحقيقى من الثروة والسلطة فى مجتمعهم من جانب آخر أنهم يشعرون انهم قد فعلوا كل ماطلبه المجتمع منهم من حيث التفوق والتحصيل ، ومع ذلك فهم هامشيون لا حول لهم ولا قوة . **ان معظمهم لا يستطيع ان يلبى مطالبه الاساسية المشروعة « مثل السكن والزواج » اذا ظل امينا ، وبقى داخل حدود الدولة المصرية . ان معظمهم يشعر ان كل ماحوله يتغير ، وبلا سبب مفهوم ، وانه عاجز عن السيطرة او حتى المشاركة فى احداث او منع هذا التغيير .**

ان الجيل الذى اكتسب وعيه فى السبعينات قد شهد اسم بلده يتغير ، وكذلك علمها ونشيدها الوطنى . ورأى فلسفتها الاقتصادية الاجتماعية تتغير ، وكذلك تحالفاتها الاقليمية والدولية .. وقيل ان ماسبق كان طالحا وان مالحق كان صالحا . وبصرف النظر عن الصحة او الخطأ وراء هذا التغيير فى كل شيء ، فالمهم انه كان من حيث الكم والكيف هائلا يصعب استيعابه فى فترة زمنيه قصيرة .. وفضلا عن ذلك **فانه قد ترك ايحاء قويا لدى الشباب بالشك فى كل شيء ..**

فمن يدريه انهم لن يأتوه غدا ويقولون له ان ماتتمسك به اليوم زائف بدوره ، وانك

مطالب بأن تؤمن بان اسما جديد وعلما جديدا ونشيدا جديدا وفلسفة جديدة وتحالفات جديدة هى الاصلح لوطنك .

من يصدق ، ومن يكذب ؟ لقد اصبح الشباب الأكثر ذكاء ووعيا وحساسية لا يصدقون احدا . اصبحوا يشكون فى كل شىء متغير . واصبح الثابت الوحيد فى حياة بعضهم هووجه ربك ذو البقاء والاكرام ، ودينه الحنيف ، وقرآنه، وسنة نبيه . تلكم ثوابت لا تتغير ...

ومن هذه البداية المشروعة البريئة يبدأ المسلسل المعهود : الثابت ابقى من الزائف ، الشريعة الاسلامية اقوى من اى قانون وضعى ، النظام الاجتماعى الاسلامى هو العاصم من الفساد الداخلى والضعف الخارجى . والذى يمانع فى ذلك يصبح عدوا لله وللرسول وللمؤمنين . وبالتالى يحل سفك دمه . بل ويجب سفك دمه . وهكذا يذهب منطق هؤلاء المتطرفين .

الاستغاثة الثالثة :

التطرف ليس ظاهرة جديدة

يخطىء من يعتقد ان التطرف ظاهرة جديدة فى مصر . ويخطىء من يعتقد ان الارهاب او الاغتيال اسلوب مستحدث لتسوية الخلافات السياسية . فحتى اللفظ الانجليزى لكلمة اغتيال « Assassination » اصلها عربى ومصرى بالذات . وترجع فى جذورها الى ايام الحاكم بامر الله حيث كان بعض المنشقين على الدولة يلجأون الى اغتيال جنود الدولة وهم ملثمون ليلا . وكانت الدولة بدورها تطلق عليهم اسم « الحشاشين » وهو المقابل لما نعنيه فى يومنا هذا « بالارهابيين » .

وفى تاريخ مصر المعاصر حدثت عدة اغتيالات سياسية ، ابتداء من بطرس غالى الى احمد ماهر ، الى احمد الخازندار ، الى امين عثمان ، الى محمود فهمى النقراشى . هذا عدا محاولات الاغتيال الكثيرة التى لم تنجح .

التطرف الفكرى او المذهبى — اذن — ليس جديدا . وهو فى ابسط تعريفاته خروج عن القواعد والاطر الفكرية والدستورية والقانونية التى يرتضيها المجتمع ، والتى يسمح فى ظلها بالخلاف والحوار . وقد حدث التطرف بهذا المعنى منذ صدر التاريخ العربى الاسلامى واستمر الى وقتنا هذا .

ولكن حينما يتحول التطرف هذا من فكر الى عمل سياسى فانه يصبح تحديا لكل الاطر والقواعد التى يقوم عليها النظام الاجتماعى السياسى ، وكثيرا ما يأخذ شكل العنف والارهاب . وحتى هذا الشكل ليس جديدا تماما فى مجتمعنا ، كما رأينا .

ولكن المراقب المتفحص لتاريخنا القومى يلاحظ ان هناك فترات معينة زاد فيها التطرف والاغتيال ، وفترات اخرى انحسر فيها التطرف والاغتيال . ربما كانت الاربعينات تمثل اكبر عقد فى تاريخنا الحديث شهد من التطرف والعنف السياسى الداخلى مالم يشهده عقد اخر الا عقد السبعينات .

ويبدو لنا ان كلا العقدين كانا ينطويان على تغييرات هائلة فى بنية المجتمع المصرى ، وان النظام السياسى كان متلكئا عن أو سابقا لحركة المجتمع ، وان عدم التواكب فى الحركة خلق فصاما بين بعض الشرائح الاجتماعية الهامة والقيادة السياسية . وتحول الفصام الى خصام ثم الى تطرف .

ومن هنا لابد من اعادة التواكب بين النظام السياسى والنظام الاجتماعى ، ولابد من اتساق ايقاع الحركة السياسية للقيادة مع الحركة الاجتماعية لأوسع الجماهير .

ان التطرف السياسى عموما هو انسلاخ لشريحة اجتماعية معينة عن المجرى الرئيسى للحياة فى هذا المجتمع ، ان التطرف بمثابة النشاز فى معزوفة سيمفونية .. حينما ينعدم او يختلط الاتساق فى الايقاع . ويحدث ذلك عادة اما لخطأ فى النوتة الموسيقية ، او لغفوة او خطأ من المايسترو .

الاستغاثة الرابعة :

ليس بالردع وحده يتم القضاء على التطرف

ان العقاب الصارم والردع الحاسم مطلوبان فى مواجهة أعمال الارهاب . لايختلف حول ذلك عاقل .

ولكن الخطأ كل الخطأ أن يعتقد أى عاقل انه بالردع وبالاجراءات الامنية وحدها يتم القضاء على التطرف . ان التطرف واعمال العنف والارهاب هى ظواهر لم تنبت او تنم فى المجتمع كهوايات مفضلة لدى بعض الشباب.

ونعتقد نحن انها هوايات فاسدة ، وبالتالى نصرفهم عنها الى غيرها من الهوايات الصحية « مثل الرياضة والسفر الى الخارج وخدمة البيئة ... الخ » ... واذا لم ينصرفوا عن هواياتهم السيئة (التطرف والعنف) فاننا نردعهم بالعقاب الصارم !

ليت الامر كان بهذه البساطة .. ! فكل مانحتاجه فى هذه الحالة هما وزارتا الشباب « للهوايات الصحية » والداخلية « للردع والعقاب » .

لقد وجدت وزارة شباب ، وتحولت الى جهاز ، ثم الى وزارة ، ثم الى جهاز . ووجدت منظمات شباب وامانات شباب وامناء شباب . وتوجد دائما وزارة داخلية .. والكل يشهد لها فى السنوات الاخيرة بكفاءة تحسدها عليها كل الوزارات الاخرى !

وقد اعدمنا من اعدمنا وسجنا من سجنا عام ١٩٧٤ . ثم اعدمنا ضعف ذلك وسجنا ضعف ذلك عام ١٩٧٧ . وسنعدم وسنسجن فى عام ١٩٨١ ضعف من اعدمناهم وسجناهم فى الجولة السابقة . ولم ترتدع تلك الشريحة من الشباب عن تطرفها . فهل سيستمر المسلسل . ؟

فى رأينا ان المطلوب هو رؤية جديدة يصدقها الشباب ، وتحديات جديدة تلهم خياله ، وبرامج جديدة تستوعب طاقاته ، وسياسات جديدة تستجيب لاحتياجاته الاساسية .

ان المطلوب – باختصار – هو ان ننهى هامشية هذا القطاع الهام من شباب مصر . ولن تنتهى تلك الهامشية بالردع وحده ، او بالبرامج الاحتفالية ، او بالوعظ والارشاد من رجال الازهر الشريف .

ان الشباب يعنى طاقة وخيالا ومشكلات ولهفة . وهذه العناصر معا تساوى ثورة كامنة او ظاهرة . اذا لم ينجح النظام السياسى فى تأميمها لصالحه ، نجح التطرف فى استقطابها لصالحه وفى استعدائها على النظام .

من الضابط أنور السادات إلى الضابط خالد الاسلامبولى*

صفحات مطوية من ماضية القريب لفهم العوامل والأسباب

قبل ان ندخل فى تعريف التطرف ومظاهره واسبابه . ارجو ان اشرك القارىء فى هذه الاعترافات لثلاثة من المتطرفين – فى زمانهم ومكانهم طبعا . فالتطرف كما سنرى هو مسألة نسبية للغاية . ولكن يجمع بين المتطرفين الثلاثة الذين نعرض لأعترافاتهم . هو انهم فكروا ودبروا وحاولوا تنفيذ واحد او اكثر من الاغتيالات السياسية لحكام او مسئولين سياسيين من معاصريهم . وكان الاغتيال فى تلك الحالات جميعا بمثابة حكم وطنى من جانب المتطرفين ضد حكام مفسدين او خونة . والاعتراف فى لغة القانون هو سيد الادلة .

الاعتراف الاول

« كان الشيخ جمال الدين (الافغانى) موافقا على خلع (الخديوى اسماعيل) .. واقترح علىّ انا ان اقتل اسماعيل .. وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاما . نتهامسه فيما بيننا . وكنت انا موافقا الموافقة كلها على قتل اسماعيل .. ولكن كان ينقصنا من يقودنا فى هذه الحركة » .

(الشيخ محمد عبده : **رأى الشيخ محمد عبده فى تاريخ عرابى** – ص ٣٥٤)

الاعتراف الثانى

« ان الاغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة على انها العمل

* نشرت بمجلة العربى (الكويتية) ، عدد فبراير ١٩٨٢ .

الايجابى الذى لا مفر من الاقدام عليه اذ كان يجب ان ننقذ مستقبل وطننا . وفكرت فى اغتيال كثيرين وجدت انهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله ... وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا . ولم اكن وحدى فى هذا التفكير . ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير الى التدبير . وما اكثر الخطط التى رسمتها فى تلك الايام ... كانت لنا اسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نتستر بالظلام ، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هى الامل الذى نحلم به ! وقمنا بمحاولات كثيرة فى هذا الاتجاه ، ومازلت اذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع فى الطريق الى نهايته ... واذكر ليلة حاسمة فى مجرى افكارى واحلامى فى هذا الاتجاه . كنا قد اعددنا العدة للعمل .. واخترنا واحدا . قلنا انه يجب ان يزول من الطريق . ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ، ووضعنا الخطة بالتفاصيل . وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ وسار كل شىء طبقا لما تصورناه . كان المسرح خاليا كما توقعنا . وكمنت الفرق فى اماكنها التى حددت لها ، اقبل الواحد الذى كان يجب أن يزول ، وانطلق نحوه الرصاص ... وانسحبت فرقة التنفيذ . وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عملية الافلات الى النجاة . وأدرت محرك سيارتى وانطلقت اغادر المسرح الذى شهد عملنا الايجابى الذى رتبناه .. وعندئذ دوت فى مسمعى اصوات صريخ وعويل ، وولولة امرأة ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة » .

(جمال عبد الناصر : **فلسفة الثورة** ، ص ٣٣ — ٣٥)

الاعتراف الثالث

« .. بمجرد ان عاد الى كيانى كمواطن حر طليق كان اول عمل قمت به هو تكوين الجمعية السرية .. فكيف تتحرر الذات بدون ان يتحرر الوطن ! ؟ كان ذلك فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ ... اتصلت بعمر ابن على شقيق زميلى سعود حسين الطيار الذى سبق ان ارسلناه لروميل وضربت طائرته . وعرفنى بشاب اسمه حسين توفيق اتضح انه كان يمارس قتل الجنود الانجليز فى المعادى قبل ان ينضم الينا ... ربما كان هذا العمل مجرد تدريب . ولكن المهم ان نتخلص ممن كانوا يساندون الانجليز فى ذلك الوقت ... وكان على رأس هؤلاء فى نظرنا مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد الذى سقط فى نظرنا منذ ان فرضه الانجليز بقوة السلاح فى ٤ فبراير ١٩٤٢ .. فلا شىء يعادل خيبة الامل التى يصاب بها الشباب فى زعيم كان يوما مثلهم الاعلى .. وأصبح فى نظرنا خائنا لمصر ولشعبها يحتم واجبنا الوطنى ان نزيله من طريقنا .. ولذلك قررنا التخلص منه .

كانت عادة النحاس ان يذهب فى يوم مولد النبى الى النادى السعدى وهو مقر حزب الوفد ليلقى خطابا بهذه المناسبة .. وصادف ذلك يوم ٦ سبتمبر سنة ٤٥ فخرجت انا وبعض

افراد الجمعية السرية ننتظر خروج النحاس من جاردن سيتى الى شارع القصر العينى حيث يوجد النادى ... كنت قد دربت اعضاء الجمعية على استعمال القنابل اليدوية .. وكان الذى سبقوه بالعملية حسين توفيق .. وفعلا القى القنبلة فى الوقت المناسب ولكن سائق النحاس فوجىء وهو ينطلق بعربة ترام تصطدم به فاسرع لكى يتحاشاها .. كان فرق السرعة ست ثوان لا اكثر .. ولكنها كانت كافية فعندما انفجرت القنبلة كان النحاس وعربته خارج منطقة الانفجار .. فانسحبنا فى هدوء .. حيث توجهنا الى مقهى استرا ، مكاننا المفضل .. فى نفس المقهى قررنا التخلص من امين عثمان الذى تولى وزارة المالية طوال حكم النحاس بعد ان فرضه الانجليز فى ٤ فبراير .. .

(انور السادات : **البحث عن الذات** ،ص ٧٠ - ٧١)

لقد صدرنا هذا المقال بالاقتباسات السابقة لكى ندلل على ان بعض الزعماء الذين أصبحوا قيادات شعبية ودينية قد فكروا فى الاغتيالات السياسية ، ودبروا لها ، وحاولوا تنفيذها .

ان اللجوء الى العنف لحسم الخلاف السياسى ليس جديدا على الساحة الاسلامية او العربية او المصرية . وهو ليس حكرا او وصمة فى جبين شعب دون شعب من شعوب العالم . بل انه ليس وقفا على طبقة دون طبقة فى اى مجتمع : واى استعراض للاغتيالات السياسية الكبرى فى التاريخ القديم والوسيط والمعاصر تثبت ذلك - ابتداء من اغتيال يوليوس قيصر فى روما القديمة ، الى اغتيال الخلفاء الراشدين فى دار الاسلام ، الى اغتيال الجنرال كليبر الفرنسى خليفة نابليون فى القاهرة ، الى اغتيال الرئيس الامريكى ابراهام لنكولن فى اشنطن ، والرئيس جون كيندى بعده بحوالى القرن فى احد شوارع مدينة دلاس . هذا عدا محاولات الاغتيال العديدة التى يقصر المقام عن ذكرها .

ويربط الناس عادة ، وخاصة المعاصرين منهم للحدث ، بين فعل الاغتيال وظاهرة « التطرف » . ومن هنا لا يزداد الاهتمام بدراسة « التطرف » دراسة متعمقة الا فى اعقاب حوادث الاغتيال السياسى ، او العنف ، او المواجهة المسلحة بين بعض الجماعات من ناحية ، وسلطات الدولة من ناحية اخرى . فماذا يعنى « التطرف » وما هى اسبابه عموما ، وما هى اسبابه خصوصا فى وطننا العربى ؟

فى الملاحظات السابقة تحدثنا عن « التطرف » بصفة عامة - دون ان نخص بالحديث اى نوع من التطرف .

هناك خطأ شائع بتقسيم التطرف الى انواع مضمونية او شكلية دون وضوح المعيار المنطقى لهذا التقسيم . فأحيانا يصنف التطرف حسب مضمونه كأن يقال « تطرف دينى » او

« تطرف طبقى » او « تطرف قومى » او « تطرف سياسى » او « تطرف عنصرى ». واحيانا يصنف التطرف حسب الوسيلة او الشكل التنظيمى او الاسلوب التكتيكى ، وما الى ذلك .

ولكن ايا كان مضمون التطرف ، فانه حينما يتخذ شكلا سلوكيا جماعيا ينطوى على تحدى السلطة القائمة فانه يصبح تطرفاً سياسيا . فالتطرف الدينى – بمعنى الخروج عن المعتاد او المتعارف عليه فى العقيدة والشعور والسلوك لدى اغلبية الناس – قد لا يكون تطرفا سياسيا طالما لم ينطو على تحدى سلطة الدولة ، او أمن المجتمع . فالتصوف والطرق الصوفية مثلا ، تعتبر تطرفا دينيا بالمعنى الحرفى للكلمة لانها تختلف عما اعتادته اغلبية الناس فى المجتمع الاسلامى من حيث العقائد والعبادات . لكن التصوف ليس تطرفا سياسيا لانه لا ينطوى على تحد للسلطة ولأمن المجتمع .. لذلك لا يعتبره معظم الناس تطرفا .

وطبعا الذى يقيم الدنيا ولا يقعدها فى السنوات الاخيرة هو ظاهرة « التطرف الدينى السياسى » .. فما لم يكن العنصر السياسى موجودا فى مسألة التطرف الدينى لما اهتمت به الدوائر الغربية والمحافل الدولية ، ومراكز البحث العلمى ، وحكام العالم الاسلامى انفسهم . فبعد ما حدث فى ايران لم تعد هذه الاطراف قادرة على تجاهل الظاهرة .. وبعد ما حدث فى مصر – إغتيال الرئيس السادات – ومن قبلها محاولة الاستيلاء على الحرم المكى فى نوفمبر ١٩٧٩ تحول الاهتمام الى ماهو اكثر من ذلك بكثير .

ماذا يعنى التطرف

التطرف بمعناه البسيط جدا هو الخروج عن الوسط ، او البعد عن الاعتدال ، او اتباع طرق فى التفكير والشعور غير معتادة لمعظم الناس فى المجتمع ، والايمان العميق بصحة هذه الطرق وصلاحها والاستعداد للتضحية فى سبيلها .

ومن هنا فان معنى التطرف هو شىء نسبى تماما . فالاغلبية او السلطة الحاكمة ، هى التى تصف غيرها بالتطرف ممن يختلفون معها فى التفكير او الشعور او السلوك اختلافا واضحا . ويصبح هذا الوصف دمغا « بالانحراف » والخروج عن المقبول . وبالتالى فلابد من تقويم « الانحراف » – اما بالاقناع والاغراء او العقاب . كل هذا من وجهة نظر السلطة .

والملفت لنظر الباحثين فى ظاهرة التطرف ، هو ان المجتمع او السلطة الحاكمة فيه قد لا تنزعج كثيرا طالما ان التطرف ظاهرة فردية وليست جماعية ، وطالما انها على مستوى التفكير والشعور وليست على مستوى السلوك . فالتطرف الفردى يمكن عزله بسهولة على انه حالة هوس اوجنون – ويتراوح العزل هنا بين الاشفاق والتجاهل ، الى الايداع فى إحدى المصحات العقلية أو احدى المؤسسات العقابية .

اما الذى يزعج السلطة والمجتمع حقا فهو ان يتحول « التطرف » من المستوى الفردى المتناثر إلى المستوى الجماعى المنظم ، ومن الشعور او التفكير فقط الى مستوى السلوك الظاهر .

حينما يحدث هذا التحول تشعر السلطة (بفرض ان السلطة تمثل المجتمع) بالخطر ، وتبدأ فى المقاومة والهجوم حفاظا على نفسها وعلى المجتمع الذى تمثله .

ومن ناحية اخرى لا ينبغى ان ننخدع بظواهر الاشياء . فما قد يبدو تطرفا دينيا قد يكون فى الواقع صيغة ايديولوجية للتعبير عن اوجاع حضارية واقتصادية واجتماعية وسياسية تعانى منها شرائح معينة فى المجتمع اكثر من غيرها . وبالتالى يصبح « التطرف الدينى » هو فقط صيغة واحدة من صيغ بديلة للاستغاثة والتعبئة والتحدى – كما سنرى .

ما الذى يدفع بعض الناس الى التطرف ؟

طالما كان النظام الاجتماعى السياسى السائد فى اى مجتمع قادرا على مواجهة متطلبات الاغلبية الساحقه لأفراد الشعب ، واشباع احتياجاتهم الاساسية فلا خطر على هذا النظام من ظاهرة التطرف السياسى الجماعى المنظم . ولكن حينما يتعثر النظام القائم عن مواجهة المشكلات الداخلية او الخارجية .. وحين يطول اجل هذا التعثر وتتفاقم تلك المشكلات .. فان اعدادا متزايدة من افراد المجتمع تخلص الى أن هناك عطبا اساسيا اما فى جوهر وفلسفة النظام او فى أدائه ، أوفيهما معا . ومن هنا يبدو أن البحث عن بديل يخرجهم ويخلص مجتمعهم من المشكلات المتفاقمة . وكلما اشتدت حدة المشكلات وتحولت الى مايشبه الازمة اصبح البديل المطلوب مختلفا تماما عن النظام القائم . وكلما زاد اختلاف البديل المطلوب عما هو قائم وممارس بالفعل ، اصبحنا بصدد ما يسمى « بالتطرف » .

التطرف – اذن – هو مؤشر او انعكاس لتعثر النظام السياسى الاجتماعى فى مواجهة الازمات الداخلية او الخارجية .

وتقول لنا نظريات علم النفس الاجتماعى ان الفشل يولد الاحباط . وان الاحباط يخلق فى داخل الافراد شحنات انفعالية عدوانية . وان هذه العدوانية الداخلية قابلة الى التحول الى عنف خارجي فردى وجماعى .

طبعا هناك مسالك وبدائل اخرى للتعامل مع الاحباط . وليس من الضرورى ان يتحول الى عدوانية ثم الى عنف خارجي. من ذلك مثلا ، احساس من يخبرون الاحباط ان هناك املا حقيقيا فى تجاوز الفشل الفردى او فى اصلاح النظام السياسى الاجتماعى القائم ، الذى يؤثر فى حياتهم بطريق مباشر او غير مباشر.ولكن مع غياب او اندثار هذا الامل فى الاصلاح والخلاص يصبح المناخ مهيئا للتطرف .

اذا كان هذا النموذج التفسيرى للعدوانية والعنف مقبولا ، فان السؤال يصبح : ماهى العوامل التى تؤدى الى الاحساس الجماعى بالفشل ، ثم بالاحباط ، وبالتالى بالعدوانية ، ثم بالتطرف والعنف .

مقولة الفجوة بين الامل والواقع

من المسلم به أن آمال الافراد فى اى مجتمع تفوق فى معظم الاحيان ما يمكن انجازه . ولكن طالما ظلت الفجوة بين الأمل والواقع معقولة الحجم وثابتة على حجمها ، فان الافراد يقبلونها كاحدى سنن الحياة . ولكن حينما تتسع الفجوة فجأة ، وتستمر فى اتساعها فان ذلك يولد احساسا بالفشل والاحباط ، ويؤدى الى شحنات عدوانية داخلية : وهنا قد يلوم الافراد انفسهم ، ويؤدى ذلك بدوره الى شحذ الهمم او الى الاستسلام واليأس : ولكن إذا خلص الافراد الى ان السبب فى الفشل لا يرجع اليهم وانما يرجع الى التركيبة السياسية الاجتماعية الاقتصادية السائدة فى المجتمع من حولهم ، فان الشحنات العدوانية الداخلية تتحول الى تهيؤ واستعداد لاستخدام العنف ضد النظام السياسى الاجتماعى القائم ، وتصبح المسألة هنا مسألة بحث عن تكييف ايديولوجى وتنظيم ووسائل لتغيير هذا النظام .

مقولة العدالة التوزيعية

يقول لنا علماء الاجتماع ان الذى يحدد ما اذا كان الافراد سيخلصون الى لوم ذواتهم او الى لوم النظام السياسى الاجتماعى القائم على ما يحدث من فشل واحباط يتقرر فى ضوء معادلة توزيع الثروة والسلطة فى المجتمع . ويمكن حساب ذلك بمعادلة بسيطة يستخدمها الافراد بوعى او بلا وعى وهم يقارنون انفسهم بالاخرين :

العدالة التوزيعية = حجم استثماراتى المادية والمعنوية = نصيبى من الثروة والسلطة

حجم استثمارات الشخص الاخر المادية والمعنوية = نصيبه من الثروة والسلطة

فاذا تساوت استثماراتى او مجهوداتى مع مجهودات الاخرين فاننى اتوقع ان يكون عائدى من الثروة والسلطة والتقدير المعنوى متساويا مع ما يحصل عليه الآخرون . واذا كانت مجهوداتى ضعف مجهوداتهم فاننى اتوقع ان احصل على ضعف عائد كل منهم.واذا كان مجهودى نصف مجهودهم فاننى أتوقع الحصول على نصف عائدهم ،وهكذا . اى اختلال واضح فى تلك القاعدة التوزيعية ينشأ عنه شعور بالظلم . فالقاعدة لا تساوى بين الناس مساواة حسابية مطلقة ، وانما تساوى بينهم فى الفرص ، وتساوى بينهم مساواة نسبية فى توزيع الثروة والسلطة كل حسب جهوده وكفاءته وانجازه . الاخلال بالقاعدة يتحول الى شعور بالظلم . والشعور بالظلم يتحول الى سخط ، والسخط يهيىء الفرد للتمرد والثورة ، ويدفعه الى « التطرف » واستخدام العنف .

مقولة الحرمان النسبى

يقول لنا علماء النفس والاجتماع ان هناك مبدأ آخر متصلا بالمقولتين السابقتين ، له تاثيره

الكبير فى احساس الناس بالتبرم وعدم الرضا ، حتى اذا كانت احوالهم المعيشية فى تحسن . هذا المبدأ هو ما يسمى « بالحرمان النسبى » فرغم ان شخصا قد يكون احسن حالا مما كان عليه فى الماضى ، الا انه يرى آخرين تتحسن احوالهم بدرجة اكبر او بمعدل اسرع منه . ويصبح الحرمان – طبعا – اكثر حدة اذا كانت احواله لا تتحسن بينما تتحسن احوال الاخرين . ويشتد الحرمان اضعافا مضاعفة اذا كانت احواله تتدهور بينما احوال الآخرين فى تحسن مطرد . الحرمان النسبى بدرجاته المختلفة يؤدى الى الاحساس بالسخط . وذلك بدوره يخلق لديهم تهيؤا لاستقبال واعتناق الافكار الناقدة للنظام الاجتماعى السياسى ، والداعية للتمرد عليه ، والثورة ضده ، ويصبح الاستعداد للتطرف واستخدام العنف مسألة واردة تنتظر الظرف الملائم .

حالة مصر والتطرف الدينى المعاصر

ان المراقب المتعمق للساحة المصرية يمكنه بلا عناء ان يفسر ظاهرة ما يسمى « بالتطرف الدينى » فى ضوء المقولات الثلاثة السابقة . ولم تشهد مصر منذ الاربعينات مثلما شهدت خلال عقد السبعينات من اتساع لهذه الظاهرة بكل ما تنطوى عليه من عنف جماعى ومواجهات دموية مسلحة واغتيالات ضد اجهزة وشخصيات الدولة المصرية .

وتشير بحوثنا الميدانية حول ظاهرة التطرف والعنف الدينى السياسى الى مجموعة من الشواهد والنتائج التى تؤكد صدق المقولات التى طرحناها سابقا :
من ذلك مثلا :

١ – زيادة موجة التدين بين الشباب فى السنوات التى اعقبت هزيمة ١٩٦٧ ، وهى الهزيمة التى كشفت عجز النظام المصرى خاصة والانظمة العربية عامة . وقد تضافرت الهزيمة مع اختناقات اجتماعية واقتصادية حادة فى السنوات التالية .

٢ – تحول هذه الموجه التدينية التى كانت هلامية وانسحابية وغيبية فى البداية (اواخر الستينات) الى حركة سياسية تمردية ناقدة خلال السبعينات . واخذ هذا التيار الدينى السياسى العام يطرح بدائله الايديولوجية لمواجهة ازمة المجتمع العربى بالعودة للاصالة الاسلامية وتطبيق الشريعة واقامة النظام الاجتماعى الاسلامى العادل .

٣ – فى احشاء هذا التيار الاسلامى السياسى العام تكونت العديد من الجماعات المنظمة داخل الجامعات وخارجها . بعضها علنى يدعو الى فكره سلمياً بالحكمة والموعظة الحسنة . وبعضها سرى يعمل تحت الارض ويعد « لهم » ما استطاعوا من « قوة ومن رباط الخيل » ، وذلك توطئة لحرب ضروس على مجتمع « الشرك والجاهلية والفساد » .

٤ — حاول نظام الرئيس الراحل انور السادات ان يستغل ذلك التيار الدينى ، ليضرب به القوى السياسية المناهضة له فى اوائل السبعينات ، وخاصة من الناصريين والاشتراكيين والماركسيين . ونجح تكتيكيا ومرحليا فيما اراد — او هكذا بدا الامر .

٥ — ولكن بعد خفوت تلك القوى المناهضة لحكم وفلسفة السادات ، بدأت الجماعات الدينية نفسها فى اظهار تبرمها بالحكم وبسياساته الاربع الرئيسية منذ منتصف السبعينات ، وهى سياسات : الانفتاح ، والديمقراطية ، والتحالف مع الغرب ، والتصالح مع اسرائيل .

٦ — بدأت بعض هذه الجماعات الدينية المُسيَّسة تترجم تبرمها وسخطها الى مواجهات مسلحة لا سقاط النظام او لاضعافه . وكان اول هذه التحديات المسلحة بواسطة منظمة التحرير الاسلامى بقيادة الدكتور صالح سرية ، والتى أصبحت تعرف فى وسائل الاعلام باسم جماعة الفنية العسكرية ، وذلك فى شهر ابريل ١٩٧٤. ثم تلتها جماعات اخرى تحت اسماء مختلفة وذات قيادات واساليب متباينة . وسمعنا عن تنظيمات مثل « حزب الله » بقيادة وكيل النيابة يحيى هاشم، و «جماعة المسلمين» بقيادة طه السماوى، وجماعة «المنعزلة شعوريا» بقيادة عبد المنعم الصبروتى و « التكفير والهجرة » بقيادة المهندس شكرى مصطفى . وسمعنا عن « جند الرحمن » و « الجهاد » .. وغيرها .

٧ — كانت كل مواجهة دموية مع السلطة المصرية اشد من سابقتها . ففى حادث الفنية العسكرية كان عدد المتهمين ٩١ شخصا (١٩٧٤) ، وفى حادث اختطاف ومقتل الدكتور حسين الذهبى كان عدد المتهمين ٢٥٨ شخصا ، وفى احداث سبتمبر — اكتوبر ١٩٨١ وصل عدد المقبوض عليهم حوالى ١٦٠٠ شخص (٩٠٠ قبل اغتيال الرئيس السادات ، و ٧٠٠ بعد الاغتيال) .

٨ — لم تجد محاولات الدولة المصرية فى محاصرة ظاهرة التطرف الدينى . فرغم كثافة الهجوم الاعلامى ، والملاحقة ، والمحاكمات والاعدامات وعقوبات السجن ، ظل الاتباع يهرعون وينضمون الى هذه الجماعات — كما تشهد بذلك الاعداد التى شاركت بطريق مباشر او غير مباشر فى المواجهات العنيفة مع السلطة المصرية.ويرجع ذلك الى استمرار ازمات النظام الداخلية والخارجية ، والى الحصاد الهزيل الذى جلبته سياسات النظام الاربع .

من هم المتطرفون الدينيون فى مصر ؟

الذين انضموا الى جماعات العنف الدينى السياسى فى مصر تغلب عليهم قسمات سوسيولوجية مشتركة اهمها :

١ - انهم من الفئات الشابة فى العمر ، وخاصة من هم فى العشرينات والثلاثينات من اعمارهم وهى فئات تتمتع بقدر عال من الطاقة والحيوية والقلق والمثالية .

٢ - انهم من طلاب وخريجى الجامعات ، ومن اكثر العناصر تفوقا وانجازا - بدليل ان نسبة عالية منهم تدرس فى او تخرجت فى كليات الطب والهندسة والصيدلة والفنية العسكرية ، وهذه كلها تشترط تحصيلا دراسيا عاليا فى المرحلة الثانوية للالتحاق بها كما ان برامجها والدراسة فيها تتطلب درجات عالية من الذكاء والمثابرة والانضباط .

٣ - انهم ينحدرون من شرائح الطبقة الوسطى وخاصة الطبقة المتوسطة الدنيا ، اى طبقة صغار الملاك فى الريف والحضر وصغار التجار والموظفين الحكوميين .

٤ - ان غالبيتهم ولدت وقضت المرحلة الاولى من عمرها فى الريف او فى المدن الصغيرة .... ولكنها حين التحقت بصفوف الجماعات الدينية كانت قد وفدت للمدن الكبرى - مثل القاهرة والاسكندرية وأسيوط والمنصورة - للدراسة او العمل . وفى هذه المدن الكبرى شهدت هذه العناصر الشابة متناقضات المجتمع المصرى وقتذاك بهولها وبشاعتها . وأحست فى خضم المدينة الكبيرة بالدونية والضياع والاستغراب. واصبح الاسلام بالنسبة لها ملجأ وملاذا وسبيلا للخلاص من الضياع والحرمان والهوان بالنسبة لها كأفراد وبالنسبة لوطنها كمجتمع وامة .

المفارقة الكبرى

هذه الملامح والخصائص تشير الى ان ما نسميهم « بالمتطرفين » قد اتوا من صلب المجتمع المصرى ، ومن اهم شريحة فى الطبقات الوسطى . وهذه الشريحة كانت وستظل اهم مصدر للحيوية السياسية والاجتماعية فى مصر . انها الشريحة التى افرزت معظم زعماء مصر الوطنيين خلال القرن الاخير ، من احمد عرابى والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ومصطفى النحاس ، وجمال عبد الناصر .

وخلاصة القول هى ان « متطرفى » اليوم فى مصر لم يهبطوا علينا من المريخ ، او يفدوا الينا من مجتمع آخر ، ولم يأتوا حتى من « اطراف » المجتمع المصرى - ولكن من قلبه وصلبه .

والمتطرفون فى مصر اليوم شأنهم شأن المتطرفين المصريين السابقين ابتداء من احمد عرابى ،

ومرورا بالمتطرفين الثلاثة الذين سجلنا اعترافاتهم فى صدر هذا المقال (الشيخ محمد عبده ، وجمال عبد الناصر ، وأنور السادات) .

بل ان المفارقة التاريخية الساخرة هى اننا لو غصنا فى الظروف والملابسات والاشخاص التى احاطت باغتيال السياسى المصرى امين عثمان باشا ، واغتيال الرئيس المصرى أنور السادات لوجدنا اوجه شبه عديدة بين شخصين من الذين اشتركوا فى كلا الاغتيالين . كلاهما ضابط مصرى شاب ، من الطبقة الوسطى الصغيرة ، يملأه السخط والغضب على ما يفعله القادة السياسيون فى بلاده ، ويطحنه الغلاء والحاجة والحرمان النسبى ، ويشعر فى قرارة نفسه ان هناك ظلما فادحا يقع بالوطن وبه شخصيا ، ويؤمن ان احد سبل الخلاص هو التخلص من القيادة السياسية . فاذا لم يمكن ازاحتها من مقعد السلطة بالوسائل الديمقراطية السلمية التى بدت لكليهما مسدودة او زائفة ، فلا بأس من التخلص من هذه القيادة بالاغتيال . الضابط المصرى الشاب الأول الذى اشترك فى اغتيال امين باشا عثمان كان اسمه انور السادات ، والضابط المصرى الشاب الثانى الذى اشترك فى اغتيال الرئيس انور السادات كان اسمه خالد الاسلامبولى .

الخلاصة

التطرف الدينى السياسى هو استجابة طبيعية حادة لوجود ازمة اجتماعية حضارية حادة فى العالم العربى الاسلامى . لقد تعثر كثير من الانظمة الحاكمة بمنطقتنا فى المواجهة الخلاقة للتحديات الخارجية وعلى رأسها اسرائيل ، والهيمنة الغربية ، وتكريس الاستقلال الوطنى ، وتأكيد هوية حضارية اصيلة . وتعثرت هذه الانظمة فى التعامل الخلاق مع القضية الاجتماعية السياسية الداخلية ، وفشلت بدرجات مختلفة فى تلبية المطالب الرئيسية لقطاعات المجتمع المختلفة – وفى مقدمتها الحاجات الاساسية للطبقات الدنيا ، والمشاركة العادلة فى الثروة والسلطة للطبقات الوسطى .

التعثر الخارجى والفشل الداخلى تآزرا وتفاعلا معا منذ نهاية الستينات ليخلقا المناخ الخصب لنمو الحركات المتطرفة فى عالمنا العربى الاسلامى ، واختلطت فى هذا المناخ القائم هموم الفرد مع هموم المجتمع ، وتداخلت مشكلات الذات مع مشكلات الوطن ، واصبح البحث عن طريق للخلاص النفسى والشخصى هو فى الوقت ذاته بحثا عن طريق للخلاص الاجتماعى والقومى .

وكان شباب الطبقة الوسطى هم اكثر قطاعات المجتمع التى تقاطعت عندها : الازمة الخارجية مع الازمة الداخلية للمجتمع العربى الاسلامى ، وهموم الافراد مع هموم الاوطان . لذلك كانوا اكثر الفئات احساسا « بالالم » . وبفضل ما يتمتعون به من طاقة وطموح ومثالية وقلق ، كانوا اكثر الفئات تهيؤا لتحويل الالام الى حركة سياسية احتجاجية ساخطة لتحدى النظام الاجتماعى السياسى بأعنف الوسائل بصرف النظر عن عقلانيتها .

اختلف مع وزير الداخلية*
فى تفسيره لظاهرة العنف

شغلتنا طوال الاسابيع الماضية احداث لبنان ، التى بدأت بالغزو الاسرائيلى البربرى للجنوب ، وما صاحبه من محازر وحشية ضد الشعبين الفلسطينى واللبنانى ، ووصول جحافل التتار الجدد الى ابواب بيروت بهدف التصفية الجسدية الكاملة للمقاومة الفسطينية وانشغلنا بسبب ذلك كله عن الاوضاع الداخلية فى مصر الى حين

ولكن اى مراقب حصيف لابد ان يخلص الى تشابك ما يحدث فى داخل مصر ، بما يحدث فى المنطقة المحيطة بها ، وبما يتساقط عليها من مؤثرات دولية.

ولا ادل على ذلك من ان نظام الرئيس مبارك قد واجه وما زال يواجه سلسلة متعاقبة من الاحداث الاقليمية التى تستأثر بقدر هائل من وقته وتحركاته .

فهو لم يكد يفرغ من معركة تأمين الجبهة الداخلية بعد اغتيال الرئيس السادات ، حتى دخل عدة معارك غير معلنة مع اسرائيل حول الجلاء من بقية سيناء ، وزيارة القدس ، ومحادثات الحكم الذاتى ، ومسألة طابا ..

ثم تلى ذلك مباشرة الانشغال بالتطورات المفاجئة فى حرب الخليج بين ايران والعراق طوال شهر مايو ، وما انطوت عليه الانتصارات الايرانية العسكرية من احتمالات التوتر وعدم الاستقرار فى منطقة الخليج بأسرها ..

وقبل ان يسدل الستار على الفصل الاخير من الدراما الخليجية ، انفجر الوضع فى لبنان بسبب الغزو الاسرائيلى بالتواطؤ مع الولايات المتحدة .. وانصرفت الحكومة والرأى العام المصرى عن دراما الخليج لتتابع المأساة الجديدة التى لم تنته فصولها بعد ..

وربما سنفاجأ بانفجار اقليمى جديد قبل نهاية المأساة اللبنانية — الفسطينية،وكأن هناك من يدبر ، ويخطط ، وينفذ من الاحداث ما لايسمح لنظام الرئيس مبارك ان يلتقط انفاسه ، أو

* نشرت بالجمهورية ، ١٩٨٢/٧/١٥

يتفرغ لترتيب البيت المصرى من الداخل .

وكأن هناك من اعداء مصر والعرب من يتعمدون استنزافنا ماديا ومعنويا ونفسيا ، ويفرضون علينا لعبة لم نضع نحن قواعدها ، ولذلك نلهث نحن بردود الفعل ، بدل ان نكون فاعلين فى صياغة الاحداث والتوقيت لها ..

اننا هنا فى مصر مسئولون – على الاقل جزئيا – عن ذلك .. فقد تصورنا ، أو صور لنا ، فى فترة سابقة اننا يمكن ان نكون « جزيرة أمن وأمان » ، ننعزل عن المحيط الهائج من حولنا ، ونتفرغ لصياغة مشروع وطنى خاص بنا .. ولكن امواج المحيط الهادر من حولنا ، وبعض أعاصيره تأبى ان تتركنا وشأننا فى« جزيرتنا الامنة » وربما احد الدروس التى يجب ان نعيها من احداث المنطقة طوال الشهور القليلة الماضية ، هو عبثية التعلق بأمل الجزيرة الامنة المطمئنة

ولا يمكن ان يكتب النجاح لاى « مشروع وطنى مصرى خاص » ، ما لم يكن جزءا من مشروع قومى عربى عام .. تلك هى عبرة تاريخنا القديم والوسيط والحديث .. ولكن يبدو ان كل جيل مصرى عليه ان يتعلمها من جديد ، وبثمن باهظ .. وليت هذا كان هو الدرس الوحيد الذى ندفع ثمنا باهظا فى تعلمه من جديد

• وزارة الداخلية المصرية كجبهة رفض !

دار بخاطرى هذا المعنى وانا اطالع حديث اللواء حسن أبو باشا وزير الداخلية مع الصحفية حسن شاه (الاخبار ١ – ٧ – ١٩٨٢).وكنت قد سمعت كلاما طيبا عن كفاءة الوزير واتزانه وانصافه وحزمه . بل اكثر من ذلك سمعت من واحد ممن يعرفونه جيدا انه من القلائل فى مجلس الوزراء الذين يتصدون للدفاع عن « الحريات المدنية » ، ومنها حرية التعبير وممارسة الحقوق السياسية فى اطار القانون .

لكننى – بكل صراحة وامانة – صدمت بفقرة طويلة فى حديث السيد الوزير يشخص فيها ظاهرة العنف الدينى السياسى ، الذى ارتفعت مؤشراته ، طوال السبعينات واوائل الثمانينات فهو يقول انها : •

« .. ظاهرة وفدت الينا من الخارج فى الفترة الاخيرة ، وتسللت تحت مفهوم دينى مما جعلها تجذب الشباب الذين فهموا الدين فهما خاطئا .. والدليل على انها ظاهرة وافدة ان بعض حوادث العنف مثل حادث « الفنية العسكرية » وحادثة « الجهاد » قد ثبت ان التفكير والتخطيط لها جاء من عنصر خارجى غير مصرى ، فالمصرى بطبيعته .. وبروابطه الاسرية والاجتماعية يكره كل الوان العنف ، ولا سيما فى بلد مثل مصر يحتاج اكثر مايكون الى الهدوء والاستقرار ليحل مشاكله الكثيرة بما فيها المشكلة الدينية »

ويقول الوزير فى فقرة اخرى :

« واضح ان التوعية الدينية لا تسير فى الخط السليم منذ فترة طويلة ، ومن هنا نشأ ما نسميه الان بالفراغ الدينى مما تسبب فى تورط بعض الشباب فى الجماعات المتطرفة ..

ومما اتاح لبعض المغرضين الذين لهم تطلعات وانتماءات سياسية مغرضة خدمة اغراضهم .. ومطلوب الان ان نراجع اسلوب التوعية الدينية على كافة المستويات : فى البيت ، فى المدرسة ، فى المسجد ، فى وسائل الاعلام ، على كل هذه الجهات ان تدرك ان ثمة خطرا يحدق باولادنا .. واننا اذا تداركنا هذا الخطر انما نحمى مجتمعنا كله »

خطورة هذا التشخيص هو انه،اولا ، غير دقيق .

ثانيا ، أنه نفس التشخيص الذى قدمه كل وزراء الداخلية السابقين منذ حادث كلية الفنية العسكرية عام ١٩٧٤ ، ومع ذلك لم تختلف الظاهرة ، بل تضاعفت في السنوات الثمان التالية

وهو ، ثالثا ، لا يأخذ فى الحسبان خلاصة الدراسات والمناقشات التى دارت هنا وفى الخارج حول ظاهرة العنف الدينى – وخاصة بعد مقتل الرئيس السادات.

ويبدو لنا وزراء الداخلية المتعاقبين يرفضون رفضا تاما ان يعوا دروس الماضى .. ويرفضون ان يراجعوا مفاهيمهم حول ظاهرة العنف الجماعى المنظم ، سواء من حيث تشخيص الظاهرة او علاجها .

فلو اخذنا حديث وزير الداخلية فى ابريل ١٩٧٤ فى اعقاب حادث الفنية العسكرية ، أو حديث وزير الداخلية التالى فى يوليو ١٩٧٧ فى اعقاب حادث التكفير والهجرة ، أو حديث وزير الداخلية فى اكتوبر ١٩٨١ (فى أعقاب اغتيال الرئيس السادات) لما وجدناهم يختلفون من حيث الجوهر ، أو حتى الكلمات ، عن حديث وزير الداخلية الحالى فى يوليو ١٩٨٢ .

اربعة وزراء داخلية على مدى ثمانى سنوات ، يرددون نفس التشخيص ، ونفس العلاج .. ولا تختفى الظاهرة ، بل تخفت مؤقتا ولعدة شهور فقط ، ثم تنفجر على نطاق اوسع من سابقتها .

اننا لا نشك فى حرص هؤلاء الوزراء وغيرهم من المسئولين على إحتواء ظاهرة العنف ، وانما ننبه بأعلى صوت بضرورة التعلم من دروس التاريخ وقوانين علم الاجتماع .. لقد كون هؤلاء الوزراء – وربما من حيث يقصدون – جبهة رافضة للتعلم من التاريخ والاجتماع

- كيف سنضع حدا لاستيراد العنف من الخارج ؟

يضيق المقام هنا عن الاسهاب فى التعليق على كل ما قاله اللواء حسن ابو باشا .. واتوقف فقط عند بعض ماذكره فى تشخيص ظاهرة العنف الدينى . فهو يرى أنها ظاهرة وفدت إلينا من الخارج . اذا كان ذلك صحيحا فكل مايلزم هو :

١ – تقييد استيراد الظاهرة او منعه بتاتا بالقانون ، اسوة بما نفعل مع العديد من السلع الاخرى!

٢ - مصادرة ما يتم تهريبه من الخارج اولا بأول ، ثم القيام بحرقه او اعدامه ، اسوة بما نفعل مع المخدرات او الدواجن الفاسدة ، ولكنى لا اعتقد ان السيد الوزير يقر بفعالية هذا الاسلوب .

اننا نختلف معه فى ان الظاهرة مستوردة .. انها من انتاج محلى . وما لم نتعامل معها على هذا الاساس فسنكون كمن يحرث فى البحر .. فالاغلبية الساحقة من الشباب المنخرط فى الجماعات الدينية المتطرفة هم مصريون ، ومن صلب الطبقات الوسطى ، ومن طلبة وخريجى الجامعات الذين نالوا حظا لا بأس به من التعليم والثقافة .. بل ان اغلبهم من ذوى التحصيل والانجاز الدراسى المتفوق .

ونظرة واحدة الى خلفيات الثلاثمائة متهم فى قضية تنظيم الجهاد الماثلة امام القضاء تثبت ذلك .. ان هناك عطبا اساسيا فى بناء المجتمع المصرى هو الذى يفرز ظاهرة التطرف وما يصاحبها من عنف .. وأى تشخيص يتجاهل هذه الحقيقة هو امعان فى خداع الذات

وحتى اذا سلمنا جدلا بأن بذور ظاهرة العنف الدينى هى بذور مستوردة ، فان السؤال يبقى وهو : لماذا تنمو هذه البذور وتترعرع فى التربة المصرية ؟

لقد وفدت الى مصر على مر العصور افكار ومعتقدات وممارسات من خارج الحدود - بما فى ذلك الاسلام نفسه.ولكن بعض هذه الافكار والمعتقدات والممارسات يتم لفظها او رفضها بواسطة الجسم الاجتماعى المصرى ، وبعضها الاخر يجد تربة او مناخا مواتيا ، فينمو وينتشر.وبما ان الظاهرة فى انتشار منذ اواخر الستينات ، فلابد ان نتساءل عن المناخ والتربة التى هيأت هذا النمو والانتشار .

- المصرى الميتافيزيقى

من الاشياء التى ذكرها السيد وزير الداخلية ، ويرددها كثير من المسئولين بحسن نية ، هى أن « المصرى بطبيعته يكره كل انواع العنف » .. وتكرار هذه المقولة يعنى ان المصرى له طبيعة واحدة ثابتة خالدة ابدية لا تتغير فى الزمان او المكان ، أو فى ظل أى ظروف .. وهذا ليس صحيحا ويجافى أبسط قوانين علم الاجتماع .

فالمصرى ، او غير المصرى ، لا يولد بمجموعة خاصة وثابتة من الصفات الوراثية التى تجعل له « طبيعة اجتماعية » معينة .. والاصح هو ان انماط السلوك تتشكل وفقا لمجموعة من الظروف الهيكلية والحياتية والحضارية.وبتغير هذه الظروف،تتغير انماط السلوك البشرى . ينطبق ذلك على المصريين وعلى غيرهم

وقد اخطأ بعض الاجانب وبعض المصريين فى توصيفهم لطبيعة الشخصية المصرية ،

وبنوا على ذلك حسابات ، اثبتت الايام عدم صحتها بالمرة

فالمصرى الذى لم يحارب فى ١٩٦٧ حارب ببسالة منقطعة النظير فى ١٩٧٣

والمصرى الذى كان يقال عنه انه لا يهاجر ابدا ويتمسك بالأرض ، فاجأهم فى العقدين الاخيرين بالهجرة الى كل ارجاء المعمورة .

والمصرى الذى تحطىء صبره وجلده بانه خنوع دائم ، قام بثلاث ثورات كبرى خلال المائة عام الاخيرة (الثورة العرابية ، وثورة ١٩١٩ ، وثورة ١٩٥٢).هذا فضلا عن هبات شعبية عديدة بين هذه الثورات .. حتى الشعب الفرنسى الذى يسمونه « ابو الثورات » لم يقم بهذا العدد من الثورات خلال نفس الفترة الزمنية

مانريد ان نخلص اليه هو انه حينما تتوفر ظروف معينة تدفع الى العنف (او غيره من انماط السلوك التى نحبها او لا نحبها) فان المصرى لا يتورع عن استخدام العنف .. وسنوات هذا القرن حافلة بأمثلة استخدام فيها المصريون العنف.وأى دارس يمكن ان يرجع الى كتب التاريخ .

العبرة — اذن — لمن يريد ان يحتوى ظاهرة العنف الدينى ، هو ان يدرك العوامل الهيكلية الدينية التى تجعل المناخ والتربة مواتين لنمو هذه الظاهرة ، وان يتعامل مع هذه العوامل من جذورها .

عودة الى الداخل

هل هناك حقا فراغ دينى ؟

الذين يقولون بأن ظاهرة التطرف الدينى سببها « الفراغ الدينى » ، هم مثل القائلين بأن ظاهرة التخمة او السمنة سببها قلة التغذية . هناك تناقض منطقى واضح فى هاتين المقولتين لمن يتأمل فيهما . ولكن كثرة الترداد ، وقلة التأمل ، جعلتنا نأخذ هذه المقولة وغيرها كاحد المسلمات التى لا تقبل الجدل .

دعونا نفحص الحقائق .

● الامتلاء الدينى

الملاحظة العينية للمجتمع المصرى خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة تشهد بازدياد التدين والسلوك الدينى بين المصريين . فعلى مستوى المؤسسة الدينية الرسمية تضاعف نشاط الازهر ووزارة الاوقاف . ومعظم الاحصاءات الرسمية تفيد ان حوالى اربعة الاف مسجد قد شيدت فى تلك الفترة . وهو عدد يزيد عن اى فترة زمنية مماثلة فى تاريخ مصر الحديث . وان حوالى الف مسجد من هذا العدد الاجمالى قد تم تشييده بمجهودات أهلية ، وهذا ايضا أمر غير مسبوق بهذا الحجم وعلى هذا النطاق فى اى فترة زمنية مساوية .

كذلك تضاعفت ساعات الارسال المخصصة للبرامج الدينية ثلاث مرات فى الاذاعة والتليفزيون . وانشئت محطة اذاعة خاصة للقرآن الكريم والبرامج الدينية . وارتفع عدد ما ينشر من كتب دينية ، وتضاعف توزيعها عدة مرات .

كما ان كمية ما يدرسه تلاميذ المدارس من مواد دينية هو فى تزايد مستمر . هذه ومظاهر غيرها كثيرة تشهد بأن المؤسسات الدينية الرسمية لم تقصر من حيث « النشاط الكمى » .

فاذا انتقلنا الى مظهر اخر من مظاهر السلوك الدينى وهو الطرق الصوفية ، فاننا نجد الامر متشابها . فقد تضاعف عدد المنضمين الى هذه الطرق أربعة أمثال على الاقل فى السنوات الخمس عشرة الاخيرة ، وزاد النشاط الاسبوعى والموسمى لكل هذه الطرق زيادة ملموسة ،

* الجمهورية ، ١٩٨٢/٧/٢٢

وخاصة فى المدن الكبرى . بل لقد اصبح لبعض هذه الطرق مؤسساتها المالية والاقتصادية والعقارية المزدهرة .

واخيرا – وليس آخرا – نجد ما يسمى « بالجماعات الدينية المتطرفة » تنمو باطراد . وتقوم فيما تقوم به بصنوف شتى من الرعاية الاجتماعية والنفسية للمنضمين اليها . وقد تضخمت اكثر ما يكون التضخم فى الجامعات والمعاهد العليا . وليس سرا أن قوائم مرشحيها فى الانتخابات الطلابية ، خلال الفترة من ١٩٧٥ الى ١٩٧٩ ، كانت تكتسح منافسيها فى كل الجامعات والكليات تقريبا .

اين – اذن – هو الفراغ الدينى ؟

ان ما عرضناه من مؤشرات جزئية يفيد العكس تماما – وهو ان هناك امتلاء دينيا . وقد لاحظ كل الدارسين والمراقبين ، من داخل المنطقة وخارجها ، ان هذا النشاط الدينى بأنواعه الثلاثة ، المؤسسى والصوفى والاحتجاجى ، هو فى تزايد مطرد . واجملوا وصف هذا النشاط المتنامى بتسمية « الصحوة الاسلامية » ، و « البعث الاسلامى » ، و « المد الاسلامى » . وهى ظاهرة لا تقتصر على مصر ، بل تمتد من اندونيسيا شرقا الى المغرب على سواحل الاطلنطى .

وقد صدرت فى الغرب عشرات الكتب ومئات المقالات حول هذه « الصحوة الاسلامية » ، وانشغلت بدراستها مراكز البحوث الاجتماعية والسياسية والاستراتيجية ، طوال السنوات الخمس الاخيرة . وحدث نفس الاهتمام بالظاهرة فى كل من اليابان والاتحاد السوفيتى .

العالم كله – اذن – أخذ علما بظاهرة الصحوة الاسلامية ، وتوفرت دولة المتقدمة على دراستها بموضوعية ، لكى تستعد للتعامل معها . اما الانظمة الحاكمة فى العالمين العربى والاسلامى فهى اما غافلة عنها – كما هى غافلة عن أمور اخرى كثيرة – أو تدرك وجودها ، ولكنها لاتفهم ابعادها الحقيقية . وقد اقتصر معظمها فى التعامل مع هذه « الصحوة الاسلامية » على الاساليب البيروقراطية والامنية .

ولان هذا النوع من اسلوب التعامل يستند على اسس خاطئة فى الفهم ، فانه عديم الجدوى فى الامدين المتوسط والطويل ، وان كان يبدو فعالا ، احيانا ، فى الامد القصير .

ونظرة فاحصة لمظاهر الصحوة الاسلامية فى العالم العربى ، تجعلنا نخلص الى انها تعبير عن وجود ازمة حضارية شاملة ، ومتعددة الجوانب . فهذه الأزمة لها جانب سياسى ، وجانب اجتماعى ، وجانب اقتصادى ، وجانب وطنى ، وجانب ثقافى .

الأزمة هى من خلق الأنظمة الحاكمة وما يسمى « بالصحوة الاسلامية » هى رد فعل شعبى على اخفاق الأنظمة الحاكمة او تعثرها فى التعامل الخلاق مع الهموم الداخلية والخارجية التى تعتمل فى صدور أبناء هذه المنطقة .

البعد السياسى لهذه الأزمة الحضارية الشاملة هو غياب المشاركة السياسية . وهو ما نطلق عليه أحيانا غياب « الديمقراطية » أو « الشورى » . وغياب المشاركة السياسية يعنى الاستبداد ، أو استئثار فرد واحد ، أو أسرة حاكمة ، أو حزب واحد ، أو طغمة عسكرية بالحكم .

والذى حدث فى العقود الثلاثة الاخيرة هو ان البنية الاجتماعية الداخلية لمعظم الأقطار العربية قد تغيرت . فهناك طبقات جديدة ، وفئات متعلمة متزايدة ، ووسائل اعلام تربط الناس بالعالم الخارجى ، وتحركات بشرية هائلة من خلال الهجرة المؤقتة او السياحة .

والانظمة الحاكمة لم تستوعب هذه التغيرات ، وظلت تحكم حكما كما لو كان العالم العربى ساكنا لا يتغير . باختصار ، فشل الانظمة فى تحقيق التواكب بين حركة المجتمع والتعبير السياسى هو المسئول عن هذا البعد من ابعاد الأزمة الحضارية الشاملة .

البعد الاجتماعى لهذه الازمة الحضارية هو غياب العدالة الاجتماعية فى توزيع الاعباء والحقوق وفرص الحياة . وغياب العدالة يعنى الاستغلال بواسطة القلة ، ويعنى التفاوت الهائل بين الناس على غير ما اساس موضوعى من القدرة او الكفاءة .

كان الناس فى السابق يتسامحون مع هذه الفروق ، أو يقبلونها قبولا قدريا تواكليا . لكن هامش هذا التسامح او القبول يتقلص بفعل الوعى والتعليم والمقارنة . والشباب ، وخاصة من الطبقات الوسطى الصغيرة ، هم اكثر فئات المجتمع حساسية وتبرما بهذا التفاوت .

الجانب الاقتصادى للازمة الحضارية الشاملة فى العالمين العربى والاسلامى ليس مسألة الفقر والغنى فقط . بدليل ان البلاد العربية الغنية (مثل السعودية والكويت) والمتوسطة (مثل سوريا وتونس والجزائر) ، والفقيرة (مثل مصر والسودان) تشهد جميعا مظاهر للصحوة الاسلامية .

أهم من الغنى المطلق او الفقر المدقع هو نموذج التنمية الذى تتبناه الانظمة الحاكمة ، والذى ثبت الى الان انه نموذج مشوه . فهو يركز على الاستهلاك اكثر منه على الانتاج ، وعلى النمو الكمى اكثر منه على التنمية الكيفية ، وعلى التقليد التكنولوجى غير المناسب منه على ابتكار او تبنى تكنولوجيا وسيطة مناسبة ، وعلى التبعية الاقتصادية للخارج اكثر منه على الاعتماد الذاتى .

الجانب الوطنى فى الازمة يتجلى فى تعثر الانظمة فى المحافظة على ترابها الوطنى وتأكيد استقلالها فى مواجهة محاولات الهيمنة الاجنبية بواسطة اسرائيل او الولايات المتحدة او الاتحاد السوفيتى .

بل ان ما يضاعف من سخط قطاعات شعبية واسعة هو ان بعض هذه الانظمة يهرول بنفسه للدخول تحت عباءة هذه القوة الاجنبية او تلك . ولم تخدع شعوب المنطقة بالمسميات الجديدة التى ابتدعها الحكام لتبرير التبعية والتفريط فى الاستقلال الوطنى . من هذه المسميات الجديدة : « معاهدات الصداقة » ، « الاتفاق الاستراتيجى » ، « الاجماع الاستراتيجى »

اما الجانب الثقافى لهذه الازمة الحضارية الشاملة فيتمثل فى موجة « التغريب » (نسبة الى الغرب) التى تجتاح القيم والمعاير وانماط السلوك واسلوب الحياة . وهى موجة كاسحة تأخذ اشكالا شتى ابتداء من ثقافة « البلو جينز » فى الملبس ، و « الروك اند رول » فى الموسيقى ، ومسلسل « دالاس » فى التليفزيون ، واللافتات والمسميات الاجنبية على محلاتنا التجارية والخدمية .

هناك احساس بأن اصالتنا الحضارية تتقوض وتتشوه تدريجيا . ويغذى هذا الاحساس غياب أى محاولة جادة من جانب الانظمة الحاكمة بتأكيد أصالتنا الحضارية قولا وفعلا . بل بالعكس يشاهد الناس فى ممارسات بعض الحكام واسلوب حياتهم مايكشف عن اعجابهم الشديد بالاجانب ، وتفضيلهم لرأيهم ومشورتهم عن أبناء وطنهم . هناك احساس بالنقص نحو الذات ونحو كل ماهو أصيل ، وانبهار بالغير ونحو ماهو أوربى أو أمريكى .

● الصحوة الاسلامية كاستجابة شعبية

فى مواجهة هذه الازمة الحضارية الشاملة - بكل جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والوطنية والثقافية - لا تجد معظم القطاعات الشعبية فى العالمين العربى والاسلامى الا الدين - كمهرب ، وكحصن ، وكسلاح للدفاع والهجوم .

النمو الهائل فى عدد المنتمين الى الطرق الصوفية فى السنوات الاخيرة يمثل استراتيجية بعض القطاعات الشعبية للهرب او الانسحاب من عالم الازمة الدنيوى اليومى - ولو لبعض الوقت بصفة دورية . فهم ينسحبون الى عالم روحانى يفيض بالاخوة والتوحد مع الخالق ، ويعطى حياتهم معنى وصفاء وطمأنينة ، لا يجدونها خارج « حلقات الذكر » ، أو خارج حدود « الطريقة » ، أو خارج كتب « الاوراد » الصوفية .

والنمو الهائل فى عضوية ما يسمى « بالجماعات الدينية المتطرفة » فى السنوات الاخيرة يمثل استراتيجية بعض القطاعات الشعبية الاخرى وخاصة من شباب الجامعات فى مواجهة الازمة . والدين فى هذه الحالة هو حصن يقيهم شر ما يعتقدون انه هجمة من قوى الفساد الداخلى والافساد الخارجى .وهو سلاح يدافعون به عن انفسهم وعن دار الاسلام ضد الهيمنة الاجنبية . وهو سلاح اقتحام من اجل هزيمة كل هذه القوى واعادة بناء نظام اجتماعى اسلامى يتجاوزن به الازمة الحضارية الشاملة التى تحيط بهم .

وليس غرضنا هنا الآن هو ان نصدر حكما بالتأييد او الادانة لهذه الصحوة الاسلامية بمظهرها الصوفى الانسحابى ، او مظهرها الاحتجاجى الدفاعى الاقتحامى . كل ما نقصده هو ان نقرأ ما يحدث قراءة صحيحة ، وان نفسره تفسيرا دقيقا . فالمشكلة ليست مشكلة « فراغ دينى » - بل العكس هو الصحيح ، هناك ظاهرة امتلاء ، ومد ، وصحوة دينية .

وليست المشكلة الرئيسية هى الفهم الساذج او المنحرف او المتعصب للدين ، ولكنها الازمة الحضارية الشاملة . هذه الازمة هى بمثابة « الطوفان » الذى ترتفع مياهه وتشتد أمواجه ،

ويهدد الناس بالاجتياح والغرق . والبعض منهم يعتقد ان الخلاص هو فى الاعتصام بالاسلام . إنه قارب النجاة أمام الطوفان .

قد يبدو هذا القارب – بالشكل الذى تقدمه الجماعات المتطرفة – مشوها ، أو بدائيا ، او مليئا بالثقوب . ولكن ما لم يوجد امامهم بدائل افضل تقدمها النظم الحاكمة لمواجهة الازمة الحضارية الشاملة ، فأنهم سيظلون على تمسكهم به .

السرية فى البحوث الاجتماعية*

نشرت مجلة الاهرام الاقتصادى حديثا مع الدكتور احمد خليفة رئيس المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى عددها بتاريخ ١٨ / ١٠ / ١٩٨٢ .

ورد على لسان د. أحمد خليفة ما يلى عن بحث الجماعات الاسلامية « كانت الدراسات التى يقوم بها المركز تتم فى اطار سرى . وقمت بوضع خاتم يفيد السرية على هذه الدراسات ، وقد تم توزيع نسخ من اوراق البحث على فريق البحث مع التأكيد على عدم تسريب بياناتها . وهذا يتوقف على الضمير العلمى للباحثين . ولكن فوجئنا بأن احد اعضاء فريق البحث قام بنشر بيانات البحث فى مجلات اجنبية وقام بتقديم ورقة بحثية فى احد المؤتمرات والقاء محاضرات بالولايات المتحدة . وهذا يعد انتهاكا للاخلاق والأداب الاكاديمية »

وقد أرفق الاهرام الاقتصادى صورة لغلاف البحث يحمل إسمى فى نفس الصفحات التى نشر فيها حديث د. أحمد خليفة ، مما لايترك كثير شك فى أننى الشخص المقصود بكلام الرجل واتهاماته . لذلك لزم الرد والتعليق والتوضيح ، عملا بحرية النشر وتقاليد الحوار .

اولا : حول علاقتى ببحث الجماعات الاسلامية :

طلب منى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى منتصف عام ١٩٧٧ أن أقوم بالاشراف على مشروع بحثى بعنوان « الجماعات الدينية المنحرفة فى مصر » . وقد أعتذرت فى البداية لسببين . أولهما ، ان اطلاق صفة « الانحراف » على الجماعات الدينية هو مصادرة على المطلوب قبل أن يبدأ البحث . وفى ذلك خروج على التقاليد العلمية الموضوعية التى تنأى عن اصدار حكم قيمى قبل او اثناء اجراء البحث ، وإلا تحول البحث العلمى الى مجهود صحفى دعائى ، لن يختلف فى تلك الحالة عما كانت تزخر به الصحف المصرية من الوان الهجوم والسباب على تلك الجماعات .

* نشرت بالاهرام الاقتصادى ، ١٩٨٢/١١/١٢ .

والسبب الثانى للاعتذار هو أن المركز القومى كان يريد القيام بالدراسة المقترحة بشكل سرى ، وتقديم النتائج لأجهزة الأمن وكبار المسئولين فى الدولة . وحيث أننى من الباحثين الاكاديميين الذين يؤمنون بحرية وموضوعية وعلانية البحث العلمى ، وحرية نشر نتائجه على الرأى العام ، فقد أليت على نفسى الا اشترك فى بحوث داخل مصر أو خارجها ، بتمويل وطنى أو أجنبى أو مشترك ، تتعارض شروطها مع هذه القناعات المبدئية . وهى قناعات لا الزم بها غيرى ، ولكننى أتمسك بها شخصيا .

وقد عاود المركز القومى الحاحه لكى أقوم بالاشراف على الدراسة ، مع قبوله الكامل والصريح للشروط المذكورة اعلاه . وتم الاتفاق على ان يأخذ البحث عنوانا جديدا اكثر حيادية وهو « حركات العنف الدينى » (وليس الجماعات الدينية المنحرفة) . وقد أطلق المركز الحرية لأعضاء الفريق تحت اشراف لتصميم وتنفيذ البحث على الأسس المنهجية السليمة . كما وافق المركز على مبدأ نشر النتائج حتى يستنير بها المجتمع العلمى والرأى العام ، بما فى ذلك المسئولين كجزء من هذا الرأى العام . وبهذه الشروط مارس فريق العمل نشاطه لما يقرب من عامين ، وبلا تدخل من د. أحمد خليفة أو أى جهة أخرى .

وقد تعمدت فى مقابلاتى الأولى مع قادة الجماعات الدينية موضع البحث أن أؤكد وعلى مسمع من جميع افراد الفريق ، أننا نقوم بعمل علمى موضوعى لوجه الله والوطن والحقيقة . وأن وجهة نظرهم ستعرض بلا تشويه ، قبل أن نقوم نحن بالتحليل واستخلاص النتائج العامة . وسيكون واضحا اين ينتهى كلامهم ، واين يبدأ تحليلنا نحن كباحثين . وعلى هذا الاساس وافق قادة الجماعات الدينية ان يتعاونوا مع فريق البحث من حيث المبدأ . ولكى تطمئن قلوبهم طلبوا منى نسخا من نماذج بحوث أخرى قمت بها للتأكد من نزاهتى العلمية . وأجبتهم الى طلبهم ، فليس بينها ما هو سرى أو ما هو غير منشور . وفى النهاية وافق قادة الجماعات الدينية بشكل نهائى . وبدأنا العمل بجدية ونية خالصة من الطرفين . وفجأة انفجرت الثورة الايرانية ، وأخذت منها الحكومة المصرية موقفا مضادا ، ودعت الشاه الى مصر . عندئذ قام د. أحمد خليفة ، الذى لم يكن الى ذلك الوقت يتدخل فى عمل الفريق ، بمصادرة معظم وثائق البحث ، وسحبت منا وزارة الداخلية تصريح مقابلة أفراد الجماعات الدينية فى السجون . وطلب الدكتور خليفة أن يتحول البحث مرة أخرى الى بحث سرى لأغراض أمنية فقط . وقد رأيت فى ذلك اخلالا ، لا فقط باخلاقيات البحث العلمى والحرية الاكاديمية ، وانما ايضا بالشروط التى التزم بها المركز . وعند تلك النقطة طلبت اعفائى من مسئولية الاشراف على البحث أو الاستمرار فى المشاركة فيه ، رغم الحاح الرجل .

ثانيا : ادعاءات غير صحيحة :

الى وقت استقالتى من الاشراف على البحث فى ربيع ١٩٧٩ ، لم يكن المركز القومى قد

قام بتحليل أى بيانات ، أو توزيع أى نسخ من أوراق البحث . ولا أعلم اذا كان قد قام بتوزيع أى شيء يحمل خاتم السرية ، أو لا يحمله ، بعد انتهاء علاقتى بالبحث وبالمركز ، والذى لم أدخله طوال ثلاث سنوات إلا مرتين بدعوة من الدكتور خليفة . الأولى فى عام ١٩٨١ (أى بعد انتهاء علاقتى بالبحث بسنتين) بمناسبة الاحتفال باليوبيل الفضى لا نشاء المركز ، والثانية فى عام ١٩٨٢ للاشتراك فى مؤتمر علمى حول موضوع لا علاقة له بالجماعات الدينية .

ومع ذلك فقد وقع الدكتور خليفة . فى اخطاء كنا ننأى بالرجل من الوقوع فيها .

فاذا صح ماورد على لسانه من ايحاءات واتهامات باطله ، فأرجو ان يصححها ، أو ان تكون لديه شجاعة المواجهة الصريحة . ولكى لا اطلق الكلام على عواهنه فاننى اطالبه بابراز أى اتفاق بينى وبين المركز ينص على سرية البحث ، او يثبت انه ارسل الى أى أوراق أو بيانات تحمل خاتم السرية .

إن الخلاف بينى وبين الدكتور خليفة هو خلاف بين جيلين وبين مدرستين حول فلسفة البحث الاجتماعى العلمى . فهو يؤمن بالسرية ، وأنا اؤمن بالعلانية . وهو يؤمن بتوظيف البحث العلمى فى خدمة السلطة فقط ، وأنا أؤمن بتوظيفه لصالح المجتمع ككل ، بما فى ذلك من يريد من المسئولين ان يستنير بنتائج البحث العلمى .

وليس لدى أى ادعاءات بأن فلسفتى هى الأصح ، وفلسفته خطأ.وحينما كان ممكنا ان اتعاون معه ومع مركزه على اساس ما أؤمن به ، فقد تعاونت.وحينما أصر على ان تسود فلسفته فقد افترقنا على ود . وقد تحدثنا فى مكتبه وفى حضور بعض اعضاء الفريق بكل صراحة حول هذا الخلاف المبدئى . وقد قبل الرجل فى وقتها بمشروعية الخلاف ، وقال « لكم دينكم ولى دين » . وقد تركت لأعضاء الفريق الأخرين حرية اتخاذ الموقف الذى يتفق مع قناعاتهم المبدئية . ومنهم من استمر فى العمل ، ومنهم من تنحى .

وقد أعلنت الدكتور خليفة بنيتى على الكتابة فى موضوع الجماعات الدينية . فلا يعقل ان تكون الظاهرة موضع اهتمام وموضع كتابات الكثيرين فى الداخل والخارج ، واتجاهلها أنا كعالم اجتماع قضى سنتين فى دراستها ، ويشعر بالحاح تناولها بشكل عقلانى فى خضم الكتابات الفجة والمسطحة . ولم يبد الرجل أى اعتراض . وحتى لو كان قد اعترض ، فلم يكن ذلك يؤثر فى قرارى بالكتابة والنشر حول هذه الظاهرة . وكنت حريصا فى كل ماكتبت ونشرت عن الجماعات الدينية ان اكون أمينا وعادلا ، وأن أؤكد ان هذه اجتهادات أولية لعدم استكمال البحث . وقد أشرت على غلاف البحث بأنه تم اثناء اشرافى على الدراسة فى اطار المركز القومى

للبحوث الاجتماعية ، وذكرت كل أسماء الفريق ، دون ان أحملهم أو احمل المركز مسئولية اجتهاداتى فى الموضوع .

لقد فوجئت بما نسب الى الدكتور خليفة ، وأرجو ألا يكون صحيحا . لأننى قابلته عدة مرات خلال السنوات التى اعقبت نشر هذه الاجتهادات . ولم يبد الرجل أى اعتراض أو عتاب ودعانى الى المركز الذى يرأسه عدة مرات ، لبيت منها فقط دعوتين . فاذا كان صحيحا أنه يعتقد ان ممارستى كباحث لحريته الاكاديمية هو « انتهاك للاخلاق والأداب الاكاديمية » فلماذا دعانى الرجل الى المركز القومى عدة مرات بعد نشر البحث ؟ ولماذا طلب منى المشاركة فى أنشطة علمية اخرى ؟ بل لماذا ظل صامتا لمدة عامين كاملين قبل ان يكتشف فجأة ان مانشرته حول الموضوع يمثل انتهاكا للاخلاق والآداب ؟

واذا كان فيما نشرته إخلالا بالتزام تعاقدى ، أو إضرارا بمصلحة وطنية عامة ... أليس من واجبه ، وهو المؤتمن على اكبر مؤسسة للبحث الاجتماعى فى مصر ، ان ينهض لوضع الأمور فى نصابها ، وان يطلب بمحاسبة قانونية ، خاصة وأننى ارسلت الى أعضاء الفريق بالمركز نسخا مما نشرته منذ اكثر من عامين ؟ اذا كان الدكتور خليفة يعتقد حقيقة فيما قال أو نسب اليه ، ألا يعتبر صمته طول هذا الوقت إخلالا بمسئولية الوظيفة العامة أو تقصيرا فى ادائها ؟ واخيرا لماذا لم يقم د. خليفة ومركزه بنشر أى شىء عن الموضوع، وقد مضى على بداية البحث اكثر من خمس سنوات ؟ الا يشعر الدكتور خليفة بأى مسئولية نحو تنوير الرأى العام المصرى ؟

ثالثا : حول حرية النشر فى الداخل والخارج :

لقد خلط الاهرام الاقتصادى بين مسألة البحوث المشتركة مع جهات أجنبية ، وهو موضوع التحقيقات التى نشرت فى الأعداد الثلاثة ولا ينطبق على بحث الجماعات الدينية ، وبين موضوع النشر فى الداخل والخارج ، وهذه مسألة أخرى لا علاقة لها بالموضوع الأول . ولكن مادام موضوع النشر قد اثير واستدرج د. أحمد خليفة للخوض فيه ، فان من واجبى التعليق عليه .

كان أحد الشروط التى وضعها قادة الجماعات الدينية للتحدث مع فريق البحث ، هو النزاهة والأمانة فى عرض وجهة نظرهم ، ونشر النتائج التى نتوصل اليها . وقد راقنى هذا الشرط ، لا فقط لأنه يدفعهم الى التعاون مع فريق البحث ، ولكن ايضا لأنه يتسق تماما مع فلسفتى فى موضوعية وعلانية البحث الاجتماعى .

لذلك كان من واجبى حيال من اعطيتهم كلمتى من قادة الجماعات الاسلامية ، ومن واجبى حيال الرأى العام ، واتساقا مع قناعاتى المبدئية، أن اقوم بنشر دراسة تحليلية حول الموضوع . ولم يكن هناك أى التزام تعاقدى أو أدبى حيال المركز القومى للبحوث الاجتماعية يتنافى مع هذا الواجب .

وقد القيت اول محاضرة بالعربية حول الموضوع بدعوة من جامعة عين شمس فى أواخر ١٩٧٩ . ثم القيت نفس المحاضرة فى شكل ورقة بالانجليزية فى مؤتمر دراسات الشرق الأوسط . ثم نشرت نفس الورقة منقحة فى عديد من الكتب والمجلات العربية والدولية بعد ذلك بعدة شهور . وقد طلبها بعض المسئولين ومنهم رئيس الجمهورية الراحل ورئيس الجمهورية الحالى ، وعدد من رؤساء تحرير الصحف والمجلات المصرية والعربية . كما أستخدمتها أنا كمادة للتدريس لطلابى فى المعاهد العليا . وقد تضاعف الطلب على هذه الورقة البحثية فى اعقاب اغتيال الرئيس انور السادات ، وترجمت الى عدة لغات .

ومن الطريف ان احد المشتركين فى اعداد تحقيقات الاهرام الاقتصادى حول موضوع الابحاث المشتركة طلب نسخة من الورقة منذ ثلاث سنوات . وقد أجبناه الى طلبه كما أجبنا غيره من الطلاب والدارسين والمسئولين . فنحن نؤمن كما قلت بأن البحث العلمى هو وظيفة اجتماعية عامة وليس عملا مباحثيا سريا يتم فى حجرات مقفلة او تحفظ نتائجه فى ادراج أو خزائن مغلقة . إن الضرر العام هو فى حجب الحقيقة وليس فى ترويجها .

وإنطلاقا من نفس القناعة قمت فى الواقع بتلخيص اجتهاداتى حول موضوع الجماعات الدينية ونشرها بلغة سهلة فى صحيفتى الاهرام ، والجمهورية ، وفى مجلات المصور ، و « اكتوبر » ، « وروز اليوسف » ، و « الوادى » ، وغيرها . وقد نشر بعضها قبل عام كامل من اغتيال الرئيس السادات . لقد كنت احس بخطورة الظاهرة ، وكنت ومازلت ادعو الى التعامل معها بعقلانية وبتفهم عميق ، وعدم قصر التعامل معها على الوسائل الأمنية ، والتى أثبتت الاحداث التالية محدودية جدواها .

ومادمنا نؤمن بمبدأ العلانية فى البحث الاجتماعى العلمى ، فيستوى فى رأينا نشره فى الداخل أو الخارج . فمن السذاجة ان يعتقد أحد أن ماينشر بالعربية فى الداخل يخفى على المهتمين بشئوننا فى الخارج . فمعظمهم يعرف العربية . وتقوم سفارات الدول الكبرى فى القاهرة بترجمة ماينشر فى الداخل وارساله الى حكوماتها .

كذلك من الخبل أن يعتقد أحد أن ظاهرة الجماعات الدينية هى وقف على مصر ، أو ان الباحثين الاجانب كانوا غافلين عنها . فقد سمحت السلطات المصرية لبعضهم باجراء بحوث عن هذه الظاهرة وغيرها ، دون رقابة ، قبل أن يفيق المركز القومى من خموله الطويل ليقوم بدراستها . واذا كان رئيس المركز لم يقرأ ولم يتابع مانشر حول هذا الموضوع فى الكتب والمجلات الدولية منذ سنوات ، فهذه مصيبة . واذا كان قد تابع وقرأ مانشر وما ينشر ، ثم قال مانسب اليه فى الاهرام الاقتصادى ، فإن المصيبة أعظم .

الفصل الثانى

مصر تراجع نفسها

- □ من طلعت حرب الى رشاد عثمان
- □ تأملات اجتماعية فى المسألة الاقتصادية
- □ سيناء المحررة : الخبز والشباب والتعمير
- □ أحلام قرية مصرية

من طلعت حرب إلى رشاد عثمان ..*
بين قيم الانتاج وقيم النهب

اعتذر بداية لذكر اسم السيد / رشاد عثمان فى عنوان ومضمون هذا المقال . ولا اود ان يأخذ القارىء الاشارة الى هذا الرجل كالو كان اسهاما من الكاتب فى الحملة الضارية التى شنت عليه بعد ان ادانته محكمة القيم ، وفرضت الحراسة على املاكه ، وتحفظت عليه .. فنحن نشفق فى هذه المواقف المأساوية للرجل واسرته من تطبيق المثل الريفى الذى يقول « حيثما تقع البقرة تكثر السكاكين » .

إننا فقط نذكر اسم السيد رشاد عثمان كرمز لظاهرة اجتماعية ، كما نذكر اسم المرحوم طلعت حرب كرمز لظاهرة أكبر واعم من الشخص المذكور . كلا الرجلين انبتتهما التربة المصرية . وكلاهما كان شاهدا على عصره . وتشكل سلوك كل منهما بالقيم السائدة وبالمناخ العام فى ذلك العصر . كلاهما كان رأسماليا طموحا . ولكن طموح أحدهما ارتبط بطموح وطنى ، وبأمال جيل كامل فى تحرير مصر من الاستعمار والتبعية الأجنبية ، وكان جزءا لا يتجزأ من المد الوطنى الهائل الذى أحدثته ثورة ١٩١٩ . وكان طموح الأخر طموحا فرديا مملا فى انفصاله عن أمال الجيل الذى حارب فى أكتوبر ١٩٧٣ ، بل ومجهضا لاحتمالات نهضة اقتصادية حضارية سياسية هائلة ، كانت احلامها تراود خيال الابطال والشهداء وهم يعبرون حاجز التاريخ من الهزيمة الى النصر .

طلعت حرب وقيم الانتاج

ولد طلعت فى اسرة مصرية من الطبقة الوسطى فى اواخر القرن الماضى . وشهد فى طفولته وشبابه نتائج انفتاح اقتصادى ابله ، قاده فى وقتها حاكم مصر الخديوى اسماعيل . كان

* الاهرام الاقتصادى ، ١٩٨٢/١/٢٥

ذلك الخديوى يتصور ان بقدرته ان يجعل مصر جزءا من الغرب ، وذلك بخلق قشرة خارجية اوروبية الشكل ، يغطى بها تخلف مؤسسات الانتاج والخدمات المصرية ، فبنى دار الأوبرا ، وشيد الميادين العامة ، وملأها بالتماثيل والنافورات ، وشيد طريقاً معبدا الى الاهرام ، وطريقا اخر من القاهرة الى منطقة القناة ، ودعا ملوك وملكات اوروبا ، واغدق عليهم كرما وهدايا ، فاستجلب الموسيقار الايطالى المعروف فردى ، واستمتع الخديوى وضيوفه بليال ساحرة باذخة على الانغام الاسطورية .

رأى طلعت حرب وجيله من الشباب الوطنى نتيجة هذا الانفتاح الابله.فكما نعلم جميعاء قام الخديوى اسماعيل بتمويل هذه التنمية القشرية من خلال القروض الأجنبية،وتراكمت هذه من ٣ ملايين جنيه حينما اعتلى العرش الى مائة مليون حينما خلع عن العرش . مع فارق اخر هام هو انه اعتلى السلطة ومصر مستقلة فعليا (وان كانت اسميا ما تزال تابعة للسلطان) وذات اقتصاد متوازن ، وتدير شئونها الداخلية جميعا بحرية كاملة . وحينما تنازل كانت مصر قد وقعت فريسة للبنوك الاجنبية وللدول الاوروبية الدائنة، ولمئات الافاقين من كل بلاد الغرب . وماهى الا سنوات قليلة حتى كانت مصر مستعمرة انجليزية يحتلها جيش أجنبى .

ايقن طلعت حرب ان الباب الاول الذى ولج منه الاستعمار الى مصر كان هو البنوك الاجنبية.لذلك كان تصميمه وتصميم جيله من الوطنيين ان ينشئوا بنكا مصريا خالصا . وبعد المحاولات المتعددة على مدى عشرين عاما ومصر ترزح تحت الاحتلال ، نجح طلعت حرب فى ان يجمع من سبعة مصريين اخرين (احمد مدحت يكن ، يوسف اصلان ، عبد العظيم المصرى ، فؤاد سلطان ، عبد الحميد السيوفى ، اسكندر مسيحة ، وعباس بسيونى الخطيب) مبلغا لا يتجاوز ٨٠ الف جنيه . وبها تم اعلان انشاء بنك مصر فى ٣ ابريل ١٩٢٠ .

وعلى مدى السنوات العشر التالية واجهت المحاولة شتى الوان الهجوم والمضايقة والمنافسة والمقاومة من البنوك الاجنبية ، ومن سلطات الاحتلال . ومع ذلك ففى غضون نفس السنوات العشر الاولى صمد بنك مصر ، وزراد عدد المساهمين فيه وارتفع رأسماله الى عدة ملايين . وأهم من ذلك ان بنك مصر فى تلك الفترة ذاتها – وهى مرحلة الطفولة – قام بانشاء شركات صناعية فى العديد من المجالات ، كان اهمها بالطبع فى مجال الغزل والنسيج . والجدير بالذكر ان هذا الرعيل من الرأسمالية الوطنية لم ينس ان يوجه جزءا من جهوده الى تنميه الثقافة الجماهيرية . فقد انشأ بنك مصر شركة طباعة (١٩٢٢) واخرى لصناعة وانتاج السينما (١٩٢٥) . وظلت الصناعات العديدة الاخرى التى انشأها بنك مصر تمثل أهم صرح اقتصادى انتاجى خارج قطاع الزراعة الى ان قامت ثورة ٢٣ يوليو ، وفتحت فصلا جديدا فى دراما التحول الاقتصادى المصرى .

كنت استذكر هذه الصفحات المجيدة من تاريخ الرأسمالية الوطنية ، وانا اطالع وقائع

محاكمة السيد رشاد عثمان . لن أتكلم هنا عن المخالفات والتعديات على املاك الدولة ، أو محاولات إفساد الموظفين العموميين التى أدانتها محكمة القيم . الذى يهمنى هو قائمة ممتلكات الرجل ، والتى حصرتها المحكمة وقدرت قيمتها بحوالى ٧٧ مليون جنيه ، قيل انه جمعها فى السنوات التى أنضوت فى عقد السبعينات . ولن أتحدث عن الكيفية التى جمع بها الرجل هذه الثروة الهائلة فى تلك الفترة القصيرة .

ولكن الذى راعنى بحق هو ان المدقق فى ممتلكات وانشطة واستثمارت السيد / رشاد عثمان يلاحظ ان الرجل لم يوجه من هذه الثروة الطائلة شيئا نحو أى نشاط إنتاجى حقيقى . وعلى سبيل التجاوز لا نجد فى الكشف الطويل الذى أعلنته المحكمة (ونشر بالصحف اليومية بتاريخ ٣٠ / ١٢ / ١٩٨١) إلا حوالى ٤٢٥ ألف جنيه مستثمرة فى شركات « للأمن الغذائى ».ويكاد يكون الاستثمار الصناعى الوحيد الصريح هو اسهام الرجل بما قيمته « ٢٥ » ألف جنيه فى شركة المهندس الوطنية لصناعة المكرونة !

باختصار ، لم يستثمر المليونير من ملايينه السبعة والسبعين سوى أقل من نصف مليون جنيه فى نشاط انتاجى صناعى حقيقى يساعد فى تنمية وتنويع القاعدة الاقتصادية لهذا الوطن المصرى . وهى نسبة لا تتجاوز نصف فى المائة من الملايين التى جمعها .

بالطبع هناك علاقة وثيقة بين طريقة جمع هذه الملايين وبين طريقة استخدامها . فلأنها اصلا لم تجمع من خلال أنشطة إنتاجية مشروعة ، لذلك لا نستغرب عدم استثمارها فى أنشطة إنتاجية مشروعة . لقد جمعت الأموال بوسائل طفيلية ، واستخدمت فى أنشطة طفيلية . أو بلغة اكثر صراحة ، جمعت تلك الملايين عن طريق النهب ، واستخدمت من أجل مزيد من النهب . وهنا يصدق المثل القائل بأن فاقد الشيء لا يعطيه . وهنا أيضا ندرك كيف تتوحد الوسيلة والغاية . فمشروعية الغاية تملى مشروعية الوسيلة ، والعكس صحيح .

كلاهما رأسمالى .. ولكن !!

لقد سقنا مثلين من تاريخنا الوطنى الحديث للتدليل على أن القضية الاقتصادية لايمكن النظر اليها بمعزل عن المناخ الوطنى العام ، ولا عن القيم الاجتماعية السائدة فيه . المفاضلة هنا ليست بين رأسمالى واشتراكى ، ولا بين إنفتاحى وإنغلاقى . فهذه اللافتات كثيرا ماتبتذل ، وكثيرا ماتستخدم لتمييع القضايا او تعقيدها ، او الزج بالمستمع أو القارىء فى متاهات فنية تقنية ضيقة .

لقد كان كل من طلعت حرب ورشاد عثمان رأسماليا يؤمن بالربح والغنى وحياة الرخاء . ولكن أحدهما ربط بين ربحه الشخصى وربح الوطن ، وبين غناه وغنى مصر ، وبين رخائه الفردى ورخاء شعبه الجمعى ، وربط بين تحرره كانسان واستقلال مصر كوطن ، والتزم بوسائل مشروعة

من أجل أهداف مشروعة . وكانت النتيجة لهذا الاتساق السلوكى والقيمى ، ان طلعت حرب قد شيد لنفسه وللرأسمالية الوطنية فى وقته تماثيل شاهقة حقيقة ومجازا . وهو بذلك يمثل المعطاء الوهاب ، كأحد القيم العزيزة فى أى مجتمع صحى .

اما الأخر فلم يعنه الوطن أو الشعب إلا بقدر ما يستطيع إعتصارهما إلى اخر نقطة دم ، أو إغتصابهما إلى اخر متر أرض . ولم يخطر ببال الرجل أى هدف إنتاجى شريف ومشروع ، وبالتالى لم يلتزم بأى وسيلة شريفة ومشروعة . لذلك فقد حفر لنفسه وللرأسمالية الطفيلية المعاصرة له حفرة سحيقة ، كان من الممكن أن يجر الوطن إلى هاويتها . إن الرجل يمثل نموذجا فى تاريخنا الاجتماعى يجمع بين نمط « الشخصية الفهلوية » و « الشخصية البدوية » . الفهلوى يبحث عن أقصر الطرق ، وأقل الجهد ، وأقصى الغنم . والسلوك البدوى – فى أحد جوانبه على الأقل – هو أسلوب الاغارة والاقتناص والسلب ، وقد جمع الرجل بين النمطين ، وهو بذلك يمثل السلاب النهاب .

عطب والأعطاب كثيره

فى نظرى أن أحد العيوب القاتله لسياسة الانفتاح (والتى تتمثل فى انشاء السوق الموازية ، وقانون إستثمار المال العربى والاجنبى لسنتى ١٩٧٤ , ١٩٧٦ وقانون التعامل بالنقد الأجنبى ، والسماح للوكالات التجارية الأجنبية بالنشاط فى مصر) أنها فى مجملها وفى حصادها النهائى قد فشلت فى التمييز فى المعاملة بين النموذجين السابقين . لقد عاملت المنتج المعطاء الوهاب ، كما عاملت الطفيلى السلاب النهاب ، ولما كانت وسائل هذا الأخير أقل إرتداعا بمعايير الشرف والأخلاق ، وأقل التزاما بقيم الانتاج والوطنية ، فقد صال وجال .

أين هو المنتج المعطاء الوهاب الذى حقق فى سنوات الانفتاح السبع الماضية من الثورة مثلما حققه السلاب النهاب ؟ أين هو المنتج الصناعى الواحد الذى حقق مثلما حقق هذا المستورد الاستهلاكى الواحد من ملايين سبعين ؟

إذا لم نجد مثل هذا المنتج المعطاء الوهاب ، بنفس الحجم أو العدد الذى نجد به الطفيلى السلاب النهاب ، فإننا نكون بصدد مشكلة خطيرة ، والمشكلة هى أننا سمحنا ، أو فرض علينا ، كمجتمع « بنظام إقتصادى » يفرز النوع النهاب ، ولا يفرز النوع الوهاب .

وفى رأيى أن أحد أعطاب الانفتاح (وهى عديدة) هو أنه لم يضع من الحوافز الضريبية والجمركية ما يعطى الاستثمار فى الانشطة الانتاجية الصناعية الأولوية التفضيلية المطلقة على الاستثمار فى الأنشطة التجارية الاستهلاكية والطفيلية .

لذلك فلابد من إعادة النظر فى كل القرارات والقوانين التى تمثل فى مجموعها ما يسمى بسياسة الانفتاح ، ويجرى تعديلها بما يكفل سد القنوات التى تفرز قيم النهب ، وتوسيع القنوات التى تفرز قيم الانتاج .

وهذا هو التحدى الاكبر

لقدوقعناأو كدنا نقع فى أحابيل إنفتاح أبله مثل ذلك الذى وقع لمصر على يدى الخديوى إسماعيل منذ قرن مضى . والمطلوب الآن هو أن نضع حدا لاسلوب « الصفقات » و « الخبطات » ، وأن نقلص من سيكلوجية الاعتماد على القروض والهبات والاستدانات .

ليس كثيرا او مستحيلا علينا ان نضاعف الانتاج القومى المصرى خلال السنوات الثمانى الباقية من هذا العقد . إن معدل النمو الاقتصادى السنوى فى الاعوام الثلاثة الأخيرة قد وصل الى حوالى عشرة فى المائة . صحيح أن معظم هذا النمو قد تحقق من خلال عائدات البترول وتحويلات المصريين العاملين فى البلاد العربية ، ومن قناة السويس والسياحة ، ولكن ليس هناك مايمنع من تحويل هذا المعدل المرتفع إلى معدل قطاعى يشمل الصناعة والزراعة – وهما القطاعان الانتاجيان الرئيسيان الذى تعتمد عليها صحة الاقتصاد القومى . ومعدل النمو السنوى فيهما فى حدود عشرة فى المائة يعنى نموا مركبا يصل الى مائة فى المائة خلال الثمانى سنوات القادمة .

لم لا ؟ إنه هدف ممكن التحقيق . وهو هدف يمكن أن تلتف حوله كل شرائح المجتمع ، ويمكن أن يمثل تحدياقوميا للقطاعين العام والخاص على السواء . والأجيال الشابة – بالذات – تحتاج إلى مثل هذا التحدى لتعبىء حوله طاقاتها الهائلة ، كما عبأت اجيال شابة أخرى فى تاريخنا طاقاتها لبناء السد العالى وانجاز الخطة الخمسية الأولى فى عقد الستينات .

ليكن هدف مضاعفة الانتاج فى عقد الثمانينات هو صيحة المعركة الوطنية الكبرى لهذا الجيل . ولتكرس أجهزة الدولة ومؤسساتها ، ووحدات الانتاج فى القطاعين العام والخاص فى الشهور القليلة القادمة لاعمال خيالها فى رسم خططها التفصيلية لمضاعفة الانتاج قبل نهاية هذا العقد . ليس هناك بديل لهذا الهدف إذا أردنا حقيقة أن نخرج من دوائرنا المفرغة . إنه هدف ممكن ومطلوب ومرغوب .

تأملات اجتماعية فى المسألة الاقتصادية*

من يناير ٧٧ إلى يناير ٨٢

منذ خمس سنوات إجتمع جهابذة الاقتصاد فى مصر .. ودرسوا وحللوا وناقشوا ، واستمعوا الى مايقوله جهابذة الاقتصاد والمال فى البنك الدولى .. ، وحاوروهم ... واستمعوا الى خبراء المال فى صندوق النقد الدولى وحاوروهم . واتفق جهابذتنا مع جهابذتهم . أسماء لامعة من هنا واسماء لامعة من هناك . ورفعوا توصياتهم – وهم اهل العلم والخبرة والسمعة – إلى أولياء الأمر والنهى فى مصر . واتخذت قرارات ، وصيغت سياسات كان من المفروض لها أن « تصحح المسار الاقتصادى » و « ترشد الدعم » حتى يصل الى مستحقيه ، وان تضع حدا « للمعاناة » و « للمتاجرة بالمعاناة » .

واستمع مجلس الشعب لقرارات وسياسات الحكومة .. ووافق عليها فى عجلة قياسية .

واذيعت القرارات فى مساء يوم ١٧ يناير ، ونقلتها الصحف فى صباح يوم ١٨ يناير ١٩٧٧ . وما هى إلا ساعات قليلة حتى كانت القاهرة والاسكندرية وكل المدن الكبرى تموج بشىء هائل غاضب – أختلف الناس فى تسميته – فبعضهم سماه « إنتفاضه شعبية » ، أما الرئيس السادات وصحبه فقد سموها « إنتفاضة الحرامية »

- **مؤتمر أخر للخبراء :**

إننا نسترجع تلك الذكريات الدامية المؤلمة ونحن على أبواب . مؤتمر أخر لكبار الأقتصاديين . ورجال الأعمال . وخبراء المال المصريين وهو مؤتمر دعا اليه السيد رئيس الجمهورية لكى يناقش الخيارات الأقتصادية المتاحة والممكنة أمام مصر . والأمل هو ان يخرجوا من هذا النقاش بسياسات أكثر رشدا ، وكفاءة وعطاء ، تعيد للأقتصاد المصرى صحته ، وتعود على المصريين بالرخاء .

---

* الاهرام ، ١٩٨١/١٢/٢٩

ولكننا مع ذلك نقول إن « المسألة الاقتصادية » هى من الخطورة بحيث لا ينبغى ان نتركها للاقتصاديين وشأنها فى ذلك شأن الحرب التى قال فيها كليمنصو « إن الحرب هى من الخطورة بحيث لا ينبغى ان نتركها للعسكريين » . والمقصود فى كلا الحالين هو أن الموضوع ليس مشكلة تقنية أو فنية ، يقوم الخبير بفحصها ، وتقديم العلاج الناجع لها ، ليت الأمر كان بهذه البساطة .

لو كان الأمر هو مسألة فنية اقتصادية فقط لما شهدنا هذا الأختلاف الحاد الذى كشفت عنه المناقشات العاصفة فى مجلس الشعب بين نائب رئيس الوزراء للشئون الاقتصادية واخرين من رجال الاقتصاد حول فحوى ومعنى الأرقام والمؤشرات . فالرجل يقول لنا إن ميزانية ٨٠ / ٨١ حققت فائضا (حوالى ٤٣٩ مليون جنيه) ، وأن إجمالى الاستثمارات قد بلغ ٦٠٠ مليون جنيه ، وأن معدل الأدخار قد وصل إلى ١٤ ٪ من الدخل القومى ، وأن معدل التضخم قد انخفض من ٣٠ إلى ١١ فى المائة ، وأن معدل النمو الاقتصادى يتراوح بين ٨ و ١٠ فى المائة . وهذه المؤشرات – إن صحت – تعنى أن المشكلة الاقتصادية قد حلت أو هى فى طريقها إلى الحل . (مناقشات مجلس الشعب كما وردت فى الأهرام بتاريخ ٢١ و ٢٣ ، ٢٤ / ١٢ / ١٩٨١)

ولكن عددا أخر من الاقتصاديين المرموقين يجادلون فى صحة الأرقام والمؤشرات ويقولون لنا أن ما يظهر وكأنه فائض فى الميزانية هو فى الواقع تلاعب بالارقام ، مؤداه أن القروض من البنوك التجارية أو المعونات الخارجية قد احتسبت وكأنها جزء من الايرادات العامة للدولة – وهى فى الحقيقة ليست كذلك .

وهكذا نضيع نحن المواطنين – غير المتخصصين فى الاقتصاد – بين تضارب الأرقام ومغزى المؤشرات التى يقدمها وزراء الحكومة من ناحية ونواب حزب الحكومة من ناحية أخرى (أنظر الأهرام بتاريخ ٢٣ و ٢٤ / ١٢ / ١٩٨١) .

● رونالد ريجان وعبد الرحمن بن خلدون

إن التناقض فى الارقام والمؤشرات حول حقيقة « المسألة الأقتصادية » فى مصر يخفى فى الحقيقة **صراعا صامتا** بين رؤيتين أو اكثر « لما هو كائن »، ورؤيتين أو اكثر « لما ينبغى أن يكون » . والاستخدام **الانتقائى** للبيانات والمعلومات من أجل تدعيم فلسفة أو سياسة معينة ليس وقفا على الاقتصاديين المصريين . فمنذ عدة اسابيع خرج الرئيس ريجان على الشعب الأمريكى فى مؤتمر صحفى **بمقولة للمفكر العربى ابن خلدون** ، لكى يبرر سياسته الاقتصادية واقتبس الرئيس الأمريكى فقرة طويلة من كتاب « المقدمة » لابن خلدون ، فحواها . ان السبيل لزيادة ايرادات الدولة هو إطلاق يد القطاع الخاص ، وتشجيع التجار ، وتقديم الخدمات والأعفاءات الضريبية لهم ، وبذلك يزداد الرخاء والعمران . (صحيفة واشنطن بوست ، ٢٨ / ١٠ / ١٩٨١)

ولم يكن معظم الأمريكيين قد سمعوا عن ابن خلدون من قبل . وسرعان ماانكب معارضو الرئيس ريجان على قراءة الترجمة الأنجليزية لمقدمة ابن خلدون . ولدهشتهم وجدوا فيها فقرات أخرى عديدة تدحض فلسفة وسياسة ريجان الأقتصادية . وأهم تلك الفقرات ماتنطوى على التنديد **« بالظلم الاجتماعى الذى هو مؤذن بخراب العمران »**

• الأحساس الوجودى بالمشكلة

إن الخلاف الحاد فى تفسير ما يحدث فى الاقتصاد المصرى ، وللجنيه المصرى ، وللدعم ، ولميزان المدفوعات .. ليس خلافا بين المعارضة والحكومة فقط . وإلا كنا قد فهمنا حدوده ودوافعه . ولكنه خلاف بين وزراء الحزب الحاكم وهذا ما يبعث على الاضطراب والشكوك حول « الحقيقة » .

ولكن هناك مستوى اخر يستشعر به الناس وجود « مشكّلة إقتصادية » من عدمه .

وإذا كان نائب رئيس الوزراء للشئون الاقتصادية صادقات فيما يعطيه لنا من أرقام ، ومؤشرات ، وتفسيرات . فاننا لا نكون بصدد « مشكلة إقتصادية » بالمعنى الفنى الضيق ولكن نكون بصدد مشكلة إجتماعية – سياسية – إدارية :

– الجانب الاجتماعى للمشكلة فى هذه الحالة هو الخلل فى التوزيع وفى أنماط الاستهلاك .

– الجانب السياسى للمشكلة هو فى نوع الخيارات والقرارات السياسية المرتبطة بكل منها .

– الجانب الادارى للمشكلة هو فى تنفيذ هذه القرارات وفى مستويات الأداء .

أما إذا كان الناقدون لأرقام وتفسيرات نائب رئيس الوزراء هم الصادقون ، فان المشكلة تصبح أيضا مشكلة انتاج إلى جانب كونها مشكلة إجتماع وسياسة وإدارة .

والناس فى نهاية المطاف – وبصرف النظر عن الحوار المحتدم بين خبراء الاقتصاد عند القمة – يعلمون أن هناك مشكلة فقرون « الاستشعار » الشعبية تحس يوميا بالوجوه العديدة لهذه المشكلة . إن للمشكلة الف وجه ووجه : التضخم ، الاسكان ، المواصلات ، المرافق والخدمات الأخرى (إبتداء من الماء والكهرباء إلى الصحة والتعليم والثقافة ... الخ) ، وفرة سلع معينة لا يستطيع شراءها إلا « القلة الميسورة » وندرة سلع معينة هى التى يقدر على شرائها **« الأغلبية المعسورة » ، حركة بناء وتشييد هائلة ، وندرة فيما هو متاح منها للاسكان الشعبى .**

ان هذه الأعراض وغيرها .. هى التى تجعل الكثيرين يخلصون إلى انه لا امل فى حل مشكلاتهم الفردية داخل حدود الدولة المصرية . لذلك يهاجرون منها الى غيرها من اسواق العمل ، او يهجرون فلسفتها إلى غيرها من فلسفات الغضب .

● **هناك حل لكل مشكلة .. ولكن ؟!**

لكل مشكلة حل أو اكثر . ولكل حل ثمن لابد ان يدفع . وقرار من يدفع الثمن هو قرار سياسى إجتماعى فى المقام الأول ، وليس قرارا إقتصاديا محضا . إن القرار حول من يدفع الثمن يكشف عن الخيارات والانحيازات الاجتماعية لأى نظام حاكم .

لقد كشفت **محاكمة أحد المليونيرات** فى الآونة الأخيرة عن مدى تكدس الثروات التى تراكمت بسرعة رهيبة ، وباشكال طفيلية فى العقد الأخير . وفى تقرير دورى **للبنك الدولى (جداول عالمية ، ١٩٨٠)** ما يفيد أن نصيب أعلى خمسة فى المائة بمصر من الدخل القومى قد ارتفع من ١٧ إلى ٢٢ فى المائة خلال عقد السبعينات ، بينما انخفض نصيب أفقر ٢٠ فى المائة من المصريين من ٧ إلى ٥ فى المائة . أى أن توزيع الثروة فى مصر زاد إختلالا لصالح « الأقلية الميسورة » .

● **الأغلبية المعسورة مستعدة :**

– فمن – إذن – يجب عليه دفع ثمن الحل المطلوب « للمشكلة » ؟ الاجابة – فى رأينا – واضحة .

إن الأغلبية المعسورة لهذا الشعب المصرى مستعدة للعمل الجاد المنتج .. وقد اثبتت ذلك فى داخل مصر وخارجها ، حيثما توافر نظام مؤسسى جاد فى أدائه ، وعادل فى معاييره .

– وهذه الأغلبية مستعدة للصبر وتحمل التضحيات المادية والمعنوية ... وقد اثبتت ذلك فى حقبات عديدة من التاريخ الحديث – كان اخرها من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ . المهم أن تقتنع هذه الأغلبية المعسورة بأن هناك هدفا قوميا يتطلب ذلك ، وبأن الجميع يتحملون – كل فى موقعه – قسطا عادلا من هذه التضحيات ، وأن ترى وتحس فى أعمالها ان القيادة لا تطلب منهم شيئا ، ثم تمارس هذه القيادة فى حياتها الخاصة شيئا اخر .

إن الأغلبية المعسورة التى ارتفعت بسلوكها إلى مستوى الأحداث الجسام فى خريف ١٩٨١ – كما فعلت قبل ذلك عدة مرات – هى مستعدة من جديد ان تتحمل قسطها العادل من الثمن .

ولكن السؤال هو : هل تقبل « الأقلية الميسورة » ، بدورها ، ان تتحمل قسطها العادل من ثمن المواجهة مع « المشكلة » ؟

حتى نجنى ثمار السلام :

سيناء المحررة : الخبز .. والشباب .. والتعمير*

تطالعنا الصحف والمجلات المصرية منذ اسابيع بتحقيقات صحفية عن سيناء ، وخاصة عن الجزء الاخير الذى ستجلو عنه اسرائيل فى ٢٥ ابريل القادم . البهجة والفرح اللذين يحيطان بهذه المناسبة لهما كل مايبررهما .

لقد بذل المصريون دماء عزيزة فى سبيل هذا الجزء من التراب الوطنى والقومى . وفى سبيل تحرير سيناء ، اندفعت مصر فى مغامرة تاريخية هائلة من أجل السلام وتسوية الصراع العربى الاسرائيلى .

وكما كان للحرب ثمن باهظ ، فان للسلام ثمنا .

والمهم ليس دفع ثمن الحرب أو ثمن السلام .. فهذا قدر الشعوب فى لحظات تاريخية معينة .

ولكن الخطير حقا هو أن ندفع الثمن دون أن نجنى الثمار .

وقد ضحى شعبنا فى سبيل سيناء تضحيات كبيرة ، حربا وسلما . وليس أقل من أن نجنى ثمار هذه التضحيات . وليست ثمار التضحيات هى مجرد استرجاع سيناء ، ورسم الحدود ، ورفع العلم المصرى . فرغم ما لهذا كله من شعور بالانجاز المعنوى الا انه يظل – لو اكتفينا به – ثمرة هزيلة لا تتناسب مع جسامة التضحيات .

هناك أشياء عديدة لابد أن نقوم بها ، ونقوم بها على الفور ، حتى تنضج الثمار ويحين القطاف .

وهناك أشياء عاجلة ، بل نقول آنية .

وهناك أشياء يمكن أن تنتظر عدة اسابيع لا أكثر .

وهناك أشياء يمكن أن تنتظر عدة شهور الى أن يتم التخطيط المحكم توطئة لتنفيذ برامج التعمير الكبرى .

اننا نعلم أن هناك جهازا لتعمير سيناء . ولا شك فى اخلاص العاملين فيه ، وغيرتهم على كل ما نطرحه فى هذا المقال من مسائل . ومع ذلك فلخطورة الموضوع وحساسيته المفرطة ،

* الاهرام ، ١٩٨٢/٣/٥

نقدم هنا بعض الافكار . ونرجو أن يكون ذلك بداية لحوار جاد ومستمر حول سيناء .

● **توفير الخبز :**

فى خضم البهجة والافراح باستعادة أى جزء من التراب الوطنى ، تنسى أجهزة الدولة توفير بعض الاساسيات لسكان الاجزاء المحررة ، والتى رزحت تحت حكم الاحتلال الاسرائيلى سنوات عديدة . ومن أبسط الامور التى لاحظها كل زائر للعريش بعد تحريرها ، ولعدة شهور ، عدم توفر بعض السلع الغذائية .

وطبيعى ان مشاعر الوطنية الجارفة بين اهالى سيناء تجعلهم يصبرون عدة أسابيع . ولكن للصبر – حتى بدافع الوطنية – حدود تفرضها احتياجات البشر من أجل البقاء .

اننا نستخدم مثال الخبز هنا كرمز لكل الاحتياجات الاساسية : من صحة ، ودواء ، وتعليم ، وفرص عمالة . ونحن ننبه الى هذه الامور وغيرها والوقت مازال فيه متسع للتخطيط والتهيؤ للتنفيذ الفورى .

لا نريد لهذا الوضع ان يتكرر صبيحة يوم ٢٦ ابريل فى الجزء الباقى من سيناء .

ان المسئولين الذين ستوكل اليهم ادارة سيناء لابد أن يكونوا على مستوى عال من الوعى السياسى ، والحس الوطنى ، والكفاءة التنظيمية . لا ينبغى أن نرسل الى هناك الموظف البيروقراطى التقليدى الذى يتعامل مع هذا الجزء الحساس من الوطن كما لو كان يتعامل مع المواطنين المغلوبين على أمرهم فى « المبنى المجمع » بميدان التحرير. كما لا ينبغى ان نكبل من نرسله الى هناك بقيود اللوائح والروتين التى تجعله « يخاف من خياله » ، وتجعله يقضى عاما كاملا الى أن يبنى مخبزا آليا أو نصف آلى لتوفير الخبز .

● **تعمير سيناء : ٢ مليون مصرى**

بعد كل حرب ، وبعد كل تحرير لسيناء من الاحتلال ، تعلو الاصوات بضرورة تعميرها . ولكن هذه الأصوات سرعان ما تخبو تدريجيا ، وتظل سيناء أرضا خالية .

وكما يقول لنا علماء الجغرافيا السياسية ، ان كل أرض خالية هى دعوة صامتة للغزو وللمطامع العدوانية . ذلك قانون صارم لا يسرى فقط بين الدول ، ولكن حتى على مستوى الافراد . وما نطالعه فى الصحف هذه الايام من حوادث الاستيلاء على أراضى الدولة الخالية بوضع اليد ، هو مثال مصغر لما يحدث بين الدول .

لذلك – وفى ضوء الثمن الفادح الذى دفعناه هذه المرة لتحرير سيناء – ينبغى أن

●●

لا يحدث لدعوة تحرير سيناء ما حدث لها فى مرات سابقة .

أن سيناء غنية بمواردها الطبيعية . وقد رأينا ما فعلته اسرائيل بجزء يسير من هذه الموارد الهائلة ، وهى سلطة احتلال دخيلة . علينا نحن أصحاب الارض الشرعيين أن نقوم بأضعاف أضعاف ما فعلته اسرائيل . علينا أن نُعمل الخيال الوطنى فى رسم وتنفيذ الخطط الجسورة لتعمير الصحراء .

والتعمير فى أبسط معانيه هو بشر وأنشطة اقتصادية واجتماعية . البشر - والحمد لله - متوافرون فى مصر باعداد كبيرة ، مكدسة تكدسا رهيبا فى ٤ فى المائة من مساحة مصر هى الوادى والدلتا . ومن المعروف أن هذه الاعداد الكبيرة ستزيد ثلاثين مليونا قبل عام ٢٠٠٠ . وخيرا ملفعل رئيس الجمهورية بدق اجراس الخطر حول هذه المسألة . وخيرا مافكر فيه بعض المسئولين منذ سنوات بضرورة تخفيف الضغط السكانى الهائل فى الوادى والدلتا ، ببناء مدن ومجتمعات جديدة ، خارج هذا الشريط الاخضر المحدود .

هذا معناه اننا نحتاج الى مدن ومجتمعات جديدة لا ستيعاب حوالى ثلاثين مليون شخص بين الآن وسنة ٢٠٠٠ .

وهنا يأتى دور سيناء فى خطة قومية شاملة للتنمية ، وأعادة توزيع السكان الموجودين حاليا ، والذين نترقبهم فى السنوات العشرين القادمة ، ويمكن لسيناء أن تستوعب من الزيادة المرتقبة حوالى ٢ مليون شخص أو اكثر - اذا ما عقدنا العزم ، وأحسنا التخطيط ، وباشرنا التنفيذ بحزم .

• ما الذى يمكن أن يفعله ٢ مليون شخص فى سيناء ؟

فى خطط التعمير خارج الوادى والدلتا يجب علينا ان نتخلى عن مفهوم تقليدى ساد لمدة طويلة ، ومايزال يعشعش فى أذهان الاجهزة البيروقراطية فى الدولة . هذا المفهوم البالى هو الربط بين تعمير الصحارى والزراعة . وهنا تؤكد بداية أنه حيث تتوافر مصادر المياه وعوامل التربة فى أى بقعة صحراوية ، فليكن للزراعة الاولوية المطلقة . ولا نعتقد أن هناك خلافا كبيرا حول ذلك ، حيث أننا فى حاجة ملحة ودائمة لزيادة الرقعة الزراعية لانتاج الغذاء .

ولكننا بنفس القوة نرفض التفكير الشائع بصعوبة أو استحالة التعمير حيث لا توجد زراعة او امكانية للزراعة .. يمكن التعمير بلا زراعة.فهناك أنماط تعميرية عديدة لا تعتمد على الزراعة كقاعدة اقتصادية أساسية لا نشاء مجتمعات جديدة . ويمكن هنا أن نذكر على سبيل المثال عدة أنماط تنموية الى جانب الزراعة ، يمكن الاخذ بها وتعميمها فى سيناء :

١ - **النمط الاستخراجى :** يوجد على شواطىء سيناء الواقعة على خليج السويس عدد من

حقول النفط . وقد ظلت مواقع هذه الصناعة الاستخراجية مجرد معسكرات عمل ، يقيم بها العاملون دون اصطحاب عائلاتهم . بتعبير اخر لم تتحول هذه المواقع الى مجتمعات محلية متكاملة تتوافر فيها الخدمات اللازمة لتشجيع العاملين بحقول النفط وغيرهم على الاستقرار بها . أن هناك على الاقل أربعة مواقع يمكن ان تتحول الى مدن جديدة ، تكون الصناعة النفطية هى قاعدتها الاقتصادية الاساسية وهى تمتد على خليج السويس من عيون موسى الى رأس محمد ، وتشمل سدر ، وأبو زنيمة ، وفيران ، والطور . وهذا الى جانب مواقع أخرى فى قلب سيناء توجد بها معادن ومناجم ، وتدخل ضمن هذا النمط الذى يعتمد فيه النشاط الاقتصادى على الصناعات الاستخراجية .

٢ — **النمط السياحى** : مثلث شبه جزيرة سيناء تحيط به الشواطىء من ثلاثة جوانب : البحر المتوسط ، خليج السويس وقناة السويس ، وخليج العقبة . وهى شواطىء على قدر كبير من جمال الطبيعة واعتدال المناخ طوال معظم فصول السنة . شواطىء البحر المتوسط ، وخاصة بين العريش ورفح ، تمثل بنخيلها وشواطئها الرملية مناطق اصطياف خلابة طوال الفترة من ابريل الى سبتمبر . وتوجد بها نواة فعلية لعدد من المجتمعات المحلية والمراكز الحضرية . والمطلوب هو تحويل هذه التجمعات البشرية الصغيرة الحجم حاليا الى مناطق عمرانية اوسع ، واكثر كثافة ، وتكون السياحة الصيفية ، والانشطة الخدمية المتصلة بها ، هى القاعدة الاقتصادية لهذا التوسع العمرانى . أما شواطىء خليجى العقبة والسويس فهى شواطىء مثالية للسياحة الشتوية — نظرا لدفء مياهها وحرارة شمسها طوال الفترة من سبتمبر الى مارس كل عام . وقد قامت اسرائيل بالفعل باستغلال الشواطىء المصرية على خليج العقبة فى أنشطة سياحية ناجحة .. ولا أقل من أن نقوم بنفس الشىء — ان لم نضاعفه عدة مرات . هذا كله الى جانب السياحة الدينية التى يمكن تكثيف انشطتها حول دير سانت كاترين ، ومناطق أخرى فى سيناء .

٣ — **المدن العسكرية** : رغم ان معاهدة السلام بين مصر واسرائيل تضع ضوابط لوجود عسكرى مخفف فى سيناء ، الا ان هذا لا يمنع من انشاء وتنمية ما يسمى بالمدن العسكرية . فالمعسكرات والقواعد التى ستقيم بها قوات مصرية يمكن ان تبنى حولها مجتمعات محلية متكاملة لاسر الضباط والجنود ، مع تجهيزها بالخدمات التعليمية والصحية والترويحية ، تجعل منها مراكز عمرانية مستقرة ودائمة . وهناك تفكير ، ربما دخل مرحلة التخطيط والتنفيذ ، بانشاء مثل هذه المدن العسكرية فى الوادى والدلتا ومنطقة القناة . والمطلوب هنا أن تكون سيناء جزءا تمتد اليه هذه الخطط ، بل وينبغى أن تحظى سيناء بأولوية مطلقة فى هذا الصدد .

٤ — **المجتمعات الصناعية** : هناك عدد من الانشطة الانتاجية الموجودة بالفعل فى سيناء مثل صيد الاسماك والصناعات التقليدية الخفيفة (الاكلمة والملابس والمشغولات

اليدوية) . ومن الممكن تكثيف هذه الانشطة وتحديثها بحيث تستوعب عدة أمثال من يعملون بها حاليا من أيد عاملة . من ذلك مثلا تحديث أساطيل واساليب الصيد (حول بحيرة البردويل وشواطىء المتوسط وخليجى السويس والعقبة) ، وانشاء مصانع تجفيف وحفظ وتعليب الاسماك . والى جانب تحديث وتكثيف وتوسيع ماهو موجود حاليا ، يمكن استخدام أنشطة صناعية جديدة ، مثل الصناعات المتصلة بالتشييد والبناء . فتعمير سيناء - اذا أخذناه مأخذ الجد - سيحتاج الى حركة بناء وتشييد هائلة . ومن المنطقى أن نوطن بعض الصناعات اللازمة لهذه الحركة فى سيناء نفسها - مثل صناعة المحاجر ، والطوب الطفلى ، والزجاج، خاصة وان بعض موادها الخام متوافرة هناك .

٥ - **النمط الخدمى** : هناك مدن ومجتمعات محلية يكون النشاط الاقتصادى فيها هو الخدمات . وليس المقصود هنا الخدمات لسكان هذه المدن أنفسهم فحسب ، ولكن خدمات يكون الطلب عليها من خارج هذه المدن . ويعتبر النمط السياحى الذى تحدثنا عنه فى فقرة سابقة مثالا لهذا النوع - وأن كنا تحدثنا عنه كنمط مستقل نظرا لاهميته القصوى وتوفر عناصره الطبيعية فى سيناء . اضافة لذلك هناك امكانيات لاستحداث مجتمعات جديدة أخرى تقدم خدمة او اكثر لسكان الوادى والدلتا ، وتكون جاذبة لهم بشكل دائم أو مؤقت . من ذلك مثلا المدن الجامعية والمدن الصحية الاستشفائية . أن انشاء جامعة فى سيناء تقدم تخصصات فريدة (مثل علوم البيئة والجيولوجيا وعلوم البحار وتعمير الصحارى وتوطين البدو) من شأنه أن يستوعب جزءا من الاعداد المتوقعة التى ستطرق أبواب التعليم الجامعى فى السنوات العشرين القادمة والتى تضيق بهم الجامعات الحالية . ولكن أهم من ذلك سيكون هذا رمزا للاهتمام الوطنى والالتزام بتعمير سيناء . فضلا عن أنه سيعنى اجتذاب عدة آلاف من الطلاب ، والاساتذة ، والاداريين ، ومن يقومون بالخدمات المساعدة ، يكونون بمثابة مركز اشعاع فى شبه الجزيرة . اما المدن الاستشفائية فان مقومات نجاحها تكمن فى ان هناك عدة مواقع ذات مناخ جاف وبديع على مدار السنة ، ويكتنفها الهدوء وجمال الطبيعة ، وتصلح لمصحات عالمية تستقبل المصابين بأمراض الجهاز التنفسى على وجه الخصوص .

● من الذين يعمرون سيناء ؟

ان عدد سكان سيناء حاليا يبلغ حوالى ٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، منهم نسبة عالية من البدو . ومن الطبيعى ان يكون السكان الاصليون هم نقطة البداية فى أى مجهود جاد لتعمير سيناء . وليس هذا فقط من قبيل الالتزام الادبى والوطنى تجاه هؤلاء ، ولكن أيضا لا عتبارات عملية . فهم أصحاب المصلحة الحقيقية الأولى فى انجاح أى مجهودات تنموية . وهم أكثر المصريين معرفة بالبيئة ، واقدرهم على التعامل معها . وبالتالى تكون الخطوة الأولى هى تنظيمهم وتعبئتهم اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، وحشدهم ليكونوا رأس الحربة فى معركة تنمية سيناء . يتطلب ذلك بطبيعة

الحال تقديم الخدمات الاساسية ، وبراج للتدريب المهنى والانعاش الاجتماعى ، وخطط فعالة لتوطين البدو حيثما كان ذلك ممكنا . هناك تفاصيل كثيرة فى هذا المجال يضيق المقام عن الدخول فيها .

ولكن تعمير سيناء – كما قلنا فى البداية – يتطلب اضعافا مضاعفة من السكان الجدد الذين ينبغى جذبهم من الوادى والدلتا . وأهم شريحة بشرية مرشحة ، وينبغى استهدافها للذهاب الى سيناء هى شريحة الشباب : من طلاب وخريجى الجامعات والمعاهد والمدارس الفنية ، والمسرحين من الخدمة العسكرية .

فالشباب المصرى هم السلاح السرى الحقيقى الذى نخوض به كل معاركنا فى الحرب وفى الانتاج وفى التعمير . واذا كان هناك ما يزيد على المليون منهم فى العراق ، ومليون آخر فى السعودية واقطار الخليج والاردن وليبيا ، فليس من الصعب ان نجتذب منهم مليونين الى سيناء . ان مايدفع شبابنا الى الذهاب الى أقطار هى أبعد مئات الاميال عن سيناء هو البحث عن فرص للعمل وكسب الرزق ، وأدخار ما يستطيعون به تأمين المسكن ، والتزوج ، وتكوين أسرة . فاذا ما وفرنا مثل هذه الفرص فى سيناء فلا شك لدينا فى أن ملايين الشباب المصرى سيستجيبون على الفور خاصة وأن الامر لن يقتصر بالنسبة لهم على العمل والكسب ، وانما سينطوى على تفجير وجدانهم الوطنى ، وعلى الاحساس بأنهم جزء من مشروع قومى مهم . فهم يساعدون أنفسهم ويخدمون وطنهم فى نفس الوقت .

ان جزءا من الضياع الذى تعرض له شبابنا فى السنوات الاخيرة ، والذى دفع بعضهم الى السخط والغضب والعنف هو ان طاقاتهم الهائلة لم تستوعب بشكل خلاق وبناء . ان اجيال الشباب التى سبقتهم منذ الحرب العالمية الثانية كان امامها تحديات الاستقلال ، وقامت فى الخمسينات بثورة يوليو وأممت قناة السويس ، وقامت فى الستينات ببناء السد العالى وبتشييد حركة التصنيع الهائلة . وفى بداية السبعينات خاضت حرب أكتوبر المجيدة . أما فى بقية السبعينات واوائل الثمانينات فلم يتوافر للجيل الصاعد من الشباب مثل هذه التحديات الوطنية الكبرى . لذلك تحول السلاح الذى خضنا به معارك سابقة عن الهدف المرجو ، انقلب الى تدمير الذات أو تدمير المجتمع .

فلنجعل تعمير سيناء هو صيحة معركة التحدى أمام الشباب المصرى فى الثمانينات ونحو ميدان المعركة فلتتسابق كل أحزابنا السياسية بمنظماتها واجنحتها الشبابية .

عودة إلى الداخل :

أحلام قرية مصرية*

فى عطلة الاعياد يتوجه كثير منا – نحن سكان المدن حاليا – الى مسقط رؤوسهم فى قرى مصر ، بالدلتا والصعيد ، وتعتبر هذه المناسبات فرصة لتجديد الاواصر بين ذوى القربى ، والهروب من ضوضاء المدينة ، وصخب الحياة ، وضغوط الاحداث الكبرى فى الوطن وفى العالم
وقد قضيت بعض ايام عيد الفطر فى قريتى بالدلتا .. ورجل الاجتماع لايعرف معنى الاجازة ، مثلما يعرفه الاخرون : استرخاء تام ، ونفض لكل المشاغل والهموم .. فما يسمعه ، وما يراه – حتى لو كان عابرا – وحتى لو كان اثناء اجازة فى حضن قرية وادعة – يجد طريقه الى بنك معلوماته عن مجتمعه .

● الثورة الصامتة فى الريف المصرى

قريتى مثل الاربعة الالاف قرية الاخرى ، شهدت ومازال تشهد ثورة صامتة منذ عدة سنوات . فالثورة ، أى ثورة ، تقاس بمدّى ما يحدث من تغييرات عميقة خلال فترة قصيرة من الزمن .. وبهذا المعنى ، هناك ثورة فى ريف مصر ، تحدث بلا دراما ، وبلا صخب ، وبلا وجود لوكالات الانباء العالمية لتسجيل احداث هذه الثورة .

حتى اوائل الستينات لم يكن فى قريتى ، التى تتكون من بضعة الاف من البشر ، الا مدرسة ابتدائية واحدة ، ولم يكن معظم اطفال القرية يكملون المرحلة الابتدائية .. وكان على القلة القليلة من الاباء الذين يريدون لاطفالهم مزيدا من التعليم ان يرسلوهم الى اقرب مدينة ، على بعد عشرين كيلو مترا ، ولم يكن منهم الا من يعد على اصابع اليدين ينهون تعليمهم الثانوى ، ويلتحقون بالجامعة .

اما الان ، وفى حياة جيل واحد ، لقد تغيرت الاوضاع تغييرا جذريا ، أصبحت هناك

* الجمهورية ، ١٢/٨/١٩٨٢

ثلاث مدارس ابتدائية ، ومدرسة اعدادية ، وأصبح المئات من ابناء قريتى ينهون تعليمهم الثانوى ، ويلتحقون بالجامعات كل عام .

حتى اوائل الستينات ، لم يكن بالقرية مياه نقية صالحة للشرب ، او كهرباء . والآن اصبح كل منزل تقريبا به جهاز للراديو ، وعدد كبير من المنازل به اجهزة تليفزيون ، ومسجلات .. بل ان بعض المنازل – لدهشتى هذه المرة – به اجهزة تليفزيونية ملونة ، واجهزة (فيديو) .

ولم يكن احد من القرية – حتى اوائل الستينات – قد ركب طائرة ، او سافر الى الخارج (باستثناء السفر للحج الى بيت الله الحرام).اما الان فهناك عدة مئات من ابناء قريتى فى عدة بلاد عربية وغير عربية ، يعملون او يدرسون .

كل هذا قد جعل القرية اكثر التصاقا ووعيا بما يدور حولها من أحداث وطنية وقومية وعالمية .

لذلك وجدت الكثيرين يتساءلون عما يحدث فى لبنان ، وفى العراق . ولم تعد لبنان والعراق مفهومات مجردة يسمعون عنها ، فعدد من ابناء قريتى قد زارهما او عمل فيهما فى السنوات العشر الماضية ، ولم تعد الصلة بينهم وبين هذه البلاد وغيرها من الاقطار العربية مجرد صلة روحية معنوية (كبلاد مسلمين) لكنها أصبحت صلة ذكريات ومصالح ايضا .

اصبح فى القرية سوق عملات دائم ، الى جانب سوق الخميس التقليدى . وفى قريتى الان تجد ريالات سعودية ، ودينارات كويتية وعراقية واردنية ، وجنيهات ليبية ، ودولارات امريكية ، وفرنكات فرنسية .. واصبح الفلاحون يتعاملون بهذه المسميات النقدية بغير صعوبة .

وشهدت القرية تغيرات طبقية واضحة ، اصبح الفلاح المعدم الذى تتاح له فرصة السفر الى السعودية أو الكويت ، مثل من يملك عشرة افدنه من حيث دخله السنوى . وبدأ بعض هؤلاء العائدين بمدخراتهم يتنافسون فى شراء الارض الزراعية ، وبناء بيوت من مسلح من طابقين – وهو الامر الذى كان مقصورا على عدد قليل من اعيان الريف الى اوائل الستينات ، وبدأت بعض (العائلات الكبيرة) تفقد هيبتها الاقتصادية والاجتماعية فى مواجهة عشرات الصاعدين من ابناء (الأسر المتواضعة) الذين عملوا وانجزوا ، او هاجروا ووفروا وعادوا .

● احلام جديدة

ان ابناء القرية انفسهم واعون بهذه التغيرات العميقة ، وأصبحت الهجرة المؤقتة للعمل فى احد الاقطار النفطية هى حلم الاباء لابنائهم ، سواء كان هؤلاء الابناء متعلمين او أميين ، وأصبحت هى حلم الشباب والكهول لانفسهم ، سواء كانوا متعلمين او أميين .

لقد اصبح هذا الحلم هو المحور الذى تدور حوله خطط كثير من الفلاحين فى قريتى لذلك فكل من يعمل فى بلاد النفط تلاحقه طلبات الاقارب والاصدقاء فى ان يرسل لهم عقودا ، ولو مزورة ، لكى يحصلوا بها على وثيقة السفر والتأشيرة الى الفردوس الموعود .

تغيرت انواع الشكوى التى اسمعها الان من الاباء نحو ابنائهم فى قريتى .. فهذا الاب ينعى حظ ابنه التعس الذى (ضيع وقته) بالعمل فى الاردن او العراق ، بدلا من السعودية او الكويت ، وعاد بعد سنتين ولم يوفر سوى (ثلاثة الاف جنيه) بينما ابن عمه عاد ومعه (ثمانية الاف جنيه) خلال نفس المدة .. وهذه أم تشكو ابنها الفلاح (العاق) الذى لا يرسل لها سوى مائة جنية شهريا ، ولم يهن عليه من الهدايا الا (مسجل سانيو خايب) طوال سنة بأكملها .

والذين لا يستطيعون السفر للعمل فى بلاد النفط من الفلاحين شبابا وكهولا — تداعبهم ايضا احلام اليسر والثراء ، من مصادر محلية . فقد كثرت مشاريع شراء التاكسيات وتشغيلها بين قريتى والمنصورة عاصمة المحافظة . وانتشرت مشاريع زراعة الخضار بدلا من المحاصيل التقليدية ، التى لم تعرف القرية سواها الى سنوات قليلة ، وهذه كلها تدر دخولا لا بأس بها.

بل اننى صادفت هذه المرة ممارسات طفيلية لبعض ابناء قريتى تمثل نوعا من ابتزاز الدولة من ناحية واستغلال بعضهم لبعض من ناحية اخرى .

ومن ذلك مثلا ، ان عددا من المسرحين من الخدمة العسكرية فى اعقاب حرب ١٩٧٣ ، قد وظفتهم الدولة فى مدارس القرية (كفراشين) بمرتبات تصل الى حوالى اربعين جنيها شهريا . لكن بعض هؤلاء (الفراشين) من ذوى الاصول الميسورة فى القرية لا يمارسون هذا العمل الذى يعتبر حطا من كرامتهم . لكنه يبقون على الوظيفة ويتقاضون مرتبها شهريا ، مع استئجار فلاح اخر من اصول اكثر تواضعا ليقوم بعمل (فراش من الباطن) نظير خمسة او ستة جنيهات ، ويحتفظون لانفسهم (بفائض القيمة) أى الخمسة والثلاثين جنيها الاخرى ، وبالوجاهة والمكانة ، وكل مزايا الموظف الحكومى .

- **الفلاح الماركسى عضو الحزب الوطنى :**

من اكثر اكتشافاتى طرافة هذه المرة فى قريتى هى ذلك الفلاح الذى جاء يناقشنى فى بعض ماأكتب فى صحيفة (الجمهورية) كل خميس . وبدأ بالشكوى بأن (مستورد الجرائد) فى القرية (يستغل) ابناء القرية ، ويبيع عدد الخميس بعشرة قروش بدلا من خمسة ، منتهزا فرصة أقبال اهل القرية على قراءة (الجمهورية) منذ بدأ أحد ابنائهم يكتب فيها .

وقال انه حاول تنظيم حملة مقاطعة (المستورد المستغل).لكن (البرجوازية القروية) التى لا يهمها فارق الخمسة القروش خربت حملته .. وكان حريصا على ان اعلم أن حملة مقاطعة عدد الخميس ليست موجهة ضدى ، لكن ضد (المستورد الجشع).

وفى خلال حديث لم يتجاوز ربع ساعة ، كان هذا الفلاح قد وجد مناسبة ليستخدم كلمات (البروليتاريا) و (الطبقة الكادحة) و (الاقطاعيين الجدد) - ويقصد بهم ابناء القرية الذين أثروا من خلال تربية المواشى او الهجرة للبلاد النفطية - و (الامبريالية الامريكية) و (تحالفها العضوى مع الصهيونية) ومع (الرأسمالية الطفيلية) .

واستمعت لهذا الفلاح الذى لم يحصل على أى شهادة ، لكنه يجيد القراءة والكتابة ، بانتباه وانبهار .. الى ان بدأ يتحدث عن نشاطه الحزبى فى القرية .

وبتلقائية غير شعورية سألته : منذ متى بدأ (حزب التجمع) نشاطه فى القرية .. فقال « لا يوجد له أى نشاط هنا .. أنا اتحدث عن الحزب الوطنى الديمقراطى »

وأبديت دهشتى لاعتقادى بأن فكره اكثر قربا من حزب التجمع ، بل أن لغته هى بالقطع على يسار حزب التجمع بصورته الحالية .. وهز رأسه موافقا ، لكنه فسر اللغز ببساطة شديدة لا تخلو مما نسميه أحيانا « خبث الفلاحين » .. الحزب الوطنى هو حزب الحكومة . ومن خلال عضويته ، يقضى معظم مصالحه ومصالح ابناء القرية .. الحزب لم يسأله عن افكاره .. وهو لم يتطوع بعرضها ..

● هموم قديمة

رغم كل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، ورغم تغير الخريطة الطبقية فى القرية ، الا أن هناك استمرارية فى كثير من مظاهر الحياة .. بما فى ذلك الهموم .

ماتزال هناك رغبة فى ان تقوم الحكومة بمزيد من الخدمات ، او تدعيم الخدمات القائمة ، وهناك الشكوى التقليدية : ضغط المياه النقية ضعيف ، وكثيرا ما ينقطع .. التيار الكهربائى ضعيف ، وكثيرا ما ينقطع ، المدرسون فى مدارس القرية لا يقومون بواجبهم ويضغطون على أولادهم لتلقى دروس خصوصية ، طبيب الوحدة الصحية يفضل الكشف الخصوصى ، وعامل الصحة (التمرجى) يجمع منهم اتاوات على الدواء الحكومى ، المسجد الذى بنوه بالجهود الذاتية لم تخصص له الأوقاف خطيبا او فراشا الى الان ، رغم مرور عدة سنوات على سعيهم لكى يصبح مسجدا حكوميا ، وشكوى من قلة عمال الزراعة وارتفاع الاجور ، وطلبات لإنشاء جمعية استهلاكية اسوة بالمدينة ..

وتطول القائمة .. لكن مجموعة من الفلاحين الاصغر سنا كانت تبادر بمقاطعة الشاكين الاكبر سنا ، لتقول ان الحكومة لن تفعل لهم شيئا .. وان الحكومة هي التي تحتاج المساعدة .. وان على سكان القرية ان يعتمدوا على انفسهم فى حل مشكلاتهم .

هذه الافكار والخواطر والانطباعات التى خرجت بها من اجازة العيد هذا العام تشير الى (ثورة صامتة) فى الريف .. وتشير الى امكانيات جديدة ينبغى على من يرسمون السياسية التنموية من خلف مكاتبهم المكيفة فى القاهرة أن يأخذوها فى الحسبان ..

الفصل الثالث

مصر وإسرائيل وصيف العرب الحزين

- ☐ مطلوب موقف مصرى من دولة البغى والعدوان .
- ☐ عودة إلى الأصول : القومية العربية .
- ☐ الرسالة قبل الأخيرة إلى ياسر عرفات .
- ☐ مذبحة المخيمات .
- ☐ مسئولية أمريكا .
- ☐ مكافأة الجريمة .

مطلوب موقف مصرى من دولة البغى والعدوان*

ترتبط مصر مع إسرائيل بمعاهدة سلام وباتفاقيات كامب دافيد . ولكل معاهدة روح ونصوص . روح هذه الاتفاقيات من وجهة النظر المصرية هى تحقيق السلام الشامل والعادل لكل شعوب المنطقة . وقد أحترمت مصر الى الآن روح ونصوص تلك الاتفاقيات ، أملا منها فى أن تكون خطوة على طريق تحقيق الهدف الأكبر وهو السلام العادل .

- **هدف إسرائيل من معاهدة السلام مع مصر**

أما اسرائيل فإنها خرقت روح هذه الاتفاقيات قبل أن يجف مدادها . وأصبح واضحاً لأى مراقب منصف من داخل المنطقة أو خارجها أن اتفاقيات السلام مع مصر مقصود بها شيىء واحد ، وواحد فقط من وجهة النظر الاسرائيلية وهو تحييد مصر واخراجها من حلبة الصراع العربى الاسرائيلى . وبخروج مصر من معادلة الصراع يتسنى لاسرائيل تحقيق مخططاتها الاستراتيجية الكاملة وهى :

١ – إبادة المقاومة الفلسطينية وتشتيت ماتبقى من الشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة

٢ – ضم الضفة الغربية وقطاع غزة الى اسرائيل نهائيا

٣ – تكريس ضمها للجولان واقعيا وقانونيا

٤ – ضم جزء من أراضى لبنان والسيطرة على منابع ومياه نهر الليطانى

٥ – ضرب أى قوة عسكرية عربية نامية وهى فى المهد

٦ – ضرب أى قدرات نووية عربية أو إسلامية فى الرقعة الممتدة من باكستان الى المغرب ، وهى

(*) الجمهورية ، ١٠ / ٦ / ١٩٨٢

المنطقة التى يعتبرها شارون منطقة أمن يحق لاسرائيل أن تتدخل فيها
٧ – إنشاء دويلات طائفية ومذهبية فى المشرق ، تتحكم فيها اسرائيل عسكريا وسياسيا من ناحية ، وتضفى على كيان اسرائيل العنصرى « شرعية » من ناحية أخرى

هذه الأهداف الاستراتيجية السبعة تباشر حكومة مناحم بيجن تنفيذها منذ أتت للحكم فى إسرائيل عام ١٩٧٧ . ولم تثنها معاهدة السلام مع كصر دقيقة واحدة عن المضى فيها . بل ربما كان فى إسراعها فى تنفيذ خططها هو اطمئنانها الى خروج مصر من معادلة الصراع . ففى خلال السنوات الأربع الأخيرة قامت اسرائيل ببناء ضعف عدد المستوطنات التى كانت قد بنتها فى السنوات العشر السابقة . وضمت القدس العربية ، والجولان . وأغارت على المفاعل الذرى العراقى . وخرقت الأجواء السعودية والاردنية عدة مرات . وشددت من حملات البطش والقمع ضد الشعب الفلسطينى فى الضفة والقطاع . والقت أطنانا من القنابل على المدنيين فى بيروت ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين .

غزو جنوب لبنان

ولايمكن فهم وتفسير الغزو الاسرائيلى لجنوب لبنان والذى بدأ يوم الأحد ٦ يونيه ١٩٨٢ الا فى السياق الاستراتيجى الذى تحدثنا عنه أعلاه . فالتخطيط لغزو لبنان وإبادة المقاومة الفلسطينية كان قائما على قدم وساق طوال الشهور الستة الأخيرة . وبدأت الدوائر الغربية عامة والأمريكية خاصة تتحدث عنه منذ ثلاثة شهور . ثم بدأت الدوائر الرسمية الاسرائيلية نفسها تفصح عن مخططها منذ شهرين . وكانت تصريحات شارون وزير الدفاع وايتان رئيس الأركان طوال الاسابيع الثلاثة الأخيرة فى هذا الشان واضحة لاتترك مجالاً للشك أو التخمين . فقط كانت اشارة البدء فى الغزو تنتظر « ذريعة » مناسبة . وجاءت محاولة اغتيال السفير الاسرائيلى فى لندن لتقدم هذه الذريعة . ولكن حتى لو لم تحدث محاولة الاغتيال ، فلم تكن اسرائيل لتعدم العثور على ذريعة أخرى .

إن عنف وبربرية الغزو الاسرائيلى ، وماسبقه ومايرافقه من غارات جوية كثيفة على المدنيين العزل فى بيروت وكل مدن وقرى الجنوب اللبنانى ، بلغ درجة لم يصلها من قبل فى تارخ اسرائيل الحافل بالعدوان والدموية . والذين كان لديهم أدنى أمل فى أن تغامر إسرائيل من أجل السلام ، أو حتى من أجل حالة الحرب ، لابد أن أملهم هذا قد تمزق كما تتمزق أشلاء الأطفال والنساء بقنابل النابالم الاسرائيلية .

• عبث الأنظمة العربية

ولكن لم تكن إسرائيل تمضى فى مخططاتها العدوانية ، مستخدمة كل وسائلها البربرية إلا مع حالة التشرزم العربى ، وغياب إرادة المقاومة . فالأنظمة العربية فى المشرق لاينقصها السلاح ، ولاينقصها إدراك الخطر الاسرائيلى . ولكن تنقصها الارادة على المقاومة . وقد أهتم بعضها بقمع شعوبها أكثر من اهتمامها بالتصدى للعدوان الاسرائيلى . ودخل بعضها فى حروب مسلحة مع بعضها الآخر أو مع بعض الأقطار المجاورة حول مسائل ثانوية ، متجاهلة الخطر الرئيسى فيالمنطقة ، وهو الخطر الصهيونى . وتكالب بعضها على تكديس الأموال والسلع الاستهلاكية ، أو اقتناء أنظمة تسليح باهظة التكاليف من أجل « الزينة » أو الاستعراض ، وليس من أجل المقاومة دفاعاً عن النفس أو عن الوطن العربى الكبير .

ان غياب روح المقاومة فى المشرق العربى يتناسب تناسبا عكسيا مع زيادة اللحم والشحم والمال والسلاح . فمنذ حرب أكتوبر المجيدة والعالم العربى يزداد ثراء وتسليحاً . ولكن مع كل زيادة فى الثراء والتسليح ، يتضخم الجسم العربى ثقلاً ، ويبطأ حركة ، ويتبلد وعياً ، ويضعف إرادة .

تلكم هى عبثية الأنظمة العربية

ولهذا السبب تتآكل شرعية هذه الأنظمة يوماً بعد يوم . ولهذا السبب تشتد عزلتها عن شعوبها ساعة بعد ساعة . ولهذا السبب تتصاعد الغطرسة الاسرائيلية ، وتمعن فى بربريها . فهى تدرك أنها تتعامل مع جسم عربى هامد بسبب أنظمته الحاكمة التى فقدت ارادة المقاومة ، وفقدت ثقة شعوبها . أما بقية المقاومة فى ذلك الجسم العربى المتضخم فهى قوات منظمة التحرير الفلسطينية . ومن هنا كان اصرار اسرائيل على الاجهاز عليها – لا لأنها تمثل خطرا عسكريا على اسرائيل ، ولكن لأنها تمثل شريان المقاومة الأخير فى الجسم العربى الكبير . وبتدمير هذا الشريان تهمد الجثة تماماً ، وتستطيع إسرائيل ترتيب كل أوضاع المشرق طبقاً للأهداف الاستراتيجية السبعة التى ذكرناها فى صدر هذا المقال .

• ماذا عن أمريكا ، الشريك الكامل ؟

يخطىء من يعتقد أن إدارة الرئيس ريجان ليس لها سياسة واضحة فى المنطقة . قد لايكون لها سياسة معلنة . ولكنها كقوة عظمى – لايمكن أن تمضى بلا سياسة فى هذه المنطقة الحيوية من العالم .

وإلا فما معنى أن ترفع أمريكا حجم المعونة الاقتصادية لاسرائيل قبل اسبوعين من غزو الأخيرو لجنوب لبنان ؟ وما معنى أن تعلن عن بيع ٧٥ طائرة إف – ١٦ جديدة لاسرائيل قبل

عشرة أيام من الغزو ؟ وما معنى أن تصدر تصريحات فى واشنطن عن إحياء الاتفاق الاستراتيجى بين البلدين قبل أسبوع من الغزو ؟ (وهو الاتفاق الذى كانت قد « جمدته » بعد اقبال إسرائيل على ضم الجولان) ؟ ومامعنى أن تستخدم الولايات المتحدة حق « الفيتو » فى كل مرة يقبل فيها مجلس الأمن على قرار إدانه أو توقيع عقوبات على إسرائيل ؟

قد لايكون لأمريكا سياسة صريحة معلنة . ولكن محصلة سلوكها لايترك مجالًا للشك فى أن لها سياسة ضمنية غير معلنة : وهى إعطاء إسرائيل كل مايلزمها من وسائل البقاء والعدوان والهيمنة ، حتى تقوم بترتيب الأوضاع فى المشرق بما يخدم مصالحهمامعاً . ليس هناك تفسير آخر .

لقد كانت أمريكا منذ حرب أكتوبر حريصة على عدم انفجار الصراع العربى الاسرائيلى على نطاق واسع لمدة عشر سنوات . فى أثناء تلك السنوات العشر كانت أمريكا على يقين من قدرتها على تقليم أظافر سلاح النفط ،وتحويله إلى سلاح مضاد يرتد الى صدور شعوب المنطقة . ولم يكن الصراع أن ينفجر على نطاق واسع إلا إذا خرجت مصر من المعادلة .. وقد خرجت مصر – بسبب ظروف عديدة من الصراع بالفعل . لذلك كانت أمريكا شريكاً كاملًا بحق إلى أن تحقق لها إخراج مصر من المعادلة ، وإلى أن أقتربت السنوات العشر من نهايتها .

المطلوب من مصر

لانشك فى نبل مقصد الرئيس الراحل أنور السادات وهو ينشد حلم السلام . ولا نشك أنه فى جهوده من أجل السلام كان يعبر عن رغبة أصيلة تراود الشعب المصرى من أجل وضع حد للحروب وسفك الدماء فى المنطقة . وقد كان السادات رحمه الله يحلو له أن يردد فى السنوات الأخيرة أن مصر « جزيرة للأمن والأمان » فى المنطقة .

ولكن أمور السياسة ومسيرة التاريخ لاتحكمها النيات الحسنة أو المقاصد النبيلة . ومقولة « جزيرة الأمن والأمان » ليست صحيحة إذا كان البحر من حولها هائجا ،صاخب الأمواج . إذ لابد لأحدى هذه الموجات العالية أن تصيب شواطىء « الجزيرة » ، هذا ان لم يكتسح أحد اعاصير هذا البحر الهائج قلب الجزيرة نفسها . المقولة – إذن – ليست صحيحة حتى على مستوى التشبيه البلاغى . فضلًا عن أنها تتجاهل أبسط حقائق التاريخ والجغرافيا والاجتماع والاستراتيجية . وكان الرئيس السادات – رحمه الله – ينظر الى الانقسامات الطائفية فى لبنان وسوريا ، وإلى التطرف الدينى فى إيران ، ومايتتج عنها من فوضى وتدمير وعنف وحروب داخلية ، وحروب حدودية ، ويحمد الله على أن مصر بمعزل عن هذا كله . ونعتقد أنه لو كتبت له الحياة بعد حادث المنصة لكان الرجل قد أعاد مراجعة مقولة « جزيرة الأمن والأمان » ، وغيرها من المقولات

التى صدرت عنه بحسن نية ، وخاصة مايتعلق منها باسرائيل .

لذلك نقول لصانع القرار فى مصر أنه لابد من مراجعة كاملة لسياسة مصر الأقليمية . لايمكن لمصر أن تخدع نفسها ، وتكتفى بالادانات اللفظية لعدوان إسرائيل على لبنان .

هذه ليست دعوة ديماجوجية غير مسئولة . وهى دعوة لاتتجاهل أن هناك « معاهدة سلام » بيننا وبين إسرائيل ، وأن المعاهدة تضع قيوداً والتزامات قانونية على حركة مصر الخارجية . وهى دعوة لاتتجاهل حقيقة أوضاع مصر العسكرية ؛ ولا تتجاهل أولوية المسألة الاقتصادية - الاجتماعية فى إهتمام القيادة المصرية .

ولكن فى نفس الوقت لاينبغى أن تفسر إسرائيل حرص مصر على السلام بأنه سذاجه ، أو ضعف ، أو شلل كامل باستثناء اللسان . ولاينبغى أن تفسر إسرائيل إحترام مصر لمعاهدة السلام على أنه رخصة فى يدها لتعيث فساداً فى المشرق العربى .

إن أضعف الايمان هو أن تجمد مصر كل اجراءات التطبيع بين البلدين . وتجعل استئنافه مشروطاً بالانسحاب الفورى من لبنان . وهناك أشياء أخرى تستطيع مصر أن تقوم بها مع اسرائيل ومع « الشريك الكامل » ، ولا تصطدم باحترام نصوص المعاهدة . لابد أن تدرك إسرائيل أن هناك ثمناً معنويا وماديا تدفعه فى كل مرة تعتدى فيها على الأراضى العربية أو الشعوب العربية .

عودة إلى الأصول : القومية العربية*

من فرط إبتذال الشعارات فى وطننا العربى بواسطة حكامنا ، بدأت الجماهير تمج هذه الشعارات . ولعل الأجيال التى اكتسبت وعيها فى الثلاثين سنة الأخيرة تذكر شعارات من قبيل : « إرفع رأسك ياأخى فقد أنتهى عهد الاستعمار » ، « والاتحاد والنظام والعمل » ، « والزحف المقدس » ، « ودقت ساعة العمل الثورى » ، « والاشتراكية الديموقراطية التعاونية » ، « والاشتراكية العربية » ، « والتطبيق العربى للاشتراكية » ، « والوحدة والحرية والاشتراكية » ، وغيرها من شعارات الحقبة الناصرية . ثم نذكر شعارات من قبيل : « دولة العلم والايمان » ، « ودولة المؤسسات » ، « وسيادة القانون » ، « والسلام الاجتماعى » ، « وأخلاق القرية » ، « والانفتاح الاقتصادى » ، « والشريك الكامل » ، « ومسيرة السلام » ، وغيرها من شعارات الحقبة الساداتية .

وأى شعار يجد صدى لدى الجماهير بقدر مايعبر عن مشاعر عميقة داخل قلوب الناس ، أو يمثل أمال ومطالب مستقبلية لقطاعات عريضة منهم . ولكن الناس تمج هذا الشعار أو ذاك حينما تبالغ القيادة وأجهزة إعلامها فى ترديده ليل نهار ، أو حينما تتجاوزه المرحلة التاريخية ، أو حينما لاينطوى على مصداقية ، أو حينما يصبح كلمة حق يراد بها باطل ، أو حينما يجدوا أن أخذ الشعار مأخذ الجد يكلفهم ثمنا باهظاً من حرياتهم أو أقواتهم أو كرامتهم . والتاريخ مقبرة لافقط للغزاة ، والحكام ، وإنما أيضاً للشعارات . ولكن هناك شعارات تعبر عن ثوابت حضارية ووجدانية وتاريخية . وحتى إذا مجها الناس من كثرة الترديد ، أو حاول الحكام أن يستبدلوها بشعارات أخرى ، فإنها لاتندثر بسهولة . وإذا بهتت أو غابت لفترة ، فإنها سرعان ماتعود . وينطبق ذلك أيضاً على الأغانى والأناشيد . والذين كانوا يتابعون الاذاعات العربية أثناء الغزو البربرى الاسرائيلى للبنان ، ربما سمع بعضهم صوت أم كلثوم ينطلق مرة أخرى بنشيد « والله زمان ياسلاحى » ، الذى غنته لأول مرة منذ ٢٦ سنة أثناء غزو بربرى آخر أشتركت فيه اسرائيل وبريطانيا وفرنسا بعد تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦. وكما كان للنشيد من تأثير وجدانى عميق فى

* الجمهورية ، ١٧ / ٦ / ١٩٨٢

ذلك الوقت ، فإنه ترك نفس التأثير فى يونيو ١٩٨٢ على الأجيال التى كانت قد سمعته أثناء العدوان الثلاثى ، وعلى الأجيال التى لم تكن قد ولدت بعد .

- **لماذا أنفعل المصريون غضبا فى يونيو ١٩٨٢ ؟**

لقد نشبت منذ أسابيع حرب بين بريطانيا والأرجنتين على جزر الفوكلاند . ولكن المصريين لم ينفعلوا بها ، وإن كان البعض يتابع أخبارها ببرود أو عدم اكتراث . حتى الحرب العراقية الايرانية كانت درجة انفعال المصريين بها متوسطة ، وأقرب فى مشاعرها إلى الألم والحزن لاقتتال بلدين إسلاميين ، ولإراقة الدماء وتدمير المرافق والمنشآت . ولكن لم يشتاط المصريون غضباً ، وتوزعت مشاعرهم بين مؤيد معتدل لايران أو مؤيد معتدل للعراق .

أما حرب التتار الجدد على لبنان والشعب الفلسطينى فقد كانت شيئاً مختلفاً تماماً . لقد أحدثت ثورة غاضبة مكتومة فى أفئدة كل المصريين : رجالًا ونساء ، أطفالًا وشبابا ورجالًا وشيوخاً ، المهتمون منهم بالسياسة عادة والذين لم يهتموا بها أبداً . وسبب أن ثورة الغضب هذه مكتومة يرجع الى أن جميع المصريين أحسوا بالسخط وبضرورة عمل شيىء لوقف مجازر هولاكو وتيمورلنك الجديدين ، ولكنهم أيقنوا أنهم عاجزون عن تقديم شيىء إيجابى محدد . أما ثورة الغضب العارمة نفسها فترجع إلى عدة أسباب ، أهمها :

١ - **بربرية وهمجية ودموية اسرائيل** . كان المصريون يسمعون أو يقرأون عما فعلته اسرائيل بالشعب الفلسطينى من تذبيح وتشريد وبطش فى الأربعينات والخمسينات . ولكنهم لأول مرة يرون ويسمعون بالصوت والصورة على شاشات التليفزيون حجم الدمار وكمية الدم المسفوك . ويشاهدون مشاهدة عينية آلاف الأطفال والنساء والشيوخ من المدنيين الفلسطينين واللبنانيين تحت وابل القنابل والأنقاض . هذا الجيش الاسرائيلى ذائع الصيت لم يكن يحارب جيشاً أو جيوشاً أخرى بقدر ماكان يمارس مجزرة إبادة ضد بشر مسالمين ، وضد الأخضر واليابس ، وضد الحضارة الانسانية . وتصور كل أب وكل أم مصرية أن الأطفال الفلسطينيين واللبنانيين الذين تفتك بهم قنابل إسرائيل يمكن أن يكونوا أطفالهم هم . ولابد أن معظمهم تساءل فى صمت ، وبعضهم تساءل بالكلمات : هل إسرائيل هذه التى وقعنا معها معاهدة سلام حقاً تريد السلام ؟ هل بيجن وشارون وإيتان رجال دولة حقاً أم أنهم مصاصو دماء « ساديين » ، يبدو نيرون وجنكيزخان وهتلر بجانبهم نماذج للرحمة والانسانية .

٢ - **الامعان فى الاهانة والاذلال** . لقد شعر المصريون - دون أى توجيه إعلامى رسمى أو غير رسمى - أن إسرائيل لاتريد فقط أن تنتصر عسكريا على العرب فى الأقطار المجاورة . ولا تريد فقط أن تقضى على منظمة التحرير الفلسطينية . ولاتريد فقط أن تؤمن مستوطناتها فى

الجليل . ولكنها تريد أكثر من ذلك أن تمص من عروق كل العرب أى إحساس بالكرامة . تريد لهم أن يعيشوا أذلاء محتقرين . تريد أن تكرس فى أعماق أعماقهم شعوراً أبديا بالنقص والدونية والعبودية . وهى تفعل ذلك بألف طريقة وطريقة . ولكن ربما الذى ترك أثرا لن يمحى بسهولة من الذاكرة صورتين :

° الأولى ، إحتفال تسليم قلعة شقيف (بوفور) للرائد اللبنانى الخائن سعد حداد . وفيه يثير مناحم بيجين أحط النعرات الطائفية حينما يتحدث صراحة عن عودة هذه القلعة التى كان الصليبيون قد بنوها منذ عشرة قرون إلى أصحابها الأصليين . والمعنى لايخفى على أحد . فإذا كانت الهجمة الصليبية الأولى منذ أكثر من ألف سنة قد جاءت وأندثرت فها هو يبدأ تقاليد هجمة جديدة تتضافر فيها اليهودية مع الصليبية ضد الاسلام . وبيجن وغيره من عتاة الصهيونية العنصرية يريدون أن يوحوا أن هذه حرب دينية ، بينما الواقع أنها حرب توسع إستعمارى استيطانى . فقنابل الطائرات الاسرائيلية لم تفرق بين مسلمين ومسيحيين لا فى بحر البقر والخانكة من قبل ، ولا فى مخيمات صبرا وشاتيلا الفلسطينية ، ولا فى الدامور وصيدا وصور اللبنانية .

° الصورة الثانية ، هى تلك التى طالعتنا بها وكالات الأنباء ، ونشرتها **أخبار اليوم** (السبت ١٢ / ٦ /٨٢) لجنود الاحتلال الاسرائيلى يرغمون الأطفال والشباب والرجال العرب على تمريغ وجوههم فى تراب الأرض وأوحالها قرب مدينة صور . وذلك وهم عزل من السلاح وتحت تهديد البنادق الاسرائيلية . ماهو الهدف العسكرى هنا ؟ إن الهدف نفسى . أنها رسالة موجهة لكل العرب – القاصى منهم والدانى – وإلا ماسمح جنود الاحتلال لمصورى الصحافة والتليفزيون أن يسجلوا هذا المنظر بالصوت والصورة.والرسالة بكل نرجسيتها تقول لكل العرب شيئاً واحدا : أننا هنا الأسياد المنتصرون ، وأنتم العبيد الأذلاء .

٣ – يونيو شهر المجد الاسرائيلى . بعد الانتصار الاسرائيلى الكاسح على الجيوش العربية فى يونيو ١٩٦٧ ، دأبت إسرائيل على تكريس أسطورة التفوق والجيش الذى لايقهر ، وعلى الهوة الحضارية الكبيرة التى تفصل بينهم وبين العرب . وقد صدقت اسرائيل نفسها ، وصدقها الغرب ، بل وصدقها بعض العرب أنفسهم . ولكن حرب أكتوبر ١٩٧٣ هزت هذه الأسطورة هزا عميقاً . وأثبت العرب أنهم قادرون على التخطيط والحشد والقتال والأداء الدبلوماسى الرفيع . ولكن إسرائيل ماكانت تتركهم ينعمون بهذا « الاكتشاف الجديد» ، أو ليطوروا قدراتهم لمعركة تالية . وأهم من ذلك كانت حريصة على ألا يصدق الغرب ذلك ، ويبدأ فى التعامل مع الطرفين على قدم المساواة . ومن هنا دأبت بسرعة على سلسلة من العمليات العسكرية والسياسية الجسورة . وساعدها على ذلك عاملان . أولهما التأييد الأمريكى بالمال والسلاح والدبلوماسية .

وثانيهما التشرزم العربي . وقد أختارت إسرائيل لعملياتها الجسورة هذه شهر يونيو من كل عام .وهو ذكرى الهزيمه العربية عام ١٩٦٧ . فكان ضربها للمفاعل الذرى العراق ، مثلاً ، فى أوائل شهر يونيو عام ١٩٨١ . وكان غزوها للبنان فى نفس الموعد عام ١٩٨٢ . والرسالة التى توجهها إسرائيل للعرب والعالم بهذا التوقيت هى أن التفوق الاسرائيلى الكاسح هو القاعدة ، وهو « الحقيقة الثابته » فى هذا الجزء من العالم . وأن ماحدث فى أكتوبر ١٩٧٣ كان هو « الاستثناء » الذى لن يتكرر .

• عودة إلى القومية العربية

ولكن عوامل الغضب المصرى هذه تنبع فى النهاية من مصدر أكثر عمقاً فى الوجدان البشرى والذاكرة الجماعية لهذا الشعب العريق . هذا المصدر هو الاحساس بالعروبة كهوية وانتماء ، وكتاريخ ، وحضارة ومصير ، ومستقبل . الاحساس بتلك الهوية وبذلك الانتماء هو الذى يطلق عليه علماء السياسة والاجتماع لفظ « القومية » . فالقومية العربية كشعور ومصير ومصالح هى التى جعلت المصريين ينفعلون بهذه الدرجة لما يحدث لأخوة لهم فى لبنان . وهو الأمر الذى يفسر لماذا لاينفعلون بنفس الدرجة لما يحدث فى فوكلاند أو بولندا أو زائير .

ولأن « القومية العربية » كشعار زاد ترديده بمناسبة وبغير مناسبة فى الماضى ، ولأنه كشعار أرتكبت باسمه بعض الممارسات الممجوجة من بعض الحكام العرب ، زهد المصريون فى استخدامه فى السنوات الأخيرة حتى كاد يسقط من القاموس السياسى فى الثمانينات . ولكن القومية العربية كاحساس وجدانى عميق بالانتماء إلى أمة عربية واحدة ، فلم ولن يزول . والقومية العربية كوحدة مصير وكمستقبل ستظل أحد الثوابت فى الضمير القومى للمصريين ولكل العرب .

قد يغضب المصريين من بعض الحكام السفهاء الذين يبددون أموال شعوبهم فى الخارج ، بينما يقترون على أخوانهم فى بلاد عربية فقيرة . وقد يغضب المصريين من بعض الحكام العرب المستبدين الذين يبطشون بشعوبهم ، أو يزايدون بالالفاظ العنترية وهم عاجزون . وقد يغضب المصريون من بعض الممارسات الفردية من أشقاء عرب هنا أو هناك .

ولكن حتى هذا الغضب هو عنوان الانتماء لأمة واحدة . لأننا لانغضب إلا بقدر مانتوقع من بشر تربطنا بهم روابط وثيقة . ومهما كان غضب بعض المصريين من بعض أشقائهم العرب فى بعض المواقف، فإنه فى لحظات الدراما القومية يتبخر هذا الغضب ، ولايبقى الا الاحساس الأعمق بوحدة الانتماء ووحدة المصير .

هذا ماكشفت عنه أحداث لبنان ، وماكشفت عنه كل لحظات الدراما القومية فى تاريخ العرب الحديث . فالأمة العربية تتوحد فى مشاعرها فى ساعات النصر وفى لحظات الهزيمة ، وفى الافراح وفى الاتراح . توحدت هذه الأمة فى مشاعرها عندما أممت مصر قناة السويس ، وحينما تعرضت للعدوان الثلاثى ، وحينما حققت أول وحدة بين مصر وسورية ، وبكت هذه الأمة جميعها حين وقع الانفصال ، وفى وقت الهزيمة ، وحينما تنحى عبد الناصر ، وحين مات عبد الناصر . وتوحدت هذه الأمة بمشاعرها حينما نشبت حرب أكتوبر .

الأمة العربية متوحدة المشاعر والمطالب – رغم إنقسام حكامها وتشرزم أنظمتها . والأمة العربية قادرة على البذل والعطاء والاستبدال لولا عجز حكامها . وشعوب هذه الأمة تريد أن تقاوم ، ولكنها تجد نفسها مكبلة ، لابقيود الاستعمار كما كان الحال فى الماضى ، ولكن بقيود وأغلال من صناعة محلية . وإلا فكيف نفسر أن تخرج المظاهرات الشعبية إحتجاجاً على العدوان الاسرائيلى فى كل من أثينا وباريس وروما وبون ، ولا تخرج مظاهرة واحدة فى أى عاصمة عربية ؟ كيف لايحدث هذا – وهو أضعف الايمان – إلا لأن الحكام العرب قد كبلوا شعوبهم بالاغلال ؟

القومية العربية فى الثمانينات تبحث عن صيغة عقلانية جديدة تتجاوز رومانسية الخمسينات ، واندفاعة الستينات . المطلوب صياغة مشروع قومى عربى جديد يتناسب مع الربع الأخير من القرن العشرين ، ويستفيد من كل دروس النجاح والفشل فى الثلاثين سنة الأخيرة .

لياسر عرفات*

عزيزى أبو عمار :

ربما لايتسع وقتك لتقرأ هذ الرسالة . وربما لاتصلك أصلا بسبب أطواق ١٣٠٠ دبابة اسرائيلية من الصلب والنار تعزلك عنا ، وبسبب أطواق ٤٠٠٠ دبابة عربية من الخوف والبطش تعزلنا عنك

وحتى اذا تسللت الرسالة اليك عبر هذه الاطواق ، فربما تهز رأسك الما وحسرة ، لانها لاتحمل الا الكلمات .. فمعذرة – يا أبو عمار – لان الكلمات هى كل مايملكه أبناء شعوب امتك المائة وخمسون مليونا

وصدقنى أننا محاصرون مثلك تماما .. بل ربما كنت انت وأخوتك المقاتلين أفضل منا حالا . على الاقل أنت مازلت تملك السلاح . أما نحن – أبناء الامة العربية خارج بيروت الغربية – فقد نزع سلاحنا منذ فترة طويلة .

لم يبق لنا الا الكلمات . وحتى هذه فى معظم أقطارنا لايسمح بها .. ولكن فى مصر بقية من أمل ... وبقية من كلمات ، فاسمعها حتى لو ضاعفت من آلامك وحسرتك

يا أبو عمار :

العالم كله يراقبك فى لحظة صدق تاريخية .. وأنت وأخوتك المناضلون تحت حصار جهنمى ، فرضه عليك اعداؤك ، واعداء الامة العربية ، وأعداء الانسانية . والعالم كله يعرف انهم متعطشون الى دمائك .. ويريدون أن يصلبونك كما صلبوا المسيح . ويبتغون بذلك أن يصلبون أمة بأسرها .

العالم كله يعرف أنك ورفاق السلاح لاتتجاوزون عشرة آلاف مقاتل ، وعتادكم قليل ،

(*) الجمهورية ، ٨ / ٧ / ١٩٨٢

وانكم محاصرون فيما لايزيد عن عشرة كيلو مترات مربعة ، وقد شح طعامكم ، ونضبت ينابيع الماء والمروءة من حولكم . وان عدوكم قد حشد مائة الف من زبانيته ، مدججين بأحدث ماانتجته ترسانة الحرب الامريكية ، وانه يحيط بكم من الارض والبحر والسماء . ولا ينقص هذا العدو أشهى الطعام ولا أعذب الشراب .

العالم كله يعرف أن حولك حصارا من نوع أخر ، أشد هولا وأكثر بشاعة ، وهو حصار الانظمة العربية . ويعلم أن من هذه الانظمة من هو متواطىء ، ومن هو متخاذل ، ومن هو صامت ، ومن هو عاجز .. وان بعض هذه الانظمة لا هم لها الا الاحتفاظ بكراسى الحكم مهما كان ينخر فيها السوس . وان هذه الانظمة – ياأبو عمار – تضغط عليك لكى تستسلم . وهى تزين لك الاستسلام كما استسلمت هى من قبل . وهى تمنيك بالحياة الدنيا ، التى آثرتها هى نفسها ، حتى لو كانت حياة عار وشنار . لقد تبلد احساسهم بمعنى الكرامة ، وسقطت من ذاكرتهم امجاد معركة «الكرامة ». إنك لابد وأن تذكر – ياأبو عمار – تلك المعركة فى وادى الاردن ، فى اعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ . لقد كانت هى تذكرة دخولكم الى قلوب الامة العربية .. وكانت هى ومضة الامل فى السماء العربية الكئيبة . أنكم لم تنتصروا فى تلك المعركة عسكريا . لكنكم صمدتم وحاربتم وكبدتم العدو خسائر فادحة ، وكان مايزال فى قمة جبروته وخيلائه بعد اجتياحه لجيوشنا النظامية قبل ذلك بعدة شهور .

لقد كانت وقفتكم الباسلة فى معركة « الكرامة » هى التمهيد النفسى لاسترداد الثقة بالذات بين أخوتكم على ضفاف القناة وعلى تلال الجولان .. وكانت هى الطريق الحقيقى الى رمضان ، وانتصار العرب على خوفهم وعلى عدوهم فى حرب أكتوبر .

لقد خضت معركة « الكرامة » – ياأبو عمار – ضد كل الحسابات العسكرية التقليدية الباردة . لقد كانت لحظة صدق تاريخية ، واتخذت فيها القرار الصحيح .

كانت أمتنا المنكسرة فى حاجة الى القدوة والالهام. وقدمتم لنا وقتها ، كما قدم لنا عبد المنعم رياض بعدها بقليل ، القدوة والالهام

ياأبو عمار :

ستقول لك الانظمة كلاما كثيرا لكى تستسلم .. ستقول لك « رحمة ببيروت » ، « وشفقة بلبنان » .. ستقول لك أن الحفاظ على حياة المقاتلين الفلسطينيين هو خير وابقى ، الى أن تحين فرصة ثانية تدخل فيها معركة « تختار الانظمة مكانها وزمانها » .

ستقول لك الانظمة انها « ستضغط » على أمريكا وروسيا وأوروبا – بعد الاستسلام – لكى تضمن « تسوية عادلة » لمشكلة شعبك المشرد. وستقول انها ستضمن لك « استسلاما مشرفا » يحفظ ماء الوجه . وستستقبلك فى عواصمها « استقبال الابطال » .. وحكام العرب فى ذلك خبراء . فطالما حولوا استسلامهم الى أمجاد ، وهزائمهم الى انتصارات . وطالما نصبوا أنفسهم أبطالا .

وربما سيصدق بعض رفاقك هذا الكلام ، ياأبو عمار . وربما سيمثل هذا البعض حلقة حصار ثالثة من حولك – تضاف الى حلقة حصار العدو ، وحلقة حصار الانظمة العربية .

وربما يقولون لك أن تعويض السلاح سهل ، فيما بعد . وان العودة الى ميدان المعركة فى لبنان أو الاردن هو أمر ممكن ، فيما بعد . لكن تعويض المقاتلين هو اصعب ، لان اعداد المقاتل يستغرق عشرين عاما

ويبدو هذا الكلام – ياأبو عمار – معقولا لاول وهلة ، ومنطقيا لأول لحظة . ولكن هذا المنطق ياأبو عمار هو منطق الجيوش النظامية التى تقف على أرضها ، ومن ورائها دولتها . انه ليس منطق الثوار أو الحرب الشعبية .

ياأبو عمار :

كلام الانظمة ، أو حتى كلام بعض الرفاق ، قد يبدو جذابا لك ، وأنت فى لحظة تأرجح بين الحياة والموت . لكن لاتصدق ، ولاتستسلم، وحارب حتى النهاية .

وهذه الدعوة – ياأبو عمار – ليست دعوة « للانتحار » .. ولكنها دعوة للنصر أو الاستشهاد . وهى ليست كلاما عاطفيا نتطوع به ونحن فى « أمان »القاهرة ،ولكنه كلام يرتكز على « واقعية » من نوع آخر ، يختلف عن « واقعية » الأنظمة .

واقعية « الرعايا » تدرك أنه ليست لك دولة فلسطينية تنسحب من بيروت لتذهب اليها وتحتمى بأرضها .

واقعيتنا – نحن « الرعايا » – توقن انه ليست هناك عاصمة عربية واحدة مستعدة لقبولك أنت ورجالك بسلاحكم الحالى ، أو بأى سلاح آخر تحصلون عليه فى المستقبل . ولكن كل العواصم العربية مستعدة لقبول بعضكم « كلاجئين » ، لكى « تحيوا » فيها ماتبقى لكم من سنوات العمر ، حياة ذليلة ، بلا حرية فى الكلام أو الحركة . وستخرجون من الحصار فى

عاصمة عربية واحدة لكى تقعوا فى واحد وعشرين حصارا عربيا ، فى احدى وعشرين عاصمة عربية أخرى . ولن تكونوا فى ذلك أفضل حالا من بعض « الرعايا » التى تحاصرها أيضا انظمتها الحاكمة.

لا ، ياآبو عمار :

لاتصدق ، ولا تستسلم ، وحارب أنت ورجالك حتى النهاية.

ان صمودكم الى الآن هو الذى حرك العالم بأسره ، وهو الذى هز ضمائر الملايين ، وهو الذى أخرج المظاهرات الشعبية فى أثينا وروما وبون وباريس ولندن وواشنطن ، لكى تحتج على عدوان التتار الجديد.

أن صمودكم الى الآن هو الذى حرك .. حتى بعض ضمائر اليهود فى العالم ، بل وفى داخل اسرائيل نفسها . ولعلك سمعت عن مظاهرة المائة الف فى تل أبيب ، ترفع علامات الغضب والسخط على بيجن وشارون وايتان ، اصحاب المجزر الالى الجديد فى المنطقة.

لا ، ياأبو عمار :

لاتصدق ، ولاتستسلم ، وحارب حتى النهاية .

هذه ليست دعوة الى « الانتحار » .. انها دعوة الى الحياة

فاذا انتصرت ، ياأبو عمار ، فانك تكون قد رددت الينا حقا اغتصبوه من شعبك . واذا استشهدت .. ياأبو عمار ، فانك تكون قد رددت الينا احساسا بالكرامة كاد أن يجف فى عروقنا.

ولتكن على ثقة أن عروقا تجرى فى دمائها الكرامة ستلتقط الراية ، وستواصل المقاومة حتى النصر.

وفى كلا الحالين ياأبو عمار ، النصر أو الاستشهاد ، فانك ستكون قد كسرت حلقة الحصار الطويل الذى فرضته الانظمة العربية على شعوب هذه الامة.

لاياأبو عمار :

لاتصدق ،ولا تستسلم ، وحارب حتى النهاية.

هذه ليست دعوة الى الانتحار . انها دعوة الى الحياة . انها دعوة الى ثورة حتى النصر .

واإسلاماه : مذبحة المخيمات*

ماحدث فى معسكر صبرا وشاتيلا ابتداء من ظهر يوم الجمعة الماضى وحتى صباح السبت هو فصل آخر من فصول جريمة أكبر فى حق الشعب الفلسطينى ، والامة العربية وفى حق الانسانية جمعاء .

واذا كان هذا الفصل هو ابشعها جميعا ، فليس هو الفصل الاول ، وليس هو الفصل الاخير .

الجريمة لم تكتمل بعد . وكلما منى العرب انفسهم بقرب انتهائها فاجأهم المجرم بغير مايتمنون .. وكلما غضوا النظر عن فصل بشع من فصول الجريمة على أمل أن يكون آخر فصولها ، فان المجرم سرعان مايبدد هذا الامل ويرتكب ماهو ابشع ..

اخترق المجرم حدود دولة عربية وتوغل فيها ، وغضت الانظمة العربية بصرها ، على أمل أن يتوقف المجرم على مسافة أربعين كيلو مترا داخل لبنان – كما قال فى البداية ..

ثم توغل حتى وصل الى مشارف عاصمة عربية لاول مرة فى تاريخ صراعهم معه وانزعجت الانظمة ولكنها لم تفعل شيئا ، على أمل أن يكون ذلك هو نهاية المطاف .

ثم حاصر المدينة ، وقطع عنها الغذاء والماء والكهرباء ، وبدأ يصليها نارا حامية من البر والبحر والجو ، وانزعجت الانظمة الحاكمة وبدأت تصيح بأعلى صوتها مستغيثة لافقط من أجل آلاف الضحايا فى المدينة المحاصرة ، ولكن أيضا من أجل كراسى الحكم التى تتربع عليها ، والتى بدأت تهتز من تحتها بسبب غضب شعوبها ..

وهرولت الوفود الى من اعتقدوا انه يستطيع ان يكبح جماح المجرم فوعدهم خيرا ، ولكن

(*) الجمهورية ، ٢٣ / ٩ / ١٩٨٢

بشرط ... وكان الشرط هو رقبة المقاومة الفلسطينية . وقال لهم بصريح العبارة انه رغم اختلافه مع المجرم فى بعض الاهداف وفى بعض الوسائل ، الا انه يشترك معه فى هدف استسلام المقاومة الفلسطينية واخراجها من بيروت . وتململت بعض الانظمة العربية قليلا ، ولكنها قبلت فى النهاية هذا الشرط المجحف، ومارست من الضغوط المعنوية والسياسية على المقاومة بقدر ما مارست عليها اسرائيل من العطش والتجويع والقنابل ، على مدى سبعة وسبعين يوما ..

واخيرا رضخت قيادة المقاومة الفلسطينية لضغط « الاخوة الالداء » والاعداء الاشداء . وأشرف « الكبير القادر » ، على عقد اتفاق لوقف اطلاق النار ، وانسحاب المقاومة من بيروت ، وقدم هو ضمانات حماية المدنيين الفلسطينيين الذين يعيشون فى بيروت ، والذين كانوا قد لجأوا اليها منذ خمس وثلاثين سنة ، بعد أن شردهم المجرم من ديارهم ، فى أحد الفصول المبكرة لجريمته ..

وخلال تنفيذ الاتفاق الذى أشرف عليه « الكبير القادر » تم للمجرم فرض رئيس من اختياره على لبنان . ولكن الرئيس الجديد الذى اتى على أسنة حراب المجرم ، تراءى له فى لحظة صفاء مع النفس أن يتعامل مع « الكبير القادر » مباشرة ، وأن يحاول تهدئة خواطر بعض قطاعات الشعب اللبنانى ، حتى يحسن قليلا من صورته الكريهة كسفاح سابق ، وكصنيعة للمجرم .

وبدأت بعض القطاعات الشعبية اللبنانية ، المعادية له فى السابق .. تستجيب لمحاولة الرئيس الجديد وتغفر له ماسبق من الذنوب على أمل أن تنتهى الجريمة ..

وبدأ الرئيس اللبنانى المفروض يتوسل الى المجرم أن يمهله بعض الوقت لتنفيذ ماكان قد وعد به . ولكن المجرم ماكان لينتظر ، بل ساورته الشكوك حول اخلاص صنيعته ، فدبر اغتياله بكفاء واقتدار .

وانتهى بشير الجميل قبل أن يتقلد السلطة رسميا بايام قليلة . وتحولت أحلامه الى أثر بعد عين . وحزن عليه معظم اللبنانيين بما فى ذلك أعداؤه السابقون . وحزنت عليه معظم الانظمة العربية ، بل وحزن عليه بعض الفلسطينيين من ضحاياه . وقد يبدو ذلك غريبا فى هذا الزمن الاغبر .. ولكن لاغرابة ونحن فى عصر الانحطاط العربى . لقد تقلصت بدائلنا الى الاختيار بين ماهو سيء وما هو أسوأ . حقا حزن الكثيرون على بشير الجميل رغم ماضيه السيء ، لاحساسه بأن المجرم لايمكن أن يدخر له الا ماهو أسوأ ..

وقد تحققت الاحاسيس والمخاوف الفلسطينية واللبنانية والعربية .. فبعد جنازة بشير الجميل

بأربع ساعات ، وبعد أن انكر مسئوليته عن القتل والصقها بأخرين ، تحرك المجرم بجحافله ودباباته ، واحتل غرب بيروت ، وضرب بالاتفاق الذى كان قد وقعه مع « الكبير القادر » عرض الحائط .

ثم اطلق المجرم بعض أعوانه وباشرافه وتحت حمايته ، على النساء والاطفال والشيوخ فى معسكرى صبرا وشاتيلا لكى يتولوا الاجهاز عليهم ، والتمثيل بجثثهم فى أكبر وأبشع مذبحة بشرية فى النصف الثانى من القرن العشرين

● **لماذا هذا الفصل من الجريمة**

المجرم الرئيسى فى مذبحة صبر وشاتيلا هو اسرائيل فى اشخاص حكامها بيجين وشارون وايتان .. وللمجرم الرئيسى اعوان محليون داخل لبنان ، وشركاء متواطئون خارج لبنان ..

ولكن بصرف النظر عن الاعوان فى الداخل أو المتواطئين فى الخارج ، لماذا قامت اسرائيل بهذه المذبحة الشنعاء ، التى بزت فيها كل وسائل هتلر النازية ، وكل وسائل هولاكو البربرية ؟

فى الاجابة على هذا السؤال لابد أن نستبعد بعض التفسيرات المسطحة، وكل الذرائع الجوفاء ..

فليس صحيحا أن اسرائيل دخلت بيروت الغربية لكى تحفظ النظام فى اعقاب اغتيال بشير الجميل .. فلا أحد يصدق ان اسرائيل حريصه على النظام أو الاستقرار ، وهى التى تزدهر على الاضطراب وعدم الاستقرار فى كل بلاد المنطقة .

هذا فضلا عن أن الجيش اللبنانى كان قد دخل وانتشر فى بيروت الغربية وحول المخيمات الفلسطينية كذلك لايمكن لعاقل ان يصدق دعاوى اسرائيل بأنها دخلت بيروت الغربية للقبض على الفين من المقاتلين الفلسطينيين الذين تركتهم منظمة التحرير وراءها ، مناقضة بذلك الاتفاق الذى وقعته باشراف المبعوث الامريكى فيليب حبيب ..

فلو كان ذلك صحيحا لكانت اسرائيل قد ملأت الدنيا صياحا منذ اسبوعين ، ولما كانت قد انتظرت كل هذا الوقت ، وهى التى تبحث دائما عن اتفه عذر لكى تتدخل وتقتل وتحتل ، كما أن أعوانها فى الداخل ، وأكبر اولياء نعمتها فى الخارج ، ماكانوا ليصمتوا لو أن منظمة التحرير كانت قد نقضت الاتفاق ..

بالعكس لقد اعترف الرئيس ريجان فى بداية خطاب مشروعه للتسوية فى ١ / ٩ /

١٩٨٢ ، بأنه يتحدث الى شعبه والى العالم بعد أن خرج آخر مقاتل فلسطينى ، وبعد أن أتمت المقاومة انسحابها حتى قبل التاريخ المقرر بعدة أيام . كما أن أمريكا ، مع كل تواطئها مع اسرائيل ، لم تستطع أن تبتلع هذه الاكذوبة ، وصرح متحدث أمريكى رسمى بأنه لا توجد لدى بلاده آلا دلائل على وجود مقاتلين فلسطينيين فى بيروت الغربية ..

كذلك نستبعد أن يكون هدف اسرائيل الرئيسى هو القضاء على القوات العسكرية للحركة الوطنية اللبنانية .. فهذه القوات صغيرة الحجم .. (لاتتجاوز ثلاثة آلاف) . وضعيفة التسليح ولا تمثل – خطرا – على اسرائيل أو على الحكومة اللبنانية ، أو الجيش اللبنانى ..

ولم تطلب الحكومة اللبنانية أو الجيش اللبنانى من إسرائيل القبض على المواطنين اللبنانيين المنخرطين فى الحركة الوطنية أو تأديبهم . على أى الأحوال ربما كان ذلك أحد أهداف اسرائيل ولكنه بالقطع لم يكن هدفها الرئيسى .

اذن ماهو هدف اسرائيل من المذبحة ؟

الذى يدرس التركيب الاجتماعى للشعب الفلسطينى جيدا ، يدرك على الفور لماذا استهدفت اسرائيل تدمير المخيمات الفلسطينية ، وأفناء سكانها ، وخاصة من الاطفال والنساء والشباب ..

● **مخيمات اللاجئين مصدر لا يفنى**

منذ أسبوعين اشتركت فى مناقشة رسالة ماجستير قدمها الباحث الفلسطينى عبد المجيد عامر الى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بالقاهرة . وهى دراسة ميدانية متعمقة « لمخيم شاتيلا » ، وهو أحد المخيمين اللذين تعرضا للمذبحة الاسرائيلية ..

من أهم ماكشفت عنه هذه الدراسة هو قوة التماسك الاجتماعى بين الفلسطينيين فى المخيمات .. وهم أكثر المجموعات الفلسطينية تمسكا بهويتهم الوطنية . وقد قاوموا على مدى خمسة وثلاثين عاما كل محاولات الاذابة والانصهار التى قامت بها كثير من الاطراف المحلية والعالمية ، بسلامة نية أو بسوء نية ..

ورغم أهوال الجوع والفقر والمطاردة والغارات الجوية الاسرائيلية على سكان المخيمات طوال السنين الماضية ، فان تمسكهم بهذه الهوية الوطنية لم يضعف بل اشتد ، واملهم فى العودة الى فلسطين لم يذبل بل نما ، واستعدادهم للتضحية فى سبيل « القضية » لم يتقلص بل تضاعف

لقد كشف البحث عن أن معظم العائلات فى مخيم شاتيلا قد فقدت واحدا أو أكثر من افرادها ، ومع ذلك فان كل عائلة تدفع بابنائها وبناتها متى بلغوا سن العاشرة لكى ينضموا الى المقاومة الفلسطينية ، كأشبال أو زهرات ، ثم كمحاربين أو محاربات فى سن الرابعة عشرة ..

باختصار ، أظهرت هذه الدراسة وغيرها من دراسات قام بها باحثون انجليز وأمريكيون ويابانيون ، أن مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان وغيرها هى المستودع الرئيسى لرجال ونساء المقاومة الفلسطينية . وان نسبة المقاتلين من هذه المخيمات تفوق بمراحل نسبتهم من المجموعات والجاليات الفلسطينية الأخرى التى استقرت واندمجت فى الاقطار « المضيفة » ..

واسرائيل لاتهزل فى تعاملها مع الشعب الفلسطينى أو الامة العربية ، كما نهزل نحن ، وهى لاتدير صراعها معنا باستخفاف أو تردد أو عشوائية .

هى تعلم جيدا من أين تأتى القوة المعنوية والعسكرية للمقاومة الفلسطينية . هى تعلم أن المخيمات هى المعين الذى لا ينضب لاستمرار النضال الفلسطينى . لذلك كان أول مافعلته فى الاسابيع الاولى لغزو لبنان هو تدمير الكيان المادى للمخيمات قرب صور وصيدا وقتل من استطاعت وتشتيت الاخرين ..

لكنها لم تكن قد فعلت ذلك – الى يوم الجمعة الماضى فى مخيمات الفلسطينيين قرب بيروت . وربما كانت موافقة ياسر عرفات ورجاله على الخروج من بيروت ، هو لانه كان يدرك بحسه الوطنى الصادق وتجارب سنوات الكفاح ، أن الامهات الفلسطينيات فى المخيمات يمثلن رصيدا استراتيجيا لاينضب .

لذلك فالرجل لاييأس ، ولم تفارقه ابتسامة الواثق من أن أمهات المخيمات هن أكبر ضمان لاستمرار المقاومة ، مهما عظمت الاهوال ، ومهما زاد عدد دبابات وطائرات بيجين وشارون وايتان ، ومهما تقاعست الانظمة العربية الحاكمة .

وربما هذا اليقين هو الشىء الوحيد الذى يلتقى فيه عرفات وشارون . لذلك قال ايتان قائد جيوش العدو فى الساعة الاولى لاجتياح بيروت الغربية « اننا سندمر ماينبغى تدميره من أجل سلامة اسرائيل .. »

ولاشك أن ايتان كان يقصد المنبع الرئيسى الذى يهدد اسرائيل أى نساء واطفال الشعب الفلسطينى فى المخيمات ..

لذلك فالذى يستبعد أن تكون اسرائيل هى المخططة والمدبرة والمحرضة على مذبحة النساء والشيوخ والشباب والاطفال،الذى يستبعد ذلك عليه أن يرجع الى صفحات كتاب مناجم بيجين « **التمرد** » ..

فى ذلك الكتاب يدافع بيجين عن مذبحة دير ياسين التى قام بها فى ابرايل ١٩٤٨ ؛ بل ويفخر انه لولا تلك المذبحة ، لما تشتت الفلسطينيون خوفا وهلعاً . ولولاها لما كان يمكن افراغ فلسطين من معظم سكانها لكى يتسع المجال لتوطين الصهاينة الذين وفدوا الى « **أرض الميعاد** » ..

واذا كان بيجن على يقين من أن المذابح التى نفذها منذ خمس وثلاثين سنة ضد الشعب الفسلطينى كانت شرطا ضروريا لقيام الدولة اليهودية ، فانه الان يدرك أن افناء الشعب الفلسطينى هو شرط استمرارها فى الوجود .

- **وا .. اسلاماه**

كان هولاكو زعيم التتار يؤمن بأن الضمان الوحيد للقضاء على مقاومة اعدائه الى الابد هو أن لايكتفى بالانتصار على جيوشهم عسكريا ، وانما بان يفنى نساءهم واطفالهم حتى لاتقوم لهم قائمة ، وحتى لايخرج من صفوفهم طفل ترضعه أمه لبن المقاومة والانتقام .

لذلك كان هولاكو لايبقى ولا يذر . كذلك كان شأن هتلر فى تعامله مع اعدائه خاصة اليهود .. وكان يؤمن انه لايجدى معهم الا ماسماه « بالحل النهائى » ، وهو الذى يعنى الابادة الجماعية الكاملة ..

طبعا لم ينجح هولاكو فى ابادة كل اعدائه عن بكرة ابيهم . ولم ينجح هتلر .. بدليل أن أمثال بيجين وشارون قد افلتوا من الابادة .. ولكن بدلا من ان يتعلموا من دروس التاريخ ، تعلم بيجين وشارون من اعداء الانسانية والتاريخ .. تعلموا من فرعون وهولاكو وهتلر .

مع أمثال هولاكو وهتلر لايجدى الاقناع ، ولاتجدى التنازلات .. لقد حاول الخليفة العباسى فى اليوم العاشر من شهر فبراير ١٢٥٨ أن يثنى هولاكو وعساكره عن اقتحام بغداد .. وخرج الى اسوار المدينة هو وثلاثمائة من خاصته وقضاته وقواده مستسلمين يعرضون عليه عاصمتهم بما فيها من كنوز الثروة والعلم فى مقابل الامان ..

لكن البربرى السفاح لم يَقنع بكل ذلك ، وامر بقتلهم جميعا ، ثم اطلق جنوده على

سكان مدينة السلام فنهبوا وقتلوا ومثلوا بأهلها ودمروا وأحرقوا ، حتى تحولت مياه دجلة الى اللون الأحمر من كثرة ماسال من دماء ..

وانطلق التتار غربا ، باتجاه سوريا ومصر ، يقتلون ويدمورن كل مايعترض طريقهم ، ولم تفلح محاولات الاسترضاء أو الاستسلام أو حتى تعاون بعض حكام بلاد العرب والمسلمين معهم ضد بعضهم الاخر . فكثيرا ماغدروا باصدق حلفائهم ، كما غدرت اسرائيل بحليفها بشير الجميل بعد أن استنفد اغراضه .. وتم للتتار اجتياح سوريا ، وتقدموا الى جنوب فلسطين فى طريقهم الى مصر .. وبدلا من الاستسلام أو الاسترخاء أو التحالف ، قيض الله لمصر وللاسلام وللانسانية **حاكما لايخاف هو عز الدين قطز** ، وقائد جسورا لجيوش مصر هو **الظاهر بيبرس** .

كانت مصر ماتزال منهكة بحروب مائة عام مع الصليبيين . لكن حاكمها وقائد جيوشها وعيا أهمية التحدى التاريخى . وانطلقا عبر سيناء لملاقاة جيوش التتار الجرارة فى عين جالوت ..

وكانت قوات مصر اصغر حجما واقل تسليحا . وكانت تواجه جيشا لم يهزم من قبل لكن ايمان قادة مصر وشجاعتهم كانا خير تعويض عن « الاختلال الاستراتيجى » .. واطلقوا صيحة معركتهم الخالدة : « **وااسلاماه .. وااسلاماه** » .. وانتصرت مصر والاسلام والانسانية .

مسئولية أمريكا ..

انتهينا فى مقال الاسبوع الماضى الى مجموعة من الخلاصات حول مذبحة الفلسطينيين فى مخيمى صبرا وشاتيلا .. أهم مافى هذه الخلاصات جميعا هو أن المجرم الحقيقى فى أكبر جريمة للابادة الجماعية فى النصف الثانى من القرن العشرين هو اسرائيل

وقد استدنا الى قرائن منطقية وعملية وتاريخية تؤكد أن هذه الدولة الباغية فى أشخاص – بيجين وشارون وايتان – هى التى فكرت ، ودبرت ، وخططت ، واشرفت ، على تنفيذ تلك الجريمة البشعة ..

فمناحم بيجين له سوابق فى ارتكاب مثل هذه المذابح من قبل.وقد دافع عن ارتكابه لمذبحة دير ياسين فى ابريل ١٩٤٨ .. وقرر بلسانه وقلمه فى كتابه « التمرد » انه فخور بتلك المذبحة ، فلولاها لما تشتت الفلسطينيون خوفا وهلعاً .. ولولا هذا التشتت لما أمكن إفراغ معظم فلسطين من سكانها لكى يتسع المجال لتوطين الصهاينة الذين وفدوا الى « أرض الميعاد »

وذا كان بيجين على يقين بأن المذابح التى نفذها منذ خمس وثلاثين سنة ضد الشعب الفلسطينى كانت شرطا ضروريا لقيام الدولة اليهودية ، فانه الآن يدرك أن افناء الشعب الفلسطينى هو شرط استمرار هذه الدولة فى الوجود وان المخيمات الفلسطينية بالذات هى مصدر الخطر التاريخى الدائم على وجود تلك الدولة .

فرغم أن لاجئى المخيمات لايمثلون أكثر من عشرين فى المائة من مجموع الفلسطينيين فى الشتات الا أنهم يمدون حركة المقاومة بأكثر من ثمانين فى المائة من مجموع المقاتلين .

فلاجئو المخيمات هم أكثر الفلسطينيين تمسكا بهويتهم الوطنية واكثرهم تصميما على العودة ، واكثرهم استعدادا للتضحية والفداء

(*) الجمهورية ، ٣٠ / ٩ / ١٩٨٢

أنه بسبب هذه الحقيقة عن التركيب الاجتماعى والسياسى والنفسى للفلسطينيين فى المخيمات وهى الحقيقة التى كشفت عنها كل البحوث العلمية التى قام بها باحثون انجليز وأمريكيون ويابانيون وعرب ، أصبحت المخيمات أكبر شوكة فى جنب اسرائيل وأصبحت بالتالى مستهدفة .

ولذلك كان من أول مافعلته اسرائيل .. بعد غزوها لجنوب لبنان فى أوائل الحرب الخامسة ، هو تدمير الكيان المادى للمخيمات القريبة من صيدا وصور . لكنها لم تستطع تدمير المخيمات القريبة من بيروت (وهى صبرا وشاتيلا) طالما كانت فى حماية قوات منظمة التحرير .

لذلك فبمجرد خروج قوات المنظمة والقوات المتعددة الجنسيات ، افتعلت الذرائع بعد ان اغتالت بشير الجميل ، لكى تقتحم بيروت الغربية وكان هدفها الرئيسى تدمير المخيمات . الى أوائل هذا الاسبوع كان تحليلنا عن مسئولية اسرائيل يستند الى القرائن المنطقة والسوابق التاريخية والشواهد العملية .. لكن لم يكن هناك بعد « اعتراف » والاعتراف هو سيد الادلة فى القانون .

وقد شهدت الايام التالية فى الاسبوع ظهور المزيد من الادلة . بل وقد صرح شارون بأنه كذب فى بداية اجتياح غرب بيروت ، حينما خدع الرأى العام الاسرائيلى والعالمى متذرعا دخول بيروت بهدف المحافظة على « الأمن » بعد اغتيال بشير الجميل .

الحقيقة ، كما اعترف شارون هذا الاسبوع ، هو « تدمير وتقتيل بقايا المقاومة الفلسطينية » . وانه سمح لعناصر الميلشيات اليمينية بدخول المخيمات للقيام بهذه المهمة

وقد استماتت حكومة بيجين فى رفضها لاى تحقيق قضائى مستقل عن المذابح ، وهو ماضاعف من اصابع الاتهام والادانة لحكومة السفاحين .

فى تبادل الاتهام بين حكومة السفاح ومعارضيه داخل اسرائيل نفسها بدأت تتضح حقائق جديدة حول الهدف المشترك لكل من حكموا اسرائيل فى الماضى والحاضر، وهو افناء الشعب الفلسطينى .

شارون فى دفاعه عن نفسه ، صاح باعلى صوته فى الكنيست فى وجه شيمون بيرز ، مهددا بكشف دور حكومة حزب العمل فى مذبحة سابقة وقعت فى مخيم تل الزعتر الفلسطينى فى أوائل الحرب الاهلية اللبنانية ..

اسرائيل – اذن – بكل احزابها الرئيسية كانت، ضالعة فى الحرب اللبنانية منذ البداية ، وحتى قبل الغزو الاخير . والجميع فى اسرائيل – اذن – يشتركون فى هدف ابادة الشعب الفلسطينى .. الفارق بين حكومة ائتلاف العمل السابقة ، وحكومة ائتلاف الليكود الحالية ، هو فى الاسلوب ، وفى طريقة الاخراج . فبينما الاولى كانت اكثر حرصا وتدبيرا ، فان الثانية كانت متعجلة وأكثر بشاعه ..

● **مبادىء نورمبرج**

هناك – اذن – جريمة ابادة جماعية ، مع سبق الاصرار . والشواهد والقرائن ، والادلة تتزايد يوما بعد يوم . والمراسلون الاجانب – وليس العرب – هم الذين كشفوا الخيوط الاولى للجريمة . وبشهادة وسائل الاعلام الغربية – وليس العربية – لم تشهد البشرية مثل هذه الجريمة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .. وكان العالم « المتحضر » يعتقد أن مثل هذه المذابح الجماعية قد انتهى عهدها الى أن صدم هتلر العالم فى الاربعينات بما سماه « الحل النهائى » وهو الذى يعنى ابادة اعدائه عن بكرة أبيهم ، نساء كانوا أو شيوخا .. وكان اليهود بالذات هم هدف الابادة الجماعية أو « الحل النهائى » ..

وكانت بشاعة الجرائم النازية هى التى دفعت الغرب – وخاصة الولايات المتحدة – الى عقد **محاكمات نورمبرج** فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .. وقد استحدثت محكامات نورمبرج مبادىء جديدة فى القانون الدولى والعام والجنائى .. وأصر القضاة الامريكيون بصفة خاصة على مبدأين :

– **الاول** : هو عدم الاعفاء من المسئولية فى ارتكاب جرائم الحرب والابادة الجماعية ، حتى لو كان ذلك تنفيذا من المرؤوس لاوامر رؤسائه ، وحتى لو كانت هذه الاوامر صادرة من اعلى سلطة فى الدولة .

– **الثانى** : هو عدم انتفاء أو سقوط المسئولية بالتقادم فى جرائم الحرب والابادة الجماعية .

وهذان المبدآن استندت اليهما محكمة نورمبرج فى ادانة ، ليس فقط زعماء النازية ، وانما ايضا كثير من متوسطى وصغار الضباط والجنود الالمان ، الذين كانوا مجرد منفذين لاوامر رؤسائهم واستندت اليهما اسرائيل فى اختطاف ومحاكمة واعدام « **ايخمان** » أحد المسئولين فى المانيا النازية ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بعشرين عاما .

بل وفرضت الولايات المتحدة واسرائيل على كل من المانيا والنمسا ان يخلقا جهازا خاصا للبحث عن وتعقب كل من كانت له صلة قريبة أو بعيدة بجرائم الحقبة النازية وتقديمه

للمحاكمة .

كانت المبادىء التى استحدثتها محكمة نورمبرج غير مسبوقة فى التاريخ القانونى ، وكان ومايزال لها مايبررها لكى لايشهد القرن العشرون ، وما يليه من قرون جرائم الابادة الجماعية للشعوب .

• تحريم استخدام الاسلحة الامريكية فى العدوان :

الى جانب مااستحدثته محكمة نورمبرج من مبادىء جديده ، فان هناك قانونا أمريكيا يحرم استخدام الاسلحه التى تبيعها امريكا لغيرها من الدول فى غير الحروب الدفاعية. وينص القانون على انه من سلطة الرئيس الامريكى ان يتخد من الاجراءات ، بموافقة الكونجرس ، مايضمن تنفيذ هذا القانون . ويدخل فى هذه الاجراءات توقيع العقوبات وتحريم تصدير السلاح الى الدولة التى تخرق هذا القانون الامريكى ، بارتكاب العدوان أو شن حروب هجومية أو توسعية ضد شعب أو أرض دولة أخرى .

• هل تعتقد امريكا اننا بلهاء ؟

بمقتضى مبادىء نورمبرج العالمية ، وبمقتضى القانون الامريكى الداخلى، فضلا عن كل مواثيق الامم المتحدة والقانون الدولى، فان اسرائيل قد ارتكبت من الجرائم مايوجب اقصى انواع العقاب .

فإذا غضضنا النظر عن ان قيام الدولة اليهودية نفسها ، على أرض وحساب شعب آخر ، كان جريمة واذا غضضنا النظر عن قائمة طويلة من الجرائم التى ارتكبتها اسرائيل طوال خمس وثلاثين سنة واذا قصرنا الاهتمام فقط على ماحدث ويحدث فى السنة الاخيرة فأننا نجد أنها ..

١ – اعتدت على العراق ، وخرقت المجال الجوى للاردن والسعودية ، بغارتها على المفاعل الذرى قرب بغداد ، فى صيف ١٩٨١.

٢ – بعد ذلك باسابيع قامت بقصف الاحياء المدنية فى بيروت بضاحية الفكهانى .

٣ – غزت لبنان واعملت فى سكانه من اللبنانيين والفلسطينيين كل الوان القتل والتشريد .

٤ – دبرت وخططت ، واشرفت على تنفيذ أبشع هذه الجرائم على الاطلاق بمذبحة صبرا

وشاتيلا .

بعد هذه الجرائم التى انزعج لها العالم كله - بما فى ذلك الرأى العام الامريكى والاسرائيلى ؟ ايبقى هناك مجال للشك أو التردد فى ايقاع العقاب بأسرائيل .

الوحيد القادر على ايقاع مثل هذا العقاب باسرائيل فى الوقت الحاضر هو حكومة الولايات المتحدة الامريكية ..

فالحكومة الامريكية هى التى تعطى اسرائيل المال والسلاح والدعم الدبلوماسى. وبدونها ماكان لاسرائيل أن تمتلك القدرة على ارتكاب ماترتكب من همجية وعدوان.

امريكا الى الآن تكتفى ، بعد كل فظيعة من فظائع اسرائيل بالشجب اللفظى ، والاستهجان الكلامى ... ولعلها فى ذلك قد تعلمت من الانظمة العربية !

لكن اذا كانت الانظمة العربية تكتفى بالشجب اللفظى أو الادانة الكلامية ، فانها تفعل ذلك لعجزها. والسؤال هو : لماذا تكتفى امريكا بالادانة اللفظية ؟

بل انها حتى حينما تفعل ذلك فهى حريصة على الا تتحول الادانة اللفظية الى قرارات معنوية فى الهيئات الدولية .. والا فبماذا نفسر رفض امريكا التصويت الى جانب قرار الجمعية العمومية للامم المتحدة يوم السبت الماضى الذى يدين اسرائيل لمسئوليتها عن مذابح بيروت ؟ هل لدى حكومة امريكا شك فى ذلك ؟ واذا كان لديها شك فبماذا تفسر أمريكا يقين ١٤٧ دولة أخرى - بما فى ذلك أخلص حلفائها الغربيين - بمسئولية اسرائيل .

ماالذى يمكن ان تفعله اسرائيل اكثر مما فعلت طوال الشهور الاربعة الماضية لكى تقتنع حكومة أمريكا بضرورة ادانتها ؟ الم تخرق اسرائيل القانون الامريكى نفسه باستخدام السلاح الامريكى فى غزو لبنان ، وفى امداد الميليشيات اليمينية بهذا السلاح كى تشارك فى قتل النساء والاطفال ؟

أن الاجابة على هذه الاسئلة وغيرها تؤدى بنا الى خلاصة واحدة لايتطرق الشك اليها وهى ان امريكا قادرة على ادانة اسرائيل كما ادانتها كل دول العالم شرقا وغربا ، وهى الوحيدة القادرة على عقاب اسرائيل. العقاب هو اقوى الايمان. والادانة هى اضعف الايمان.

وامريكا رغم قدرتها على أقوى وأضعف الايمان ، لاترغب فى ايهما . والذى لايرغب فى

ادانة أو عقاب المجرم ، رغم ثبوت الجريمة ، ورغم قدرته على الادانة والعقاب ، لابد ان يكون متواطئا فى الجريمة ..

هذه هى الحقيقة ولا حقيقة غيرها ..

قد تعتقد امريكا انها تستطيع ان تطيب خاطر معظم الحكام العرب ببعض الكلمات الغاضبة ضد اسرائيل ، وان تعدهم خيرا فى المستقبل .

ولكن هل تعتقد امريكا أن شعوبنا العربية بلهاء ؟

مكافأة الجريمة*

منذ أيام اشتركت فى مؤتمرين بأوربا عن الشرق الأوسط ... الأول فى لوفان بيلجيكا . والثانى فى لندن ..

كان من بين الحاضرين فى أحد المؤتمرين اللورد كارادون (صاحب قرار مجلس الامن الشهير ٢٤٢) وانتونى ناتنج وزير الدولة البريطانى السابق فى حكومة انتونى ايدن والذى استقال احتجاجا على حكومة بلاده لاشتراكها فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، ووليام كوانت مستشار الامن القومى المساعد فى حكومة الرئيس الامريكى السابق جيمى كارتر ..

كما حضر المؤتمرين عدد من المسئولين الاوربيين الحاليين .
ويمكن القول ان هؤلاء جميعا هم من الغربيين (المتعاطفين) مع مصر والعالم العربى بصفة عامة .

ورغم اهمية مادار فى المؤتمرين من حوار ومناقشات ، الا أن مادار فى الكواليس والردهات وعلى فناجين القهوة وموائد الطعام ، كان اكثر أهمية .. فهو يكشف المواقف والاتجاهات الاوربية والامريكية بشكل اشد صراحة واكثر امانة .

لايمكن للغرب أن يكون عربيا أكثر من العرب

كان نقد المشاركين العرب فى المؤتمرين شديدا لمواقف اوربا مما يحدث فى المنطقة ، وكان النقد اكثر شدة للموقف الامريكى . وكان لدينا نحن المشاركين العرب من الادلة التاريخية والمعاصرة ، وخاصة من وقائع الحرب اللبنانية الحالية ، ماجعل قنابلنا الكلامية مدوية ، وما جعل من صواريخنا اللفظية مادة شديدة الالتهاب فى القاعات التى اجتمعنا فيها !

(*) الجمهورية ، ٣٠ / ١٢ / ١٩٨٢

وكان هناك جمهور كبير من المستعمين لنا مباشرة ، وجماهير أوربية أكبر ممن شاهدوا الجلسات على شاشات التليفزيون أو سمعوا تسجيلاتها فى الاذاعات ، أو قرأوها على صفحات الجرائد اليومية . وليس هناك شك فى أن من استمع ، أو رأى ، أو شاهد مادار فى الجلسات قد تأثر تأثيرا كبيرا .

لكن المشاركين الاوربيين والامريكيين كانوا يجيبون علينا فى النهاية بسؤال واحد ، وهو :

ماذا فعلتم انتم العرب من اجل قضيتكم الاولى وهى فلسطين ، وقضيتكم الثانية وهى لبنان ؟

وكان هذا السؤال الاساسى يتفرع خارج القاعات الى عشرات الاسئلة الفرعية .

خلاصة مايقوله الغربيون هو : لاتتوقعوا منا أن نكون عربا أكثر من العرب .. ان نكون ملكيين اكثر من الملك ، لاتتوقعوا منا أن نحارب معارككم بالنيابة عنكم ، يكفى ان رأينا العام متعاطف معكم،ويكفى ان وسائل اعلامنا قد كشفت الهمجية الاسرائيلية ، واسقطت القناع الزائف الذى تظاهرت به اسرائيل طوال ثلاثين عاما .

وكان الاوربيون ممن شاركوا فى المؤتمرين يضيفون :

« لاتتوقعوا منا أن يكون دورنا فى تسوية أزمة الشرق الاوسط حاسما ومستقلا ، وانتم ترددون ان امريكا معها ٩٩ فى المائة من اوراق اللعبة ولاتتوقعوا منا أن نضغط على أمريكا لكى تناصر قضاياكم اذا كنتم انتم لاتضغطون .. واذا كنتم انتم العرب لاتستخدمون مابيدكم من اسلحة حربية ونفطية ومالية وتجارية .. فليس لدينا نحن الاوربيين مثل هذ الاسلحة »

طبعنا كنا نجادل ، ونحاول الرد .. لكن فى اعماقنا نحن المشاركين العرب كنا نحس بالخزى والعار والمهانة .

كنا نذكر الاوربيين بمسئولياتهم التاريخية والاخلاقية لما حدث فى فلسطين وللشعب الفلسطينى .. وكانوا يقرون بهذه المسئولية ، ولكنهم فى النهاية يسألون : « هل تريدون منا أن نذهب الى حرب مع اسرائيل من اجلكم ؟ ان الذين وقعتم معهم معاهدات صداقة ودفاع لم يبادروا الى دخول الحرب بالنيابة عنكم .. وليس بيننا وبينكم مثل هذه المعاهدات »

طلبنا منهم ان يقاطعوا اسرائيل اقتصاديا ، أو يمنعوا عنها السلاح .. وكان الاوربيون يقولون : نحن لانبيع لاسرائيل سلاح ، وحجم تعاملنا التجارى معها محدود وهو فى صالحنا ، ومقاطعتها لن يضر بها ، لكن سيضر بنا نحن .. عليكم فى هذه المسألة بأمريكا فهى التى تعطيها السلاح والمساعدات الاقتصادية الهائلة

● امريكا فى الجريمة

فى أثناء انعقاد المؤتمرين المذكورين تواردت الانباء بأن الكونجرس الامريكى قد قرر زيادة المساعدات الامريكية لاسرائيل فى العام القادم بحوالى نصف مليار دولار .. أى أن مجموع المساعدات سيصل الى أكثر من مليارى دولار « فى مقابل مليار دولار لمصر » ومبلغ الزيادة « حوالى ٥٠٠ مليون دولار » يكفى لتعويض اسرائيل عن تكاليف حربها فى لبنان . ولتعويض مافقدته من اسلحة ومعدات عسكرية ، أما المبلغ المعتاد وهو حوالى مليار ونصف مليار سنويا فهو لابتياع مزيد من الاسلحة المتطورة ، وليس العجز فى ميزان المدفوعات الاسرائيلى .

فهكذا ، وبصريح العبارة والدولار ، تقول أمريكا للعالم وللعرب ولاسرائيل ان مافعلته هذه الاخيرة بالشعبين الفلسطينى واللبنانى خلال عام ١٩٨٢ ليس جريمة من وجهة النظر الامريكية — حتى لو اعتبره العالم كله ، والعرب جميعا ، وحتى لو اعتبرته لجنة التحقيق الاسرائيلية نفسها جريمة

لقد أعلن الرئيس ريجان مبادرته للسلام فى الشرق الأوسط فى الأول من سبتمبر ١٩٨٢ . هذا العام . وبادرت اسرائيل برفضها ، وقال ريجان وغيره من المسئولين الامريكيين انهم لن يضغطوا على اسرائيل ولن يلجأوا الى أسلوب الجزاءات الاقتصادية أو العسكرية من أجل أن تقبل المبادرة الامريكية للسلام . لكن أمريكا — هكذا قالوا — ستحاول استخدام اسلوب الاقناع والضغط المعنوى .

والسؤال الذى ينبغى أن يسأله الجميع عربا وأمريكيين هو : « منذ متى تذعن اسرائيل لاساليب الاقناع والضغط المعنوى ؟ »

ان الذى يجدى مع اسرائيل هو الفعل المادى المباشر ، سلاحا عسكريا ، أو مالا وطعاما ، وأمريكا نفسها تستخدم هذه الاسلحة فى كل علاقاتها الدولية .. فقد منعت عنا السلاح فى الخمسينات . ومنعت عنا المال والطعام فى الستينات ، لكى تجبرنا على الاذعان لارادتها .

كما انها استخدمت هذه الادوات المادية فى الضغط على كوبا وعلى الاتحاد السوفيتى ، بل استخدمت اسلوب المقاطعة الاقتصادية مع شركات حلفائها الاوربيين هذا العام لكى توقفهم عن التعامل مع الاتحاد السوفيتى ، ولكى تمنع اتمام خط انابيب الغاز من هذا الاخير الى دول اوربا الغربية .

هل أمريكا قادرة أم غير راغبة

من الواضح أن امريكا قادرة على ممارسة الضغط الحقيقى الفعال على اسرائيل . وقد قامت فعلا فى مناسبات سابقة ، أهمها كان فى أعقاب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ . وقد تضاعف اعتماد اسرائيل على الولايات المتحدة عدة مرات منذ ذلك التاريخ . والجدير بالذكر أن الرئيس ايزنهاور حينما مارس الضغط على اسرائيل فى تلك المناسبة كان فى أوج حملته الانتخابية للفوز بالرئاسة مرة ثانية ، وهى حقيقة تاريخية تثبت زيف الحجة التى تعودنا على سماعها ، وهى ان جماعات اللوبى الصهيونى تمارس تأثيرا واسعاً يخيف اى رئيس امريكى ، خاصة قرب اجراء الانتخابات .

ولا أحد يشكك فى قوة جماعات التأثير الصهيونى ، فهى حقيقة قوية ومنظمة ، لكن لقوتها وتأثيرها حدوداً على الساحة الامريكية ، خاصة حينما يكون الرأى العام الامريكى شاهدا على عدوان اسرائيل وغطرستها — وهو الامر الذى حدث عام ١٩٥٦ ، وحدث بصورة أقوى وأكبر فى صيف عام ١٩٨٢.

مانريد أن نخلص اليه هو أن الولايات المتحدة قادرة على ممارسة الضغط الفعال على اسرائيل . حتى مع اقتراب أى انتخابات امريكية ، ولكن السؤال هو : هل امريكا راغبة فى ممارسة هذا الضغط ؟

الاجابة — كما يبدو لنا من واقع السلوك الامريكى وليس من واقع الكلمات والوعود الامريكية — هى أن الولايات المتحدة غير راغبة فى ممارسة الضغط على اسرائيل — ليس هذا فقط ، فهى كما رأينا تجزل العطاء لها ، مالا وسلاحا وتدعمها دبلوماسيا.

امريكا لاترغب فى الضغط على اسرائيل لاسباب واضحة ، اهمها ان المشروعين الامريكى والاسرائيلى لمنطقة الشرق الاوسط يلتقيان فى حوالى تسعين فى المائة من خطوطهما واهدافهما . ولايعقل ان تضحى امريكا بتسعين فى المائة مما تلتقى فيه مع اسرائيل فى مقابل العشرة فى المائة التى تختلف معها فيه .

تلك هى الحقيقة العارية التى ينبغى ان نتدبرها .. شعوبنا ادركتها منذ مدة طويلة ، وزاد ادراكها وتعمق خلال (الصيف الحزين) من عام ١٩٨٢ ، وقد آن الأوان أن يلحق ادراك الزعماء بادراك الشعوب .

الفصل الرابع

مصر وأمريكا
وصيف العرب الحزين

- ☐ وجها لوجه : مركز الدراسات الاستراتيجية بالاهرام مع ٤ مراكز للدراسات الأمريكية
- ☐ الأمريكى القبيح
- ☐ بذور الصدام
- ☐ وقفة مع الشريك
- ☐ مبادرة ريجان فى الميزان
- ☐ العرب وريجان
- ☐ حكومة ظل أمريكية بالقاهرة ، مقابلة

وجها لوجه :

مركز الدراسات الاستراتيجية بالاهرام مع ٤ مراكز للدراسات الأمريكية*
على مدى ٤ أيام

على مدى أربعة أيام قام فريق من خبراء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الاهرام بمناقشات مستفيضة مع خبراء أربعة مراكز مماثلة فى العاصمة الامريكية واشنطن وفى مدينة نيويورك وهى :

- مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بجامعة جورج تاون
- معهد المشروع الامريكى
- معهد بروكنجز
- الاكاديمية الدولية لبحوث السلام

وهذ المعاهد جميعا من النوع الذى يجمع بين رصانة البحث الاكاديمى ومهمة صياغة السياسات العملية التى توجه تفكير وممارسات صناع القرار فى الولايات المتحدة . وقد جرت العادة أن يعهد كل من الحزبين الرئيسيين هناك لبعض هذه المراكز بمهمة اعداد الدراسات والتصورات الاستراتيجية العامة ، وصياغة البدائل والخيارات فى المشكلات الدولية الهامة أو القابلة للتفجر وتصبح هذه الدراسات هى الاساس الذى تعتمد عليه أى ادارة أمريكية جديدة .

ولعلنا نذكر أن الوثيقة المشهورة التى أعدها معهد بروكنجز فى أوائل عام ١٩٧٦ — أى قبل انتخاب الرئيس السابق كارتر بحوالى سنة كاملة ، كانت هى الاطار العام الذى التزمت به الى حد كبير ادارته للديمقراطية فى السنوات الاربع التالية . كذلك يجب التنويه بأن المستشار الجديد للامن القومى ريتشارد الن ، كان الى ماقبل تعيينه يعمل خبيرا فى مركز الدراسات الاستراتيجية بجامعة جورج تاون ، كما أن ذلك المركز يضم بين خبرائه الحاليين كلا من هنرى كيسنجر ، وزبيجنيو بريجنسكى —وكلاهما كان مستشارا للامن القومى ابان ولايات الرؤساء الثلاثة السابقين للولايات المتحدة — نيكسون وفورد وكارتر . وكان مركز جورج تاون هذا هو صاحب الدعوة

* الاهرام ، ١٨ / ٣ / ١٩٨١

الرئيسى لمركزنا فى الاهرام لاقامة حوار حول المسائل الاستراتيجية الساخنة التى تواجه مصر والولايات المتحدة .

ومن الذين شاركوا فى هذه اللقاءات من الجانب الامريكى عدد من المسئولين الجدد فى ادارة الرئيس رونالد ريجان ، منهم عضوان فى مجلس الامن القومى هما روبرت هنتر وجيفرى كمب ، والسفير الامريكى الجديد فى المملكة السعودية روبرت نيومان ، ومساعد وزير الدفاع ، وعدد من مستشارى مجلس الشيوخ والنواب للعلاقات الخارجية والدفاع . كما اشترك من أعضاء ادارة الرئيس كارتر السابقة كل من زبيجنيو بريجنسكى (مستشار الامن القومى السابق) ، وهارولد سوندرز وجوزيف سيسكو (من مساعدى وزير الخارجية السابقين) ووليام موندت (عضو مجلس الأمن القومى السابق لشئون الشرق الاوسط) وجويس ستار (أحد مساعدى الرئيس كارتر وعضوة مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بجامعة جورج تاون حاليا) . كذلك دعى لحضور المناقشات ممثلون عن وزارات الخارجية والدفاع والقوات المسلحة والتجارة والخزانة ، وممثلون عن أكبر مائتى شركة فى الولايات المتحدة وشبكات الاذاعة والتليفزيون ، والصحف الكبرى ، وكبار الاكاديميين المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط والشئون الاستراتيجية . وقد مثل مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الاهرام كل من :

- **السفير تحسين بشير**
- **اللواء أحمد فخر مدير أكاديمية الدفاع**
- **الدكتور سعد الدين ابراهيم رئيس وحدة البحوث العربية**
- **الدكتور محمد سليم الخبير بوحدة البحوث السياسية**
- **الدكتور على الدين هلال رئيس وحدة البحوث السياسية**
- **الاستاذ محمد السيد سعيد مبعوث المركز بجامعة نورث كارولينا**
- **الاستاذ عبد المنعم سعيد مبعوث المركز بجامعة الينوى**

الهموم الكبرى لادارة الرئيس ريجان

الذين حضروا من الادارة الجديدة للرئيس ريجان ركزوا حديثهم عن **الخطر السوفيتى** الذى يتراءى لهم زاحفا فى كل اتجاه : فى شرق اسيا من خلال فيتنام ، وفى أفريقيا من خلال ليبيا وأثيوبيا وأنجولا ، وفى أمريكا اللاتينية من خلال كوبا ونيكاراجوا والسلفادور ، وفى الشرق الاوسط من خلال أفغانستان وسوريا واليمن الديمقراطية

والذى يجعل من هذا الزحف السوفيتى خطرا داهما هو القوة العسكرية المتزايدة للاتحاد

السوفيتي فى الاسلحة النووية والتقليدية على السواء ، وفى عدد أفراد القوات المسلحة والقدرة على التعبئة والحشد وتحريك هذه القوات بسرعة الى أماكن بعيدة عن الكتلة اليابسة السوفيتية . وفى هذا الصدد أفاض الخبراء الامريكيون فى تبيان وتوثيق معدلات النمو السريعة للقوات السوفيتية خلال السبعينات – أى فى قمة عصر « الوفاق » . وهى نفس الفترة التى شهدت استرخاء كبيرا فى معدلات النمو العسكرى فى الولايات المتحدة ليس فقط فى أنظمة السلاح المتطور والتسليح ، وانما أيضا فى تقلص حجم القوات المسلحة الامريكية نتيجة الغاء نظام التجنيد الاجبارى والاعتماد أساسا على نظام التطوع . والخلاصة التى انتهى اليها كل ماسمعناه من تحليلات الخبراء الامريكيين هى أن **التوازن الاستراتيجي الحالى هو فى صالح الاتحاد السوفيتي ، وأن أى مواجهة عسكرية بالاسلحة التقليدية بين القوتين العظميين فى أى من المناطق الملتهبة حول العالم فى الوقت الحاضر لن تكون بالقطع فى صالح الولايات المتحدة .**

طبعاً كان لادارة الرئيس ريجان هموم داخلية كثيرة أهمها : التضخم ، والبطالة ، وانحسار القدرة التنافسية للصناعة الامريكية فى مجابهة اليابان وأوربا الغربية ، وخاصة فى صناعتى السيارات والالكترونيات . وهذه النقطة الاخيرة بالذات هى موضع فزع لايقل عن الفزع من الخطر السوفييتى الداهم . فالمنتجات اليابانية لاتتفوق تنافسيا على مثيلاتها الامريكية فى الاسواق العالمية فحسب ، ولكن فى داخل الولايات المتحدة نفسها . وقد أعلنت كبرى شركات السيارات الامريكية [جنرال موتورز] عن تدهور مبيعاتها فى عام ١٩٨٠ بشكل لم يسبق له مثيل منذ الكساد الاعظم فى الثلاثينات . وفى مواجهة هذا الخطر الاقتصادى السلمى بدأت ترتفع صيحات الحماية الجمركية للصناعة الامريكية فى مواجهة **الغزو اليابانى الصديق** . والمفارقة هنا بالغة الدلالة .. فهذه الصيحة تأتى من أحصن قلاع الرأسمالية فى العالم ، ومن ادارة رئيس فاخر أثناء حملته الانتخابية بحمل لواء الاقتصاد الحر وعدم تدخل الحكومة فى شئون هذا الاقتصاد الذى يقوم على المنافسة الحرة وآليات السوق [العرض والطلب] .

لن نعول أكثر من ذلك على الهموم الداخلية للرئيس ريجان . ونعود الى همومه الخارجية التى كانت موضع الحوار خلال الاسبوع الاخير من فبراير ١٩٨١ .

الشرق الأوسط . بؤرة المواجهة
الاسخن بين العملاقين الاعظم

ومن كل هموم الرئيس ريجان الخارجية يبرز الشرق الاوسط فى رأس الاولويات الكونية للولايات المتحدة . فكل أحاديث الخبراء الامريكيين عن التوازن الاستراتيجى المختل بين بلادهم والاتحاد السوفيتى كان يجد تجسيمه الاكبر فى الشرق الاوسط .

فهنا تقع آبار النفط التي تعتمد عليها اقتصاديات العالم الرأسمالى الحر . ومن يسيطر عليها تكون فى يده أدوات التحكم فى حياة أو موت الحضارة الغربية . ومعظم دول المنطقة ضعيفة عسكريا لاتقوى على الدفاع عن نفسها أو حماية آبار النفط . والوجود العسكرى الامريكى فى المنطقة حاليا هو نفسه وجود محدود وضعيف ، حتى بعد انشاء **قوة الانتشار السريع** .

وقد صدر عن وزارة الخارجية الامريكية فى اليوم الأول للمناقشات مايؤكد أن الخطر السوفيتى هو أكثر الهموم الحاحا فى الشرق الأوسط . يقول هذا البيان مامعناه « ... أن الأولوية القصوى لسياستنا الخارجية فى المنطقة هى وقف التدهور الاستراتيجى لمركز الولايات المتحدة فى مواجهة الاتحاد السوفيتى ، وخاصة فى الخليج الفارسى ... وأن محادثات الحكم الذاتى بين مصر واسرائيل لن تكون أهم أولوياتنا فى الوقت الحاضر رغم استمرار التزامنا بعملية السلام ... » . وربما لم يكن صدور هذا البيان فى أول يوم للحوار صدفة بحتة .

باختصار ، كانت قراءتنا للتصور الامريكى لادارة الرئيس ريجان فى الشرق الأوسط هى :

- رقعة من الأرض تحتوى فى باطنها ثروة نفطية هائلة .

- ويزحف نحوها السوفيت بقواتهم العسكرية المتعاظمة من الشرق والجنوب .

ويوجد بها أنظمة ضعيفة عسكريا غير قادرة على مجابهة هذا الزحف .

- ولايوجد بها حاليا وجود عسكرى أمريكى يتناسب مع هذا التحدى السوفيتى العظيم وأن هذا الموقف المتدهور يقتضى من وجهة النظر الامريكية مايلى :

- الاسراع بتقوية القوة الرادعة الامريكية فى الخليج وبحر العرب والمحيط الهندى

- الحصول على قواعد عسكرية وتسهيلات فى دول المنطقة ذات الانظمة الصديقة .

- تعبئة الرأى العام والموارد فى دول المنطقة لمواجهة الخطر السوفيتى المحدق .

وجهات النظر المصرية :

لم يكن خبراء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الاهرام يتحدثون باسم الحكومة

المصرية ، وانما من واقع اجتهاداتهم العلمية وقراءاتهم لاوضاع المنطقة . وقد كان بينهم تنوع فى الاراء والاجتهاد .. ومع ذلك فقد كان مجمل ماقالوه يعكس حد أدنى من الاتفاق ، ويختلف فى هذا الصدد مع بعض جوانب التصور الامريكى الجديد . ويمكن تلخيص ماعرضناه فيما يلى :

١ - **التعاطف مع الهموم الامريكية** ولكن ... رغم تقديرنا لاختلاف التوازن الاستراتيجى فى المنطقة بين القوتين العظميين ، ورغبة الولايات المتحدة فى استعادة التوازن ، فاننا نلاحظ قراءة واحدية الجانب لتعاظم النفوذ السوفيتى. ففى غضون السبعينيات منى الاتحاد السوفيتى ببعض الانتكاسات العظمى فى المنطقة ، أهمها تقليص أن لم يكن اقتلاع نفوذه فى كل من مصر والسودان الصومال والعراق ، وبالتالى تقهقره من دول المركز الى دول الاطراف .

٢ - **معادلة التصور الامريكى للشرق الاوسط - كأرض ونفط وخطر سوفيتى - تفتقد أهم عنصر على الاطلاق وهو الشعوب** . ان عودة التفكير الاستراتيجى العسكرى البحت الى توجيه السياسة الامريكية الخارجية يسقط شعوب المنطقة من الحساب ، أو على أحسن تقدير يضع هموم هذه الشعوب فى قاع سلم الاولويات . وفى رأينا أن فى ذلك **خطأ قاتلا** لابد أن تتداركه الادارة الجديدة وهى بصدد صياغة سياسيتها الخارجية وقبل فوات الاوان .

٣ - **هموم شعوب المنطقة** : أن الهموم الرئيسية لشعوب المنطقة هى القضية الفلسطينية وتصفية الصراع العربى الاسرائيلى ، والتنمية الاقتصادية - الاجتماعية الشاملة ، وتوسيع رقعة المشاركة الديمقراطية ، وتكريس استقلال دول وشعوب المنطقة ، وتقوية قدراتها الدفاعية لحماية نفسها وثرواتها والاهم فى كل ذلك هو أن هذه الهموم مترابطة ترابطا عضويا وثيقا ولايمكن فصل واحدة منها عن الاخرى . وأن الاستجابة لها من حكام دول المنطقة ومن القوى الخارجية - بما فيها الولايات المتحدة - هى الضمان الاعظم لاستقرارها وسلمية مسيرتها واسهامها فى خدمة الرفاهية والسلام العالميين

٤ - **عطب الوسائل الامريكية المقترحة : الدرس الايرانى** .. أن أخذ الهموم والرئيسية للشعوب فى المقام الاول كأول خطوط الدفاع ضد أى خطر خارجى هو فى نظرنا الدرس الاكبر من تجربة الولايات المتحدة فى ايران . لقد راعنا ان المسئولين الأمريكيين طوال أيام الحوار لم يذكروا ايران . وكأن العقلية الجماعية للادارة الجديدة - وربما للشعب الامريكى - تريد أن تنسى الكابوس الايرانى بنفس الصورة التى حاولت أن تنسى بها فيتنام . وكانت وجهة نظرنا أن الولايات المتحدة قد توفر لها اثناء حكم الشاه كل ماتحاول أن تحصل عليه بالمعادلة المطروحة حاليا: قواعد وتسهيلات عسكرية ، خبراء أمريكيين فى كل نواحى النشاط ، ترسانة عسكرية ومؤسسة عسكرية هائلة ، نظام حكم صديق وشديد الولاء والتعاطف للغرب وشديد الكراهية والعداء

للشيوعية ومخططات السوفييت . الشيء الوحيد – والاهم – الذى لم يتوافر للولايات المتحدة فى ايران ولم تتنبه له الا بعد فوات الاوان هو هموم الشعب الايرانى وفى مقدمتها العدالة الاجتماعية والمشاركة السياسية والاستقلال الوطنى . وحينما اقتلع النفوذ الامريكى مع سقوط الشاه لم يتم ذلك بمساعدة جندى سوفيتى واحد .

٥ – **عطب الوسائل الامريكية المقترحة : الدرس العربى فى الخمسينات** كان من المذهل لنا قلة الوعى فى الادارة الجديدة بدروس التاريخ القريب وكأن كل رئيس منتخب عليه أن يعيد اكتشاف العالم-جغرافيته وتاريخه-هذا رغم المستوى العقلى والعلمى الرفيع لمعظم من تحاورنا معهم . لذلك كان علينا أن نسترجع بعض الخبرات التاريخية المتراكمة لدينا نحن أبناء المنطقة، والتى كانت الولايات المتحدة طرفا فيها . قلنا لهم أن اصرار الولايات المتحدة فى الخمسينات على وضع الخطر السوفيتى فى المقام الاول وتجاهل هموم العرب الكبرى وفى مقدمتها قضيتنا فلسطين والتنمية هو الذى أدى الى الجفوة بين الثورة المصرية والولايات المتحدة بعد شهر عسل قصير . وكان ماكان من سحب عرض تمويل السد العالى وتأميم قناة السويس والعدوان الثلاثى وتقهقر مركز الغرب وتحسن مركز السوفييت فى المنطقة . باختصار كان اصرار جون فوستر دلاس ومدرسته على القواعد والأحلاف وتجاهل ماهو أهم لشعوب المنطقة هو الباب الذى دخل منه السوفيت بدعوة من بعض حكامنا . **ومرة أخرى حينما تحول الوجود السوفييتى الى تسهيلات وقواعد ونفوذ يمس الكرامة الوطنية المصرية ، مع عدم تصفية الصراع العربى الاسرائيلى ، قام الرئيس السادات باقتلاعه فى أيام قليلة وأيده فى ذلك الشعب المصرى . وهنا أيضا تم اقتلاع النفوذ السوفييتى دون معاونة جندى أمريكى واحد .**

٦ – **العبرة اذن** ... هى أن ضمان استقرار وأمن المنطقة وحصانتها ضد الأخطار الخارجية يتأتى أساسا من داخلها بواسطة :

– حكومات وأنظمة ترضى عنها شعوبها وتتيح قدرا . متزايدا من المشاركة الديمقراطية .

– مواجهة حادة مع الهموم الرئيسية وفى مقدمتها قضيتنا فلسطين والتنمية المتكافئة .

– تقوية القدرات الدفاعية الذاتية لدول المنطقة .

– تكريس الاستقلال الوطنى واحترام المشاعر العربية القومية .

وبالقدر الذى تستطيع الولايات المتحدة أو غيرها التعاطف مع تلك الهموم ودفع

عجلتها ، سيتوطد الاستقرار والرخاء فى المنطقة ، وستصبح أشد حصانة ومنعة ضد المخاطر الخارجية ، وسيتم المحافظة على المصالح الاقتصادية والاستراتيجية المشروعة للغرب . ومادام ذلك مأخوذا فى الاعتبار ، فليس يضيرنا أن تقوى الولايات المتحدة من قدرتها العسكرية فى مواجهة السوفييت فى أى بقعة من العالم ، بشرط ألا تصبح بلادنا ساحة لقتال العملاقين على أرضها .

وباستثناء الكلمة التى ألقاها جورج ويل ونبوءة الحرب الباردة والاستعداد لحرب ساخنة ، فان الحوار بين خبراء المركز ونظرائهم الامريكيين كان رفيع المستوى ورغم اختلاف التصورات والاولويات بين الجانبين ، الا أن الخبراء الامريكيين كانوا ينصتون الينا باهتمام بالغ . لقد كانت رغبتهم الصادقة فى الاخذ والعطاء واضحة لنا كل الوضوح على مدى الايام الاربعة .

وكان زبيجنيو بريجنسكى هو آخر المتحدثين الامريكيين . وفى كلمات قوية وشديدة البلاغة استعرض مع الحاضرين خلاصة تجاربه فى التعامل مع مصر ومع الرئيس السادات ومع مشكلات المنطقة من موقعه كمستشار للامن القومى الامريكى . وقد بدأ بتعليق على التدريبات العسكرية المشتركة بين القوات المصرية والامريكية فى خريف ١٩٨٠ . وقال أن أكثر ما بهر **الضباط الأمريكيين أثناء تلك التدريبات هو المهارة الهائلة للضباط والجنود المصريين فى حرب الصحراء والمناورة بالدبابات ، وأن الضباط الامريكيين تعلموا الشىء الكثير من زملائهم المصريين . أما أكثر ما بهر الضباط المصريين فى سلوك الجانب الامريكى فهو أن وحداتهم العسكرية قد غادرت مصر فى الوقت المحدد لرحيلها** . واستخلص بريجنسكى من ذلك **الدرس الاول** فى التعامل مع المصريين ، وهو مخزون الوطنية المصرية الهائل ، وحساسية المصريين القومية لاى وجود عسكرى أجنبى على التراب المصرى بشكل دائم أو شبه دائم . **أما الدرس الثانى** ، فهو ألا تتصور الولايات المتحدة أن مصالحها ومصالح مصر القومية تتطابق تطابقا تاما ، وبالتالى فسيكون خطأ فادحا أن تتعامل الولايات المتحدة مع مصر كما لو كانت ولاية أمريكية . هناك حقا تلاق فى بعض المصالح والاهداف ، وأنه فقط فى هذه الرقعة المشتركة بين البلدين يجوز بل ينبغى أن تكرس جهود البلدين . وقد حدد بريجنسكى رقعة الاهداف المشتركة فى حفظ السلام والاستقرار فى المنطقة ، وتحصينها ضد الغزو السوفيتى السافر أو المستتر . **الدرس الثالث** ، والاهم ، **هو أن تحالفا صريحا أو ضمنيا بين الولايات المتحدة وأى نظام عربى حاكم لن يكون وطيدا أو دائما ، ولن يكتسب أى شرعية شعبية عربية مادامت المشكلة الفلسطينية قائمة بلا حل يحقق الامانى المشروعة والمعقولة للشعب الفلسطينى .**

الأمريكى القبيح*

فى نهاية الخمسينات وأوائل الستينات ظهرت عدة كتب فى الولايات المتحدة لعدد من الكتاب الامريكيين فى الداخل والخارج من هذه الكتب « الامريكى القبيح » و « أمة من القطيع » و « امريكا الاخرى » و « غطرسة القوة » و « نخبة القوة »

وقد احدثت هذه الكتب دويا هائلا فى الرأى العام الامريكى ، لانها كانت بمثابةأول نقد ذاتى حاد بواسطة كتاب محترمين يصدمون مواطنيهم ، ويبددون به الصورة الوردية التى كان يحملها الامريكيون لانفسهم ولبلادهم منذ فترة طويلة

فقد كان الاعتقاد السائد لدى الامريكيين عن أنفسهم هو أنهم شعب متقدم ، حر ، كريم ، ديموقراطى يناصر قضايا العدالة فى كل مكان فجاءت هذه الكتب لتقول لهم ان هناك أمريكا أخرى ، مستغلة ، ظالمة ، تناصر الاستبداد والمستبدين ، وتعادى الشعوب . وأن جذور هذه (الامريكا الاخرى) قد ولدت منذ البداية ، ولكنها ظلت فى حالة كمون ، ولم تظهر على السطح الا لفترات قصيرة فى التاريخ الامريكى قبل الحرب العالمية الثانية . لذلك لم يكن يتذكرها معظم الامريكيين

لكن بعد الحرب العالمية الثانية وبروز امريكا كقوة عظمى على المسرح العالمى بدأت ملامح أمريكا الاخرى تتجسم وتظهر فاقعة امام انظار شعوب العالم الثالث .

لقد كان ابناء الشعب الامريكى فى الخمسينات يعجبون حينا يسمعون عن مظاهرات معادية لهم فى عواصم اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . ولم يفهموا لماذا تعادى هذه الشعوب بلدهم « التقدمى » « الديموقراطى » « الحر » ! وكان ظنهم فى البداية أن هذا العداء وهذه المظاهرات هى من فعل « الشيوعيين » . وكان بعض زعمائهم ، من أمثال جون وفوستر دالاس

* الجمهورية ، ١ / ٧ / ١٩٨٢

وجوزيف مكارثى ، يغذون هذا الظن .

لكن ظهور الكتب المشار اليها فى صدر هذا المقال بواسطة كتاب امريكيين جعل العقلاء منهم يأخذون نظرة ثانية متأنية نحو سياسة وساسة بلادهم . حتى اذا ماجاءت منتصف الستينات وحرب فيتنام الا وكان الشباب الامريكى قد أصبح ناقدا وساخطا وغاضبا على زعماء بلاده

هيج ..
نموذج للامريكى القبيح

كتاب « الامريكى القبيح » الذى تحول فيما بعد الى فيلم امريكى قام ببطولته مارلون براندو ، يجسم نموذج الامريكى الذى ينظر الى شعوب العالم الثالث بمنظار الاستعلاء والاستغلال والعنصرية . وينظر الى الدور الامريكى فى العالم كمنافس فى مباراة عنيفة ضد « قوى البشر » الذى لابد ان ينتصر عليها مهما كانت الوسيلة . وهو لذلك لايتردد فى أن يفنى شعبا باكمله من أجل ان ينقذه من نفسه ، ومن أجل ان تنتصر امريكا فى النهاية

الامريكى القبيح هو « ميكيافيلى » القرن العشرين ، الذى تبرر له الغاية استخدام أى وسائل التآمر والتجويع ، والفتك ، والدمار . ثم هو مستعد - بعد أن ينتصر أن يجزل العطاء ، ويفيض بالملايين « لاعادة بناء » البلد الذى قام بتدميره .

وربما نذكر انه فى قمة الغارات الجوية الوحشية على مدن وقرى فيتنام ، كان هنرى كيسنجر يصرح بأن أمريكا مستعدة لمنح مساعدات ضخمة لاعادة بناء فيتنام بعد الحرب . كان المهم عنده أن تنتصر أمريكا مهما كان الثمن .

فالامريكى القبيح لايهتم برغبات الشعوب أو مطالبها المشروعة.وهو لايهتم بعدد القتلى والجرحى والمشردين من جراء الحرب فى بلاد العالم الثالث . وهو فقط يهتم بالانتصار بأقل عدد من ضحاياه هو وضحايا حلفائه الغربيين ذوى « الدم الازرق المتفوق » .

هارى ترومان وجون فوستر دالاس ، وجوزيف مكارثى ، ولندون جونسون ، وريتشارد نكسون ، وهنرى كيسنجر ، يمثلون جميعا نماذج لهذا الامريكى القبيح .

والكسندر هيج يمثل نموذجا فجا لهذا الامريكى القبيح فى الوقت الحالى . فهو الى ماقبل استقالته منذ أيام قليلة كان من أنصار افناء المقاومة الفلسطينية الى اخر رجل . وفى

سبيل هذه الغاية النبيلة لابأس من افناء الشعب الفلسطيني نفسه ، ولا ضرر من افناء جزء كبير من أبناء الشعب اللبناني ، أو تشريد مئات الالوف منهم .

وقد وجد الكسندر هيج نصيرا وحليفا يشاركه نفس النظرة ، ونفس الاستعداد ، ولديه القدرة على تحقيق هذه « الغاية النبيلة » .

لقد وجد في اسرائيل وفي مناحم بيجين واريل شارون وجنرالات اسرائيل الآخرين شركاء مخلصين لتنفيذ هذا المخطط . ووجد في الحكام العرب المنقسمين على أنفسهم شركاء صامتين . ولم يتورع هيج عن طمس الحقائق أمام الشعب الامريكي ، وحتى أمام رئيسه وزملائه في الادارة الامريكية .

ولم يأبه كثيرا بوقوف العالم كله في مجلس الامن وفي الجمعية العامة للامم المتحدة ضد المجزرة التي تنفذها اسرائيل بوحشية واقتدار في لبنان . وكانت صيحته الاخيرة في ردهات البيت الابيض في صباح الجمعة الماضي : دعوا اسرائيل تريحنا من منظمة التحرير الى الابد ، حتى نستطيع ان نرتب أوضاع المنطقة على هوانا ، وحتى نخلق « الاجماع الاستراتيجي » بين كل دول المنطقة استعدادا لخطر اكبر وهو الخطر السوفيتي .

وكان هيج يؤكد الى اخر لحظة قبل استقالته ان الانظمة العربية غير عابئة بما يحدث لمنظمة التحرير. بل أن بعضها سعيد في صمت — رغم كل ماتقوله علنا — بتصفية كل قياداتها.

وباختصار ، كان هذا الامريكي القبيح يريد ياسر عرفات مصلوبا،وهو يلعب دور يهوذا، والعسكرية الاسرائيلية تلعب دور الرومان.في كل ذلك كان يستثير في رئيسه رونالد ريجان عقلية رعاة البقر وروح غطرسة القوة . وكان يصف زملاءه في الادارة الامريكية الذين تحفظوا على الوسيلة — وليس على الغاية — بالسذاجة والضعف،أو بالغيرة من عبقريته الاستراتيجية.

بذور افناء المقاومة

الكسندر هيج يعتبر تلميذا مخلصا لامريكي قبيح آخر هو هنري كيسنجر . وقد كان الاخير منذ عام ١٩٧٠ يعتقد ان افناء منظمة التحرير هو خطوة ضرورية من أجل تسوية الصراع في الشرق الاوسط . لذلك انصرف همه في تلك الاثناء والى عام ١٩٧٦ بتبني سياسة « تعريب الصراع في الشرق الأوسط » . ومغزى هذه السياسة هو أن يستدرج الانظمة العربية لكي :

١ – تقوم هى بتقليم اظافر المقاومة الفلسطينية واحتوائها .
٢ – لكى تحارب بعضها البعض وتنصرف عن الحرب مع اسرائيل.

وقد اعترف هنرى كيسنجر بنفسه فى مقال نشره فى الاسبوع الماضى فى صحيفة «الواشنطون بوست» بان من مصلحة امريكا أن تساعد اسرائيل على ابادة المقاومة الفلسطينية.

وفى مذكراته عن الفترة من ١٩٦٨ الى ١٩٧٦ ، التى عمل فيها مستشارا للامن القومى ، نجد البذور الاولى لهذا المخطط.

فمذابح أيلول الاسود فى الاردن عام ١٩٧٠ ، والحرب الاهلية فى لبنان (١٩٧٥) ، ثم التدخل السورى فى لبنان عام ١٩٧٦ ، هى كلها حلقات مترابطة لخدمة هذه الغاية . وكيسنجر فى تبريره ودفاعه عن الغزو الاسرائيلى الحالى للبنان يقول صراحة ، ان اسرائيل تحقق نفس الهدف الذى من اجله أعطت امريكا الضوء الاخضر لسوريا عام ١٩٧٦ بالتدخل العسكرى فى لبنان.

لقد كان الهدف عندئذ هو منع المقاومة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية من احراز النصر النهائى على القوى الانعزالية الكتائبية ، ثم احتواء المقاومة واضعافها . ولكن بما أن سوريا لم تنجح تماما فى إخماد منظمة التحرير ، واصبحت فى السنوات الثلاث الاخيرة تعمل لحسابها فقط أولحساب السوفيت فقد لجأت امريكا لاسرائيل لكى تقوم بنفس المهمة . هذه المرة لانهاء الوجود الفلسطينى والوجود السورى معا.

وكيسنجر لايتورع عن عرض جزء من سهل البقاع اللبنانى لتظل فيه القوات السورية ، مقابل جزء من الجنوب اللبنانى لتظل فيه القوات الاسرائيلية ، ولكن مع افناء المقاومة الفلسطينية فى كل الاحوال .

الامريكى الطيب
خافت الصوت

هذه المخططات الامريكية البادرة التى لاتكترث بارواح ومصالح الشعوب والتى يجسمها نموذج الامريكى القبيح ، هدفها المعلن هو خدمة المصالح الامريكية،لكنها لاتخلو فى الواقع من اعتبارات الطموح الشخصى والمصلحة الذاتية .

وليس سرا – مثلا – أن الكسندر هيج ، وهو اخر صيحة للامريكى القبيح ، كان

يخطط لحملة الرئاسة الامريكية عام ١٩٨٤ . وفى هذا التخطيط ، وبتواطئه الفاضح مع اسرائيل ، كان يحاول التقرب من الناخبين اليهود وجماعات الضغط الصهيونية ، املا فى ان يحصل على تأييدها فى معركة الرئاسة القادمة .

لكن فى مقابل نموذج « الأمريكى القبيح » هناك نموذج « الأمريكى الطيب » وهو نموذج يسعى أيضا لخدمة المصالح الامريكية ، لكنه غير مستعد لاستخدام احط الوسائل خدمة لهذا الهدف . بل انه فى سبيل تلك المصالح يسعى الى تفهم الامال المشروعة لشعوب المنطقة . ومن هنا فهو ليس على استعداد لاطلاق يد اسرائيل لتعيث فسادا فى الأرض العربية ، ولديه قدر كبير من التعاطف مع الحقوق الفلسطينية .

هذا النموذج الامريكى الطيب وجد ، وملزال موجودا ، على الساحة الامريكية : ابتداء من جورج فورستال فى الاربعينات ، الى الرئيس ايزنهاور فى الخمسينات ، وجون كيندى فى الستينات .

وهناك أصوات ساخطة يمثلها هذا الامريكى الطيب فى أشخاص شارلز بيرسى رئيس لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ الامريكى ، ومارك هاتفيلد عضو اللجنة ، ووليم فولبرايت رئيسها السابق ، وجورج بول وكيل الخارجية السابق ، وهيرمان ايلتس سفير امريكا السابق فى القاهرة والفرد اثرتون سفيرها الحالى .

لكن هذه الاصوات للامريكى الطيب غالبا ماتضيع بين صخب اصوات الامريكى القبيح الذى يحسب عدد اصوات الناخبين فى نيويورك وعدد الدولارات التى سيتبرعون بها فى الحملة الانتخابية القادمة .

الامريكى الطيب هو الذى يعطى الحكام العرب الامل فى ان تكون منصفة . والامريكى القبيح هو الذى يعطيهم الصفعات . فى السنوات الثلاثين الماضية كانت لحظات الامل قليلة ، أما الصفعات فلا حصر لها .

بذور الصدام

مهنتى الاصلية كعالم اجتماع سياسى تقتضى أن أقوم برصد وتحليل وتفسير مايدور على ساحة مجتمعى من ظواهر وتيارات.ولعلماء الاجتماع مناهج وأدوات يستخدمونها لهذا الغرض منها مسوح واستقصاءات الرأى العام، والمقابلات المتعمقة مع أفراد ومجموعات ممثلة للقطاعات المختلفة فى المجتمع، وتحليل مضمون مايكتب وما يقال بواسطة العامة والخاصة وفى وسائل الاعلام والملاحظة المضبوطة .. وما الى ذلك.

ولكى يكتمل تحليل وتفسير مايتم رصده يلجأ العالم الاجتماعى الى المنهج التاريخى والمنهج المقارن ليضع الظواهر محل الاهتمام فى سياقها المتصل زمانا ومكانا .

أقول هذا كمقدمة مختصرة لتفهم مايحمله لنا المستقبل القريب من عواصف تجمعت سحبها منذ ستة اسابيع وهبت على لبنان .

وربما لأن العواصف لاتعترف بالحدود الدولية المرسومة على الارض فأنها ستهب على اجزاء أخرى من الوطن العربى. فالأردن وسوريا والعراق والخليج مرشحة لقلاقل عاتية خلال الشهور القليلة القادمة .

والشعب المصرى بكل قطاعاته ساخط وناقم على اسرائيل والولايات المتحدة. نلمس ذلك فى احاديث الناس اليومية ونلمسه فى الصحف القومية وفى صحف المعارضة.

وقد طالعتنا صحيفة « مايو » فى عددها (١٢ - ٧ - ١٩٨٢) بما يفيد أن قواعد الحزب الوطنى الحاكم تشارك بقية قطاعات الشعب فى سخطها ونقمتها على اسرائيل وامريكا معا . الأولى لعدوانها البربرى على شعب لبنان وفلسطين . والثانية لتواطئها ثم تأييدها الصريح للعدوان

* الجمهورية ، ١٩ / ٨ / ١٩٨٢

الاسرائيلى الغاشم .

هذا الاجماع الشعبى على ادانة اسرائيل والولايات المتحدة يتعمق يوما بعد يوم وقد حاول التعبير عن نفسه بوسائل مختلفة فى الحدود التى سمحت بها الدولة .

ولكن معظم افراد الشعب مع ذلك يشعرون بالاحباط الشديد لعجز مصر والعالم العربى – الى الان – عن عمل أى شيىء يؤثر حقيقة على مجرى الاحداث.وأنكى من ذلك ان معظم افراد الشعب يشعرون بأن قدرتهم على « الحركة » مكبلة،وان قدرة الحكومة المصرية نفسها على « التحرك » مقيدة بثلاثة قيود رئيسية وعديد من القيود الفرعية الاخرى .

القيد الأول :

معاهدة « السلام »

هذه المعاهدة التى قبلها الشعب المصرى – املا فى سلام شامل وعادل-كانت تقصر عن معظم اماله.ومع ذلك قبلها على مضض لانه يدرك بعقلانيته التاريخية أن أى معاهدة هى فى النهاية ترجمة لتوازن القوى المادية والعسكرية على أرض الواقع .

ولايستطيع المفاوض مهما كانت حنكته ومهارته أن يحصل فى المفاوضات على أكثر مما كانت قوته العسكرية تمكنه من الحصول عليه فى أرض المعركة

المهم ان هذه المعاهدة فرضت على الطرفين المصرى والاسرائيلى التزامات عديدة نصا وروحا .

وقد احترمت مصر الى الان نص وروح المعاهدة

أما اسرائيل فقد التزمت فقط بالحد الادنى من نصوص المعاهدة وخرقت روحها خرقا فاضحا .

وهناك اتفاقيات سابقة على المعاهدة وبورتوكولات لاحقه للمعاهدة

الذى يسبق المعاهدة هو اتفاقيتى كامب دافيد اللتان تمثلان الاطار العام لعملية السلام فى الشرق الاوسط . احدهما تتعلق بالعلاقات المصرية الاسرائيلية . والثانية تتعلق بالحكم الذاتى وتقرير المصير للفلسطينيين . واللاحق بالمعاهدة هى ترتيبات واتفاقات مفصله عن تطبيع العلاقات بين البلدين ، بما فى ذلك بيع البترول المصرى لاسرائيل ، والتبادل التجارى والثقافى .

وروح هذه الاتفاقات السابقة واللاحقة بالمعاهدة هو تدعيم عملية السلام فى الشرق

الاوسط بدل عملية الصراع،واحلال العدالة بدل الظلم،واشاعة الوئام بدل التوتر .

وقد حافظت مصر على روح كل تلك الاتفاقيات السابقة واللاحقة للمعاهدة.آما اسرائيل فقد خرقتها خرقا فاضحا ولاتراعى من نصوصها الا مايتفق مع مصالحها ومخططاتها واطماعها.آما مايتصل بالغير،وخاصة الشعب الفلسطينى،فهى لم تتجاهله فحسب بل تصرفت ومازال تتصرف بعكسه تماما

ولا نعتقد أننا فى حاجة الى التدليل على مانقول. فالصحف المصرية والعالمية وقرارات الامم المتحدة تزخر بالدلائل لمن يريدها .

احترام مصرلروح ونصوص كامب دافيد والمعاهدة والاتفاقات اللاحقة أصبح يمثل قيدا على قدرة مصر فى « التحرك »،وان كان لايمنعها من « الحركة ».والفارق كبير بين « الحركة » « والتحرك » .

الحركة نشاط قد لايقدم ولايؤخر فى مجرى الاحداث .

أما « التحرك » فهو نشاط يؤثر فى مجرى الاحداث

مصر الرسمية تقوم « بحركة » دائبة ومخلصة،سرا وعلنا،على الصعيد الدبلوماسى والاعلامى. والى الآن لم تؤثر حركتها كثيرا فى مجرى الاحداث على الساحة اللبنانية .

وعدم « التحرك » بهذا المعنى سببه القيود التى فرضتها علينا كامب دافيد والمعاهدة والاتفاقات اللاحقة.وقد أضيفت الى هذا القيد قيود نفسية غير ماهو مكتوب.فاحلام السلام الوردية قد خلقت حالة من الاسترخاء فى المجتمع المصرى طيلة السنوات الخمس الماضية.وفقط فى الشهور الاخيرة بدأت الاحلام تتحول الى كوابيس عند بعض – وليس كل – الناس .

القيد الثانى :

اختلال التوازن الاستراتيجى

رغم عدم وجود معلومات مصرية رسمية منشورة عن التوازن الاستراتيجى ، بما فيه ميزان القوة العسكرية بيننا وبين اسرائيل،الا ان مصادر المعلومات الاجنبية تفيد بأن هذا التوازن هو لغير صالح مصر . فاسرائيل – طبقا لمعهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن قد ضاعفت قدراتها العسكرية كما ونوعا وتنظيما منذ حرب اكتوبر.كما أن لديها رادعا نوويا.أما مصر فهى لم تستطع الى الآن ان تعوض كل خسائرها فى السلاح الذى فقدته فى حرب أكتوبر.فمصدرى السلاح الرئيسيين

بالكم والنوع المطلوب لنا هما الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة .

وقد جف المصدر الأول بفعله أو فعلنا أو بفعله وفعلنا معا .

أما المصدر الثانى وهو الولايات المتحدة فهو لايعطى واذا اعطى فيتمنع شديد وبكميات ونوعيات لاتغنى ولاتسمن من جوع وهى دائما اقل بكثير مما تفيض به على شريكها الحقيقى الأوحد والوحيد فى المنطقة وهو اسرائيل .

فكأننا من حيث وضعنا ثقتنا كاملة فى الولايات المتحدة « كشريك فى السلام » وكمصدر للسلاح، قد تركنا جسورنا مع شركاء أخرين ومصادر اخرى للسلاح تحترق بايدينا أو بايدى غيرنا. واثبتت الاعوام القليلة الماضية ثم احداث الاسابيع الأخيرة اننا وضعنا الثقة فى غير محلها، ووضعنا كل « بيضنا فى سلة واحدة وهى السلة الامريكية والتاريخ يعيد نفسه ومن هنا اهمية النظرة التاريخية المقارنة

فى اوائل عهد ثورة يوليو كانت علاقات الضباط الاحرار بالولايات المتحدة طيبة بل ودية، وساعدت الولايات المتحدة فى الضغط على بريطانيا لتوقيع اتفاقية الجلاء مع مصر عام ١٩٥٤. ولكن سرعان مابدأت اسرائيل سلسلة من اعتداءاتها على الحدود المصرية فى « الصبحة » « والكونتيلا » و « غزة » .

وطلبت مصر أن تشترى السلاح من الولايات المتحدة والدول الغربية، وماطلت هذه الأخيرة وسوفت وقترت .

وخلص قادة الثورة الى استنتاج واحد ووحيد وهو ان الولايات المتحدة تريد أن ترهن الارادة المصرية، وتجمد القدرة المصرية، حتى تظل مصر تحت رحمة اسرائيل. وقد كان هنا « الاكتشاف » بداية لمحاولات مصر ان تكسر احتكار السلاح، والتوجه الى الكتلة الشرقية. وكان بداية لتدهور العلاقات بيننا وبين الغرب عموما والولايات المتحدة على وجه الخصوص

بعد ثلاثين سنة تكرر السياسة الامريكية نفسها

ولكن يبدو اننا نحن لم نعد « اكتشاف » الحقيقة المرة كاملة بعد، وهى أن الولايات المتحدة تحاول أن ترهن الارادة المصرية، وان تجمد القدرة المصرية، وان تضع مصر والوطن العربى تحت رحمة اسرائيل، حتى نذعن ونستسلم فى عام ١٩٨٢ لما لم نذعن أو تستلم له فى منتصف الخمسينات .

هنا أحد بذور الصدام بين مصر والولايات المتحدة.وهو صدام بدأت بوادرة على الصعيد الشعبى بالفعل فمن يقم بتحليل مضمون الصحف والمجلات المصرية،ومن يستمع ويرصد احاديث العامة والخاصة لابد أن ينتهى الى هذه الخلاصة.

صحيح أن مصر الرسمية مازالت تحاول تفادى هذا الصدام،ومازال تخاطب البقية الباقية فى العقل الامريكى الرسمى،ومازال متحكمة فى التعبير العلنى عن شعورها نحو المسلك الامريكى، والحماقات الامريكية الرسمية الميكيافيلية .

ولكننا نعتقد بناء على معرفتنا بطبيعة النظام الامريكى وطبيعة العلاقة الخاصة بينه وبين اسرائيل.فان الولايات المتحدة لن تقوم طوعا بالضغط على اسرائيل،ولن تقوم طوعا بتصحيح الاختلال الاستراتيجى بين مصر واسرائيل .

وليكن واضحا ان مطالبة مصر بالتوازن الاستراتيجى هنا لايعنى رغبة مصر فى الحرب، ولكنه يعنى القدرة على « التحرك الفعال » الذى يمكن أن تعمل له اسرائيل حسابا،بدلا من « الحركة العاجزة » التى تفتقد القوة المساندة،وبالتالى لاتقيم لها اسرائيل اى وزن

القيد الثالث
التبعية الاقتصادية

ليس سرا أن مصر تتلقى مساعدات اقتصادية من الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٤. وقد تطورت هذه المساعدات من حيث الحجم الى ان وصلت حوالى مليار دولار سنويا فى الاعوام الثلاثة الاخيرة .

ومصر تعتمد على هذه المساعدات اصلا لتصحيح فجوة الغذاء وخاصة من القمح ولتصحيح العجز فى ميزان المدفوعات وفى تمويل بعض مشروعات البنية الاساسية.والذى يرصد ويحلل احاديث العامة والخاصة أو بعض مايكتب فى الصحف على استحياء يخلص الى أن هناك توجسا من فعل اى شىء يكون من شأنه اغضاب امريكا فرغم السخط عليها فى القلوب والعقول، الا ان هناك رغبة فى بعض الاوساط الشعبية والرسمية،وليس كل الاوساط،بان نتحكم فى سلوكنا نحو « الشريك الامريكى » حتى لايقطع مساعداته وحتى لاتجوع مصر .

هذا التخوف له مايبرره وهو تخوف مشروع.ولامريكا سوابق فى هذا الشأن،فقد سحبت

عرضها بتمويل السد العالى فى منتصف الخمسينات،وقطعت معوناتها الاقتصادية فى منتصف الستينات .

لقد أصبح هذا التخوف أحد القيود على « تحركنا الفعال » وان لم يمنع حركتنا اللفظية العاجزة هذا هو قيد « التبعية » مهما حاولنا ان نغلفه باى غلاف.وهو قيد ساهمنا نحن بمقدار فى وضعه حول معصمنا وساهم فيه الاشقاء العرب النفطيون بمقدار ولكن المدقق فى طبيعة المساعدات الامريكية لمصر سيكتشف أن حجمها الحقيقى أقل من حجمها الرسمى بكثير. وان قيد التبعية بالتالى ليس بهذا الاحكام الذى تتصوره فأكثر من نصف المساعدات الامريكية المرصودة لمصر سنويا يعود مرة أخرى للولايات المتحدة فى شكل تمويل للسلع المستوردة منها والتى تنقل على سفنها وفى شكل دراسات الجدوى التى تقوم بها الخبرة الامريكية وفى شكل مرتبات وأجور ولموظفى ومستشارى هيئة المعونة الامريكية فى مصر .

ويؤكد أحد اساتذة جامعة نيويورك الذين قاموا بتحليل طبيعة وأوجه إنفاق المعونة الامريكية لمصر أن الصافى الحقيقى لما تتلقاه مصر لا يتجاوز خمسمائة مليون دولار سنويا.وهو لا يمثل اكثر من ١٥ فى المائة من مواردنا من العملة الصعبة سنويا اذا كان هذا صحيحا فان قيد التبعية للولايات المتحدة يكون نفسيا أكثر منه موضوعيا فمصر تستطيع أن توفر هذا المبلغ (٥٠٠ مليون دولار) سواء بضغط الانفاق الحكومى أو « ترشيد الاستهلاك » أو المزيد من الضرائب على الطبقات العليا وعلى « السلع الترفيهية » .

الخلاصة

ان بذور الصدام بين مصر والولايات المتحدة موجودة.وقد تولت امريكا بنفسها وبسلوكها بذرها فى التربة الشعبية المصرية.وهى تنمو يوما بعد يوم تحت السطح.بل أن بواكيرها بدأت تظهر فوق السطح.أن مصر الرسمية تحاول جاهدة مخلصة الا تغذى هذه البذور،وان تتفادى الصدام. ولكن استمرار الحماقات الامريكية وحساباتها الاستراتيجية الباردة والقصيرة النظر هى التى ترش الاسمدة العضوية والكيماويات على هذه البذور وتعجل بنموها

ولن تمنع قيود المعاهدة أو الاختلال الاستراتيجى أو التبعية الاقتصادية من نمو الصدام .

مصر لم تجع فى الخمسينات والستينات حين قطعت امريكا معوناتها الاقتصادية

وهى لن تموت جوعا فى الثمانينات اذا فعلت امريكا نفس الشىء والاختلال الاستراتيجى الذى كان قيدا على مصر فى الخمسينات لم يؤد الى رهن ارادتها الوطنية أو التخلى عن مسئولياتها

القومية تجاه امتها العربية.حقيقة تدرك مصر الرسمية ان شعبها فقير ومثخن بجراح حروب طويلة وان مجتمعها ينفجر بسكانه ويعانى اقتصاديا.

ومصر الرسمية لذلك صابرة متحكمة فى أعصابها وفى سلوكها ادراكا منها للقيود على تحركها، واشفاقا منها على معاناة شعبها.

ولكن لصبر مصر الشعبية حدود.وحتما سيكون لصبر مصر الرسمية حدود .

وقفة مع الشريك*

خلال الستينات دأب الزعيم الراحل جمال عبد الناصر على وصف الاتحاد السوفيتى بأنه « صديق استراتيجى ».وبعد هزيمة ١٩٦٧ واحتياجنا لاعادة تسليح الجيش المصرى ، بدأت الصداقة تتحول تدريجيا الى مايشبه الاعتماد الكامل على الاتحاد السوفيتى . وبدأ نفوذ هذا الاخير يزداد الى درجة اقلقت عددا كبيرا من المصريين .

وفى أوائل السبعينات ، وبعد تولى الرئيس السادات مقاليد السلطة قيل لنا أن الاتحاد السوفيتى يتلكأ فى تلبية احتياجاتنا من السلاح المتطور ، اللازم لتحرير أراضينا المحتلة ، لذلك أتخذ الرئيس السادات قراره فى يوليو ١٩٧٢ بطرد الخبراء السوفييت .

وحاول الرجل – رحمه الله – أن يخفف من وقع القرار باستخدام عبارة مهذبة وهى « وقفة مع الصديق » ولم يمنع هذا القرار الحاد ، ضد دولة عظمى تمدنا بالسلاح ، مصر من اتخاذ قرار أكثر حدة بعد ذلك بعام وثلاثة شهور ، وهو قرار حرب أكتوبر.

المهم ان « الوقفة مع الصديق » السوفيتى وقتها لم تمنع مصر من التعبير عن ارادتها الحرة فى مسألة مصيرية ، وهى الحرب ، ووقف الشعب المصرى كله وراء حكومته وجيشه ببسالة منقطعة النظير .

من الصديق الاستراتيجى
الى الشريك الكامل

فى السنوات الثلاث التالية تحولت « الوقفة مع الصديق » السوفيتى من البرود ، الى القطيعة ، ثم الى العداوة السافرة .

---

* الجمهورية ، ٢ / ٩ / ١٩٨٢

فى خلال نفس السنوات الثلاث بدأ تحول آخر نحو الولايات المتحدة

جاء لنا **هنرى كيسنجر** فى أعقاب حرب أكتوبر مباشرة ليقول لنا أن الولايات المتحدة مستعدة لفتح « صفحة جديدة » فى العلاقات العربية الامريكية ، وانها مستعدة لمعاونتنا فى تحقيق « سلام عادل » ، ولمساعدتنا اقتصاديا . كل مايطلبه منا هو أن نثق فيه ، وان نثق فى الولايات المتحدة ، والا نطلب حلا شاملا مرة واحدة ، وانما نقنع بدبلوماسية « الخطوة - خطوة » ، التى ستؤدى فى النهاية الى « **الحل العادل** » الذى نطلبه !

أما مخطط كيسنجر الحقيقى فقد كان بسيطا محددا فى أهدافه ، وان كان معقدا فى تفاصيله ومراحله

كان هدف المخطط الكيسنجرى هو « **تصفية مكاسب حرب أكتوبر** » .

لقد ايقن الرجل بدهائه قبل ان يوقن الاسرائيليون ، أن « العرب قد كسبوا حرب اكتوبر استراتيجيا » . وهذه هى كلماته بالحرف الواحد.وأيقن أنه لو احتفظ العرب بثمرة هذا الانتصار ، واذا استمروا بنفس المعادلة التى أوصلتهم الى هذا الانتصار ، فان اسرائيل ستواجه مزيدا من الهزائم ، وستخسر الولايات المتحدة مزيدا من المواقع .

لذلك عمد كيسنجر الى تكسير المعادلة العربية بدهاء وتؤده.والمعادلة المقصودة هى التحالف « المصرى - السعودى - السورى » ، الذى مثلت فيه كل من مصر وسوريا ضلعى المثلث العسكريين ، ومثلت فيه السعودية الضلع الثالث بقوتها النفطية والمالية .

كان هذا التحالف يقود النظام الاقليمى العربى ، ويعطى الامة العربية حدا أدنى من وحدة الصف والهدف والتحرك ، وخاصة بعد رحيل جمال عبد الناصر.

وكان هذا التحالف الثلاثى كأى تحالف عربى آخر - رغم ذلك - ينطوى على بعض الثقوب والتوترات الداخلية.

ومن خلال هذه الثقوب نفذ هنرى كيسنجر ، واقنع كل طرف بالتعامل معه على حده ، ورفض رفضا باتا ان يتعامل مع هذا التحالف أو مع أى تجمع عربى آخر كوحدة أو ككيان جماعى .

واستمرت هذه السياسة الامريكية التى وضع كيسنجر قواعدها مستمرة فى السنوات

التالية بعد خروجه من مناصبه الرسمية .وكانت احدى نتائج هذه السياسة اتساع شقة الخلاف بين مصر وسوريا فى المدة من ١٩٧٤ الى ١٩٧٧ ثم اتساع شقة الخلاف بين مصر والسعودية فى المدة من ١٩٧٧ الى ١٩٨١.

التحالف المصرى – السعودى – السورى فى الفترة من ١٩٧٠ الى ١٩٧٣ هو الذى وضع حدا لاستخفاف امريكا بالعرب .

معركة أكتوبر المجيدة كشفت عن الامكانيات العربية الهائلة التى يمكن توظيفها لمصلحة مصر والامة العربية ، متى توفرت العزيمة ، ومتى توفر الحد الادنى من التنسيق والتعاون المخلص بين الزعماء العرب .. والانجاز العربى فى أكتوبر هو الذى جعل كيسنجر يلهث فى « رحلات مكوكية » بين عواصم الشرق الأوسط .

ولكن بعد أن نجحت السياسة الامريكية فى تفكيك أواصر التحالف المصرى – السعودى – السورى ، انقلب الموقف الى العكس وقدمت امريكا لاسرائيل كل ماتحتاجه من دعم دبلوماسى واقتصادى وعسكرى لذبح الشعب الفلسطينى وتشريد الشعب اللبنانى ، ولفرض الحكم الذى تريده على بلد عربى بقوة السلاح .

رفضت أمريكا وماتزال ترفض حتى الصيغة المصرية الفرنسية المعتدلة وهى الالتزام ، بمجرد الالتزام المبدئى بحل شامل للصراع الفلسطينى – الاسرائيلى ، يقوم على الاعتراف المتبادل والتعايش بين اسرائيل والفلسطينيين .

هذه هى أمريكا « الشريك الكامل » .

وحينما أطلق الرئيس الراحل أنور السادات هذ الوصف على أمريكا كان يقصد أو يأمل فى أن تكون أمريكا شريكا كاملا فى عملية السلام الشامل وفى عملية البناء والتعمير الكامل بالمنطقة التى أنهكتها حروب عديدة.فاذا بامريكا تصبح شريكا كاملا فى حرب جديدة ، وفى عملية تدمير شامل لقطر عربى ولعاصمة عربية ، وفى عملية تشريد لشعبين عربيين ، احدهما يشرد للمرة الرابعة .

وقفة مع الشريك

حينما ننقد الموقف الامريكى المتواطىء مع اسرائيل فاننا لاننطلق الاتهام على عواهنه ، وها

هو الرئيس الامريكى السابق جيمى كارتر ، يصرح بما لا يقبل أى مجال للتأويل بان « مساعدى وليام كلارك مستشار الامن القومى الامريكى قد أحاطوه علما بتفاصيل الغزو الاسرائيلى بعد وقوعه مباشرة يوم ٦ يونيه وبان « مصادر اسرائيلية عليمة جدا احاطته علما بأن واشنطن قد أعطت اسرائيل الضوء الاخضر للقيام بغزو لبنان ».

وقد نشرت تصريحات كارتر هذه فى « صحيفة اتلانتا والدستور » ، واذاعتها وكالة الاسوشيتدبرس بتاريخ ٢٠ - ٨ - ١٩٨٢ ، وأعادت « الواشنطن بوست » نشرها فى طبعتها الصادرة يوم ٢١ - ٨ - ١٩٨٢ .

ولانعتقد أن رئيسا أمريكيا سابقا يعرف مسئولية الكلمة ، يمكن أن يطلق مثل هذا الاتهام على عواهنه .

وليس كارتر هو المسئول الامريكى الوحيد الذى ردد هذا الاتهام . جورج بول ، وكيل وزارة الخارجية الامريكية الاسبق ، قال كلاما مشابها طوال الشهرين الماضيين . وفى مقال أخير له بصحيفة النيويورك تايمز (٢٥ - ٨ - ١٩٨٢) لم يكتف الرجل بالنقد اللاذع لكل من حكومتى اسرائيل والولايات المتحدة على مافعلاه بالشعبين الفلسطينى واللبنانى وانما طالب حكومة بلاده بأن تكفر عن خطاياها بقطع المساعدات الاقتصادية عن اسرائيل وتحويلها لاعادة تعمير لبنان .

...

جيمى كارتر وجورج بول وغيرهما كثيرون ، ينتقدون سياسة بلادهم تجاه الشرق الاوسط عامة ، وتجاه غزو لبنان بصفة خاصة . وقد أخذت هذين المثلين لانه لايمكن أن تثار حولهما أى شبهة « لون أحمر » أو « لون وردى » ولايمكن اتهام الصحيفتين اللتين نقلتا تصريحاتهما بانهما من الصحف الصفراء أو الحمراء ، أو بأنهما تعملان لحساب جهة أجنبية مغرضة بل كما يقول المثل : « وشهد شاهد من أهلها » !

الا يحق لنا بعد هذا كله أن نطالب بوقفة مع « الشريك الكامل » الذين يترددون ، أو يرفضون مثل هذه الوقفة مع « الشريك الكامل » يفعلون ذلك لواحد أو أكثر من الاسباب التالية :

١ - انهم لايصدقون أن امريكا متواطئة مع اسرائيل ، وان هذه الاخيرة فعلت مافعلت ضد الارادة الامريكية.

٢ – أن امريكا قد تكون حقا متواطئة مع اسرائيل ، ولكن لاداعى لاغضابها فمصير الشرق الاوسط حربا وسلاما متوقف عليها.

٣ – أن أمريكا سواء متواطئة أو غير متواطئة مع اسرائيل ، فان الامر لايهم لان أمريكا تساعدنا اقتصاديا ونحن فى حاجة اليها فليس من الحصافة أو اللياقة أو ننتقدها .

٤ – ان أى وقفة مع « الشريك الامريكى الكامل » تنطوى بالضرورة على نقده ، ومن ينقد امريكا فهو من حيث يقصد أو لايقصد – يخدم مصالح السوفيت أو يدعو الى عودة نفوذهم الى مصر .

السبب الاول مردود عليه بما فيه الكفاية فى الفقرة السابقة من هذا المقال.

ونضيف الى ماقلناه استخدام امريكا المتكرر لحق الفيتو فى مجلس الامن ضد أى قرار حاول به المجتمع الدولى أن يضع نهاية للمذبحة ، أو يعاقب العدوان الاسرائيلى الغاشم.

اما اذا كانت اسرائيل قد فعلت مافعلت ضد الارادة الامريكية ، فهذا معناه أن دولة صغيرة تعتمد على الولايات المتحدة أكثر من اعتمادنا نحن فى مصر على الولايات المتحدة قد تحدت « ولية نعمتها » وهذا يسقط الحجة الثالثة . فهو يعنى أن هناك هامشا ليس صغيرا من الحرية لدى الدول الصغرى لكى تؤكد ارادتها حتى لو كانت ارادة بربرية همجية توسعية .

ومن هنا فدعوتنا لوقفة مع « الشريك الامريكى » ليست مجردة من الحسابات العقلانية ، فى ضوء الخبرة المقارنة ، خاصة وان ماندعو نحن اليه ليس بربريا أو همجيا أو توسعيا.

اما اذا كانت أمريكا تملك حقا ٩٠ أو ١٠٠ فى المائة من أوراق اللعبة فان الوقفة مع هذا الشريك الجبار تكون ادعى واكثر الحاحا . فكيف لمن يملك كل الاوراق الا يستطيع الحل ، الا اذا كان فى الواقع « لايريد حلا » .

ومن شأن « الوقفة » المطلوبة معه ان نعرف ، حكومة وشعبا ، معرفة اليقين ماذا كان يريد حلا عادلا ، أو انه يريد حلا على الطريقة الاسرائيلية ، أو أنه يسوف علينا.

لاشرقية ولا غربية

السبب الرابع والاخير فى تردد البعض فى نقد الموقف الامريكى هو الخوف ان يكون ذلك دعوة مستترة للارتماء فى احضان السوفيت.

وقد لمست تلميحا مهذبا بهذا المعنى فى مقال الدكتور محمد عبد الله يومى بعنوان « رد على بذور الصدام » (الجمهورية ٢٦ - ٨ - ٨٢) ، وفى مقال أكثر تهذيبا وكرما كتبه الاستاذ محمد جبر فى عموده « السطور الاخيرة » (جريدة السياسى ٢٢ - ٨ - ٨٢) .

ومع تعاطفى الكامل مع مثل هذه المخاوف المشروعة لدى الزميلين الكريمين فاننى انتهز هذه الفرصة لكى أؤكد أحد المعانى التى ينبغى أن نرسيها كأحد قواعد الحوار فى حياتنا الوطنية.

هذا المعنى هو أننا جميعا نجتهد بالبحث والفكر والرأى من أجل مصر وأمتنا العربية . ومن يعمل من أجل الوطن والأمة يبغى فى المقام الاول أن يقلص من التبعية لاى قوة أجنبية وان يؤكد الاستقلال الوطنى ، وان يخدم قضايا امتنا العادلة.

هذا هو المعيار الذى نقيس به مشاعرنا ومواقفنا وعلاقاتنا بأى دولة أجنبية سواء كانت أمريكا أو الاتحاد السوفيتى . ولايعقل ان نتردد فى نقد أيهما حينما تخطىء فى حق قضايانا مخافة أن تستفيد الاخرى من هذا النقد .

كما انه من غير المعقول أو المقبول ان نكون « ملكيين أكثر من الملك » ، فالصحافة الامريكية مليئة بانتقادات كتاب امريكيين لسياسة بلادهم فى الشرق الاوسط .

واخيرا فان الدعوة الى « وقفة مع الشريك » أو البحث عن بذور الصدام بيننا وبين الولايات المتحدة لاتعنى دعوة الى اعلان الحرب على امريكا أو على اسرائيل.

هى فقط تعنى الدعوة الى مراجعة متأنية لسياسيتنا نحو هذا الشريك ونحو الاقليم الذى نعيش فيه . فانا كمصرى وكعربى لا أريد أن افاجأ مرة أخرى . ولا أريد أن أعيش إلى اليوم الذى تفرض علينا فيه رئيس جمهوريتنا !

فمن كان يصدق منذ سنوات قليلة ان اسرائيل ستحاصر عاصمة عربية وتفرض على شعبها حاكما من اختيارها.أو ليس شارون واضحا فى انه يريد أن يفعل نفس الشيء فى الأردن ؟ !

ان الدعوة الى رؤية الخطر المحدق ومن يساند هذا الخطر ، هى دعوة من أجل مصر والامة العربية . انها دعوة لاشرقية ولا غربية .

مبادرة ريجان فى الميزان*

المبادرة التى أعلنها الرئيس ريجان فى الاسبوع الماضى تمثل أوضح موقف اتخذته أى ادارة امريكية منذ حرب ١٩٦٧ تجاه الصراع العربى الاسرائيلى .. ونقصد بذلك أنها قدمت تصورا شاملا لاسس تسوية هذا الصراع ، ووضعت النقط فوق الحروف تجاه كل العناصر الرئيسية للمشكلة من وجهة النظر الامريكية .

والعناصر الرئيسية التى تناولتها المبادرة هى :

١ – الامن الاسرائيلى .
٢ – المطالب الفلسطينية .
٣ – الأراضى المحتلة منذ ١٩٦٧ .
٤ – مدينة القدس .
٥ – العلاقات بين اسرائيل والدول العربية المجاورة .

● ظروف واسباب المبادرة

تأتى المبادرة فى أعقاب الغزو الاسرائيلى للبنان ، وتحقيق هذا الغزو لكل اهدافه المعلنة وغير المعلنة تقريبا . وفى مقدمة هذه الاهداف تقليص وتشتيت منظمة التحرير الفلسطينية ، واقتلاع نفوذها ونفوذ الحركة الوطنية من لبنان ، وتنصيب حكم موال لاسرائيل وللغرب فى بيروت .

ولاشك أن ادارة الرئيس ريجان شاركت وتعاطفت مع اسرائيل فى هذه الاهداف ، وان لم توافقها بالضرورة على كل السبل والوسائل التى اتبعتها .

غير أن الصمود البطولى للمقاومة الفلسطينية من ناحية ، ووحشية آلة الحرب الاسرائيلية

* الجمهورية ، ٩ / ٩ / ١٩٨٢

من ناحية ، وموقف الرأى العام العالمى (بما فى ذلك الرأى العام الامريكى) الساخط على البربرية الصهيونية من ناحية ثالثة ، والحرج الشديد الذى وقعت فيه الانظمه العربية الصديقة للغرب من ناحية رابعة ، كل هذا خلق ضغوطا سياسية ومعنوية هائلة على الادارة الامريكية .

الى جانب ذلك هناك على الاقل أربعة عوامل اضافية ساهمت فى تعجيل ريجان بمبادرته ، وهى :

أولا : تعثر تحقيق ماأرادته ، وماتزال تريده ، حكومة ريجان منذ بداية حكمها وهو مايسمى « بالاجماع الاستراتيجى » فى منطقة الشرق الاوسط . وهو مشروع يهدف الى تكتيل دول المنطقة الرئيسية فى تحالف عسكرى ضمنى أو صريح لمقاومة « الخطر السوفيتى » فى الحاضر والمستقبل .

وقد تعثر هذا المشروع بسبب فشل الادارة الامريكية طوال العامين الماضيين فى ايجاد صيغة فعالة لمعالجة المسألة الفلسطينية .

وقد أشار ريجان فى صدر مبادرته صراحة الى أن المخطط الامريكى لمقاومة الخطر السوفيتى فى المنطقة لن يكتب له النجاح مالم تتم تسوية الصراع العربى الاسرائيلى .

كذلك أشار صراحة الى أن عدم الاستقرار الناتج عن عدم حل القضية الفلسطينية من شأنه تهديد مصالح أمريكا والغرب فى المنطقة .

ثانيا : الضغط المصرى السعودى طوال الحرب اللبنانية على الادارة الامريكية لكى تقدم التزاما واضحا بما تنوى اتباعه من سياسات حيال الصراع العربى الاسرائيلى .. ولانستبعد أن تكون الدولتان قد جعلتا من ذلك الالتزام شرطا لتوسيع رقعة التعاون بينهما وبين الولايات المتحدة فى المستقبل .

ثالثا : ان الولايات المتحدة حريصة على ان تجنى ثمرات أى أوضاع جديدة أو فرص جديدة تخلقها الازمات والحروب فى المنطقة .. فمبادرة روجرز جاءت بسبب حرب الاستنزاف (١٩٦٩ – ١٩٧٠) ، ومبادرات كيسنجر جاءت فى اعقاب حرب اكتوبر (١٩٧٣) .

وامريكا بذلك تحاول ايضا ان تقطع السبل على أى محاولات سوفيتية لاقتناص الفرص التى خلقتها الغزوة الاسرائيلية ، ومانتج عنها من احباط ومرارة عربية شعبية واسعة النطاق .

رابعا : أن الولايات المتحدة ، فى توقيتها للمبادرة ، قد تعمدت أن تأتى قبل انعقاد مؤتمر القمة العربية فى المغرب بأيام قليلة .. وتهدف من ذلك الا يتحول المؤتمر الى محاكمة تشهيرية بالموقف الامريكى المتواطىء مع اسرائيل خلال حرب لبنان .

بل ان المبادرة تساعد الدول العربية المعتدلة فى مواجهة جبهة الرفض ، وتعطى دعما غير مباشر لمبادرة فهد التى كان قد تقدم بها لمؤتمر فاس فى العام الماضى (١٩٨١) .

كما تعطى دعما مماثلا للمبادرة المعتدلة التى ينوى الرئيس الحبيب بورقيبة التقدم بها .

وتوقيت مبادرة ريجان يذكرنا بما درجت عليه السياسة الامريكية فى الفترة مابين ١٩٦٧ و ١٩٧٣.

فقبل كل مؤتمر للقمة ، أو لعدم الانحياز ، أو لدورات الامم المتحدة ، كانت امريكا تقدم أو تشيع انها بصدد تقديم « مشروع جديد » لتسوية الصراع فى الشرق الأوسط .. وكان ذلك فى أغلب الاحيان من قبيل الضربات « الدبلوماسية الوقائية » ، لامتصاص غضب متوقع ، أو للالهاء والتسويف .

- **ماتقوله مبادرة ريجان**

بالنسبة **للامن الاسرائيلى** ، تنطوى المبادرة على تجديد وتأكيد الالتزام الامريكى بهذا الامن من خلال العديد من الاجراءات . فهى تحيى القوة العسكرية المتفوقة والكاسحة لاسرائيل . وهى تشير الى ضرورة تعديل الحدود فى صالحها بما لايجعل أى جزء من اسرائيل على مرمى من **المدفعية العربية** . وهى تصر على استخلاص اعتراف تعاقدى من الدول المجاورة بحدود اسرائيل الجديدة ، وبضمانات أمن أكيدة فى مقدمتها نزع سلاح الضفة والقطاع والاحتفاظ فيهما بقوات امن داخلى (بشرطة) فقط .

بالنسبة **للمطالب الفلسطينية** تتحدث المبادرة بوضوح عن « الشعب الفلسطينى » ، وعن « مطالبه العادلة » التى « لم تستطع القوة العسكرية الاسرائيلية الكاسحة ان تخمدها » .. لذلك يعترف ريجان لاول مرة منذ دخل البيت الابيض بضرورة التعاطف مع مطالب هذا

لشعب ، وان مشكلته« ليست مجرد مشكلة لاجئين ».

لذلك تؤكد المبادرة على كثير من المبادىء التى نصت عليها اتفاقيتى كامب دافيد ، وأهمها اشراك الفلسطينيين فى مفاوضات السلام ، وعلى حقهم فى حكم ذاتى كامل وعلى سلطة وطنية منتخبة ، خلال فترة انتقالية خمس سنوات .

كما تطالب مبادرة الحكومة الاسرائيلية بوقف بناء أى « مستوطنات جديدة » فى الضفة والقطاع .

وفى مقابل ذلك تطالب المبادرة الفلسطينيين بشيئين :

أولهما : ضرورة الاعتراف باسرائيل وبحقها فى الحياة ضمن حدود معترف بها.

وثانيهما : التخلى عن مطلب « الدولة الفلسطينية المستقلة » .. فأمريكا تريد صراحة أن تلحق الارضى الفلسطينية المحتلة بالاردن بعد جلاء اسرائيل عنها.

بالنسبة للاراضى المحتلة – بعد ١٩٦٧ – تنص مبادرة ريجان صراحة على مبدأ « مقايضة »هذه الاراضى باتفاقيات سلام بين اسرائيل وجيرانها . وتستند المبادرة فى ذلك على السابقة التى ارستها اتفاقيتى كامب دافيد ومعاهدة السلام المصرية – الاسرائيلية ، وعلى قرار مجلس الامن ٢٤٢.

كما تؤكد المبادرة صراحة على أن « السلام فى مقابل الارض » لابد أن يكون « سلاما كاملا » ، بما يعنيه ذلك من تطبيع للعلاقات بين اسرائيل وأصحاب الاراضى التى ستنسحب منها .

– **بالنسبة للقدس** ، أكدت المبادرة رفضها لاعادة تقسيم القدس الى مدينة عربية (القدس الشرقية) ومدينة يهودية (القدس الغربية) ، مع تأييدها لاتخاذ ترتيبات تفاوضية تحفظ حقوق كل الاطراف بشكل « منصف » .. ولمح ريجان أن حكومته لديها خطط مفصلة حول هذه الترتيبات ، وستقدمها فى المستقبل.

– **بالنسبة للعلاقات العربية الاسرائيلية** تشير المبادرة نصا وروحا على ضرورة توسيع اطار عملية السلام التى بدأت بكامب دافيد ، بحيث تشمل كل البلاد العربية ، وخاصة المجاورة منها لاسرائيل ، وفى مقدمتها الاردن ولبنان والفلسطينيين. فهى تهدف فى النهاية الى توقيع اتفاقيات سلام على غرار المعاهدة المصرية الاسرائيلية .

● مالم تذكره المبادرة

اغفلت المبادرة عدة أمور حيوية ، وجاءت غامضة فى عدة أمور أخرى
فهى لم تذكر شيئا عمن سيتفاوض باسم الفلسطينيين ، وتجنبت ذكر **منظمة التحرير** ، أو النص على دور لها فى عملية السلام الذى ترجوه .

كما انها فى تناولها لعملية **الحكم الذاتى** ، لم توضح ماإذا كان ذلك حكما يشمل السكان والارض أو يشمل السكان فقط .

ولم تتحدث المبادرة عن وضع **المستوطنات الاسرائيلية** فى الضفة والقطاع ، ولم تؤكد الموقف الأمريكى السابق بعدم شرعية هذه المستوطنات .

كما تجنبت أى حديث عن مسألة « **السيادة** » فى القدس .

كما أن المبادرة قد تراجعت عن موقف أمريكى سابق بشأن مبدأ **تقرير المصير** بالنسبة للفلسطينيين ، وبالتالى جاء رفضها قاطعا لامكانية قيام دولة فلسطينية مستقلة ، والاصرار على الحاق الضفة والقطاع بالمملكة الاردنية الهاشمية .

● ماذا تقدم المبادرة للعرب

بالقراءة المتفحصة لمبادرة ريجان نجد أنها فى التحليل الاخير تقدم للعرب « **بعض** » وليس « **كل** » ماتنطوى عليه اتفاقيتا كامب دافيد .

فكما أوضحنا فى الفقرات السابقة ، هناك تراجعات واضحة عن بعض ماتم اقراره فى تلك الاتفاقيات .

أى أن أمريكا تقدم للعرب أقل مما حصلت عليه مصر منذ أربع سنوات .. فهى تطالبهم فى الواقع بكل الواجبات والمسئوليات التى التزمت بها مصر مقابل بعض وليس كل ماحصلت عليه مصر فى كامب دافيد .

ومع ذلك تبدو مبادرة ريجان للوهلة الاولى كما لو كانت تقدم « **الكثير** » للعرب .. وبالتالى استقبلت العواصم العربية « المعتدلة » المبادرة بالفرح .. وهذه هى نفس العواصم التى رفض

بعضها كامب دافيد من قبل .

فما سبب هذه المفارقة ؟

السبب واضح وبسيط – وهو السنوات الاربع التى مرت منذ توقيع كامب دافيد . ففى خلال تلك السنوات الأربع تضاعف التشرذم العربى ، ولم يصمد من كانوا يدعون الصمود ، ولم يتصد للعدوان الصهيونى من كانوا يطالبون بهذا التصدى .

فى خلال تلك السنوات ضاعفت اسرائيل من قوتها العسكرية ، وشددت من قبضتها على الاراضى المحتلة ، وقامت بمغامرات عسكرية امتدت من بغداد الى بيروت ، وقتلت وبطشت ودمرت بتواطؤ امريكى ، وبلا ردع عربى أو سوفييتى ، أو عالمى .

وامريكا رغم تواطئها مع صلف القوة الصهيونى ، لم تجابه أى خطر على مصالحها الحيوية فى المنطقة

لهذا كله جاءت مبادرة ريجان تقدم للعرب موضوعيا « أقل » مما رفضوه منذ أربع سنوات ، ومع ذلك يبدو لبعضهم أن ماتقدمه هو ذاتيا « أكثر » مما توقعوه .. من هنا تفسير الفرح والتهليل من عواصم « الاعتدال العربى » .

● اسرائيل والمبادرة

اذا كانت مبادرة ريجان تقدم موضوعيا للعرب « أقل » مما رفضوه منذ سنوات قليلة ، فان ذلك يعنى ضمنا انها تقدم موضوعيا لاسرائيل « أكثر » مما قبلته هى الاخرى فى كامب دافيد .

ومع ذلك فان الحكومة الاسرائيلية صدمت بالمبادرة ، ورفضتها رفضا قاطعا وجامحا .

وتفسير هذا الموقف الاسرائيلى يكمن ايضا فيما حدث فى السنوات الاربع التى مضت منذ كامب دافيد ، وخاصة الشهور الثلاثة الأخيرة منها .. فقد حاربت اسرائيل فى لبنان لأهداف كثيرة .. وكان أهمها على الاطلاق هو أن يكون انتصارها العسكرى فى لبنان تتويجا أخيرا لابتلاع الضفة الغربية وقطاع غزة ، سواء بالضم الفعلى أو الرسمى ، أو الفعلى والرسمى معا .

لقد عاش بيجين وشامير وشارون حياتهم الارهابية الطويلة وهم يحلمون بـ « إيرتز اسرائيل » ، أى أرض اسرائيل من النهر الى البحر .. فاذا بمبادرة ريجان تنكر عليهم الضفة

والقطاع . انها تنكر عليهم « **ثمرات النصر** » فى لبنان .

ذلك يعنى أن قتلى وجرحى جيش الدفاع الاسرائيلى ، والمليارات الثلاثة من الدولارات التى تكلفها الغزو ، والثمن الدعائى الفاحش الذى اصاب صورة اسرائيل فى الخارج نتيجه وحشيتها ، هذا كله قد ذهب هباء منثورا .

هذا فضلا عن تبديد احلام أخرى داعبت خيال حكام اسرائيل ، وهى أن تصبح دولتهم هى **القوة الاقليمية العظمى** التى تهيمن وتسيطر على مقدرات المشرق العربى لمدة أربعين سنة قادمة (كما ألمح لذلك كل من بيجين وشارون) .

ان المبادرة — اذن — رغم انها تقدم موضوعيا لاسرائيل الشىء الكثير ، الا أن هذا الكثير هو أقل بمراحل مما وطنت اسرائيل نفسها عليه فى السنوات القليلة الماضية .. لذلك ستحارب اسرائيل مبادرة ريجان بكل مالديها من أسلحة الضغط المتاحة لديها . وستحاول وأدها فى المهد ، كما فعلت مع مبادرات أمريكية سابقة — مثل **مبادرة روجرز** (١٩٧٠) .. **ومبادرة كارتر** بالاشتراك مع الاتحاد السوفييتى (اكتوبر ١٩٧٧) .

وستستغل اسرائيل فى ذلك جماعات الضغط الصهيونية ، وستعبىء أصدقاءها فى الكونجرس الامريكى ، وستمارس أساليب الابتزاز المعتادة مع المرشحين لانتخابات مجلس النواب الامريكى من الحزبين (نوفمبر ١٩٨٢) ، وستلجأ لسبل الاغراء لدى الطامعين فى الترشيح للانتخابات الرئاسية القادمة (١٩٨٤) ، وعلى رأسهم **كيندى ومونديل** من الحزب الديموقراطى ، والكسندر هيج من الحزب الجمهورى .

أن التناقض بين ريجان وبيجين فى هذه الايام هو تناقض ثانوى ، ينصب على تقسيم اسلاب الحرب اللبنانية .

انه تناقض بين مشروع « سلام امريكى » لايريد أن يجهز على ضحايا الحرب ، مادام قد انتصر بالنقاط ، ومشروع « سلام اسرائيلى » لايقنع الا بالضربة القاضية ، والاجهاز التام على الشعب الفلسطينى .

العرب .. وريجان*

فى مقال الاسبوع الماضى خلصنا الى أن مشروع الرئيس ريجان لتسوية الصراع فى الشرق الأوسط ، يهدف بين مايهدف اليه الى امتصاص الغضب الشعبى العربى ضد أمريكا بسبب تواطئها مع اسرائيل فى غزو لبنان ..

كما جاء المشروع استجابة للضغوط المعنوية والسياسية الهائلة التى عبر عنها الرأى العام العالمى الذى افزعته وحشية الغزو الاسرائيلى من ناحية ، والذى أدهشته بطولة وصمود المقاومة الفلسطينية من ناحية أخرى .

ومع أن مشروع ريجان هو من الناحية الموضوعية أقل مما حصلت عليه مصر فى كامب دافيد ، الا انه بدى للعرب من الناحية النفسية كما لو كان يقدم الكثير

ولنفس السبب فان المشروع يقدم لاسرائيل موضوعيا أكثر مما حصلت عليه فى كامب دافيد ، الا أنها انزعجت منه ورفضته بغضب ، لانه من الناحية النفسية يقدم لها اقل مما كانت تتوقع بعد انتصارها العسكرى فى لبنان ..

وقلنا أن الخلاف بين أمريكا واسرائيل هو خلاف بين مشروعين للسلام .. المشروع الامريكى للسلام يقنع بالانتصار على العرب وعلى الشعب الفلسطينى بالنقاط ، ولايريد أن يجهز حتى الموت على ضحاياه ماداموا قد اظهروا ميلا لعدم الاستمرار فى المقاومة . بالعكس يريد المشروع الامريكى أن يحفظ ماء وجوه العرب ، والا يشعرهم بمرارة الهزيمة ..

أما المشروع الاسرائيلى فهو يريد الاجهاز على ضحاياه بالضربة القاضية حتى الموت ، ويريد الامعان فى اذلالهم والتنكيل بهم عسكريا وسياسيا وحضاريا .

- **مؤتمر القمة العربى**

الفارق بين المشروعين الامريكى والاسرائيلى – اذن – هو فارق فى الاسلوب فى المقام

(*) الجمهورية ، ١٦ / ٩ / ١٩٨٢

الأول ، وهو فارق فى المضمون فى المقام الثانى .

ولاشك أن « القادة العرب » الذين اجتمعوا فى المغرب منذ أيام قد لاحظوا وفهموا هذه الفروق بين السلام الامريكى و السلام الاسرائيلى .

ومن الطبيعى حينما يكون الاختيار بين « هزيمة بالنقاط » مع الابقاء على الحياة ، والهزيمة « بالضربة القاضية » المفضية الى الموت ، أن يختار « القادة العرب » البديل الاول ، أى السلام الأمريكى .

من هنا جاء البيان الختامى لمؤتمر القمة العربى خاليا من أى هجوم أو نقد ، أو لوم ، أو حتى عتاب لدور أمريكا المتواطىء مع اسرائيل طوال المجزرة الآلية للشعبين الفلسطينى واللبنانى ، التى استمرت سبعة وسبعين يوما .

بالعكس ، جاء مشروع ريجان وكأنه **طوق النجاة للانظمة العربية** التى ترى الطوفان الاسرائيلى على وشك أن يجرفها .

لذلك جاءت التصريحات الرسمية العربية المنفردة من معظم الانظمة ، وهى تردد نغمه واحدة ، وبنفس الالفاظ تقريبا وهى « أن مشروع الرئيس ريجان يحتوى على كثير من الجوانب الايجابية »

واذا كانت السياسة هى « فى الممكن » ،واذا كانت أمورها – بالتالى – مسألة نسبية ، فان هذه التصريحات تعبر فى الواقع عن **أمتنان الانظمة العربية** لما يقدمه ريجان اليهم .

المشروع العربى للسلام الذى اقره مؤتمر القمة ، يطالب بأكثر مما ينطوى عليه مشروع ريجان ، ولابأس فى ذلك من الناحية المبدئية .. ولكن حقيقة الامر هو أن مشروع ريجان مازال يقدم للانظمة العربية الحاكمة طوق النجاة الوحيد المتاح لها فى الوقت الحاضر ، وذلك للاسباب التالية :

١ – أن معظم هذه الانظمة **لاتريد أن تحارب اسرائيل ، ولا أن تقاوم تحرشها** ، حتى دفاعا عن النفس .. فلدى هذه الانظمة ماهو أهم **وهو ضرورة التفرغ لحربها الاهلية المستمرة مع شعوبها** ، ارهابا وبطشا وتنكيلا ، حتى تظل فى كراسى السلطة .

وليس من (عاقل) يتوقع من هذه الانظمة أن تفتح جبهتين فى نفس الوقت ، أحداهما خارجية مع العدو الاسرائيلى ، والاخرى داخلية مع العدو الشعبى .. والحكمة تقتضى أن يركز

كل نظام على الداخل أولا !

٢ – أن بعض هذه الانظمة التى توجد لديها بعض وسائل الضغط الاقتصادى والمالى والنفطى فى مواجهة الولايات المتحدة ، التى ترعى اسرائيل وتدعمها بالمال والسلاح والدبلوماسية ، لاتريد أن تمارس مثل هذا الضغط ، **فهى تريد أن تستمتع فى هدوء بما حباها الله به من ثروة طائلة .**

٣ – أن البعض الاخير من هذه الانظمة فقير ، مثقل الديون ومكتظ بالسكان ، **ويتلقى العون المالى من امريكا** .. وبالتالى فهو ليس فى وضع يسمح له بتحدى امريكا ، أو الضغط عليها .

● فلتقبل الانظمة مبادرة ريجان

الانظمة العربية – اذن – لاتريد أن تحارب اسرائيل ، ولاتريد أن تقاوم تحرشاتها ، ولاتريد أن تدافع عن نفسها بنفسها ، ولم تمد يد العون حتى للذين أرادوا المقاومة وقاوموا ببطولة واستبسال .

والانظمة العربية لاتريد أن تستخدم مافى حوزتها من أوراق الضغط غير العسكرية على الولايات المتحدة .

والانظمة العربية قد اعطت بعض ماكانت تملكه من هذه الاوراق للولايات المتحدة ، حتى اكتمل لهذه الاخيرة أكبر قدر منها ، رغم أن امريكا نفسها لاتقول ذلك .

مادام هذا هو الواقع العربى الان ، فاننا نقول للانظمة العربية ، اذا كان لنا أن نقول لها شيئا على الاطلاق ، استخيروا الله ، وتوكلوا عليه ، واقبلوا مبادرة الرئيس ريجان فهى بالقطع خير من مبادرات بيجين وشارون !

فمبادرة ريجان على الاقل تبقينا على قيد الحياة ، وليس مهما الان أن نصر على نوعية هذه « الحياة». فالذلة والمهانة هى أمور مؤقتة قد تستطيع الشعوب أن تتجاوزها فى مرحلة قادمة. أما مبادرات بيجين وشارون فهى تقضى على الحياة ، وبالتالى لاتترك فرصة لاى أمل فى المستقبل .

● النضال والصمود من أجل مبادرة ريجان

غير أنني بكل امانة واخلاص اتوجه للانظمة العربية بتحذير قد يتضب منها بعض المجهود .. التحذير هو **أن قبولهم لمبادرة ريجان لايعنى أن الولايات المتحدة ستقوم بتنفيذ ماجاء فيها !**

فاسرائيل ستبذل قصارى جهدها لوأد المبادرة فى المهد . أو تفريغها من محتواها المتواضع على مدى عدة شهور . **وما لم تناضل الانظمة نضالا مريرا لتنفيذ المبادرة الامريكية** . فانها ستسحب ، كما سحبت مبادرات أمريكية سابقة . أو ستموت موتا بطيئا . كما ماتت مبادرة أمريكية وأوربية أخرى من قبل .

والسؤال هو :
كيف تناضل الانظمة من أجل تنفيذ ماجاء فى مبادرة ريجان ؟

اذا كان لدى هذه الانظمة بقية من طاقة ، فاننا نقترح عليها «**سبل النضال**» التالية :

١ – أن يخصصوا بضعة ملايين من الدولارات المكدسة فى البنوك الاجنبية حملة اعلامية مكثفة ومستمرة فى الولايات المتحدة واوروبا الغربية لتعبئة **الرأى العام الغربى** لكى يؤيد المبادرة .

٢ – ان يستصدروا من دول **السوق الاوربية المشتركة . والبرلمان الاوربى . ومؤتمر عدم الانحياز** القادم قرارات مؤيدة للمبادرة .

٣ – أن يستصدروا من **الجمعية العامة للامم المتحدة** ومن **مجلس الامن** قرارات مؤيدة للمبادرة ، **وجدولا زمنيا** لتنفيذ بنودها مع النص على عقوبات صارمة وملزمة ضد اسرائيل فى حالة رفضها او تلكؤها فى احترام هذه القرارات .

٤ – **أن يسارعوا فى تسوية خلافاتهم** ، ويبدأوا على الفور فى انشاء جبهة عربية متحدة ، تقف صفا مرصوصا خلف امريكا ، وتصر على أن تلتزم امريكا بما وعدت به ، والا فانهم **سيخاصمونها ويمتنعون عن الحديث معها لمدة سنة كاملة !**

ربما كان هذا المطلب الاخير هو أشد الوسائل المقترحة قسوة على الانظمة العربية .. ولكن علينا أن نتذكر أن كل نضال يتطلب بعض التضحيات ! !

حكومة ظل أمريكية بالقاهرة !*

هدف السياسة الأمريكية .. ربط مصر بالعجلة الأمريكية
التبعية أصبحت حالة نفسية فى مصر
الاختراق يتم عن طريق خلق مجموعات مصالح مرتبطة بأمريكا

الدكتور سعد الدين ابراهيم .. أستاذ الأجتماع السياسى بالجامعة الأمريكية بالقاهرة يدلى هنا برؤية .. هامة .. وخطيرة .. حيث يكشف أبعاد الاختراق الأمريكى لأمن مصر السياسى .. والأقتصادى .. والثقافى تحت عباءة التعاون العلمى المشترك . وتأتى أهمية هذه الرؤية .. من ان صاحبها هو أحد الأساتذة المصريين وثيقى الصلة بكثير من الجامعات .. ومراكز البحوث الأمريكية .. حيث قام باعداد رسالتى الماجستير والدكتوراه من الجامعات الأمريكية .. كما قام بالتدريس فى كثير من الجامعات الأمريكية .. وتعاون مع عدد من مراكز البحوث داخل الولايات المتحدة الأمريكية .. ومن هنا تأتى أهمية رؤيته .. كمراقب جيد للفكر الاستراتيجى الأمريكى ..

وهو هنا يكشف ابعاد هذا التفكير .. بوضوح وجرأة .. حيث يرى : أن هيئة المعونة الأمريكية فى القاهرة هى أداة هذا الاختراق الأمريكى .. وان هذه الهيئة نظرا لضخامتها تعتبر بمثابة « حكومة ظل أمريكية فى القاهرة » ! ! .. حيث قامت بانشاء أقسام بها مناظرة للوزارات السيادية .. وللهيئات الحكومية المصرية الهامة . وذلك بهدف متابعة نشاطها الضخم .. المنتشر فى الأجهزة الادارية .. والعلمية .. والثقافية فى مصر .

وهذا الفهم .. يؤيد الفكر القائل بان الاختراق الأمريكى لمصر .. لايتم

* الاهرام الاقتصادى ، ١١ / ١٠ / ١٩٨٢

عشوائيا بل يتم وفق مفاهيم استراتيجية محددة سلفا .. وهذا الوضع كما يقول استاذ الاجتماع المصرى فى حاجة الى سياسة وطنية محددة .. لوقف هذا الاختراق .. فالمسألة خطيرة .

الهرولة نحو التبعية

يبدأ دكتور سعد الدين حديثه .. بالكلام عن ظاهرة التعاون العلمى .. المشترك فيقول **انها ظاهرة عالمية وليست مقصورة على مصر .. ولكن الأساس فى هذا التعاون بين الدول ان يكون هناك مايقدمه كل فريق .. ويكمل عمل الفريق الآخر .. ومن هنا فالتعاون مطلوب ، أما أن يكون لهذا التعاون آثار ايجابية أو سلبية فهذا يتوقف على ما اذا كان لاحد الطرفين سياسة عامة لتنمية المجتمع وللبحث العلمى وللتطور التكنولوجى أم ليست له هذه السياسة** فهناك مثلا بحوث مشتركة بين سوفيت وأمريكيين .. وبين الدول الأوربية .. الأعضاء فى السوق الأوربية ، وكذلك بين اليابانيين والأمريكيين .. **فظاهرة التعاون العلمى اذن ليست سيئة ، ولكن تتحول الى ظاهرة سيئة اذا لم تكن جزءا من مخطط عام وفلسفة عامة واضحة للدولة التى تشترك فى مثل هذه البحوث .. والواضح أن مصر منذ السبعينات ليس لها مثل هذه السياسة الشاملة للبحث العلمى .. وأصبح النشاط المشترك بين المصريين وغيرهم فى البحث العلمى يتم بشكل عشوائى .. لايعرف أثاره فى المدى المتوسط .. أو البعيد ، ومع أن هناك فى مصر كفاءات علمية .. عالمية ، فانها بسبب ذلك ، طاقات مهدرة .. وأحيانا للأسف نستعين بخبراء أجانب أقل كفاءة من الخبراء المصريين .**

وخوفى أن مايدور على الساحة البحثية المصرية الآن .. ان يصبح جزءا لايتجزأ من « الهرولة نحو التبعية » .. لأمريكا . مثلا نشرت أحدى الصحف تصريحا لوزير الزراعة أن مصر سوف تستعين بخبراء أمريكيين لدراسة أمراض المانجو .. وهو تصرف غريب .. كيف نستعين بدولة مثل الولايات المتحدة لاتنتج المانجو أساسا .. وفى بلد مثل مصر تنتج فيها المانجو منذ زمن طويل .. ومع ذلك فان وراء ذلك هو « الاحساس بالدونية » .. أو « النقص » .. انك محتاج الى خبير أجنبى .. وهذا الاحساس مؤلم .. **ويرتبط بغياب فلسفة عامة تركز على الاستقلال لوطنى حتى فى البحث العلمى .. واذا غاب الهدف القومى العام .. يصبح التعاون مع الأجانب .. ليس تعاونا بل نوعا من التبعية** حتى ولو قام بالجزء الأكبر منه خبراء وباحثون مصريون لأنه فى النهاية يتم تخطيط هذا البحث .. ويتم الأشراف عليه من جهة خارجية .. وهو مايكرس التبعية .. ويكرس من الأحساس بالنقص أو مايسمى « بعقدة الخواجة » التى تصورنا اننا تخلصنا منها الى حد كبير فى الخمسينات والستينات .. لقد عادت مرة أخرى ! !

الربط بالعجلة الأمريكية

● على الجانب الآخر .. بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية .. هل لديها استراتيجية لاختراق مصر ؟

– هدف السياسة الأمريكية منذ عام ١٩٧٤ هو ربط مصر بالعجلة الأمريكية .. على كل المستويات السياسية .. والاقتصادية .. والعسكرية .. والاستراتيجية .. والبحثية . وأقول : ان مايوجد عند الأمريكيين من معلومات عن مصر فى كل الميادين .. وماقاموا بتجميعه فى السنوات الثمانى الأخيرة : قدر هائل من المعلومات .. لايوجد عند أى هيئة مصرية ! !

● يدعى البعض ان هذه المعلومات موجودة لدى الأمريكيين .. ويسهل الحصول عليها بدون الاختراق من الداخل .. فماذا تقول ؟

– بعض هذه المعلومات متوفر .. وبعضها توفر فى السنوات الست الأخيرة . ولكن بعض هذه المعلومات يمثل خطورة على الأمن القومى المصرى .. وحتى لا أكون من المغالين فى الاحساس التآمرى .. **فانه كلما توفر لدى قوة أجنبية من معلومات عنك .. كلما استطاعت ان تستخدم هذه المعلومات بالطريقة التى تريدها .. وليس بالضرورة للاضرار بك** ، ولكن اذا أرادات فلديها المعلومات ..

تخطيط غير مباشر

● ماهى نوعية الموضوعات التى تطرح من جانب الأمريكيين على الباحثين المصريين . خاصة وان الباحث الأمريكى هو الذى يقترح موضوع .. وشكل البحث ؟

– الموضوعات التى يطرحها الجانب الأمريكى تتم بناء على جانب كبير من التخطيط غير المباشر .. بمعنى أن الباحث الأمريكى سواء كان فردا .. أو جامعة أو مركز بحوث لكى يقوم ببحث لابد أن يحصل على تمويل .. وأكبر جهة ممولة للبحوث حاليا فى مصروهى هيئة المعونة الأمريكية A I D . وهذه الوكالة تعرض على الباحث الميادين والموضوعات التى يمكن ان تمولها .. وفقا للأولويات التى تراها ، وفى حالة الموافقة يقوم الباحث الأمريكى باختيار الشركاء المصريين . وهذه العملية تتم فى ضوء استراتيجية يشترك فى رسمها هيئة المعونة الأمريكية .. وفى المقام الثانى الهيئات البحثية .. وفى المقام الثالث يأتى الطرف المصرى ليقوم بالتنفيذ حيث يقوم بجمع البيانات ويساعد فى تحليل البيانات . وهذه هى الصورة بشكل عام وقد تكون هناك استثناءات .

• هل نعتقد ان الباحثين المصريين مدركون لهذه الحقيقة ؟

- **بعضهم يدرك ذلك .. والبعض ليس لديه الوعي السياسي** . وقد اشتركت في بعض هذه البحوث ، واذكر انه في أحد ما وكان عن توزيع الدخل في مصر ، وكان فريق البحث الأمريكي من جامعة برنستون .. وكان تخطيط البحث المقدم من الفريق الأمريكي يعتبر متحيزا من وجهة نظرنا ويريد أن يخدم فلسفة معينة لاتخدم مصرية البحث .. فاشترطنا للاشتراك ان نعيد صياغة تصميم البحث بالطريقة التي تخدم الأهداف الوطنية .. وهذا التأثير لايمكن أن يحدث الا اذا كان لدى الباحث وعي سياسي .. وللأسف فان هذا الوعي يمثل الاستثناء .

الاستراتيجية الأمريكية

• في وثيقة مؤسسة راند التي أعدتها حول الاستراتيجية المقترحة للولايات المتحدة في الشرق الأوسط . ان أحد أساليب الاختراق المقترحة هي جذب الباحثين والمثقفين في مصر .. وطبعهم بالنموذج الأمريكي .. ما رأيك ؟

-**أنا لم أطلع على وثيقة راند** ولكن أعلم أن مؤسسة راند تعمل بتنسيق تام مع جميع الجهات التي ترسم السياسة الأمريكية في انحاء العالم ومنها الشرق الأوسط .. ومنها وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA ووزارة الدفاع « البنتاجون » .

• ومؤسسة فورد ماهو دورها في هذه اللعبة ؟

- مؤسسة فورد .. مؤسسة مستقلة وليست لها حسب معلوماتي - علاقة مباشرة بمراكز صناعة القرار في الولايات المتحدة .. ولكن يستفاد من بحوثها في رسم السياسات الأمريكية .. أما مؤسسة راند فهي على العكس مؤسسة ضالعة .. وتعمل علنا مع المؤسسة الحاكمة لانها خلقت أساسا كجزء من قسم البحوث في البحرية الأمريكية في البداية ثم أستقلت اداريا .. ولكنها من حيث العلاقة العضوية والتعاون والأهداف ، فهي في خدمة الاستيراتيجية الأمريكية على المدى البعيد .

المصالح .. والثقافة الوطنية

• ماهي في تصورك المفاهيم أو الركائز التي تركز عليها الاستراتيجية الأمريكية لاختراق منطقة الشرق الأوسط ؟

- .. تعتمد **الدولتان العظميان** فى استيراتيجيتهما على خلق ركائز فى دول العالم تعتمد على عدة أساليب .

أولا : خلق شبكة من المصالح ، وخلق فئات ترتبط مصالحها عضويا بالدول العظمى .
ثانيا : اختراق الثقافة الوطنية ومحاولة اعادة تشكيلها بما يضمن مناخا متعاطفا مع هذه الدول العظمى .. **كلا القوتين** تفعل ذلك والذى يعتقد غير ذلك .. ساذج .

وهذه الأهداف المعروفة .. ومعترف بها ، والمسألة كيف نواجه هذا .. وفى رأيى يجب ألا نلوم الأمريكيين اذا أرادوا الاختراق على كل المستويات .. ولا ألوم أيضا الاتحاد السوفيتى اذا أراد ذلك .. وانما ألوم السلطة الوطنية الحاكمة على عدم تنبؤها بذلك ، وعلى عدم رسمها لاستيراتيجية مقابلة تكرس من استقلالها الوطنى .. والاعتماد على الذات

ليس مبررا .. ! !

● نعود الى الباحث المصرى .. هناك تخلف فى مراكز البحوث فى مصر .. وضعف امكانيات البحث العلمى فى مصر .. هل هذا مبرر للاستعانة بالخبرات الاجنبية وبهذا الشكل ؟

- لا - ليس ذلك مبررا .. وحتى اذا صح هذا التشخيص .. **فاذا أردت ان تكرس الاستقلال الوطنى فهناك وسائل أخرى لحل المشكلة بدون الاستعانة بالخبرة الأجنبية ...** مثل شراء المعامل والكتب وارسال البعثات .. فالخبير الأجنبى الذى يأتى الى مصر يتكلف مابين ١٠٠ ألف الى ١٥٠ ألف دولار مرتبات شخصية فى السنة وجزء كبير من المعونة الأمريكية يذهب لجيوب هؤلاء الخبراء .. اما ارسال مبعوث مصرى للخارج لن يكلفنا هذا المبلغ .. **ولكن مايحدث هو الأعتماد على الخبراء الأجانب وعدم تنمية الباحث المصرى .**

● مرة أخرى .. كيف يمكن للباحث المصرى بمستواه المادى الحالى أن يقاوم الأغراءات المادية المفروضة عليه .. وكيف سيقاوم هذا الأختراق وقد اعتاد على مستوى مادى معين ؟ !

- كما قلت .. فان أحد أساليب الأختراق هو قيام الدول الكبرى بخلق مجموعات مصالح مرتبطة بها .. ورغم ما قد يتمتع به بعض الباحثين من إدراك ووعى سياسى إلا أنه يجد نفسه منجرفا لتحقيق طموحاته المادية والعلمية فى البحوث المشتركة مع الأجانب .. وفى رأيى لن يحل المشكلة إلا اتجاه وطنى وخطة قومية مضادة للأختراق الحالى ..

وعليك أن تجيب على السؤال التالى : من الذى كان يرسل مستر بروان مدير هيئة المعونة الأمريكية الى الوزارات ليحصل من كبار المسئولين على المعلومات التى يريدها ، حتى أصبحت هيئة المعونة الأمريكية عبارة عن حكومة ظل أمريكية فى القاهرة فهناك أقسام بها مقابلة للوزارات المصرية مثلا قسم للزراعة .. وللتعليم .. وغيرها ، وحكومة الظل هذه تتمتع بامكانيات مادية جاءت بها من بلادها .. وتتمع بنفوذ معنوى وسياسى هائل داخل مصر .. **لانه يمكنها ان تحصل على المعلومات التى تريدها من أعلى مستوى قيادى إذا امتنع الباحثون أو غيرهم عن توفيرها لهم ..**

مقاول الأبحاث ! !

● هناك ظاهرة ارتبطت بموجة البحوث المشتركة وهى « مقاول الأبحاث » .. إذا جاز التعبير ، ما تفسير هذه الظاهرة .. ؟ - مقاول الأبحاث .. أو المتعهد .. أو المقاول من الباطن .. وهو يتعامل مع مكاتب استشارية أجنبية أو هيئات بحثية أو جامعية .. يقوم باعداد دراسات لها .. أو بالاشتراك معها ولكن لأنه لايستطيع بمجهوده الشخصى أن يقوم بكافة البحوث .. فانه يسند أجزاء منها لباحثين آخرين لتتم بشكل سريع .. وعادة ماتتم هذه البحوث بدون النزاهة العلمية المطلوبة لأنه يخطف من هنا .. ويخطف من هناك .. والخطف هو إحدى صفات المقاول .. أيضا حقيقة أخرى هو أنه لايهمه الهدف البعيد من وراء البحث كما انه لايدقق فى البحث .. لأنه مثل المرتزق يحارب من أجل المال فقط .

● ماهو حجم هذه الظاهرة .. ؟

- من الناحية الكمية من الصعب تقديرها .. لكن هى فى ازدياد مستمر .

.. مكاتب خاصة !

ماهى نوعية الجهات التى تتعامل مع مقاولى الابحاث ؟

- معظمها مكاتب استشارية خاصة لأن أنواع البحوث التى تتم مع الجامعات الأمريكية أو مراكز البحوث تشترط مستوى مهنيا معينا لايمكن التنازل عنه لأنها معرضة للتقييم من قبل جامعات ومراكز بحوث أخرى .. أما المكاتب الأستشارية فان هدفها الأساسى هو الربح وليس الحقيقة العلمية ، وتحصل على عقود من الحكومة الأمريكية ومن هيئة المعونة الأمريكية أومن الحكومة المصرية وتكون ملتزمة بتقديم الدراسة فى وقت محدد .. وهذه المراكز تقوم بدراسات اجتماعية وسياسية واقتصادية تسمى **Sociql Impsct Studies** أو دراسات **Risk Studies** . وهكذا فان مقاول الأبحاث يقوم بأى شىء يطلب منه .

تسيب .. تسيب .. !

هل هناك ضوابط فى مصر لمثل هذه الأنشطة ؟

– العملية الآن على درجة عالية من التسيب لأننا انتقلنا من وضع كان **مقيدا جدا** للبحث العلمى فى الخمسينات والستينات وكان يشترط الحصول على موافقة جهاز التعبئة والأحصاء ، أما فى السبعينات فان الحبل ترك على الغارب .. فحدث تسيب . **والمطلوب الآن الاتزان والمعقولية بحيث يكون لدينا ضوابط ولكن ليست متزمتة .. حتى نمنع التسيب .. وكل من يرغب فى اختراق المجتمع المصرى** .. ويتم ذلك بقيام جهاز التعبئة والاحصاء بممارسة دوره بحيث لايتم أى بحث قبل الحصول على موافقته .. وقانون الجهاز الحالى يعطيه هذا الحق .. والمطلوب احياء هذا القانون .. وتطبيقه .

دور جهاز الأحصاء

● الدكتور هلودة قال ليس من مهمة الجهاز متابعة الباحثين .. وما يفعلونه .. فهذه مهمة المخابرات العامة .. مارأيك ؟

– بالعكس .. دور الجهاز هو أن يتابع أيضا .. ويتلقى تقارير دورية من الباحث نفسه ثم فى النهاية يحصل على نسخة من البحث النهائى وقبل ان يخرج هذا البحث من مصر لابد أن يحصل على موافقة الجهاز بذلك .. أن قدرة الجهاز على ممارسة دوره تتوقف على قدرته على حسم الأمور سرعة .. **فالاجراءات الادارية للحصول على ترخيص من الجهاز لعمل بحث تستغرق حوالى ثلاثة شهور وهو ماينفر الباحثين .. سواء كانوا وطنيين أو أجانب .. لأن الباحث مرتبط بميزانية ولابد أن ينتهى من البحث فى وقت معين .. ومن هنا يلجأ الباحث الى اساليبه الخاصة للحصول على المعلومات والبيانات .. وكذلك فى رأيى لابد أن يرتبط السماح أو عدم السماح ، باجراء البحوث بخطة بحث علمية تحدد الأولويات المطلوب البحث فيها .. خطة سنوية .. أو خمسية .**

دور ميثاق الشرف

● بالنسبة لمقاولى الأبحاث .. فى تصورك ماهى الأجراءت التى يمكن ان تتخذ ضدهم ؟

– ان تقوم النقابات المهنية التابعين لها بوضع معايير أو ميثاق شرف والذى يخرج عنه

يمنع من ممارسة المهنة ، كما يمكن أن ينشأ مكتب تنسيق .. تسجل فيه موضوعات البحوث التى تتم .. وهذا المكتب يمكن ، ان يمارس دورا رقابيا على البحث العلمى .. والمحاسبة كذلك يمكن ان تقوم بها **أكاديمية البحث العلمى** وكذلك النقابات المهنية على أساس ان ذلك احد اختصاصاتها وهى المحاسبة والضبط الاجتماعى .

● احد التأثيرات الخطيرة لمسألة البحوث المشتركة هو تأثيرها على خصائص القرارات فى مصر .. مارأيك ؟

– هناك عقدة الخواجة « مسيطرة على صانعى القرارات .. فهناك اعتقاد ان الخبير الأجنبى سيقدم الحل .. والدليل أن هناك بعض المشاكل مثل الاسكان .. تستعين فيها بخبراء امريكيين .. **ويظهر اعلى مستوى قيادى بجانبه خبراء امريكان يشرحون المشكلة .. مع أن مصر مليئة بباحثين بعضهم قضى أكثر من ٣٠ سنة معايشة .. ودراسة للمشكلة. فهل سيقدم الخبراء الأمريكيون خلالها افضل من الكفاءات الوطنية العلمية ؟**

التبعية حالة نفسية ! !

.. ولكن التبعية أو الأعتمادية اصبحت حالة نفسية .. والبعض يخاف من اتخاذ قرارات تغضب الأمريكان .. فيمنعون عنا المساعدات .. ولكنى أقول اذا كانت المساعدات .. المساعدات الأمريكية لمصر تبلغ حوالى مليار دولار سنويا فان الرقم الفعلى الذى يدخل لمصر هو ٥٠٠ مليون دولار أى حوالى ١٥ ٪ من حصيلة مصر من العملات الأجنبية .. وكما قلت اذا تحدثنا مع بعض المسئولين بان تاخذ مصر موقفا متشددا من اعمال إسرائيل يقولون لك « الأمريكان يجوعونا » ! ! .. فهناك عقدة الخوف .. مع ان المشكلة يمكن ان تحل ويحصل المبلغ المطلوب اذا فرض ١٠٠ دولار على كل مصرى يسافر للعمل بالخارج .. ولكن التبعية اصبحت نفسيه .. **وصانع القرار المصرى وضع نفسه سواء بارادته او بلا وعى منه فى موقف العاجز عن التفكير المستقل .**

والأمر فى منتهى الخطورة .. ولكن مقاومته تحتاج الى دعوة تبدأ بتوجيه سياسى من اعلى مستوى .

● أنا لااعرف كيف يمكن لمجموعة مستفيدة ان تطالب بانهاء الشكل الذى يحقق لها مصالح مادية ؟

– المعروف ان الشخص الوطنى .. رغم انه مثل أى شخص لديه مطالب مادية ومهنية ، إلا انه على استعداد بين الحين والآخر ان يضحى بمصلحة خاصة.. **وهذا لايمكن ان يتحقق الا اذا كانت هناك حركة عامة اى تيار بزعامة الدولة وذلك حتى يمكن ان نكون** انسانيين ولانحلق فى مثاليات مجردة .. وما يحدث حتى الآن هو انه اذا كان الباحث وطنيا يرفض الأشتراك فى بحث به اضرار بالمصلحة الوطنية وهذه حالات فردية حتى الآن .. ولا تؤثر فى التيار العام الجارف **والذى تعضده قيادة الدولة وهذه هى الماساة لانه لو ان قيادة الدولة محايدة لاستطاع تنظيم شعبى من الباحثين مواجهة هذا** . والباحثون الوطنيون الواعون يحاربون على جبهتين أولاها محاولة ايقاف هذا التيار الأجنبى وثانيها محاولة توعية .. او منع السلطة على اعلى مستوى من تغذية هذا التيار .. ومطلوب من الباحثين ان ينظموا انفسهم وان يضحوا ببعض المصالح المادية .

سياسة للمقاومة ! !

● فى رأيك .. ماهى ملامح سياسة المقاومة لمثل هذا الأختراق ؟

أولا : أن يعود دعم الدولة لمراكز البحوث الوطنية .. وهو الدعم الذى تقلص فى السنوات الأخيرة .

ثانيا : ان يقوم الباحثون بالضغط على صانع القرار من اجل الأخذ بسياسة عامة تكرس الأستقلال الوطنى وتقلل من التبعية على كل المستويات وليس على مستوى البحث فقط والمطلوب هو فلسفة للتنمية المستقلة تضاعف من الأعتماد على الذات .. ويتم وضع خطة بحثية طبقا للأولويات المطروحة للتنمية .

جهات أخرى ! !

●من الواضح حتى الآن ان الأختراق الأمريكى يمثل اكبر انواع الأختراق .. ترى هل هناك نوعيات أخرى من الدول تسعى الى ذلك غير امريكا .

– أكبر تمويل للبحوث المشتركة فى مصر يتم من خلال هيئة المعونة الأمريكية .. ولكن هناك هيئات اقل اهمية وان كانت اكثر استقلالية مثل هيئة المعونة الكندية.. ومركز ابحاث التنمية الكندى .. وهذه المراكز اقرب فى توجهاتها الى شعوب العالم الثالث ، كذلك الهيئات الاسكندنافية ، وعموما .. **ليس كل ماهو غربى .. شر** ، **فهناك دول تسعى بصدق الى خدمة**

العالم الثالث ربما انطلاقا من احساسها بذنب تاريخى تجاه شعوب العالم الثالث .. او انطلاقا من رسالتها التبشيرية .

كذلك .. هناك مركز البحوث الفرنسية ، والمركز الألمانى .. وكذلك مؤسسة فورد وعموما .. فان حجم اهتمام مؤسسة فورد حاليا بمصر اقل من الماضى .. وذلك بعد اعادة تشكيلها داخل الولايات المتحدة بعد أن أصبح رئيسها زنجيا لأول مرة فى تاريخها .. وتم توجيه معظم نشاط المؤسسة الى المحرومين داخل الولايات المتحدة .. وبالتالى قلت الاعتمادات الخارجية التى تقدمها المؤسسة .. حتى هذه الأعتمادات موجهة الى التنمية الزراعية والى قضايا النساء .. والى المحرومين من الحقوق القانونية .. ومن هنا فان نشاط المؤسسة الحالى من وجهة نظرى ليس من نوع نشاط هيئة المعونة الأمريكية .. وعموما .. **فان دور أى مؤسسة اجنبية داخل المجتمع المصرى تحدده الدولة .. فقد كان لمؤسسة فورد وجود داخل مصر قبل الثورة .. وبعد الثورة .. قد اختلف دورها فى كل مرحلة .. كذلك هناك الجامعة الأمريكية بالقاهرة ويتوقف دورها .. وحجمه داخل المجتمع حسب ماتحدده لها الدولة .. والأمر فى النهاية يتوقف على مدى حرص النظام على حماية الاستقلال الوطنى .**

الفصل الخامس

فلسطين
وصيف العرب الحزين

- ☐ الحصاد المر .
- ☐ سلوى .
- ☐ مع ياسر عرفات .
- ☐ فى صبرا وشاتيلا .

الحصاد المر*

الدول العربية لديها جيوش تصل فى مجموعها الى حوالى ٢ مليون جندى ، وتمتلك اكثر من خمسة آلاف دبابة ، واكثر من ألف طائرة . وقد أنفقت على تسليحها فى السنوات العشر الأخيرة اكثر من مائتى مليار دولار .

المقاومة الفلسطينية تتكون من حوالى عشرين الف مقاتل ، مسلحين بالأسلحة الخفيفة والمتوسطة ، وليس لديهم طائرات ، أو حكومة أو حكام . وليس لديهم بترول أو مليارات من الدولارات . ومع ذلك صمدوا أمام مائتى الف جندى إسرائيل بكل اسلحتهم المتطورة ، وبكل أساليبهم الهمجية ، وبكل شرائعهم العنصرية البربرية ، ومن خلفهم أقوى دولة فى العالم - وهى الولايات المتحدة - تدعمهم بالمال والسلاح والدبلوماسية . صمدت المقاومة الفلسطينية وحدها ، الى وقت كتابة هذه السطور ، سبعة عشر يوماً أمام آلة الحرب الاسرائيلية الفتاكة ، دون أن تستسلم أو تضع السلاح ، ودون أن تخف إلى نجدتها أى دولة عربية .

الشعوب العربية تتابع أنباء المذبحة البشرية فى لبنان بألم ، وحسرة ، وسخط . ولكنها تشعر بالعجز ، لأنها مكبلة الأيدى بواسطة حكامها العاجزين . والكثيرين من أبناء الأمة العربية يتساءلون فى صمت أو همس : من أجل أى هدف لدينا جيوش يصل عددها الى مليونين ، ودبابات يزيد عددها عن خمسة آلاف ، وطائرات يزيد عددها عن الألف ؟ من أجل أى هدف أنفقنا وننفق على هذه الجيوش بلايين الدولارات ؟ هل هى لنقتل بها بعضنا بعضا ؟ هل هى لكى يستأسد بها الحكام على المحكومين ؟ أم هى جيوش للزينة والاستعراضات ؟ أم حكامنا يدخرونها لعدو آخر اكثر خطرا وبربرية على الأمة العربية ؟ أم أن السبب - كما يحلو لبعض الحكام العرب أن يقولوا - هو أنهم هم الذين سيختارون مكان المعركة وزمانها !؟

إن هذه الأسئلة الصامته أو الهامسة ، التى تتردد عالية فى الأعماق ، هى أحكام إعدام

* الجمهورية ، ١٩٨٢/٦/٢٤

شعبية على معظم الأنظمة العربية ، التى تقف مشلولة عاجزة ، تتفرج على الاعدام الجماعى لأبناء الشعب الفلسطينى الباسل . إن كل يوم يمر منذ هجوم التتار الجدد على لبنان يجسد المفارقة بين إستبسال المقاومة الفلسطينية التى تحارب بأقل القليل ، وعجز الأنظمة التى تملك الكثير . ومع كل ساعة تتجسد فيها هذه المفارقة الشاسعة ، تفقد الأنظمة العربية البقية الباقية من شرعيتها ومبرر وجودها .

إن الحد الأدنى من مبررات وجود أى نظام حاكم هو أن يحمى شرف الأمة ، ويذود عن أرضها ، ويستجيب لمطالب أبنائها .

وأبناء الأمة العربية ، منذ عصر النهضة فى منتصف القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا ، يتطلعون إلى ستة مطالب رئيسية وهى :

– الذود عن دار العروبة والاسلام فى مواجهة الهيمنة الأجنبية بكل اشكالها ، بما فى ذلك الغزوة الصهيونية الاستيطانية التوسعية .

– الديمقراطية والمشاركة السياسية فى مواجهة الاستبداد وتسلط الحكام .
– العدالة الاجتماعية فى مواجهة الظلم والاستغلال .
– الوحدة العربية فى مواجهة التجزئة .
– الأصالة الحضارية فى مواجهة التغريب والمسخ الثقافى .

وقد صاغ كل جيل من الأجيال العربية المتعاقبة هذه المطالب الشعبية بكلمات والفاظ مختلفة ، ولكنها ظلت هى هى من حيث الجوهر والمضمون . وأخذت بعض هذه المطالب أولوية على بعضها الآخر فى مرحلة معينة ، أو فى قطر عربى هنا وهناك . وتحملت الشعوب العربية شطط بعض حكامها ، أملاً فى أن تتحقق كل هذه المطالب أو بعضها . ولم يبخل أبناء الأمة بدمائهم أو أرواحهم أو أموالهم فى سبيل واحد أو اكثر من هذه المطالب الستة .

بل إن أبناء الأمة العربية لم يقنطوا أو ييأسوا فى ساعات الهزائم والنكسات ، مادامت قياداتهم تحاول مخلصة أن تحقق هذه المطالب ، ومادامت هذه القيادات متمسكة بارادتها وبروح المقاومة . فهم لم يخذلوا **الأمير عبد القادر الجزائرى**، أو **أحمد عرابى** ، أو **عبد الكريم الخطابى**، أو **عمر المختار**، أو **الملك محمد الخامس** ، أو **جمال عبد الناصر** . لقد منى كل واحد من هؤلاء القادة بهزائم عسكرية . ولكن كل منهم أحتفظ بروح المقاومة والنضال ولم يستسلم الى النهاية . لذلك دخل كل منهم القلوب والتاريخ العربى من أوسع أبوابه .

وفى المعركة الشرسة التى تدور على أبواب بيروت ساعة كتابة هذه الكلمات ، ومع التفوق الهائل لجحافل الجيش الاسرائيلى وحلفائه الكتائبيين ، قد يهزم المقاتلين الفلسطينيين عسكريا . وقد يؤسرون أو يفنون جميعاً . وقد يقتل ياسر عرفات وجورج حبش وصلاح خلف . وقد يتم أسرهم ، ومحاكمتهم ، واعدامهم أو سجنهم بواسطة إسرائيل ، أو نفيهم الى أرض اخرى .

ولكنهم سيدخلون التاريخ العربى من أوسع أبوابه . وسيكونون شهداء أمة بأسرها . وأهم من ذلك ستكون دمائهم الذكية شهادة على عصرهم بكل مفارقاته . فهو عصر إستبسال قلة شجاعة ، تواجه قوة بربرية غاشمة . وهو عصر أغلبية عربية صامتة كممت أفواهها وكبلت أيديها . وهو عصر أنظمة عربية تضخمت لحما ، وترهلت شحماً ، وانحطت روحها ، وضمرت ارادتها . وهو عصر حكام تنكروا لكل مطالب الأمة : **فلا هم حموا الديار ، ولا هم أشاعوا الديموقراطية ، ولا هم نشروا العدالة ، ولا هم أنجزوا تنمية حقيقية ، ولا هم حققوا وحدة عربية ، ولا هم حافظوا على أصالة حضارية .**

سيذكر التاريخ لهؤلاء الحكام العرب أن كلا منهم قد قبع فى قلعة محصنة . يخاف شعبه ويخاف من الحكام العرب الأخرين فى قلاعهم المحصنة . وسيذكر التاريخ أن كلا منهم كان يرسل زبانيته فى حملات يومية لتبطش بالشعب ، وتكمم أفواهه ، وتكبل أياديه . وكان يرسل جيوشه موسميا لتحارب جيوش الحكام العرب الأخرين . كل هذا وبيروت تحترق ، والعدو الحقيقى على أبواب العواصم العربية ، والفلسطينيون يذبحون ، وياسر عرفات يستعد للاستشهاد .

ذلكم هو الحصاد المر لأمة منكوبة بحكامها .

ولكن عزاءنا هو أن هؤلاء الحكام سينتهى بهم الأمر الى مزابل التاريخ ، تلحقهم لعنات الشعوب ، كما أنتهى من قبلهم ملوك الطوائف فى الاندلس . وفى جو الكآبة القومية التى تخيم بسحبها القاتمة فى سماء الوطن العربى ، هناك بصيص من نور . هناك أبطال يقاومون . وهناك أبطال يولدون تحت وابل القنابل ، ويعمدون بالنار . هناك شعب يريد الحياة . لذلك لا بد أن يستجيب القدر . ولا بد للقيد أن ينكسر .

سلوى*

على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من لبنان ، موضع الاقتلاع الرابع للشعب الفلسطينى ، ومن بيروت ، مسرح الملحمة الرائعة لصمود وبلاء المقاومة الفلسطينية ، ومن صبرا وشاتيلا ، موقع أحد فصول الجريمة الكبرى ورمز المأساة المستمرة ، توجد رقعة صغيرة من الأرض عليها مبنى تحيط بهما الأسلاك الشائكة . الموقع هو تونس ، والموضع هو سلوى ، والمحتوى هو قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ومجموعة من المقاتلين الذين أشتركوا فى ملحمة بيروت ، ومن الأطفال والنساء الذين شهدوا جزءاً من الجريمة - المأساة فى صبرا وشاتيلا .

كانت الرهبة تتملكنى وأنا فى الطريق الى سلوى ... وكانت خواطر عديدة تتدافع فى عقلى والسيارة تنقلنى من تونس العاصمة الى سلوى على بعد ثلاثين كيلومترا ، كانت ساعة غسق ، والطريق غير مأهول ، وكل شىء هادىء على جانبيه . بدا لى شكل السماء حزينا . فأحسست فى داخلى بالانقباض . وصلت السيارة الى بوابة الحراسة الخارجية ، وتبادل السائق بضع كلمات مع الحراس . ثم بعد حوالى مائتى متر وقفت السيارة ووجدت نفسى امام مبنى عليه لافته كبيرة « سلوى » . وأستقبلنى عدد من الفلسطينيين بالترحاب ، والبشاشة تعلو وجوههم .

وما أن دخلت المبنى حتى وجدته مثل خلية النحل . كل من فيه يتحرك بهمة ونشاط . البعض يلبس زيا عسكريا ، والبعض يلبس زيا مدنيا ... رجال ونساء من كل الأعمار ... كل منهم يعمل شيئا ... ومررت فى ردهات طويلة على جانبيها غرف كثيرة ، معظمها مفتوحة الأبواب . وعلمت بسرعة ان المبنى كان الى وقت قريب هو أحد الفنادق السياحية الكبيرة . البعض داخل الحجرات يدق على آلات كاتبة ، والبعض يعمل على أجهزة التيلكس والاتصالات ... أومنكب على اوراقه خلف المكاتب ... والبعض مجتمع فيما

* الأهرام الاقتصادى ، ١٩٨٣/١/١٠

يشبه مجموعات عمل . بعض الغرف عليها لافتات تشير الى نوع العمل الذى يقوم به من يشغلونها ... وصعدت من طابق الى طابق ، ومشيت من ردهة الى اخرى من وراء أحد المرافقين الذى يحيى من نصادفهم فى الطريق ... لم اكن أدرى تماماً الى اين يصطحبنى ، الى ان انتهى بنا المطاف الى غرفة اجتماعات كبيرة ، ولكنها خالية الا من ثلاثة أشخاص ، استقبلونى بحرارة ، وقدموا أنفسهم . أنهم من كوادر منظمة التحرير الفلسطينية . وبدأنا حديثنا رسميا فى البداية ، سرعان ماتحول الى حديث ودى خال من الشكليات . قلت لهم اريد أن اسمع منكم ماحدث فى بيروت ... مافكرتم فيه ... ماشعرتم به هناك . وأريد أن أرى وأن اسمع ما آل إليه حالكم هنا على بعد آلاف الأميال من وطنكم الأول الذى اقتلعتم منه ، ومن مواطنكم التالية التى اقتلعتم منها . وأبتسموا وبدأوا الحديث ... وبدأت الاستماع والسؤال والمشاهدة معهم ومع عشرات غيرهم على مدى أربعة أيام .

« سلوى » ... هل اختاروا هم المكان بسبب اسمه ، أم انه مصادفة قدرية ؟ اتضح انه مصادفة قدرية . وما اكثر مصادفات اقدارهم .

« سلوى » ... هل هى عزاء ... هل هى نهاية ... أم انها محطة على طريق التشتت الطويل ... على درب الكفاح المرير ؟ أكد الجميع أنها ليست نهاية ... فقط محطة ، استراحة مؤقته للمحاربين .

● « سلوى » .. ياالهى ماهذا النشاط ، ماهذه الحيوية ، ماهذا التفاؤل ؟ هل سرقتهم السكين ... هلى هى صحوة الموت الأبدى ؟ احتراماً وتأدبا وإشفاقا كانت هذه أسئلة خواطرى الصامتة . كل ما أستطعت البوح به علنا هو سؤال تحليلى بارد من الذى يسأله العلماء الاجتماعيون : هل تدركون أبعاد ماحدث لكم فى لبنان ؟ هل تدركون أن إسرائيل قد انتصرت فى حربها الخامسة أو السادسة عليكم وعلى العرب أجمعين ؟ نعم ندرك أبعاد ماحدث لنا وللعرب فى لبنان . وهو شيء هائل ومهول ... لقد فقدنا الكثير ... فقدنا قاعدة حيوية للانطلاق وللحركة الحرة فى نضالنا ... فقدنا مئات الضحايا من خيرة المقاتلين ... وآلاف المدنيين من شعبنا ومن الشعب اللبنانى الشقيق . ولكننا لم ننهزم ... الهزيمة ليست مجرد خسائر مادية وبشرية . الهزيمة هى حالة عقل ووجدان بالانكسار . الهزيمة هى حالة قنوط ويأس من الاستمرار فى النضال . الهزيمة هى أن نفقد إرادة القتال ... وأن تستسلم لعدوك . وبهذه المعايير للهزيمة نحن لا نشعر بأننا أنهزمنا ... ولا نشعر أن إسرائيل انتصرت علينا . إسرائيل ربما انتصرت على الأنظمة العربية . معايير الهزيمة تنطبق على الأنظمة العربية . فهى فى حالة قنوط ويأس من الاستمرار فى النضال ... وهى التى فقدت ارادة القتال ... وهى التى استسلمت صراحة أو ضمنا لارادة العدو . الهزيمة هى أن تخاف عدوك ، وتجبن عن مواجهته ، وتتخاذل أمامه، وتزعن لشروطه . كل ذلك ينطبق على

الأنظمة العربية الحاكمة ... ولا شىء من ذلك ينطبق علينا .

● « سلوى » ... ماأسمعه منكم رغم كل رونقه اللفظى ، وكل سلاسة منطقه يبدو لى نوعاً من عزاء جماعى للذات . ألا تدركون أنكم قد تشتتم بعيداً عن أرض المعركة الحقيقية ؟ ألا تدرون أن إسرائيل تهيمن منذ سنوات على كل أرض فلسطين ، وتهيمن منذ شهور على معظم لبنان ؟ ألا توقنون أنها الأن تسيطر لا فقط على مقاليد الأمور فى وطنكم ، وإنما أيضاً على مقاليد الأمور فى المنطقة ؟

نعم نحن ندرك أن إسرائيل هى اكبر قوة عسكرية فى المنطقة الآن ... ونوقن أنها تهيمن وتسيطر ... وتبادىء . ولكن مادام شعبنا مايزال حيا ... ومازال يقاوم فإن اسرائيل لم تنتصر . إن ستة آلاف منا فقط هم الذين خرجوا من بيروت . أما بقية مقاتلينا فما يزالون فى البقاع والشمال اللبنانى . الم تسمع بعملياتنا خلف خطوط العدو فى لبنان وفى داخل إسرائيل نفسها ؟ الم تسمع بعملية نسف مبنى القيادة الاسرائيلية فى صور والتى فقد فيها العدو سبعين قتيلاً من كبار قادته وضباطه ؟ العدو لم ينتصر علينا ولن ينتصر علينا حتى اذا أفنى جميع مقاتلينا . تحدث مع أطفالنا ومع أشبالنا ومع نسائنا فى سلوى وفى كل مكان وستعرف لماذا لم ينتصر العدو علينا . ان كل جيل فلسطينى سيلتقط راية النضال من الجيل الذى سبقه . بيجين وشارون وإتيان يعلمون هذه الحقيقة جيدا . لذلك حاولوا إفناء النساء والأطفال فى صبرا وشاتيلا . نساؤنا وأطفالنا رأوا عدونا أثناء المعارك فى أضعف حالاته رغم ترسانه الجحيم التى كانت فى حوزته والتى صب حممها علينا نحن المقاتلين وعليهم هم العزل من السلاح . لقد رآه أطفالنا ونساؤنا على بعد مائتى متر فى أحد ضواحى بيروت يقاتل لمدة ستة عشرة ساعة بمئات من جنوده ومدرعاته وطائراته أمام عشرات من مقاتلينا بأسلحتهم الخفيفة والمتوسطة . وحينما توقف القتال وأنقشع الدخان كان العدو قد تقدم أربعين سنتيمترا . لقد أطلق أطفالنا فى المخيمات على هذه الموقعة اسم « معركة الشنطه » — لأن حجم تقدم العدو لم يكن يتعدى حجم الشنطة التى يحملون فيها كتبهم الى المدارس . هؤلاء الأطفال رأوا الموت أمام أعينهم — موت جنود عدونا وموت أباء وأخوة لهم من مقاتلينا . ولكن جدار الخوف عندهم قد تكسر ، الخوف من العدو .. والخوف من الموت . وإسرائيل حريصة على إخافة العرب .. إنها تعيش وتنتصر على اسطورة إخافة العرب ... على اسطورة أنها القوة التى لاتقهر .

وقد رأى أطفالنا ونساؤنا كذب هذه الأسطورة بأعينهم . لقد كانوا شهوداً علينا وعلى عدوهم وعلى التاريخ . لذلك أصر شارون على إبادة الشهود فى صبرا وشاتيلا بعد أن خرج المقاتلون من

بيروت . العدو يريد للاسطورة الكاذبة أن تعيش .

● « سلوى » ... هل انت حقيقة أم خيال ؟

المقيمون بسلوى ... بلحمهم وشحمهم ... وبنبض الدم فى عروقهم .. وبحركتهم الدائبة داخل المبنى ... وبتدريباتهم المستمرة بالقرب منه ... وبابتسامات التفاؤل على وجوههم ... وبالثقة فى كلماتهم يؤكدون لى أنهم حقيقة ، وليسوا خيالاً . « سلوى » لاتهدأ ليلاً أو نهاراً ، وحركتها لا تنقطع . لقد دخلتها منقبضاً حزينا . فكل ماحولها هادىء هدوء الدعة أو النوم أو الموات . وماحولها يمتد من شواطىء الأطلنطى إلى شواطىء الخليج العربى – الفارسى .

على بعد ثلاثين كيلومترا من سلوى ... فى قلب العاصمة التونسية هناك مبنى آخر فى نفس حجم مبنى سلوى ، ترفرف عليه أعلام عشرين دولة عربية . وقفت السيارة أمامه فى حوالى العاشرة والنصف صباحاً . دخلته ومعى ثلاثة من الأصدقاء الزائرين . تجولنا فى الردهات نبحث عن أصدقاء قدامى كنا نعرفهم أيام كانت الجامعة العربية فى القاهرة . لم نعثر على معظمهم . نعم هم يعملون هناك – هكذا أخبرنا السعاة . لا ليسوا فى اجازات ... لا ليسوا فى اجتماعات . فقط.هم لم يصلوا بعد . كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة ، وفى طريقنا الى خارج المبنى قابلنا أحد الأصدقاء على مدخل المبنى . ورحب الرجل بنا بحرارة . وأصر أن نعود معه الى مكتبه . الرجل يشغل منصبا هاماً فى الأمانة العامة . وتحدثنا معه طويلاً . والتقينا بغيره من كبار العاملين فى الجامعة العربية . وتحدثنا طويلاً .

علمنا الكثير عن تفاصيل ماحدث فى مؤتمر قمة فاس فى سبتمبر الماضى . كانت أحد المسائل التى أحتدم حولها النقاش بين الملوك والرؤساء العرب ، بعد إقرار مشروع عربى للسلام ، هى هل تتوجه اللجنة السباعية المشكلة منهم **للتوصل الى أمريكا فقط** ، أم **تتسع دائرة التوصل لكى تشمل الاتحاد السوفيتى والصين وفرنسا وبريطانيا** . وكسب الجولة أولئك الذين رأوا توسيع **دائرة التسول** على أبواب الدول الكبرى رجاء أو الحماية من « **الغول الاسرائيلى** » .

علمنا الكثير عما دار حول عودة مصر الى الصف العربى . وكيف أن بعض الأنظمة التى كبرت بغياب مصر هى التى أعترضت ... وكيف أنها ساقت حججاً وجيهه لهذا الاعتراض ... وأجمع من تحدثوا معنا حول الموضوع أن الحجج كانت كلمات حق يراد بها باطل . **أجمعوا أن الأنظمة جميعاً ، بعد ماحدث في لبنان ، قد« عربت كامب دافيد »– أى تبنته ضمناً ، وربما ماهو أقل منه .**

علمنا الكثير عما دار فى اجتماع اللجنة السباعية برئاسة **الملك الحسن مع الرئيس الأمريكى ريجان** . وكيف أن هذا الأخير قرأ عليهم قائمة من المطالب الأمريكية التى ينبغى على

العرب تلبيتها ان كانوا يرجون من أمريكا أن تتدخل كوسيط بينهم وبين إسرائيل . **أهم المطالب هى أن يكونوا مستعدين للتفاوض مع إسرائيل ، والاعتراف بها ، والتصالح معها ، وأن لايذكروا أى شىء عن حق تقرير المصير أو عن دولة مستقلة للفلسطينيين .**

وكان الحديث فى مكاتب الجامعة العربية حديث هزيمة استسلام وخضوع واستجداء . كانوا يعتبرون ذهاب **سعود الفيصل** وزير الخارجية السعودى مع الوفد العربى الى **موسكو** فتحا مبينا . وكانوا يعتبرون مجرد الوصول الى قرارات فى فاس انتصارا مهولاً .

سألناهم هل اتخذ مؤتمر القمة فى فاس أى قرارات لتقوية **القدرات الدفاعية العربية** فى مواجهة التفوق الاسرائيلى ؟ هل جرى أى حديث عن **تنسيق عسكرى** لوقف إمكانية مزيد من التدهور على الجبهة الشرقية التى تشمل سوريا والاردن ؟ هل جرت أى مناقشات حول إمكانية **إستخدام النفط** ، أو **الأرصدة المالية** العربية فى بنوك الغرب ، أو **المعاملات التجارية** ، كوسائل ضغط على الولايات المتحدة لكى تضغط بدورها على إسرائيل للجلاء من لبنان ولمنح **الفلسطينيين حقوقهم أو بعض حقوقهم فى وطنهم ؟**

كانت هذه الأسئلة تقع على محدثينا فى الجامعة العربية وقع المفاجأة ... وكأنما نسألها بلغة أجنبية غريبة غير مفهومة . وبعد وهلة من زوال المفاجأة كانت الاجابة بالنفى ، المقرون بنظرات الاستهجان لفرط سذاجة من يوجه هذه الأسئلة .

الجامعة العربية هى ملتقى ومحصلة الأنظمة العربية الحاكمة ... هل هى حقيقة أم خيال ؟

المبنى والأعلام والسيارات الفارهة ... ومندوبو الدول ... والمكاتب شبه الخاوية ... والأحاديث العليمة ببواطن ماجرى فى فاس وفى البيت الابيض والكرملين وبكين وباريس ، كلها تؤكد أن الجامعة العربية والأنظمة الممثلة فيها هى حقيقة وليست خيالاً .

« سلوى » و « الجامعة العربية » هما حقيقتان من حقائق عالمنا العربى . ولكن الأولى جزيرة والثانية محيط . **سلوى هى قلب نابض بلا جسم يحتويه. والجامعة بأنظمتها هى جسم متضخم بلا قلب ينبض فيه . ومصر بعيدة عن القلب والجسم . ومصر هى العقل والجهاز العصبى ، الذى كان يستجيب لدقات القلب ويوجه حركة الجسم . أما وقد أنفصل القلب والعقل والجسم فقد أختلط الأمر ، وأصبحت الحقيقة خيالاً أشبه بالحلم حينا ، وأشبه بالكابوس أحيانا .**

مع ياسر عرفات*

كانت هذه هى المرة الأولى التى نراه فيها منذ حرب لبنان وحصار بيروت ... لقد انقضت ثلاثة شهور منذ خرج الرجل مع مقاتليه من بيروت . وفى الطريق اليه كانت خواطرى تتدافع . هل سأجد أبو عمار حطاما ؟ هل سأجده يائساً تعتصره المرارة بعد كل ماحدث له ؟ هل سأجده وقد تقدم به العمر سنوات طويله من هول مارأى وما شعر ؟
لقد رأيت بعض المقاتلين فى اليومين السابقين ... وتذكرت أن خواطر مماثلة كانت تدور فى رأسى وأنا فى الطريق اليهم ... وتذكرت كيف أنهم بددوا كثيرا من هذه الخواطر ... وأعطونى صورة مغايرة تماماً ... وكيف أنهم من فرط ثقتهم بأنفسهم وتفاؤلهم بمستقبلهم قد جعلونى أشك فى صحتهم العقلية بعض الشىء .
هذه المرة أنا ذاهب للقاء قائدهم الأعلى وزعيمهم المخضرم ... ولا يمكن لأبو عمار أن يكون مثل المقاتلين العاديين الذين لا يعرفون ماذا يدور حولهم خارج دائرة البندقية والمعركة ... لا يمكن لأبو عمار أن يكون « متهوراً » مثلهم فى الثقة بالنفس ، أو ان يكون « ارعنا » مثلهم فى تفاؤله بالمستقبل .
لابد أنه أعقل من ذلك لابد أنه يرى حجم المصيبة وأبعاد النكبة وعمق الهزيمة .

● اللقاء بالاحضان والدموع

أستقبلنا أبو عمار بالأحضان والقبلات ... وأنهار أحد الأصدقاء المصريين من تأثره برؤية أبو عمار بلحمه وشحمه وكوفيته ولحيته وابتسامته وعينيه اللامعيتن . وأجهش الصديق المصرى بالبكاء ... لم يستطع أن يتحكم فى نهر من الدموع المتدفقة بعواطفه . أبو عمار يشد على ايدينا مرة أخرى .

* الأهرام الاقتصادى ، ١٩٨٣/١٠/١٧

وبدأنا نسأل الرجل الذى وصل لتوه الى تونس من عمان . كانت الساعة هى حوالى العاشرة مساء ... وظل يتحدث إلينا ونتحدث اليه حتى الثالثة صباح اليوم التالى .

كانت أسئلتنا تلقائية ، عشوائية ، وكثيرة ... كنا نريد أن نعرف كل شىء .. وأن نعرفه بعمق .

وكان أبو عمار تلقائيا فى اجاباته ، كريماً فى تفسيراته ، صريحاً فى إنتقاداته للذات و للاخرين ، عادلاً فى تقييماته لثورته وللأنظمة العربية ، وللاعداء .

لم نكن نسأل بقصد الاحراج أو الفصول . ولم يكن يجيب بقصد الدعاية أو التبرير . كان الحديث تواصلاً بين روحه وعقله ومشاعره وبين أرواحنا وعقولنا ومشاعرنا .

لم تكن هناك حواجز من ناحيته أو من ناحيتنا . كان هدوء الساعات الأخيرة من الليل وصفاء الساعات الأولى من النهار يدعمان **صوفيه اللقاء و عقلانية الحوار** بيننا وبين أبو عمار .

- **كيف يرى أبو عمار ماحدث ؟**

عند هذا السؤال – كما فى العديد من أسئلتنا الأخرى – كان أبو عمار يخرج كتاب يومياته ، الذى هو أشبه بدفتر بقال قروى صغير . وقلب أوراقه برهبانية شديدة الى أن وصل الى صفحة يومياته بعد مؤتمر القمة العربية فى فاس (نوفمبر ١٩٨١) . كان المؤتمر قد فشل فى حسم موضوعين رئيسيين هما : مشروع الأمير فهد لتسوية النزاع فى الشرق الأوسط ، ومسألة عودة مصر الى الصف العربى . وأنفض المؤتمر بعد يوم واحد ، بل بعد جلسة عمل واحده ، من انعقاده . دول الصمود والتصدى (سوريا ، ليبيا ، الجزائر ، واليمن الديمقراطية) كانت شديدة السلبية حيال الموضوعين . وقرأ أبو عمار ماسجله من كلمات تعبر عن خواطره **إزاء فشل قمة فاس .**

– كان الخاطر الأول هو أن العالم العربى سيشهد مزيداً من النكبات فى الشهور التاليه .

– كان الخاطر الثانى هو أن الثورة الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية والشعب الفلسطينى سيدفعون ثمنا باهظا لهذا الفشل فى قمة فاس .

– كان الخاطر الثالث هو أن إسرائيل والولايات المتحدة ستستغلان فرصة الانقسام والفوضى العربية للاجهاز التام على المقاومة الفلسطينية . وتوقع عرفات أن يحدث اجتياح إسرائيلى للبنان ، وملاحقة المقاومة وحصارها فى بيروت من أجل هذا الهدف .

كل ذلك تنبأ به ياسر عرفات قبل الغزو الاسرائيلى بثمانية شهور كاملة . وأخبر به قيادات

الثورة الفلسطينية وكوادرها على كل المستويات . وكان بعضهم حاضرا اللقاء ... ونظر اليهم أبوعمار نظرة من يطلب التأكيد أو النفى لما قال ... وهز الجميع رؤوسهم ... وتطوع أحدهم بتكرار بعض عباراته حرفيا لدى عودته من قمة فاس الأولى : « اخوتى وأحبائى توقعوا سنة رهيبة ... سندفع ثمن الفشل فى قمة فاس ... الجميع سيحملونا أوزار إنقسامهم ... إننا على وشك أن ندخل وهليزاً طويلاً ومظلماً ومملوءاً بالاشباح والأفاعى والذئاب » .

اذن ، ماحدث فى الصيف الماضى لم يكن مفاجأة لأبو عمار أو للمقاومة الفلسطينية .. لم تكن مافعلته إسرائيل مفاجأة على الاطلاق . ولم يكن تواطؤ الولايات المتحدة معها فى التمهيد والتخطيط للغزو ، ومن بدايته الى الآن ، مفاجأة على الاطلاق .

المفاجأة ، أو المفاجآت كانت من ردود الفعل العربية ... من داخل لبنان ... وممن أعتبرتهم المقاومة الفلسطينية حلفاء وأصدقاء فى الساحة العربية .

« لقد كان التحالف بين إسرائيل والكتائب اللبنانية معروفاً منذ مدة .. ولكن نصف المفاجأة أن يصبح هذا التحالف معلنا ، سافراً ، وأن يترجم الى خطط عسكرية وقتال مشترك على رؤوس الاشهاد ، ضد المقاومة الفلسطينية وضد الحركة الوطنية اللبنانية » .

« لقد كان التحالف بين إسرائيل والولايات المتحدة معروفاً لنا . ولكن المفاجأة الأمريكية هى أن تحنث اكبر قوة فى التاريخ بوعودها لنا . لقد كانت أحد شروط خروجنا من بيروت ان تتولى القوات المتعددة الجنسية (الأمريكية والفرنسية والايطالية) حماية اللاجئين المدنيين الفلسطينيين فى المخيمات بعد جلاء المقاتلين . ولكن بعد خروجنا بأيام أنسحبت تلك القوات بسرعة مريبة ، وتركت المخيمات الفلسطينية بلا حماية ، وتحت رحمة من لا يرحمون : الجيش الاسرائيلى وقوات حزب الكتائب وسعد حداد . وتكالب هذا الثلاثى الشيطانى الفاشى على لنسائنا وشيوخنا وأطفالنا . وكانت مجزرة صبرا وشاتيلا ، التى قتل فيها مايزيد عن ثلاثة آلاف من المدنيين العزل . ولم تفعل أمريكا شيئا ... لم تراع عهداً ولم تحافظ على شرفها .. ولم تعاقب الذين مرغوا سمعتها بدماء الأطفال والنساء . لا ليس لدينا أى أوهام حول عداوة أمريكا لنا . ولكننا كنا نعتقد أنه حتى بين الأعداء هناك حرمة للمواثيق وقوانين للتعامل الانسانى فى أوقات الحروب . لقد قامت المقاومة الفلسطينية بحماية المدنيين والدبلوماسيين الأمريكيين خلال الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٧٦) ، رغم أن أمريكا عدوتنا » .

• ماذا عن المفاجآت الأخرى ؟

« وصول قوات اسرائيل فى اليوم الخامس للغزو إلى مشارف بيروت بسرعة لم نتوقعها ... لم

تستطع تلك القوات التقدم على الطريق الساحلي الى أبعد من **الدامور** ، حوالى ثلاثين كيلو مترا جنوبي بيروت . كل محاولات التقدم البرى أو الانزال البحرى للقوات الاسرائيلية كانت تُسحق . حاولوا الانزال ، مثلا ، ثماني مرات عند **خلدة** . وفي كل مرة كنا نفنى قواتهم . ولم نتوقع أن يلتفوا حولنا من الطريق الأصعب والأكثر وغورة ، وهو طريق الجبل ، مروراً بمنطقة **الشوف** . لم تكن لنا قوات فلسطينية فى الشوف . ولكن كان بها **قوات سورية** ، وقوات أحد حلفائنا فى **الحركة الوطنية اللبنانية** ، **وهو وليد جنبلاط** – حيث أن هذه هى المنطقة الدرزية معقل نفوذه ... وكنا مطمئنين الى صعوبة ، إن لم يكن استحالة ، إختراق إسرائيلى لتلك المنطقة الوعرة ... فكتيبة واحدة بالأسلحة المتوسطة تكفى لوقف تقدم فرقة إسرائيلية كاملة ... يكفى أن تسد الطرق الجبلية الضيقة بمجموعة من السيارات المحترقة ... يكفى أن تعطب دبابة أو دبابتين على كل طريق لكى تعرقل زحف ماوراءها من قوات اسرائيلية . والذى أبكانى هو أن القوات السورية أنسحبت بسرعة وبدون قتال من منطقة الشوف ... وأمتنعت قوات وليد جنبلاط عن المقاومة لو أخبرتنى سورية ، ولو أخبرنى وليد جنبلاط مقدما ، لكنت قد أرسلت بعض المقاتلين الفلسطينيين إلى تلك المنطقة ، ولأستغرق التقدم الاسرائيلى إلى بيروت عدة أسابيع بدلاً من عدة أيام »

« المفاجأة الثانية هى قدرتنا كمقاومة فلسطينية ، بأسلحتنا الخفيفة والمتوسطة ، وبأعدادنا التى لم تتجاوز عشرة آلاف ، أن نصمد فى بيروت بعد أن أحكمت قوات إسرائيل الحصار علينا من البر والبحر والجو ، وبعد أن منعت عنا الطعام ، وقطعت عنا الماء والكهرباء . ظل حصار إسرائيل لنا ٨٨ يوماً ... وكانت تقذفنا بكل ماأوتيت من قوة النيران ... هل تعلم أن ماسقط علينا فى **بيروت** خلال ثلاثة أشهر يوازى كل ماسقط على **هانوى** خلال عشر سنوات من الحرب الفيتنامية ؟ فى يوم واحد هاجمتنا ٢٣٠ طائرة قاذفة من الجو، وقصفتنا المدفعية الاسرائيلية من مرتفعات **بعبدا** فوق بيروت ، ومن الأسطول الاسرائيلى فى البحر لمدة ١٦ ساعة بلا إنقطاع ... خلال ذلك اليوم حاولت المدرعات الاسرائيلية التقدم ، وهى متأكدة أن كل هذه المساندة الهائلة من ثلاثة اتجاهات ستساعدها على إقتحام خطوطنا .. ولكن بعد قتال مرير وأشتباك بالسلاح الابيض لم يتقدموا اكثر من عدة أمتار ... بل فى بعض المواقع لم يتقدموا أكثر من متر واحد على الارض ... لدرجة أن بعض أطفالنا أطلقوا على هذه الموقعة اسم معركة الشنطة ... نعم لقد صمدنا وكان فى إمكاننا أن نصمد ثلاثة أشهر أخرى على الأقل :

- كانت لدينا الذخائر والأسلحة الكافية
- وكان لدينا مخزون ستة أشهر من الطعام
- لقد حفرنا تسعة عشر بئرا للمياه أثناء الحصار لتعويض بيروت الغربية عن المياه التى قطعها الاسرائيليون وحلفائهم الكتائبيون

ـــ لقد فتحنا العديد من المخابز ، وقمنا بانتاج مايكفى من الخبز لاطعام بيروت الغربية ووزعنا الخبز على السكان مجاناً .

ـــ وأهم من ذلك كله كان المقاتلون يتمتعون بروح معنوية قوية ، وكانوا مصممين على الاستمرار والمقاومة . لقد رأوا اسرائيل فى أقصى قوتها ولم تستطع التقدم اكثر من امتار خسرت فيها خسائر بشرية فادحة ... بتعبير أخر رأوا اسرائيل أيضاً فى أضعف حالاتها .

ـــ لقد أسقطنا لاسرائيل ٢٢ طائرة فانتوم وسكاى هوك وهليوكبتر ، بينما لم تسقط سوريا غير واحدة »

● اذا كان كل ذلك صحيحاً يأأبو عمار ... لماذا إذن قررت مغادرة بيروت ؟

« هذا هو السؤال ... ولا أعلم أن كان قرار خروجى صحيحا تاريخيا وفى الأمد البعيد أم لا ... ولكن دعنى أقول لك أننا أتخذنا القرار بشكل ديموقراطى ... وفى ضوء ثلاثة عوامل هامة :

ـــ أولهما ، الزيادة الرهيبة فى عدد الضحايا المدنيين من اللبنانيين والفلسطينيين نتيجة القصف والقذف العشوائى المكثف ببيروت ... لقد كانت نسبة القتلى من المقاتلين أقل من ٣ فى المائة من مجموع الذين تساقطوا يوميا فى بيروت الغربية .

ـــ ثانيها ، حجم الدمار الشديد الذى وقع ، وكان يمكن أن يتزايد ، لبيروت الغربية . لا تنسى أن بيروت ليست مدينة فلسطينية . إنها مدينة لبنانية فى النهاية . وكنا نحن ضيوفاً على أهلها . وقد تحملوا من أجلنا الكثير .

ـــ ثالثها وأهمها ، وهو ذو علاقة بالعامل الثانى ، هو أن كل فصائل الحركة الوطنية اللبنانية أجمعت ، بعد شهرين من المقاومة ، على ضرورة خروجنا من مدينتهم حفاظاً على أرواح المدنيين وممتلكات اللبنانيين . صدقنى لو أن فصيلاً لبنانيا واحداً طلب منا البقاء لبقينا . لقد كانت لدينا كل وسائل البقاء والصمود » .

● **وهل كان قرار الخروج من بيروت سهلاً ؟**

« لا لم يكن سهلاً ... لقد كانت بيروت والساحة اللبنانية عموماً تمثل الارادة الحرة لنا . لقد كانت تمثل لنا قاعدة تنطلق منها ضد عدونا الصهيونى .. لقد كانت نافذتنا على العالم ... لقد قادت الثورة الفلسطينية منها لمدة اثنى عشر عاماً بعد أن رحلنا من الأردن . لقد بنينا العديد من مؤسساتنا هناك : قصر المنظمة ، الهلال الأحمر الفلسطينى ، مركز الابحاث الفلسطينى ، معهد التخطيط الفلسطينى ، كل مجالسنا المتخصصة فى الميادين الثقافية والاجتماعية

والاقتصادية . لقد كان الخروج من بيروت يعنى أن نترك كل هذا وراءنا ... وأن نبدأ من جديد ... لا لم يكن القرار سهلاً ... ولكن منذ بدأ شعبنا مسيرة مقاومته المسلحة لم يصادف قراراً سهلاً ... كل قراراتنا صعبة ... كلها مملوءة بالدماء والدموع .. كلها معمرة بالنار والشهداء والضحايا ... هذا هو قدرنا ... هذه هى ارادة الله والتاريخ ... لقد فرض علينا أن نحارب من أجل قضيتنا الفلسطينية ، ومن أجل كرامة أمتنا العربية . وصدقنى هذه ليست مجرد كلمات وليست مجرد شعارات ... لقد عشناها بكل قلوبنا وعقولنا وأرواحنا ... وحينما أقول لك ذلك فأنا لا أقوله لك من أحد كراسى العرش الملكية ولا من أحد قصور الرئاسة العربية ... أننى وغيرى نقولها وقد عشناها فى خنادق بيروت ... نقولها وقد رأينا الموت أمام عيوننا ومن حولنا ومن فوقنا عدة مرات كل يوم على مدى ثلاثة شهور . لا لم يكن قرار الخروج من بيروت سهلاً ... كما لم يكن قرار الخروج من الاردن سهلاً ... كما لم يكن قرار معارضة عبد الناصر ، وهو زعيمى ومثلى الأعلى ، حينما قبل مبادرة روجرز سهلاً ... كما لم يكن معارضة مصر الدولة عندما وقعت على كامب دافيد سهلاً ... لا ياأخى لم يكن قرار الخروج من بيروت سهلاً

• **كيف يرى أبو عمار الحاضر ؟**

« قواتنا الآن موزعة على عدة أقطار عربية : لبنان ، وسوريا ، والاردن ، واليمن العربية ، واليمن الديموقراطية ، والعراق ، والسودان ، والجزائر ، وتونس ... هذا يمثل لنا العديد من المشكلات : فى الاتصال والتنسيق ، المحافظة على الروح المعنوية للمقاتلين وأستمرار تدريبهم واستعدادهم القتالى ، وتوفير الخدمات لهم ولم شمل أسرهم وايجاد المساكن للمتزوجين منهم والمدارس لأطفالهم ، وعودة مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية إلى ممارسة نشاطها ... كل هذا هو جانب واحد من مشكلاتنا بعد الخروج من بيروت »

« هناك مشكلات شعبنا الذى يعيش فى المخيمات فى لبنان ... النساء والارامل والشيوخ والأطفال يعيشون فى رعب من حدوث مجازر جديدة تقوم بها قوات إسرائيل والكتائب ... معظم من بقوا فى الخيمات هدمت منازلهم ، وفقدوا من كانوا يعولونهم إما بالأستشهاد فى معارك بيروت ، أو الموت فى مذبحة صبرا وشاتيلا ، أو بالخروج من بيروت كمقاتلين الى أقطار بعيدة ، أو بالاسر فى سجون إسرائيل ، أو بالاعتقال بواسطة الكتائب والجيش اللبنانى . ولابد لنا كمنظمة أن نرعى شعبنا فى المخيمات بقدر مانستطيع »

« هناك مشكلات شعبنا فى ظل الاحتلال الاسرائيلى المستمر منذ ١٩٦٧ فى الضفة الغربية وقطاع غزة ... والعدو الاسرائيلى يشدد من قبضته على شعبنا هناك ، ويصعد من عمليات البطش والاضطهاد والاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم ... وقد زاد استشساد العدو بعد خروجنا

« ولكن هذه المشكلات جميعاً هي بالنسبة لنا **تحديات جديدة**... وقد نجحنا خلال بضع أسابيع بعد الخروج من بيروت فى مواجهتها ... لقد نجحنا فى توفير أماكن الأقامة والسكن والمدارس ولم شمل أسر المقاتلين بنسبة ثمانين فى المائة ... ونحن بصدد تحقيق العشرين فى المائة الأخيرة . لقد كانت مهمة هائلة وعسيرة . ولكننا أنجزنا القدر الأعظم منها . كذلك نجحنا فى اعادة تنظيم قواتنا داخل لبنان وفى الأقطار الثمانية الأخرى ... وهم الأن يمارسون التدريب بجدية اكبر مما كان عليه الأمر قبل حرب لبنان . لقد شهدت منذ أيام تخريج أول فوج من سلاح الجو الفلسطينى ... وقاموا بعرض جوى فى سماء أحد الأقطار العربية على طائرات الميج والميراج المتقدمة . وقواتنا فى لبنان تقوم بعمليات ضد قوات الاحتلال الاسرائيلية يوميا ... بل لقد صعدنا عملياتنا داخل إسرائيل نفسها ... وكل من يتابع الصحافة الاسرائيلية والعالمية يلحظ ذلك . كذلك عادت معظم مؤسسات منظمة التحرير الى استئناف عملها بأقوى مما كانت عليه قبل حرب لبنان : **وكالة الانباء الفلسطينية** (وفا) لم تتوقف عن عملها لحظة واحدة ، وقد نقلت مقرها الى دمشق . **مجلة فلسطين الثورة** عادت للصدور من قبرص **مجلة شئون فلسطينية ومركز الدراسات الفلسطينية ومركز التخطيط** الفلسطينى كلها استأنفت نشاطها فى بيروت ، وكذلك **الهلال الأحمر الفلسطينى . إذاعتنا مستمرة من بغداد** . كل وفودنا الى المؤتمرات الدولية لم تنقطع ولا حتى خلال الحرب اللبنانية وحصار بيروت . نجحنا فى ايجاد القنوات لغوث أسر الضحايا والشهداء والأسرى الفلسطينيين واللبنانيين من حلفائنا بمعدل ثلاثة آلاف ليرة لكل أسرة دفعة واحدة ، مع استمرار دفع مرتبات شهرية لأسر الشهداء والأسرى ، واعانه شهرية لكل اسرة فى المخيمات بمعدل ثلاثمائة ليرة ... إننا بكل هذا نرسل رسالة الى شعبنا الفلسطينى والى أمتنا العربية والى العالم اجمع ... **الرسالة هى أن ثورتنا لم تمت ، نضالنا لم يتوقف** » .

● **يأبا عمار هذه صورة وردية من الصعب تصديقها ... اليست لديكم مشكلات لم تتغلبوا عليها ؟**

« نعم لدينا ... لدينا الكثير ... ولكنى كنت فقط أتحدث عن الجبهة الفلسطينية المشكلات والانجازات فى جبهة واحدة هى جبهة شعبنا وثورتنا . أريد ان اؤكد للعالم أن ماظنت إسرائيل والولايات المتحدة وبعض المتواطئين العرب أنه انتهى فى بيروت قد ظهر مرة اخرى وبحيوية أعظم داخل لبنان وعلى اتساع الوطن العربى كله ... هل تعلم أننا قمنا بأكثر من ٣٦٠ عملية عسكرية ضد إسرائيل فى صيدا وصور والبقاع واسرائيل نفسها خلال الشهور الثلاثة التى أعقبت

خروجنا من بيروت ... وأن المصادر الرسمية الاسرائيلية نفسها اعترفت بموت أو جرح حوالى ٣٤٠ عسكريا إسرائيليا فى هذه العمليات .. ؟ ماأريد أن اقوله هو أننا بعد بيروت قمنا بهجوم على كل الجبهات ... **لقد كانت مقاومتنافى بيروت نصرا استراتيجيا ..وكان خروجنا هزيمة تكتيكية ...** وما نفعله الأن هو استكمال الانتصار الاستراتيجى بالعديد من الانجازات التكتيكية التى تعوضنا عن هزيمة الخروج التكتيكية »

• ماذا عن السلبيات الأخرى فى الموقف الراهن ؟

« السلبيات والهزائم ليست على الجبهة الفلسطينية ولكن على الجبهة العربية والعالمية :

– خلال شهرين سيكون هناك حوالى ٠٠٠ , ٣٠ من القوات المتعددة الجنسية فى لبنان ، أى اكثر من القوات المتعددة الجنسية فى سيناء . فاذا أضفنا قوات الاحتلال الاسرائيلى فى لبنان فمعنى ذلك أن الوطن العربى يشهد احتلالاً جديداً ... والمؤلم فى هذا أن عودة الاستعمار الغربى فى صورة احتلال عسكرى هذه المرة يتم برضائنا نحن العرب بل أحيانا بناء على الحاح من الأنظمة العربية التى تستجير من الرمضاء الاسرائيلية بالنار الغربية .

– حدث خلل استراتيجى كبير فى شرق البحر المتوسط لغير صالحنا كأمة عربية ولغير صالح السوفييت ، وقد قلت ذلك لقيادتهم الجديدة أثناء اشتراكى فى جنازة برجينيف .

– على المستوى العربى هناك تراجع سريع ومريع فى وجه الاجتياح الاسرائيلى ... وهو اجتياح نفسى اكثر منه عسكرى الى الأن . **إن التراجع العربى هو أشبه بالتسليم** .لقد أسقطت معظم الأنظمة العربية **الخيار العسكرى** ، أما صراحة أو ضمنا . هذا هو أخطر السلبيات .

– على المستوى الفلسطينى لدينا مشكلة مع الأنظمة العربية . بعضها متضايق لخروج المقاومة مرفوعة الهامة بعد قتال مشرف فى بيروت . لقد كانت مقاومتنا بمثابة احراج يومى لها . كانت هذه الأنظمة مثل إسرائيل والولايات المتحدة تريد لنا أن نموت جميعاً فى بيروت أو أن نستسلم ورؤوسنا فى الوحل . بعض السلاح الاستراتيجى الذى ارسله لنا الاتحاد السوفيتى والجزائر أثناء القتال . ومازال هذا السلاح محجوزاً أو مصادراً ، رغم أن قواتنا فى البقاع تحتاج اليه فى حالة معارك واسعة وكبيرة مع اسرائيل ، وهو أمر متوقع فى أى لحظة . بعض الأنظمة العربية تحاول أن تشق صفوفنا ، وأن تمارس علينا الوصاية ، وأن تمنع تحركنا السياسى والدبلوماسى وخاصة فى التنسيق مع الاردن ومصر . مشكلتنا مع بعض الانظمة لاتقل عن مشكلتنا مع إسرائيل والولايات المتحدة . الحكام العرب أصبحوا أشبه بملوك الطوائف ... يتصارعون معاً أو مع شعوبهم ، ويغفلون عن الخطر الاسرائيلى الأكبر الذى يوشك أن يقضى عليهم جميعاً » .

● ماذا عن المستقبل ياأبا عمار ؟

سألت هذا السؤال عدة مرات ... ولكن أبو عمار يريد أن يتحدث عن الماضى القريب ... عن حصار بيروت ، لقد كان من الواضح أنه يعتبر أيام الحصار هى أحد قمم المجد الفلسطينى . يا للغرابة لقد كنا نحن العرب خارج بيروت وخارج لبنان نعتبرها محنة مابعدها محنة ، ونكبة مابعدها نكبة .

« حربنا مع إسرائيل فى لبنان كانت أطول من كل حروب إسرائيل السابقة مع العرب مجتمعة . كان عبد الناصر - رحمه الله - يقول لى ياأبا عمار سأكون شاكرا وسعيداً إذا أستطاعت المقاومة الفلسطينية فى حالة الحرب أن تشغل لواء إسرائيليا واحداً . ليت عبد الناصر كان حيا يرزق لكى يشاهد المقاومة وهى تقف وتصمد وتدمر ثمانى فرق إسرائيلية (١٣٠ , ٠٠٠ جندى) مع الطيران والبحرية (٤٠,٠٠٠ اخرى) .

« عددنا لم يكن يتجاوز عشرة آلاف مع حلفائنا ، ولكنا صمدنا فى جه ١٧٠,٠٠٠ إسرائيلى وحلفائهم من الكتائب . آه ليت عبد الناصر كان حيا . كنت أفكر فيه وأفكر فى مصر طول الوقت ، كنت أفكر فى مصر عبد الناصر ... ماذا كان عساها أن تفعل ؟ لقد كانت تلك أيام مجدنا ... وكنت كالطفل الذى يناجى روح أبيه كنت أناجى روح عبد الناصر وأقول له ليتك يا أبى وزعيمى تبعث حيا لترى إخوتك وأبناءك ومريديك وهم يدافعون عن شرف الأمة ... ليتك تبعث حيا لترى كيف أوقعنا بهم اكثر من عشرين الف ضحية ين قتيل وجريح ... وكيف شهد جيش إسرائيل لأول مرة فى تاريخة اكثر من أربعة آلاف حالة فرار ، وأكثر من الف حالة تمرد ورفض للذهاب الى الجبهة ، وحوالى ٧٥٠ حالة صرع وانهيار نفسى ... هذه هى ارقام إسرائيلية وليست مبالغات عربية »

● ماذا عن المستقبل ياأبا عمار ؟

« المستقبل رأيته فى بيروت تحت الحصار . رأيته يوم الأحد الأسود ١ / ٨ / ١٩٨٢ وهم يحاولون الأجهاز على وعلى كل القيادات الفلسطينية بغارات لم تتوقف وتستهدف البنايات التى كنت اتردد عليها أو أنام فيها ... يوم استخدموا القنابل الفراغية والصواريخ التى تخترق الأرض الى مدى خمسين مترا لتقوض المبانى من أساسها ولا تترك فرصة لأفلات أى إنسان فى هذه البنايات من الموت . المستقبل رايته فى بيروت فى أعنف هجوم إسرائيلى يوم ٤ / ٨ / ١٩٨٢ : ٤٦٥ طائرة تهاجم المدينة بالقنابل الصورايخ فى اكثر من ١٢٠٠ طلعة ، واكثر من ٣٠ , ٠٠٠ جندى وضابط يحاولون اقتحام بيروت الغربية بالدبابات والمصفحات فى منطقة المتحف . فى ذلك اليوم فقدنا

ستمائة مدنى من الفلسطينيين واللبنانيين . وأحسست أن اجلى قد قرب وأنا أقود قواتى فى قتال مستمر لمدة إثنى عشرة ساعة وأنا فى قمة السعادة . لقد فقدنا أربعين مقاتلاً فى ذلك اليوم ... وتقدم العدو عشرة أمتار »

● ماذا عن المستقبل ياأبا عمار ؟

« ذلك هو المستقبل ... إيمانى بشعبى وبعدالة قضيتى ترسخ أضعافاً مضاعفة يومى ١ و ٤ آغسطس ١٩٨٢ . لقد ايقنت لماذا صمد شعبى كل هذه السنوات منذ اقتلع من أرضه فى ١٩٤٨ . لقد أيقنت لماذا ستعيش الثورة الفلسطينية حتى النصر . لقد ولدت من جديد يومى ١ و ٤ أغسطس ١٩٨٢ . إن شعبا بهذه الصلابة هو الذى جعلنى اخرج من بيروت وعلى وجهى إبتسامة الواثق . لم تكن إبتسامتى لمجرد المكابرة أو من أجل كاميرات وسائل الاعلام الأجنبية . أجل كانت إبتسامة الرضا والثقة بأن شعبا هذا معدنه لن ينهزم أبداً . إن ماحدث فى صبرا وشاتيلا بعد ذلك بأيام كان إنتقاماً إسرائيليا جباناً لما حدث أثناء معركة بيروت . لقد كان شارون وجنرالاته يعون جيداً مدى الاذلال الذى لقوه فى بيروت على أيدينا ... لذلك كان لابد أن ينتقموا من المدنيين العزل ... كان لابد أن يقتلوا ويذبحوا نساءنا الذين يلدون الأبطال بلا انقطاع . ولكن الذى فات شارون هو أن هناك مزيداً من الامهات الفلسطينيات ... وأن سيل المقاتلين لن ينقطع ... ونهر الشهداء لن يجف ... أن شارون لابد أن يصاب بالجنون إن آجلًا أو عاجلاً ... لقد كان لديه كل شيء : السلاح والرجال والمال والطعام بأضعاف أضعاف ماكان لدينا ... وكنا نحن فى المصيدة ... ومع ذلك فشل فى أن يجهز علينا ... بل وفقد أكثر مما فقدنا من مقاتلين ... وخرجنا نحن من المصيدة ... وهو يعرف أننا سنلقاه مرة أخرى ... هذا هو المستقبل »

● ياأبا عمار هذا كلام عام وحماسى وعاطفى ... وهو مايزال كلاماً عن الماضى .. كيف ترى مستقبلكم ... كيف ترى مستقبل الصراع العربى الاسرائيلى ؟

« مستقبلنا نحن الفلسطينين هو مزيد من التضحية والفداء ... مزيد من الدموع والدماء ... مزيد من التشرد والاقتلاع . ومع ذلك فمستقبلنا هو مزيد من التصميم والصمود . ليس لدينا مانخسره الا القيود والهوان . أما بقية الوطن العربى فلديه الكثير الذى ربما يخسره فى المستقبل القريب – طالما ظل ملوك الطوائف يحكمون ويتسلطون ويتشاجرون ويلهون . المستقبل العربى القريب بدون مصر هو مستقبل حالك الظلمة »

● ماذا عن مصر ؟ وكيف للعرب أن يسترجعوا مصر ؟

وعاد ياسر عرفات يتحدث عن حصار بيروت . عاد يتحدث عن الماضى القريب

« لقد كنت أقود المعركة فى بيروت وأذنى على مصر ، وعقلى فى مصر ، وقلبى يخفق لنبض مصر ، كنت أشعر فى قرارة نفسى أن شعب مصر معى بقلبه وعقله »

• وماذا عن مصر بعد الخروج من بيروت ؟ ماذا ترجو منها فى المستقبل ؟

« من حيث الرجاء فانى أرجو منها الكثير ... وما أرجوه ليس شروطاً كما صور البعض للرئيس مبارك . ما أرجوه من مصر هو أن تعود الى مقعد الصدارة فى أمتها العربية ... تعود لتمتطى صهوة الجواد فى مقدمة الصفوف ، بدون مصر لم يستطع أحداً أن يقود ... وبدون مصر لن يستطيع أحداً أن يقود ، مصر بشعبها المتجانس ، بمؤسساتها العتيدة ، بتقاليدها الراسخة ، بحسها التاريخى ، بثقلها السكانى والاستراتيجى هى التى تستطيع أن تقود . **مصر بمواردها المحدودة أكثر من الاقزام بمواردهم الفياضة .. مصر بفقرها اكثر كرماً من كل أغنياء أمتنا العربية »**

• هذا كلام رائع يجعلنى أشعر بالفخر والحياء كمصرى ، يأأبا عمار ، ولكن مايزال الكلام فضفاضاً . ماذا عن المستقبل بالتحديد ؟ ما العمل ؟

« آه تريدنى أن أتحدث عن برنامج ... عن استراتيجية . طبعاً أنا أفكر فى ذلك كل دقيقة ... لا بأس . الهدف الملح هو وقف التدهور والتراجع العربى فى مواجهة الغزوة الاسرائيلية الجامحة . كيف نفعل ذلك ؟ مصر ومنظمة التحرير والاردن والسعودية والجزائر والعراق معاً يمكن أن يقلبوا المعادلة لصالح الأمة العربية . سيقلبونها نفسيا فى البداية ... مصر والمنظمة يساندهم الأخرين .. مجرد إجتماعهم ... مجرد تضامنهم المعنوى سيعيد الثقة فى النفس العربية ... ليس مطلوباً الآن وفى المستقبل القريب أن نشن حرباً على إسرائيل ... فقط مطلوب أن نقف سويا فى خندق دفاعى واحد ... فقط مطلوب أن يسترجع العرب الآخرون الأمل والتفاؤل وروح المقاومة . هذا فى حد ذاته سيكون إنجازاً عظيماً ... مجرد عودة مصر للعرب وعودة العرب لمصر سيزرع الأمل من جديد . نحن لانريد توريط مصر ... كل من يطلب من مصر أن تلغى كامب دافيد الآن والتوازن الاستراتيجى بينها وبين إسرائيل بهذا الاختلال المريع لصالح إسرائيل يريد نكبة أخرى للأمة العربية ... لا ليس هذا مانريده من مبارك الآن . فقط نريد منه ومن مصر أن يتسلما زمام القيادة ، ويتصرفا بروح المسئولية القومية ، بروح مصر الخالدة » .

• هل يمكن أن تكون اكثر تحديداً ؟

« أطالب مصر ألا تتنكر لمبادئها ، وألا تتنازل عن قيادتها للأمة العربية ... أريد من مصر

أن تصدر إعلان مبادىء فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية يؤكد حق شعبنا فى تقرير مصيره ، وفى إقامة دولته ، وبأن منظمة التحرير هى ممثلته الشرعية . هذه مبادىء أعلنتها مصر فى سنوات سابقة ، فى ظل عبد الناصر ، وفى ظل السادات ... فقط أريد تأكيدا لها من الرئيس مبارك . ليس لى شروط أخرى . وبمجرد إعلان مبارك لتأكيد . هذه المبادىء سأضع يدى فى يده ، وسأسير معه الى أبعد شوط فى إستنفاذ كل بدائل تسوية الصراع سلميا » .

« وكما أننى حريص على عدم احراج مصر ومطالبتها بالغاء كامب دافيد الآن ، فاننى أرجو من الرئيس مبارك الا يحرجني ويطلب منى الاعتراف بإسرائيل من طرف واحد . فحتى دول أوربا الغربية لم تطالبنى بذلك . أريد من مصر أن تحمى ظهرى من الذئاب الصهيونية ومن الكلاب العربية . وحمايتها لظهرى فى هذه المرحلة لاتتطلب اكثر من إعلان المبادىء » .

« اطالب مصر أن تعود الى مقعد القيادة الذى فشل كل الأدعياء فى أن يملأوه . عودة مصر لن يحرجها مع أمريكا ، بل سيقوى مركزها التفاوضى . ولن يحرجها مع إسرائيل بل سيضاعف قدرتها الضاغطة . ولن يؤثر على ماتتلقاه مصر من مساعدات اقتصادية من الخارج ... واذا نقصت هذه المساعدات دولاراً واحداً ، فليتأكد الرئيس مبارك أنه سيحصل على أربعة دولارات . الذين يدفعون لسوريا ٢ مليار سنويا ، سيدفعون لمصر ٤ مليار سنويا . ليعرف الرئيس مبارك أن زيارة بطرس غالى وأسامة الباز إلى بيروت منذ عدة أسابيع قد أحدثت انتعاشاً هائلاً فى الشارع الوطنى اللبنانى ... ولك أن تتصور قدر الانتعاش فى الشارع العربى كله اذا خطت مصر نحونا خطوة . اذا كان أمين الجميل قد حظى بخطوة مصرية ، الا يستحق الشعب الفلسطينى خطوة مماثلة ؟ ألا يستحق الذين حاربوا وأستشهدوا ، وتشردوا ، دفاعاً عن أنفسهم وعن شرف الأمة العربية ، احتضان مصر لهم ؟ »

● نعم ... نعم يا أبا عمار يستحقون ألف خطوة نحوهم من مصر ... يستحقون ماهو اكثر من الاحتضان .

فى صبرا وشاتيلا

من اللقاء مع المقاتلين الفلسطينين فى تونس ، وبعد الحديث الطويل مع ياسر عرفات فى مقره الجديد قرب العاصمة التونسية فى فندق سلوى ، توجهت الى بيروت اللبنانية . حينما هبطت الطائرة بعد ثلاث ساعات من الطيران ، شعرت بقلبى يتثاقل . لقد كانت ستة أشهر قد مضت منذ أخر زيارة ، بيروت . فى تلك الشهور الستة حدث لبيروت وللبنان وللوطن العربى وللعالم أشياء كثيرة . لقد تركتها فى أخر زيارة فى ابريل ١٩٨٢ وهى مدينة عربية : بسكانها ، وبمزاجها ، وبفوضى الحرب الأهلية بين فرقها العربية المتناحرة، بوجود فلسطينى مكثف فى الجزء الغربى . منها وهاأنا أدخلها بعد أن شهدت حرباً ضارية خلال « الصيف الحزين » ، وبعد أن خرجت المقاومة الفلسطينية المسلحة منها ، وبعد أن وطأتها أقدام الغزاة الاسرائيلين ، وبعد أن نزع سلاح الحركة الوطنية اللبنانية ، وبعد إنتخاب رئيسين لبنانيين ، وبعد دخول وخروج ودخول القوات المتعددة الجنسية (من أمريكا وفرنسا وايطاليا) ، وبعد مذابح مخيمى صبرا وشاتيلا على أيدى القوات « الاسرائيلية — الكتائبية » المشتركة .

ماذا عساى أن أجده وأحس به بعد أن تغير ميزان القوى فى بيروت ولبنان والشرق الأوسط والعالم خلال الشهور الستة الماضية ؟

كان هذا هو السؤال الذى بدأت به حينما غادرت الطائرة مطار قرطاج — تونس الدولى ، وأزداد الحاح السؤال كلما أقتربت بنا الطائرة من مطار بيروت الدولى . وفى الطريق من الطائرة الى مبنى المطار ، والى خارجه ، والى الفندق، وطوال الأيام الأربعة التالية ظل هذا السؤال هو محور كل شىء تقع عليه عيناى ، وتسمعه أذناى ، تحركت فى بيروت ، شرقها وغربها . وتحدثت مع لبنانيين وفلسطينيين وعرب أخرين ، ومع أجانب من جنسيات عديدة ، ومع أطفال وشيوخ ورجال ونساء .

---

* الأهرام الاقتصادى ، ١٩٨٣/١/٢٤

كنت أريد أن أستكمل الصورة التى بدأت خيوطها منذ بدأ وعيى يتفتح على المسألة الفلسطينية ، وعلى أبعادها العربية والدولية ، وعلى جدليتها المعقدة التى تتداخل فيها الاعتبارات الانسانية والسياسية ، والاعتبارات الفردية والجيوبوليتيكية . ماحدث فى الشهور الستة الماضية هو فصل واحد فى الدراما المستمرة ، ولكنه يمثل « نقله كيفية » فى خطوط وأضواء وظلال الصورة الأكبر . فى هذه « النقلة الكيفية » تتعدد الخيوط بكثافة مهولة ، وتتقاطع وتتشابك ، وتتوازى حينا وتتماس حينا آخر ، ويختفى بعضها فجأة ثم يظهر فجأة، فى ركن آخر فى أحد أركان الصورة. إن النظر إليها يصيب المرء بالدوار ، ومحاولة فهمها تتحدى كل منطق ، ومحاولة النفاذ الى داخلها ومعايشتها وجوديا يضغط على جهازه العصبى ضغطا هائلاً . ففى هذا كله تختلط مشاعر الغضب بمشاعر الأسى ، وتختلط مشاعر اليأس بمشاعر الأمل ، خلال نفس الساعة ، وأحيانا خلال نفس الدقيقة .

من مستشفى غزة الى المقبرة الجماعية

الذى يجسم الصورة المعقدة ، لبيروت ولبنان والوطن العربى والعالم ، هو **مخيمى صبرا وشاتيلا** ، ففى رقعة لا تتجاوز مساحتها كيلو متر مربع فى أحد أركان بيروت بنى اللاجئون الفلسطينيون مخيما مؤقتا لهم بعد الاقتلاع الأول من وطنهم عام ١٩٤٨ . كانت البداية بضعة آلاف من فلاحى الجليل الأعلى وشمال فلسطين ، ومجموعة من الخيام لتأويهم عدة أسابيع ، أو عدة شهور على الأكثر ، الى أن تسترد لهم الجيوش العربية والأمم المتحدة ديارهم وحقولهم ، فيعودوا ويستأنفوا حياتهم ككل الآدميين فى كل العالم .

ومضت شهور ، وطالت الى سنة ، ثم سنة أخرى ، ثم ثالثة ، ثم عاشرة ، ثم عشرين ، ثم ثلاثين ثم أربع وثلاثين .

وتحولت الخيام الى عشش واكواخ ، ثم الى منازل مؤقتة ، ثم تحول بعضها الى منازل دائمة . وخلقت شوارع غير منتظمة ، وحوارى عشوائية وفتحت محلات ودكاكين صغيرة ليبتاع منها اللاجئون سلعهم الضرورية . وأنشأت بعض المدارس ليذهب اليها أطفالهم ، ومستشفيات مؤقته ليذهب إليها مرضاهم .

وتكاثر سكان صبرا وشاتيلا : من عشرة آلاف ، الى عشرين ، الى أربعين ، ثم الى ستين ألفا . ولم يعد الكيلو متر المربع ملجأ مؤقتا ثم دائما للفلسطينين وحدهم . بل أصبح على مر السنين ملجأ للاجئين اللبنانيين والأكراد والأرمن ، وللفقراء والمعذبين فى كل البقاع العربية القريبة

من لبنان . فيه سوريون واردنيون وعراقيون وحتى مصريون . فعلى ناصية الشارع الرئيسى الذى يصل بين صبرا وشاتيلا يوجد أشهر مطعم للفول والطعمية ، ويحمل اسم « المطعم المصرى » ، وصاحبه مصرى ، ويعيش كعشرات من المصريين الأخرين فى مخيمى صبرا وشاتيلا منذ اوائل السبعينات .

المخيمان — إذن — أصبحا يمثلان مأوى مؤقتا ، ثم دائما ، للآلاف من العرب اللذين اقتلعوا من أراضيهم فى وطنهم الأصلى فلسطين ، أو اللذين هربوا من الفقر أو البطش أو ضاقت بهم سبل الحياة فى أوطان عربية أخرى . بعض من ضاقت بهم أرض العرب الواسعة ، التى تزيد رقعتها عن عشرة ملايين كيلو متر مربع ، وجدوا المأوى والملجأ فى هذا الكيلو متر المربع الواحد ، شاركوا فيه أخوتهم اللاجئين الفلسطينيين الحياة ، ثم شاركوهم فيه الموت .

الأغلبية ، فى صبرا وشاتيلا ، مع ذلك ماتزال فلسطينية ، حوالى سبعين فى المائة . والوجوه ، واللهجة ، وطابع الحياة ، ماتزال فى معظمها فلسطينية . ولكن الرموز ، والآمال ، والآلام عربية . صور عبد الناصر واسمه تملأ المكان ، وكذا صور ياسر عرفات وزعماء المقاومة والشهداء . أسماء القاهرة وبغداد والاسكندرية والجزائر ودمشق تطلق على أسماء الشوارع والحوارى والمحلات ، مع أسماء القدس وغزة ونابلس وعكا ويافا وحيفا .

الشوارع الرئيسية (شارعين بالتحديد) مليئة بالناس والحركة . وأصوات الراديوهات والمسجلات تدوى بأغانى أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم ونجاة . وقد أصابتنى الدهشة لهذا النشاط والحيوية ، والناس يجيئون ويذهبون ، عندما دخلت المنطقة فى بداية شارعها الرئيسى الذى يتقاطع مع أحد شوارع بيروت الرئيسية . الحياة لأول وهلة تبدو طبيعية . الشىء الوحيد الملفت للنظر هو كثرة الأعلام اللبنانية ، التى تتوسطها شجرة الارز ، وصور أمين الجميل الملصقة على الجدران الخارجية لمبانى صبرا وشاتيلا . ومن نظافتها ونصاعة الوانها يدرك المراقب أنها الصقت حديثا ، بينما تبدو صور عبد الناصر وياسر عرفات باهته نوعا ما ، أو طالها سواد الدخان ، أو محاولة نزع جزء منها أو تشويهها . كما يلفت النظر وجود عدد من العربات المصفحة التى تحمل العلم الفرنسى ويلتفت حولها أو يجلس فوقها عدد من الجنود الفرنسيين ، يلعب بالقرب منهم عشرات الأطفال الفلسطينيين .

بدأت رحلة سيرى على الأقدام من مستشفى غزة فى بداية المخيمين من ناحية حى الجامعة العربية (وهى جامعة مصرية فرع لجامعة الاسكندرية) الى نهاية مخيم صبرا فى الجهة المواجهة للسفارة الكويتية . عند تلك النهاية ، يوجد علم أسود مغروز فى الأرض ، يتوسط دائرة قطرها حوالى خمسين مترا ، وتنخفض عن مستوى الأرض المحيطة بها حوالى عشرين سنتمترا .

وبالقرب منها حارس فرنسي يجلس على كرسي فى الشمس ، ويخبر الزوار بأن تلك البقعة من الأرض هى «المقبرة الجماعية». تلك هى البقعة التى حفرتها البلدوزرات الاسرائيلية على عجل لكى تدفن فيها ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا التى ارتكبوها بمشاركة حلفائهم الكتائبيين . كان هدفهم أن يخفوا معالم الجريمة بأن يهيلوا التراب بسرعة على من يتم رمى جثثهم فيها ، ثم ينشأوا فيها نقطة مراقبة محاطة بالاسلاك الشائكة . تحت هذه البقعة – إذن – ترقد اشلاء عدة مئات من الشيوخ والرجال والنساء الفلسطينيين واللبنانيين والمصريين والسوريين والأردنيين والأكراد من الذين كانوا يسكنون هذا الكيلو متر المربع . وكما كانوا يزدحمون فى سنوات حياتهم الأخيرة بعد إقتلاعهم أو نفيهم من أوطانهم العربية ، فإنهم يتزاحمون فى مماتهم فى هذه المقبرة الجماعية الصغيرة .

لقد قطعت رحلة الكيلو متر من مستشفى غزة الى المقبرة الجماعية فى يوم كامل . بدأت الرحلة مع شروق الشمس ، وأنتهت مع غروبها . مستشفى غزة هو مستشفى متخصص فى الولادة ، وقد شهد على مر السنوات الثلاثين الأخيرة بدء الحياة لآلاف من الفلسطينين . وعلى بعد ألف متر أنتهت الحياة للمئات منهم ، حيث استقرت أجسادهم وأحلامهم فى حفرة عميقة ، ومعهم عرب أخرين ولدوا ربما فى مستشفيات القاهرة أو دمشق أو بغداد ، وأنتهت حياتهم وأحلامهم أيضا فى نفس الحفرة العميقة .

● **متى بدأت رحلة الكيلو متر بين الحياة والموت ؟**

هل بدأت مع وعد بلفور (١٩١٧) ؟ هل بدأت مع دير ياسين (١٩٤٨) ؟ هل بدأت مع هزيمة يونيو (١٩٦٧) ؟ هل بدأت مع أيلول الأسود (١٩٧٠) ؟ أم هل بدأت مع محادثات علامة كليو متر أخر وهو الكيلو متر ١٠١ (١٩٧٣) ؟ أم مع الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥) ؟ أم مع رحلة السادات إلى القدس (١٩٧٧) ؟ أم مع كامب دافيد (١٩٧٨) ؟ أين بدأت رحلة الكيلو متر الواحد بين الحياة والموت ، بين الأمل واليأس فى صبرا وشاتيلا ؟ .

كانت الأسئلة تتدافع وتكاد تخترق الرأس عن أين بدأت رحلة الكيلو متر الواحد . إنها رحلة يوم واحد على الأقدام ، ولكنها رحلة خمس وستين سنة مع التاريخ . رحلة تقلبت فيها الأحوال والصداقات ، والعداوات ، والحكام . ولكن ظل فيها الشعب الفلسطينى يدفع ثمنا باهظاً لحماية حقه فى الوجود ، ويبذل من دمه جيلا بعد جيل قربانا لشرف الأمة العربية ، وتكفيرا عن آثام وأوزار حكام هذه الأمة .

● **أم ماجد وحفيدها سهيل**

فى أحد حوارى صبرا صادفت عجوزا تطارد طفلاً ، وتحاول الامساك به ، وتصبح منادية عليه باسمه « سهيل ... سهيل » . حينما أوشكت على اللحاق به أمسك الطفل بى مختفيا وراء ظهرى . أتضح من الموقف ومن تبادل عدة كلمات بينهما أن السيدة العجوز هى جدته ... وأن سهيل ، الذى لم يتجاوز السادسة من عمره ، يمعن فى أخذ نقودها بلا استئذان ويذهب لشراء الحلوى واللعب . حاولت أن اتوسط بينهما ... استنتجت من حديثى أننى مصرى . وحينما تأكدت من استنتاجها قالت لى بصوت عال « والله حينما أرى الرئيس مبارك فسأقول له .... » وبدأت تسرد قائمة طويلة من الانتقادات والطلبات :

« كيف يترك ريجان يخدع أبو عمار ؟ كيف يتركنا هنا بلا بطاطين أو غذاء ؟ كيف يتركنا هنا تحت رحمة الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة ؟ ألا يعرف ماحدث لنا ؟ .... »

وعلت وجهى إبتسامة لعفوية هذه العجوز ، وتدفق مطالبها بلا ترتيب ، وبلا سفسطة . وباغتتنى باستنكار « لماذا تبتسم » ؟ . وفجأة أختفت الابتسامة . وسألتها بجدية : هل تعرفين مبارك شخصيا ؟ قالت « لا ... ولكن حينما أراه فسأقول له كذا .. وكذا » . وسألتها ثانية وأنا أصارع الابتسام ومتى وأين سترين مبارك لتقولى له كل هذه الأشياء ؟ . ولأول مرة أصابها صمت مفاجىء ، ونظرت بإمعان ، ثم استدارت الى حفيدها سهيل تحاول جذبه من يده ، بينما هو متشبث بذراعه الأخرى حول ساقى . وقمت أنا باستغلال صمتها لألقى عليها سيلاً من الأسئلة :

« لماذا مبارك ... وليس فهد أو الأسد أو صدام ؟ لماذا مصر وليس غيرها من البلاد العربية الأخرى ؟

وعاودت العجوز الكلام محاولة الاجابة « لأن الأخرين كلهم عكاريت ... ولا أمل منهم أو فيهم ... » واستخدمت الفاظا قاسية ، لايمكن تسجيلها فى هذه المجلة المحترمة ! .

سهيل كان يريد للحوار بينى وبين جدته أن يطول ... حتى تنسى ما فعله . وأصر الطفل على أن يجرنى معه . ودعتنى السيدة العجوز الى « مسكنها » بعد أن لا حظت أن جمعا من الأطفال والنساء بدأ يحيط بنا فى الحارة الضيقة . وقبلت دعوتها .

العجوز إسمها « أم ماجد » .. وهى فى حوالى الخامسة والستين من عمرها . ولدت فى أحد القرى القريبة من عكا ... وتزوجت فى سن السادسة عشر ... وتركت فلسطين مع زوجها وطفلين بعد أن قتل أبوها فى أوائل ١٩٤٨ . جاءوا من فلسطين مشيا على الأقدام الى جنوب لبنان . أستقرت فى « عين الحلوة » لعدة أسابيع ، ثم انتقلوا الى « تل الزعتر قرب بيروت » بعد

ذلك . أنجبت طفلين أخرين فى لبنان ، أحدهما فتاة . فقدت ابنها الأكبر ماجد الذى استشهد فى الاردن خلال أحداث أيلول الأسود عام ١٩٧٠ . ابنها الثانى تعلم فى مدارس وكالة الغوث ، ثم ذهب الى مصر حيث حصل على بكالوريوس الهندسة من جامعة القاهرة فى أوائل السبعينات . وهو يعمل الأن مهندسا فى أبو ظبى ، ويرسل لهم بعض المال كل شهر . أبنها الثالث كان يحارب مع المقاومة فى الجنوب ... ولا تعلم أن كان قد أستشهد أو وقع فى الأسر الاسرائيلى . بنتها هى أم الطفل سهيل . وقد قتلت فى مذبحة صبرا وشاتيلا ، كما قتل زوجها « أبو ماجد » فى نفس المذبحة . هى فقط وحفيدها سهيل يعيشان فى المخيم .

أم ماجد تعرف الكثير عن مصر من خلال ابنها الذى تعلم هناك ... والذى يحب مصر ويكثر الحديث عنها . ورغم أنها أمية الا انها متدفقة بكلماتها ومشاعرها ، وبصراحتها القروية ، وقوة شخصيتها . ورغم سنها المتقدم الا أنها لا تكف عن الحركة . ففى خلال دقائق كانت قد أعدت الشاى ... ولم أكد أنتهى من الشاى ، حتى كانت تعد وجبة غذاء من البيض المقلى والمخلل ، وهى لا تكف عن الحديث . أشياء كثيرة قالتها أم ماجد :

« إنك أول عربى من خارج لبنان يأتى الينا منذ غزتنا إسرائيل ... أين بقية العرب .. ؟ إن الاجانب يأتون ليروا أحوالنا ويكتبوا عن محنتنا ، وخاصة بعد المجزرة »

«منذ خمس وعشرون سنة ... وقد كنت أكثر صحة وقوة ... كنت أطوف على بقية سكان المخيم لأجمع تبرعات للثورة الجزائرية لتحارب فرنسا ... أنظر الآن إلى شوارع المخيم . أن الذى يحمينا من مجزرة أخرى هم الجنود الفرنساوية ... إنهم إذا غابوا ساعة ، وهم يغيرون دوريات الحراسة ، يسود المخيم الخوف والذعر من حدوث مجزرة أخرى .. الفرنساوية اللذين كنا نحاربهم من ثلاثين سنة ... هم اللذين يحمونا الآن من ، ومن ممن ؟ من أخواننا العرب من الكتائب ، من سعد حداد ، من الجيش اللبنانى ...» .

« الله يرحمك ياسادات ... صحيح صلحك مع إسرائيل كان السبب فى أنها شطحت ومرحت فى لبنان ... وتسلطت على الفلسطينيين اكثر واكثر ... ولكن تظل ياسادات اشرف من غيرك ... على الأقل كنت صريحا معنا ولم تخدعنا ... ولم تدعى أنك ستصمد وستتصدى مثلما فعل الأسد والقذافى وصدام ... وحينما جاءت ساعة الجد لم يتصدوا .. وتركونا نواجه الموت وحدنا »

« أنا عاتبه على أبو عمار ... وحينما أراه سأشد أذنيه ! لماذا خرج من بيروت ؟ لماذا صدق وعود أمريكا أننا فى المخيمات سنكون آمنين بعد خروج المقاومة ؟ الم تخدعنا أمريكا بدل

المرة خمسين ؟ لماذا صدقها ؟ ... كان أشرف لنا أن نموت ونحن نقاتل ... انني لم أحزن على ولدى اللذين استشهد وهما يقاتلان بقدر ماحزنت على زوجى وابنتى اللذين ماتا غدراً... اذا كان لنا أن نموت فلنمت ونحن نحارب بدلاً أن نموت فطيس على أيدى الجزارين الجبناء . انا لست متعلمة ولست سياسية مثل أبو عمار ... ولكنى أعرف أن الفرق كبير بين أن يكون السلاح فى يدى وادافع عن نفسى بنفسى وبين أن اسلم سلاحى واترك للأخرين مصيرى يتحكمون فيه . كيف لم يع أبو عمار هذه الحقيقة ؟ كيف سمح لنفسه أن يخدعه ريجان ؟ وكيف صدق باقى الحكام العرب وعود ريجان ؟ »

« لا ... ليس لدى أمل فى العودة الى عكا ... أنا عجوزه وقد قاربت سن الموت ... ومن يدرى قد تأتى قوات سعد حداد وتقضى علينا فى أى لحظة؟ وستمر سنوات قبل أن ينصلح حال العرب . ولكن عندى أمل أن يعود سهيل حفيدى الى فلسطين يوما ما »

« أرجوك أن تمر على السفارة الكويتية ... على بعد مائة متر من هنا .. لقد ذهبت أنا منذ اسبوعين لأ تحدث مع السفير .. ولكن الحراس منعونى ... اذهب أنت وقل له أم ماجد وسكان المخيمات يطلبون أن يحضر لنا بطاطين ... البرد قارص ... والبيوت كما ترى بلا أبواب أو شبابيك ... وبعضها بلا سقوف ... قل له فقط نحتاج الى عشرة آلاف بطانية أو أى شىء يخرج من ذمتهم ... الأمر لا يحتاج الى اكثر من نصف مليون ليرة واثنين موظفين وسيارة لكى يقوما بشرائهاوتوزيعها علينا ... دون لف ودوران على أمم متحدة أو جامعة عربية أو لجنة سباعية أو تساعية ... نريد بطاطين ... »

لمدة ساعتين ظلت أم ماجد تتكلم ... وأنا أسمع ... وغفا سهيل فى النوم على حجرها ... وخرجت من منزلها ... وسرت على أقدامى عائدا الى الفندق ... وتوقفت برهة أمام مستشفى غزة ... كانت كلماتها ماتزال تدوى وتدور فى رأسى

« كنت وأنا قوية فى صحتى أطوف وأجمع تبرعات للثورة الجزائرية لتحارب فرنسا ... والأن الفرنساوية هم الذين يحمونا ... ومن ممن ؟ من أخواتا العرب .. من الكتائب .. من سعد حداد .. ومن الجيش اللبنانى »

وقلت لنفسى يالها من مفارقة ... وما اكثر المفارقات المريرة فى وطننا العربى ... هكذا فى خمس وعشرين سنة ... وفى حياة جيل واحد أنتقلنا من مرحلة النضال ضد الاستعمار الغربى ... وبعد أن طردناه .. هانحن ندعوه مرة أخرى فى شكل قوات متعددة الجنسية لكى يأتى

الى ديارنا .. لكى يحمينا ... لا من اسرائيل وحدها ... وإنما من بعضنا البعض .

ما أبلغ أم ماجد ... وما أصدقها ... لقد لخصت المحنة الفلسطينية .. بل المحنة العربية كلها فى كلمات قليلة .

ودوت كلمات أخرى فى رأسى :

« لا لاأمل لى فى العودة الى عكا ... ولكن عندى أمل أن يعود سهيل حفيدى الى فلسطين يوما ما »

وقطع على فى تأملاتى هذه صوت ينبعث من داخل مستشفى غزة ، الذى كنت ماأزال أقف أمامه . أنه صوت وليد فلسطينى جديد .

الفصل السادس

مصر والعرب
من الحصاد المر
إلى محاولة زرع الأمل

- □ نحو مصالحة عربية
- □ نزار قبانى والمصالحة العربية
- □ رسائل الى الغافلين فى الوطن العربى
- □ المشروع العام والمشروعات الخاصة فى الوطن العربى
- □ عودة الوعى مرة أخرى إلى توفيق الحكيم
- □ المعادلات الصعبة فى التكامل المصرى السودانى
- □ مبارك فى الهند : من التبعية الى عدم الانحياز
- □ عودة مصر للوطن العربى : أى مصر .. أى وطن عربى .. أى عودة ؟

نحـو مصالحة عربية *

لاحت فى أجواء الوطن العربى منذ بداية هذا العام نسمات معتدلة تدعو للمصالحة بين مصر وشقيقاتها العربيات . مع تفاقم الاوضاع الاقليمية فى لبنان وعلى الحدودبين العراق وايران ، وعلى الحدود بين السودان وليبيا وتشاد ، والحدود بين سوريا والاردن ، ومع مسألة الصواريخ السورية فى لبنان ــ تحولت نسمة الدعوة لمصالحة عربية الى تيار . وبعد الغارة الاسرائيلية على المفاعل النووى العراق ، يكاد يتحول التيار الى أعصار . فقد تزايد اليقين بين الجماهير العربية فى مصر وخارجها بالنكبات التى تحيق بالوطن العربى من جراء عزل مصر أو عزلتها عن محيطها العضوى . فمصر بالنسبة للجسم العربى الكبير هى بمثابة جهازه العصبى ، وأى انفصال بينهما هو ضد طبائع الأشياء الجيوبوليتيكية فى هذه المنطقة من العالم . فالجسم العربى بلا جهاز عصبى يتحول الى جسد شبه هامد مهما كانت ضخامته . والجهاز العصبى بلا جسم يحتويه يعجز بدوره عن ممارسة وظائفه فى الرصد والضبط والتحرك مهما كانت كفاءته الذاتية . من هذا اليقين لدى الجماهير قبل الحكام تحولت النسمة الربيعية الرقيقة للمصالحة الى صيفية ساخنة تلسع بلهيبها كل الوجوه العربية .

ما الذى ضربته إسرائيل فى بغداد ؟

ان الغارة الاسرائيلية التى دمرت المفاعل النووى العراق قرب بغداد فى يونيو ١٩٨١ كانت بمثابة الصدمة الدرامية المروعة لكل العرب من المحيط الى الخليج . لقد كان هذا العمل العدوانى يطفح بالمعانى . ففى مثل ذلك التاريخ منذ أربعة عشر عاما (يونيو ١٩٦٧) تعرض العرب لعدوان اسرائيلى كاسح أوقع بهم أشد هزائمهم فى العصر الحديث . وكان اسرائيل بتوقيتها لعدوانها الجديد تريد تذكير العرب بأنها مازالت قادرة على هزيمتهم ، وانها لاتزال القوة الوحيدة المسيطرة فى المنطقة ، وأن ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣ كان استثناء

*** الاهرام ، ٢٤ / ٧ / ١٩٨١**

مؤقتا للقاعدة الراسخة التى أرستها منذ ولادتها ١٩٤٨ .

وفى نفس المدينة التى أغارت عليها اسرائيل ــ بغداد عاصمة الرشيد ــ اجتمعت القمة العربية منذ ثلاث سنوات وقررت **مقاطعة مصر** لتصالحها مع اسرائيل ، وأنشأت جبهة جديدة لمحاربتها سميت بجبهة « **الصمود والتصدى** » . وفى خلال أسابيع وقعت العراق وسوريا اتفاقا وحدويا جديدا بين القطرين كمؤشر لجديتهما فى تدعيم الجبهة الشرقية على حدود اسرائيل ، وكنواة راسخة لذلك الصمود والتصدى المفارقة فى كل ذلك هو انه فى قلب بغداد منذ ثلاث سنوات وقعت **القطيعة** بين معظم الانظمة العربية من جانب والنظام المصرى من جانب آخر وذلك بسبب تصالح مصر مع اسرائيل . وعلى أطراف بغداد بعد ذلك بثلاث سنوات تفجرت مشاعر الجماهير العربية **للتصالح** مع مصر ، وذلك بسبب عدوان اسرائيل على المفاعل النووى العراقى . ان عناصر المفارقة فى كلتا المناسبتين هى : بغداد ، مصر ، اسرائيل ، والتصالح . ولكن شتان ما بين ترتيب عناصر المفارقة فى المناسبتين .

أهم ما فى المفارقة الساخرة مع كل مرارتها هو أن اسرائيل بضربها لمفاعل بغداد ضربت عدة تصورات كان **يبدو** من كثرة ترديدها انها على وشك الرسوخ فى ضمائر الكثيرين داخل وخارج الوطن العربى . لقد ضربت اسرائيل :

* **الذين جنحوا للسلم والذين لم يجنحوا .**
* **سياسة أمريكا الجديدة المعروفة باسم « الاجماع الاستراتيجى » فى المنطقة .**
* **مقولة النفط العربى « والقوة السادسة » فى العالم .**

ضرب المفهوم الامريكى للاجماع الاستراتيجى فى المنطقة

أحد المفاهيم الجديدة التى استحدثتها ادارة الرئيس الامريكى رونالد ريجان هو مفهوم « **الاجماع الاستراتيجى** » فى الشرق الاوسط . والمفهوم يمثل حجر الزاوية فى سياسة امريكا فى هذه المنطقة ، ويعتبر أحد ركائز سياستها العالمية . وهو يعنى باختصار « أن تجمع الدول الرئيسية فى المنطقة ــ وأهمها مصر والسعودية ودول الخليج ــ على أن أهم خطر يحدق بها هو الخطر السوفيتى ، الذى اجتاح أفغانستان بالفعل ، ويستعد لالتهام ايران ، ليكون على أبواب الخليج . ومادامت تركيا واسرائيل مقتنعين أصلا بوجود هذا الخطر ، فلا يبقى أمام أمريكا الا ان تقنع باقى الدول العربية واحدة بعد الاخرى بحقيقة هذا الخطر » . وحينما تقتنع يكون هناك ما تسميه الادارة الجديدة « بالاجماع الاستراتيجى لدول الشرق الاوسط » . وهذا الاجماع يسهل لامريكا والغرب ولدول المنطقة رسم الخطط الكفيلة بدرء الخطر السوفيتى .

ويدخل فى ذلك منح التسهيلات والقواعد لقوة الانتشار السريع الامريكية ، وتقوية جيوش دول المنطقة كما وكيفا ، من حيث أنظمة التنبيه والتعبئة والتسليح . وبذلك تستطيع المنطقة بمساندة أمريكا والغرب التصدى فى جبهة واحدة راسخة لأى « مخططات سوفيتية توسعية » .

هذا المفهوم الاستراتيجى الأمريكى الذى يشاركها فيه عدد من الانظمة العربية بالفعل ، تلقى ضربة قاصمة حين القت الطائرات الاسرائيلية — الامريكية الصنع — قنابلها المدمرة على المفاعل النووى العراق . وربما كان ذلك أحد أسباب الغضب الأمريكى تجاه حليفتها المدللة . لقد شعرت ادارة الرئيس ريجان بمدى ما أحدثته الغارة الاسرائيلية من انتكاس لسياستها الجديدة فى المنطقة . قد تكون هناك أسباب أخرى للغضب الامريكى ، وخاصة فى الايام الأولى بعد الغارة — وقبل أن تستنفر اسرائيل جماعات الضغط الموالية لها لتخفيف أى إجراء أمريكى مضاد . فقد أحس عدد من صانعى السياسة الامريكية المتعاطفين مع الرئيس السادات أن الغارة الاسرائيلية قد تعوق مسيرة السلام التى بدأها منذ ثلاث سنوات . كما أحسوا بالحرج تجاه أصدقائهم فى الاردن والسعودية لاختراق الطائرات الاسرائيلية المجال الجوى لكل من البلدين وهى فى طريقها الى بغداد .

أهم من ذلك أحست الادارة الامريكية أنه حتى الانظمة المعتدلة التى تشاركها النظرة — فى اعتبار السوفيت الخطر الرئيسى على المنطقة — سيجدون صعوبة بالغة فى اقناع الرأى العام العربى بهذا التصور . لقد كانت طائرات « الاواكس » الامريكية فى أجواء السعودية حينما قامت اسرائيل بعدوانها . وحيث أن هذه الطائرات رادارية للانذار المبكر ، فقد كان من المفروض أن تنتبه لاقلاع الطائرات الاسرائيلية من قواعدها فى اسرائيل . وقد كانت هذه المعلومة مصدرا لحرج الحكومتين الامريكية والسعودية على السواء . وقد قيل فى تبرير عدم التنبيه أن أنظمة الرادار فى طائرات الاواكس فى ذلك اليوم — كما فى كل يوم منذ وصولها الى السعودية — كانت موجهة ناحية الشرق والشمال الشرقى ، حيث الخطر المرتقب من الاتحاد السوفيتى وايران !

أما وقد أتى الخطر بالفعل من الغرب – اسرائيل – فليس من السهل أن تنجح أمريكا والانظمة المؤيدة لها فى اقناع الرأى العام العربى بأن الخطر الرئيسى هو الاتحاد السوفيتى . أو كما قال معلق أمريكى بعد الغارة الاسرائيلية « **ان أى عربى حسن النية قد يوافقنا على أن السوفيت خطر عليه ، ولكنه لن يكون من السذاجة بحيث ينسى خطرا أكبر وهو اسرائيل . فلسان حاله قد يقول أن السوفييت يريدون التهامى بعد سنة أما اسرائيل فهى تريد التهامى الآن ...** »

ضرب مقولة « القوة السادسة »

ابتهج العرب فى أعقاب حرب أكتوبر المجيدة لا فقط بالاداء العسكرى الباهر لشقيقتهم الكبرى ، ولكن أيضا ما تمخضت عنه تلك الحرب من تزايد قيمة نفطهم ماليا واستراتيجيا . وأعتقدوا واعتقد العالم معهم أنهم أصبحوا **« القوة السادسة »** فى الساحة الدولية (بعد أمريكا ، والاتحاد السوفيتى ، وغرب أوروبا ، والصين ، واليابان) . ولم يكن هذا الاعتقاد وهما خالصا ، وانما كان الاساس **فيه افتراض أن العرب – وخاصة مصر والسعودية – سيظلون متضامنين فى جبهة واحدة فى مواجهة الآخرين** . ولكن شهر عسل التضامن العربى انتهى بسرعة . ومع ذلك ظل الاعتقاد لدى عرب النفط انهم وحتى بدون مصر قد أصبحوا بالفعل تلك « القوة السادسة » . ولكن العدوان الاسرائيلى على مفاعل العراق هز ذلك الاعتقاد من أساسه . فقد أدركت الدول النفطية وخاصة السعودية أن نفطها وأموالها وصداقتها للولايات المتحدة لم تشفع لها ولم تقوها ضد انتهاك حرمة أجوائها بواسطة الطائرات الاسرائيلية . لقد اهتز **« مفهوم الذات السعودية »** . وبدأ القائمون على الامر فيها يدركون أن مقومات القيادة الاقليمية تتطلب أكثر من النفط وأكثر من الاموال . لذلك كانت الاقلام السعودية أسبق من غيرها فى اطلاق دعوة المصالحة مع مصر ، واقرارها بخطأ ممارسات العمل العربى بعد كامب ديفيد .

نحو المصارحة العربية

ان دعوة المصارحة والمصالحة التى انبعثت من الرياض وجدت لها أصداء كثيرة فى عواصم عربية أخرى – سواء تلك التى اشتركت أو لم تشترك فى مقاطعة مصر . وهى تعبير **عن شجاعة أدبية واحساس بالمسئولية من جانب السعودية تجاه نفسها وتجاه المصلحة العربية العليا . ولذلك ينبغى أن تكون الاستجابة لها على نفس المستوى من الشجاعة والاحساس بالمسئولية القومية .**

من الشجاعة والمسئولية أن نعترف أن طريق السلام الذى اختارته مصر لحسم الصراع العربى الاسرائيلى كان ولايزال طريقا طويلا مملوءا بالمصاعب والاشواك . لقد حققت مبادرة الرئيس السادات تحرير جزء كبير من الارض العربية ، وخلقا اجماعا دوليا على ضرورة اعطاء الفلسطينيين حقوقهم ومنها حق تقرير المصير وخلق كيان وطنى فلسطينى ، وعزلت اسرائيل عالميا وأظهرت حقيقتها التوسعية أمام أشد حلفائها تعاطفا معها . غير أنه من الواقعى أن نعترف أيضا أن الرغبة الصادقة فى السلام التى عبرت عنها مصر ، والتى مضت فى تنفيذها شوطا بعيدا قد قوبلت من القيادة الاسرائيلية بالجحود ، بل واعتبرتها اسرائيل رخصة لممارسة مزيد من العدوان على الشعب الفلسطينى فى الاراضى المحتلة ، وعلى جنوب لبنان ، والعراق .

وأكثر من ذلك . امعنت اسرائيل فى مقابلة كل خطوة مصرية لتكريس مسيرة السلام بخطوة مضادة لتكريس سيطرتها على الاراضى العربية وممارسة العدوان .

وبنفس منطق الواقعية لابد ان نعترف أن أسلوب جبهة الرفض والتصدى الذى اختارته عدة أقطار عربية لم يثمر أى حصاد ملموس غير الشعارات الجوفاء . فاذا كانت استراتيجية السلام المصرية قد أدت الى الآن الى نصف نجاح وليس نجاحا كاملا ، فان استراتيجية الرفض قد أثبتت عقمها الكامل ولم تثمر أى نجاح بالمرة .

كذلك لم تثمر استراتيجية الاقطار العربية المعتدلة فى علاج المشكلة الفلسطينية أو الازمة اللبنانية ، ولم تنجح حتى فى وقاية نفسها ضد انتهاك حرمة أجوائها بواسطة اسرائيل رغم غزارة نفطها ، وضخامة أرصدتها ، وخصوصية علاقاتها بالولايات المتحدة .

الخلاصة أن حصاد الاستراتيجيات العربية الثلاث طيلة السنوات الاربع الماضية كان حصادا متواضعا . ذلك هو الشىء الذى لابد أن نصارح أنفسنا به توطئة لاى مصالحة عربية جادة .

هناك أشياء أخرى يجب أن يتصارح العرب حولها : الطريقة التى يبددون بها مخزون النفط وأمواله ، وحق فقراء العرب فى الثروة التى ضاعفوها بدمائهم ، والخلافات القطرية ، وعلاقاتهم بالقوتين العظميين وبأوروبا ، والازمة اللبنانية ، وعلاقاتهم بالقوميات الشقيقة فى البلاد المحيطة بالوطن العربى .

نحو المصالحة العربية

ينبغى أن يكون واضحا منذ البداية أن المصالحة العربية هى مصالحة بين أنظمة حاكمة . فالشعوب العربية لم تتخاصم ولم يقاطع بعضها بعضا . أن الوجود الشعبى المصرى فى الاقطار العربية قد وصل ذروته أثناء تخاصم الانظمة . ووصل عدد المصريين العاملين فى البلاد العربية ما يقرب من ثلاثة ملايين ، يساهمون بعقولهم وسواعدهم فى تنمية الوطن العربى ويجلبون لمصر بلايين الدولارات سنويا . والزائرون والسياح العرب لم ينقطعوا عن مصر يوما واحدا رغم مقاطعة الانظمة لحكومتها .

ما هو جوهر وهدف المصالحة – اذن – بين مصر والانظمة العربية ؟

الجوهر فى رأينا هو تكريس التعاون العربى الشعبى الذى لم ينقطع ، وتتويجه بتعاون عربى رسمى يعود على الجميع بأسباب القوة والمتعة والرخاء .

وليس مطلوبا فى ذلك أن تتوحد مواقف الدول العربية أسلوبا فى معالجة الصراع العربى الاسرائيلى ، وانما تتوحد فى أهدافها . والاهداف هنا واضحة لا خلاف عليها : **احتواء العدوان الاسرائيلى ، تحرير الاراضى العربية المحتلة منذ ١٩٦٧ ، وانشاء الدولة الفلسطينية** . الخلاف فى الاسلوب والوسائل ينبغى أن يقره الجميع كأمر مشروع . والعبرة فى النهاية بما يتخمض عنه كل اسلوب من نتائج . والمطلوب هو أن لا يفسد الخلاف فى الوسائل للود العربى قضية ، وان لا يمنع هذا الاختلاف حول وسائل حسم الصراع العربى الاسرائيلى الاقطار العربية من التفاعل والتعاون والتنسيق فى القضايا المصيرية الاخرى .

الصيغة السودانية

ان ما نطرحه هنا قد وجد ترجمة فعلية فى الصيغة التى اقترحها الرئيس جعفر نميرى : وعناصر هذه الصيغة واضحة ، وواقعية ، وتقلص الخسائر وتعظم الفوائد لكل الاطراف العربية . فهى :

● **أولا** ، لا تطلب من مصر أن تخل **بالتزاماتها التعاهدية ، مادام فى ذلك مصلحة تعود عليها من ناحية ، ومادام لا يترتب على تلك الالتزامات احلال أو تفريط فى حقوق الاشقاء العرب ، وخاصة الشعب الفلسطينى** .

● **ثانيا** ، لا تطلب من الدول العربية **أن تتنازل عن مواقفها المبدئية أو تصورها لطبيعة الصراع العربى — الاسرائيلى ، وتكييفها للوسائل الفعالة فى ادارة أو حسم ذلك الصراع . كما لا تلزم الدول العربية بتأييد اتفاقيات كامب ديفيد أو معاهدة السلام** بين مصر واسرائيل .

● **ثالثا** ، تنطوى على اعادة تدريجية لجسور الحوار والتفاعل والتعاون بين **حكومات وأقطار الامة العربية** ، **بحيث** يعود التضامن العربى الى الحد الذى يجعل العرب جميعا فى مركز أقوى لتنمية قواهم الذاتية اقتصاديا وعسكريا ، ولدرء المخاطر الخارجية وفى مقدمتها **الخطر الاسرائيلى** .

ان مصر تستطيع أن تعيش مع هذه الصيغة . فهل تستطيع الانظمة العربية الاخرى .

نزار قبانى .. والمصالحة العربية *

أنا لا أعرف الشاعر نزار قبانى شخصيا ، ولم أقابله مرة فى حياتى ولكنى أعرف الاستاذ أنيس منصور وأحمل له ولثقافته الواسعة تقديرا خاصا ، وقد تشرفت بمقابلته والحوار معه عدة مرات فى السنوات الاخيرة .

ورغم اختلافى مع أنيس منصور فى كثير من المسائل العامة الا أننى أكبرت فيه شجاعته منذ ثلاث سنوات حينما فتح لى صفحات مجلة أكتوبر لاكتب فيها منصفا للثورة الايرانية .. كان ذلك فى وقت اتجه فيه الرأى الرسمى للقيادة المصرية ، ومعه كل وسائل الاعلام الى معارضة تلك الثورة والهجوم عليها بأبشع ما يكون الهجوم .

اذكر هذا لأنه قد راعنى هجوم أنيس منصور على نزار قبانى فى يومين متتاليين فى عموده اليومى بصحيفة الاهرام (١٢ – ٥ و ١٣ –٥– ٨٢) ،فالشاعر المعروف قد قرر على ما يبدو أن يترك بيروت ويعيش فى القاهرة ، بعد أن رحلت زوجته بلقيس عن عالمنا فى حادث مروع ، وهو نسف السفارة العراقية فى بيروت منذ عدة شهور .. فحوى هجوم انيس منصور على نزار قبانى هو أنه بعد هزيمة العرب فى عام ١٩٦٧ قد نظم قصائد تهجم فيها على الجيش المصرى ، وعلى جمال عبد الناصر . ثم لأنه عاود التهجم شعرا على أنور السادات بعد مبادرة السلام وزيارة القدس .. ويعجب أنيس منصور أن تنفتح الابواب وغرف الطعام والقمار فى القاهرة للشاعر نزار قبانى الذى قرر أن يعيش فى مصر ..

كلمة إنصاف

لقد تألمت من لهجة الاستاذ أنيس منصور وهو الكاتب الكبير حيال شاعر عربى كبير .. فهى لهجة مملوءة بالاستعداء وبالاقليمية الضيقة .. فهو يؤكد على جنسية الشاعر السورية — وكأن هذه فى حد ذاتها صفة بغيضة وهو — ربما من حيث لا يقصد — يستعدى المصريين على العرب الذين فتحوا أبوابهم واذاعاتهم وصحفهم لنزار قبانى فى سنوات

* الجمهورية ، ٢٠ / ٥ / ١٩٨٢ .

خلت ..

بل أكثر من ذلك يؤنب الاستاذ انيس منصور بنى وطنه لما أظهروه من كرم حيال الضيف الوافد بقوله فاتنا فى مصر أن نعاقب الذين أهانوا مصر وشتموها وتجنوا عليها ، وفاتنا أن نقفل الابواب ، وأن نفتح له النوافذ ليتفضل مشكورا فيلقى بنفسه منها ـــ وسوف نعد له جنازة حارة .. هكذا !!

اننى أكتب هذه السطور لا لكي ادافع عن نزار قبانى .. فهو أكثر من قادر على الدفاع عن نفسه ، ثم اننى لا أعتقد حقيقة أن هناك ما يتوجب أن يدافع عنه ..

لقد قرأت معظم القصائد التى كتبها نزار قبانى بعد الهزيمة ثم أعدت قراءتها بعد هجوم الاستاذ أنيس منصور عليه ولم أجد فيها وقتها أو الآن ما هو موجه ضد شعب مصر بالذات .. ولكنها تعبر عن غضب عام ، أحس به الشاعر مثلما أحست عشرات الملايين لحالة الهوان والضعف التى تكتنف الوطن العربى،ولحالة الذل والعار الذى جلبه كل حكام العرب على أمتهم ، ولم يستثن الرجل من هجومه لا أمراء النفط (الرجعيين) ولا زعماء الثورة (التقدميين) ـــ هنا وهناك وأحاسيس الشاعر نحو جمال عبد الناصر ـــ مثلا ـــ هى مثل أحاسيس عدد كبير منا . فقد غضب منه بسبب الهزيمة ، ولكنه فرح له ومعه فى ساعات النصر ، وبكاه كأحر ما يكون البكاء فى ساعة موته .. وما قاله ويقوله الاستاذ أنيس منصور نفسه عن عبد الناصر وعهده فى **مجلة أكتوبر** هو أحيانا أشد قسوة وبشاعة من أى شيء قاله نزار قبانى ..

فما هى القضية !!

ربما هناك أشياء شخصية بين الكاتب الكبير والشاعر الكبير لا أعرفها ولا يعرفها القراء .. ولكنى بصدق أشعر أن الاستاذ أنيس منصور قد تجنى بقسوة على نزار قبانى ، لقد تخلى عن روح العدالة والانصاف وانزلق قلمه حيث لا نحب أن ينزلق .

مأساة الشاعر ومأساة الأمة ..

إن نزار قبانى هو أحد الشهود على عصره .. وتكاد مأساته الشخصية تكون مرآة لمأساة أمته العربية ..

لقد انساق الرجل مع الآمال والاحلام ـــ كما انساقت شعوب الامة العربية منذ عقدين من الزمان ـــ فى طلب الحرية والاستقلال والوحدة والرخاء ..

وربما تصور أن المد القومى فى الخمسينات بقيادة عبد الناصر كفيل بتحقيق كل

هذه الأمال ، فانصرف وقتها يدبج أشعار الحب والاحلام ، تاركا مهمة إنجازالمشروع القومى للساسة والجنرالات العرب ..

وجاءت الهزيمة لتبدد كل هذه الآمال ولتقتحم على الشاعر صومعة حبه وأحلامه ..

لقد نكب مشروعه الشخصى كشاعر فنان مع نكبة المشروع القومى لأمته العربية ..

وتداخلت مأساة الفرد مع محنة المجتمع .. وعبر الرجل عن غضبه من نفسه ومن مجتمعه ومن قياداته مثلما عبر المجتمع عن غضبه حيال نفسه ــ بما أطلقه من نكات ــ وحيال قادته ، وبما قام به من مظاهرات فى ١٩٦٨ و ١٩٧٢ ..

لم تتوقف مأساة نزار قبانى ، مثلما لم تتوقف مأساة أمته العربية منذ ذلك الحين ، حتى نصر أكتوبر الذى استعادت به الامة كرامتها وكثيرا من أملها فى أن تصبح (قوة سادسة) ، كان لحظة قصيرة أعقبها كابوس طويل من التمزق العربى .

واختلطت الاوراق ، وتغيرت المحاور وأصبح حلفاء الامس أعداء اليوم وأعداء الامس أصدقاء اليوم .. وانفجرت التناقضات والعصبيات وتاهت خطوط المعارك ، وضاعت منا الاهداف الكبرى التى توحد أمتنا ، وحلت محلها أهداف صغرى تمزق لحمتها تقهقرنا الى عصر من الانحطاط كنا نعتقد أننا تركناه الى غير رجعة .. وأصبحنا نقتل بعضنا البعض لغير ما قضية واضحة ــ فى لبنان ، وتشاد ، فى الصحراء ، وعلى حدود العراق مع ايران ، لا القاتل يعرف من يقتل ولماذا يقتل ، ولا المقتول يعرف من يقتله ولماذا يقتله ..

لقد ماتت بلقيس زوجة نزار قبانى وهى لا تعرف من قتلها ولماذا قتلها ولكن مأساتها ومأساة زوجها هى مأساة آلاف العرب ومأساة ذويهم ــ وهم يقتلون أو يقتلون كل يوم دون ما قضية تستحق دماءهم الذكية .

مصر مبارك :

الأمل والمصالحة

ربما كان قرار نزار قبانى أن يستقر بالقاهرة هو لأنه بشعور الفنان العربى المرهف يعى فى أعماقه أن مصر مبارك هى أمله وأمل كل العرب فى وضع حد لمأساته الشخصية ولمأساة أمته القومية .

جاء الرجل الى القاهرة ليكفكف دموع حزنه على رفيقة حياته التى مزقتها الفوضى العربية ، ويتصادف مجيئه مع مجيء عرب آخرين ينشدون عودة مصر لكى تضع حدا لهذه

الفوضى .. الجميع يريدون للجراح أن تلتئم وللكابوس أن ينقشع وللشمس أن تشرق ثانية ..

لقد أيقن الجميع فى مصر ، وفى خارجها أن الجسم العربى الكبير لا يقوى على الحراك، مهما تضخم بشحمه ولحمه، دون جهازه العصبى .. أيقنوا أن مصر هى ضابط الايقاع فى السيمفونية العربية .. بدونها يتشرذم العازفون ولاتصدر عنهم إلا أنغام ناشزة .. وبدون العازفين يقف ضابط الايقاع وحيدا عاجزا مهما كانت مهارته ، ولا يثير الا الضحك أو الرثاء .

ربما كانت هذه المعانى جميعا هى التى حركت نزار قبانى — كما حركت عربا آخرين — باتجاه القاهرة وحركت قلب القاهرة باتجاههم. **ولكن القاهرة التى يعودون اليها والقاهرة التى تعود اليهم قد تغيرت خلال سنوات القطيعة ، مثلما تغيروا هم .. لذلك فالعودة الى أحلام وأمال الخمسينات مستحيلة .. لن يبعث عبد الناصر من قبره للعرب ، ولن تبعث بلقيس من قبرها لنزار .. لابد أن نصوغ معا أحلاما وأمالا جديدة للثمانينات .**

رسالة إلى الغافلين فى الوطن العربى*

فى الوطن العربى بلهاء وعقلاء ، وفيه شجعان وجبناء ، وفيه من يفكرون ولا يحكمون ، وفيه من يحكمون ولا يفكرون .

وأخطر هذه المجموعات على حاضر الأمة العربية ومستقبلها البلهاء الذين يعتقدون أنهم عقلاء ، ويحكمون ولكنهم لا يفكرون . وهؤلاء ليسوا حكرا على قطر عربى دون آخر . وفيهم من يحكم فى أقطار اليسر النفطية . وفيهم من يحكم فى أقطار العسر غير النفطية . ومنهم من يصادق الاتحاد السوفيتى ، ومنهم من يصادق الولايات المتحدة . وبينهم من يدعى الرفض والتصدى ، وبينهم من ينادى بالوئام والسلام .

وجاء الغزو البربرى الاسرائيلى للبنان ليكشف عن بلاهة هؤلاء الحكام جميعا أمام العالم وأمام شعوبهم . ولكن نفس الغزو البربرى كشف عن حقيقة أهم وهى أن المصيبة ليست فى شعوب هذه الأمة العربية . فالشعبين الفلسطينى واللبنانى صمدا وحاربا ببسالة منقطعة النظير فى وجه آلة الحرب والدمار الاسرائيلية . والشعب المصرى الذى انخدع البعض — فى الداخل والخارج — وفسروا عقلانيته ورغبته الأصلية فى السلام بأنها إستسلام أو تنكر للعروبة ، فاجأهم بغضبه العارم لما يجرى على أيدى التتار الجدد . ولأننى عشت طوال الأسبوع الماضى بين المصريين فاننى أشهد على عمق الثورة المكتومة التى تولدها الرغبة فى عمل شىء والعجز عن عمل أى شىء ، غير التضور ألما وغضبا . ولكنى لا أشك فى أن الشعوب العربية الأخرى تشارك الشعب المصرى فى ثورته المكتومة ، وفى سخطه على اسرائيل وعلى الحكام العرب سواء بسواء .

وفى هذا المقال نخص الحكام العرب بخمسة رسائل .

الرسالة الأولى

إلى غفلـــة النفـــط

---

* الاهرام الاقتصادى ، ٢١ / ٦ / ١٩٨٢ .

كان العنوان الاصلى لهذه المقالة هو « رسائل الى البلهاء فى الوطن العربى »

الحقبة النفطية التى كان يمكن أن تستخدموا فيها سلاح النفط لخدمة القضية الفلسطينية وقضايا أخرى قد أوشكت على الانتهاء ، ولكنها لم تنته بعد . وفى سنواتها العشر الماضية ، وبالتحديد بعد حرب أكتوبر المجيدة قمتم أيها السادة بالآتى :

١ – قترتم على مصر ، وقد كانت فى أشد الحاجة الى معوناتكم لاعادة بناء جيشها ومرافقها ، بعد الحرب التى تحملت معظم أعبائها نيابة عنكم ، والتى بسببها تضاعفت مواردكم أربعة أمثال . وكانت نتيجة تقتيركم من ناحية والضغوط الاقتصادية والنفسية على الشعب المصرى من ناحية أخرى ان بدأت القيادة المصرية تبحث عن استراتيجيات بديلة لادارة الصراع العربى الاسرائيلى . وأختارت استراتيجية السلام . فأنتم من حيث قصدتم أو لم تقصدوا ، أسهمتم فى توصيل الرئيس السادات الى أبواب القدس ، ثم تركتموه هناك ، بل وتبرأتم مما فعله ، ثم أدنتموه وقاطعتموه .

٢ – بددتم المليارات فى مشروعات وهمية أو استعراضية ، وأتبعتم نموذجا مشوها للتنمية يضاعف من تبعيتكم للخارج . وأطلقتم بسبب ذلك نهما استهلاكيا بذخيا ، سرى كالسرطان فى كل أوصال المنطقة بأقطارها الغنية والفقيرة على السواء .

٣ – أودعتم واستثمرتم المليارات فى بنوك وشركات الغرب . وأصبحت هذه الأموال رهينة لدى الغرب – كما أصبحت الأموال الايرانية الشاهنشاهية من قبلها رهينة هناك . كل هذا وبلاد العسر العربية من المغرب الى اليمن ، مرورا بالسودان والصومال ، فى أشد الحاجة الى هذه المليارات أو الى بعضها . لقد أعتقدتم أن بلاد العسر غير آمنة وفرص الاستثمار غير مجزية . ولم تدركوا أن هذا النوع من الحساب هو الذى يفجر الأرض من تحت أقدامكم ، كما فجرها فى أرض مجاورة عبر الخليج .

٤ – عندما تفجرت الأرض عند جيرانكم فى ثورة شعبية ، أرتعدتم ، وأستدرجتم أقواكم لكى يخنق الثورة نيابة عنكم . ودفعتم له فى خلال سنتين ثلاثين مليارا من الدولارات لكى يحارب معركة فرعية خاسرة ، متناسين عدوكم الرئيسى الذى يتحرك نحوكم بتؤدة وتصميم بربرى ، لكى يبتزكم ويشارككم ثروتكم لحسابه وحساب من يمده بآلة الحرب الفتاكة .

٥ – لهوتم وأعتقدتم أن النفط خالد لا يزول ، بينما إنصرف الغرب يبحث وينمى ويخزن مصادر الطاقة . ثم يفاجئكم فى الثمانينات ولديه فائض استراتيجى كبير ، وليصبح هو الذى يساوم على تخفيض الأسعار ، بل ويعاقب البعض منكم بعدم شراء نفطه . كنتم فى أوائل السبعينات تستطيعون مقاطعة الغرب والتمنع فى بيع النفط عقابا له . فأصبح هو فى الثمانينات الذى يقاطع ويتمنع فى الشراء .

الحقبة النفطية لم تنته تماما . ولم تضع الفرصة الى الأبد . مازال هناك ما تستطيعونه

خدمة لأنفسكم وخدمة لشعوبكم وأمتكم . يمكنكم أن تسحبوا أرصدتكم . يمكنكم أن تخفضوا الانتاج اليومى من النفط . يمكنكم أن تختاروا نموذج تنمية بديلا أكثر إنتاجية وأكثر عدالة . يمكنكم أن تساعدوا أقطار العسر ، وتسهموا فى إشاعة الاستقرار فى المنطقة كحصانة مستقبلية ضد « الثورة » التى ترتعدون منها .

الرسالة الثانية

● إلى غفلة الصمود والتصدى

الصمود والتصدى هو شعاركم فى مواجهة اسرائيل وكامب دافيد . وقد أثبتت السنوات الأربع الماضية أن شعاركم هو كلمة حق تخفى وراءها باطلا . فالصمود والتصدى لاسرائيل مطلوب ، بل هو واجب مصيرى . ولكنكم يا سادة لم تصمدوا أو تتصدوا ، لا لأنكم غير قادرين ، ولكن لأنكم مشغولون بأشياء أخرى :

١ - مشغولون أشد الانشغال بسحق شعوبكم ، والبطش بكل من يريد أن يشارك فى السلطة أو من يعارض السلطة .

٢ - مشغولين بالاستشساد على بعضكم البعض وابتزاز بعضكم البعض . منكم من استدرج لحرب فى تشاد . ومنكم من أشتبك فى حرب حدود معلنة أو غير معلنة . ومنكم من رفع شعار أن « تحرير القدس » يمر فى عمان أو الرياض . ومنكم من زايد ورفع شعار أن « تحرير فلسطين » يمر ببغداد أو طهران أو القاهرة .

يا سادة أن تحرير القدس أو فلسطين لا يمر بأى عاصمة عربية أو غير عربية . ان تحرير القدس أو فلسطين يمر فقط عبر الحدود مع اسرائيل . بل ان الأمة العربية لا تريد منكم الآن تحرير القدس أو فلسطين . هى فقط تريد منكم أن تحموا حدودكم ، وأجواءكم .ومفاعلاتكم الذرية ، ومياه أنهاركم . وفقط حينما تنجحون فى هذا المطلب المتواضع ، يمكن لشعوبكم أن ترفع من مستوى طموحها وتطلب تحرير القدس وفلسطين . ولكى تحققوا المطلب المتواضع أولا فما عليكم إلا أن تتوقفوا عن الاستشساد والابتزاز ببعضكم البعض . وان استطعتم أن تتعاونوا معا فخير وبركة . وإن لم تستطيعوا فأضعف الايمان أن تقاوموا العدو منفردين ، وتجعلوه يدفع ثمنا باهظا لعدوانه . وهذا أمر ممكن إذا توفرت الارادة . وقد رأينا كيف صمدت المقاومة الفلسطينية بلا دبابات أو طائرات فى وجه آلة الحرب الاسرائيلية ، وكيف

كبدت العدو الاسرائيلى خسائر فادحة . كل ما تملكه المقاومة الفلسطينية هو النذر اليسير من السلاح والقدر الكبير من الارادة . والارادة لا تستورد من الخارج ، وإنما تصنع محليا بالقدوة والسلوك .

الرسالة الثالثة

إلى غفلة الوئام والسلام

الدعوة الى السلام نبيلة وأصيلة تستجيب لها كل الشعوب العريقة . وقد استجاب لها الشعب المصرى . ولكن السلام الذى استجاب له هذا الشعب العريق غير السلام الذى تريده اسرائيل . فقادة مصر أرادوا وقالوا لشعبهم أنهم سيحققون له ولشعوب المنطقة جميعا سلاما عادلا يضع حدا لسفك الدماء ، وينصف كل المظلومين ، ويحرر الأرض المحتلة ، ويضمن للفلسطينيين حق تقرير المصير ، وإنشاء دولتهم على أرضهم . أما السلام الذى أراده قادة إسرائيل فهو فقط إخراج مصر من معادلة الصراع الى أن تتحق لهم الهيمنة الكاملة على المشرق العربى . السلام الاسرائيلى هو ابادة الشعب الفلسطينى ، والتوسع فى أراضى الغير ، والتدخل فى شئون الاقطار المجاورة ، والاغارة على القاصى والدانى ، والانتقام من كل من يجرؤ على التبرم بهذا المخطط . السلام الاسرائيلى هو سلام هولاكو وتيمورلنك الجديدين ، بيجين وشارون.أليس هو بيجين صاحب القول المشهور « **أن العربى الوحيد الذى يعرفه هو العربى الذى يراه من فوهة البندقية** » ؟ أليس هو **مهندس مذبحة دير ياسين** التى بدأ بها حياته الارهابية عام ١٩٤٧ وهو شاب ؟ لقد أحسن البعض به الظن بعد أن أصبح شيخا يقترب من السبعين .. ولكن الرجل يريد أن ينهى حياته السياسية مثلما بدأها : لا بمذبحة واحدة ، وإنما بعدة مذابح فى صور وصيدا والنبطية وبيروت .

رسالتنا الى غفلة الوئام والسلام هى أن لا يركنوا الى هذا السلام الاسرائيلى . وأن يعلموا أن الرقعة الممتدة من المغرب الى العراق لا تحتمل استراتيجيا إلا قوة واحدة مهيمنة . وأنه إذا لم تكن هذه القوة عربية ، فانها حتما ستكون اسرائيلية . وأن إختيارهم للسلام لن يجنبهم صلف هذه القوة الاسرائيلية ، وتدخلها فى شئونهم ، وإملاء شروطها إن آجلا أو عاجلا . فهى بعد أن ترتب الأوضاع فى الهلال الخصيب على هواها ستتفرغ لهم ، ضاربة عرض الحائط بقصاصات أى معاهدة وقعتها معهم . وما أكثر ما نقضت من اتفاقيات حينما لاحت لها الفرصة ، ومكنت لها القوة . السلام بلا عدالة ترعاه ، وبلا قوة عسكرية تحميه ، هو غفلة ما بعدها غفلة .

الرسالة الرابعة

إلى أصدقاء الولايات المتحدة

الحكام العرب الذين يعتقدون أن الولايات المتحدة « شريك كامل » ، أو أن لهم معها « علاقة خاصة » لابد أن يفيقوا من غفلتهم . لقد أثبتت أحداث خمس وثلاثين سنة أن للولايات المتحدة صديقا واحدا ، وشريكا كاملا واحدا وهو اسرائيل . وأن « العلاقة الخاصة » الوحيدة التى تربطها بأى دولة فى المنطقة هى علاقتها باسرائيل . فهى تغدق عليها بالمال والسلاح وبحق الفيتو . بين الحروب العربية الاسرائيلية توهم الولايات المتحدة بعض حكام المنطقة بانها لهم صديقة ، وتغرقهم بالوعود والكلمات المعسولة . ولكن ساعة الجد والأزمة يتبخر كل ذلك ، وتظهر الحقيقة عارية تصفع « الاصدقاء العرب » فى وجوههم . ويلهث المساكين الى عواصم أمريكا والغرب يستجدون ويستعطفون ، أو يهرعون الى أقلامهم يدبجون الرسائل والاستغاثات . طوال أربعة عقود من الزمن ونفس الشىء يحدث ، ولم يتعلم « أصدقاء » أمريكا فى المنطقة ــ بدءا من نورى السعيد وإنتهاء بأمراء البترول .

لهؤلاء الاصدقاء الاوفياء هناك رسالة واحدة : أمريكا لا تحبكم ولكنها تستعملكم . وحينما تضيق شعوبكم بحبكم لها ، وتثور عليكم ، فلن تخف أمريكا الى حمايتكم إلا بالقدر الذى حمت به نورى السعيد وشاه ايران . أمريكا لا تحترمكم وإن كانت توهمكم بالاحترام ، لأنها فى النهاية لا تحترم إلا الاقوياء حتى لو كانوا أعداء . ارجعوا الى مذكرات ايزنهاور وماقاله عنكم فى الخمسينات ، أو مذكرات كسينجر وماقاله عنكم فى الثمانينات . الحماية الوحيدة لكم هى حب شعوبكم. وحب شعوبكم موقوف على تصديكم لقيادتها نحو التحرر وردع العدوان . حتى الملوك يستطيعون أن يحظوا بهذا الحب . نذكركم بالملك محمد الخامس الذى قاد شعبه وصمد ضد الاحتلال الفرنسى ، ففداه الشعب المغربى بأرواحه ، ولم يرتض حاكما سواه . وفى النهاية كان للشعب ما أراد .

الرسالة الخامسة

إلى أصدقاء الاتحاد السوفيتى

ليس للاتحاد السوفيتى أصدقاء فى المنطقة ، وإنما له مصالح كونية والتزامات أيديولوجية . وبما أنه لا توجد أنظمة ثورية ماركسية حقيقية فى الوطن العربى ، فإن أى أنظمة أخرى تكون واهمة أن اعتقدت أن الاتحاد السوفيتى سيخف الى نجدتها كما تخف أمريكا عادة لنجدة اسرائيل . وحدود مساعدته لأى نظام عربى تتقرر فى ضوء حجم مصالحه مع

هذا النظام ، وفى ضوء الموازنة مع مصالحه الكونية فى أجزاء أخرى من العالم . وخبرة السنوات الثلاثين الماضية تفيد أنه لم ولن يتدخل بقوات عسكرية ، أو يقامر بمواجهة نووية مع الولايات المتحدة من أجل أى نظام عربى . فقط يساعد الاتحاد السوفيتى بالسلاح وبالدعم الدبلوماسى وبالتهديدات اللفظية . وأصدقاء الاتحاد السوفيتى من الحكام العرب يكونون واهمين إن توقعوا أكثر من ذلك .

لذلك فرسالتنا لهم هى أن العبء فى النهاية يقع عليهم . هم الذين ينبغى أن يحاربوا ويقاوموا . ولن يجديهم غير ذلك مهما دبجو الرسائل الى موسكو ، ومهما علت استغاثاتهم فى قاعات الكرملين . وليسوا فى هذا الصدد أفضل حالا من أشقائهم الالداء . أصدقاء الولايات المتحدة .

إن غزو لبنان كشف عن الطاقات الشعبية الهائلة فى المقاومة والاستبسال . ولكنه كشف أيضا عن الحصاد المأساوى المر لسياسات كل حكامنا .

المشروع العام .. والمشروعات الخاصة فى الوطن العربى*

حقبة السبعينات ، وبالتحديد بعد حرب أكتوبر ، هى حقبة « المشروعات الخاصة » فى العالم العربى .. فقد انصرفت الاقطار العربية وكذلك الأفراد الى مشروعاتهم الخاصة ، وكان ذلك بداية عصر الانحطاط ، الذى نقطف ثماره المرة هذه الايام فى لبنان والعراق والصومال ، وفى غيرها من أقطار العروبة .

● المشروع القومى العربى العام

قبل عصر الانحطاط كان هناك مشروع قومى عربى عام .. كانت ملامح هذا المشروع العربى العام كثيرة ، أرستها أجيال عديدة منذ عصر النهضة ، كانت بذرة هذا المشروع هى الاحساس بالانتماء لأمة عربية واحدة ، تمتد من المحيط الى الخليج ، وأخذ هذا الاحساس بالانتماء مظاهر ومسميات كثيرة .

كان من مظاهره ، مثلا ، أن يعرقل الشوام جيوش السلطان التى أرسلها الى مصر لتأديب **أحمد عرابى** ، وتأكيد السلطة العثمانية . لم يكن أحمد عرابى يعرف هؤلاء الشوام ، ولم يكن هناك **« راديو صوت العرب »** ليحرضهم على قذف جيوش السلطان بالحجارة .. ولكنهم فعلوا ذلك بتلقائية وعفوية ، نتيجة ذلك الاحساس المبهم بالانتماء الى شىء واحد يجمع **المصريين والشوام** .

وفى **معركة الخرطوم** التى حاصر فيها اتباع السيد **محمد أحمد المهدى جيش غوردون** الانجليزى ، كان أحد شروط فك الحصار هو اطلاق سراح أحمد عرابى وعودته من المنفى . لم يكن عرابى والمهدى قد تقابلا ، أو تراسلا .. ولكنه مرة أخرى كان ذلك الشعور المبهم بالانتماء الى شىء واحد يجمع **المصريين والسودانيين** .

وحينما دكت جيوش **الاحتلال الفرنسى** دمشق بالمدافع ، بعد الحرب العالمية الاولى

وخديعة الخلفاء وتقسيمهم للمشرق ونكوصهم بوعودهم **للشريف حسين** ، خرجت **المظاهرات فى القاهرة غاضبة مستنكرة ..**

وكتب **شوقى** قصيدته الشهيرة عن ملحمة صمود عاصمة الامويين ، والتى تغنت أجيال عربية متعاقبة بأشهر أبياتها « **وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق** » ..

وحينما رفض **توفيق الحكيم** قبول أحد الاوسمة الرفيعة من الحكومة الفرنسية بسبب جرائمها وبطشها بشعوب المغرب العربى الكبير ، لم تكن هناك « جامعة عربية » ، أو اثنا وعشرون علما وجيشا وحكومة عربية ، فقط كان هناك نفس ذلك الاحساس العميق بالانتماء ، وبوحدة المصير ، وبأننا كلنا « **فى الهم شرق** » .

وحينما هوجمت مصر فى **العدوان الثلاثى** عام ١٩٥٦ ، تظاهر **عمال النفط السعوديون** ، وقام **السوريون** بتفجير أنابيب البترول التى تمر فى أرضهم حاملة النفط الى الغرب ، وتوحد الوطن العربى كله مع مصر فى مواجهة العدوان .. كان ذلك بسبب نفس الشعور الواحد بالانتماء . وفى ذلك الوقت كنا أصبحنا نسميه « القومية العربية »

فالقومية العربية فى أبسط تعريف لها ، هى الشعور بالانتماء الى كيان جماعى واحد ، هو الامة العربية من المحيط الى الخليج ، وهى التى تبلورت تاريخيا على مدى الاربعة عشر قرنا الأخيرة بفعل **الاسلام** كدين وحضارة ، وبفعل **اللغة العربية** كأداة خطاب وتواصل ، وبفعل **الجوار الجغرافى** ، **والتفاعل الاجتماعى** ، كموحدات للضمير والمصالح ، وبفعل **التحديات الخارجية** — من التتار الى الصليبيين الى الاستعمار الغربى الحديث الى الصهيونية — التى خلقت وحدة الهموم والمصير ..

القومية العربية بهذا المعنى لم يخلقها الشريف حسين ، أو ساطع الحصرى ، أو حزب البعث ، أو جمال عبد الناصر .. الذى خلقها هو الوجود التاريخى الموضوعى لامة عربية .. وكان هذا الوجود التاريخى الموضوعى هو الاساس الذى بنت عليه ثورة يوليو بقيادة عبد الناصر ما يمكن تسميته « **بالمشروع القومى العربى العام** » .

كان المشروع فى أقصى طموحه يهدف الى توحيد شعوب الامة العربية فى دولة واحدة ، وكان فى أدنى درجات طموحه يهدف الى خلق التضامن العربى فى مواجهة المخاطر الخارجية ، وعلى رأسها الخطر الصهيونى .

لم يحرز عبد الناصر كثيرا من النجاح العملى فى عملية التوحيد السياسى — الدستورى لاقطار الامة .. ولكنه نجح فى توحيد مشاعرها بالخطر المشترك ، وأعطاها **بوصلة استراتيجية**

ذات مؤشر واحد نحو الطريق السليم .

هذا الشعور الواحد ، وهذه البوصلة الواحدة هى التى حفظت للعرب تماسكهم كأمة ، رغم تفرقهم كأنظمة وكأقطار . كان أبناء هذه الامة من المحيط الى الخليج يبتهجون معا لأى انتصار عربى،ويبكون معا لأى هزيمة عربية.وكان هذا الشعور المشترك هو الذى يحرك الجماهير ويجعلها متدفقة بالحيوية السياسية التى تفيض فى نفس الاتجاه،سواء أراد ذلك الحكام أو لم يريدوا . لذلك كان خروج هذه الجماهير فى ٩ و ١٠ يونية ١٩٦٧ بعد أكبر هزيمة عسكرية فى تاريخ العرب الحديث هو العاصم من الاستسلام والحافز على الصمود،وكان هو الذى ضغط على الانظمة والحكام لكى تجتمع فى قمة الخرطوم وترفض الهزيمة .

ونجح عبد الناصر ومن بعده أنور السادات فى تحويل الهزيمة العسكرية الى تحد . وأجبرت الجماهير العربية من المحيط الى الخليج حكامها على حد أدنى من التضامن .. جعلهم يدخلون حرب أكتوبر ويغسلون فيها عار الهزيمة واستخدمت الموارد النفطية العربية والدبلوماسية العربية كأحسن ما يكون الاستخدام فى مؤازرة المقاتلين العرب على خطوط النار عبر سيناء والجولان.واندهش الاصدقاء ، وانزعج الاعداء لهذا التضامن العربى، ولهذا الاداء العربى الرفيع.وبشرت مراكز الدراسات الاستراتيجية بولادة ــ القوة السادسة ــ فى العالم وهى القوة العربية .

● بداية المشروعات الخاصة

لقد كان الانتصار العربى فى أكتوبر هو نهاية حقبة المشروع القومى العربى العام .. وكانت نهايته من صنع أيدينا.وكانت الولايات المتحدة من خلال **هنرى كيسنجر عاملا** مساعدا فى الاجهاز على ذلك المشروع .

ان المعادلة التى حققت نصر أكتوبر كانت تتكون من العناصر التالية

* شعور جماهيرى عام من المحيط الى الخليج بوحدة الاقطار ووحدة المصير ووحدة الانتماء .
* تضامن عربى بين الانظمة العربية دفعها الى تعليق صراعاتها ولو الى حين ..
* تنسيق مصرى ــ سورى ــ سعودى محكم ، قاد ونسق التضامن العربى .

بدأ تفكيك معادلة النصر هذه فى عنصرها الثالث أولا بغواية كل طرف من الأطراف الثلاثة ــ مصر وسورية والسعودية ــ التى قادت معا النظام العربى فى الفترة من ١٩٦٨ الى ١٩٧٣ . قبلت مصر بعض الترتيبات الخاصة بفض الاشتباك الاول.وقبلت السعودية أن تنهى الحظر البترولى. ثم قبلت سوريا فك إشتباك أول وأخير وقبلت مصر فك إشتباك ثان .

وقع كل طرف من الاطراف الثلاثة فى مصيدة كيسنجر الاستراتيجية التى سميت وقتها باسلوب **الخطوة خطوة** ، بدلا من اصرار الثلاثة على ضرورة الحل الشامل لمشكلة الشرق الاوسط .. وساعد كيسنجر على ذلك وفاة **الملك فيصل** من ناحية، وضجر **الرئيس السادات** من مزايدات النظام السورى من ناحية ثانية، والاغراءات الاقتصادية التى قدمتها أمريكا للاطراف المعنية من ناحية ثالثة ..

وشهدت السنوات الثلاث التالية مزيدا من الجفوة،ثم الفرقة،ثم تبادل الاتهامات ثم القطيعة بين الانظمة الثلاثة.وبدأ كل منها يفكر لنفسه وبنفسه مع تشجيع وإغراء من الولايات المتحدة،التى زينت للسعودية أن تصبح مهيمنة فى الجزيرة ومنطقة الخليج وفى منظمة الاوبك . وزينت لسوريا أن تصبح مهيمنة فى الهلال الخصيب وخاصة لبنان التى شجعتها على التدخل العسكرى فيها تحت ذريعة انهاء الحرب الاهلية.وزينت لمصر أن تقوم بدور كبير فى أفريقيا من الكونغو الى السودان ..

وبانفضاض الثلاثى ــ المصرى ــ السورى ــ السعودى ــ الذى قاد مسيرة التضامن العربى بدأ النظام الاقليمى العربى نفسه يتشتت ويتشرذم بلا ضابط إيقاع .. ووصل هذا التشرذم أقصاه فى أعقاب توقيع **كامب ديفيد ومعاهدة السلام** بين مصر واسرائيل ومقاطعة الانظمة العربية للنظام المصرى. بدأ كل نظام قطرى يعمل لحسابه الخاص. فمن **طامع لأن** يلعب دور القائد فى غياب مصر، الى **بلطجى** يحاول ابتزاز الانظمة الاخرى، الى **مرتزق** يعرض خدماته على هذه الدولة الاعظم أو تلك. باختصار انفرط عقد التضامن بين الانظمة العربية . وبدأ كل نظام ينصرف الى ــ مشروعه الخاص ــ وانطوى كل مشروع خاص على :

١ – زيادة المكاسب المادية من أقصر الطرق .

٢ – البطش الداخلى .

٣ – الاتجاه الى الارتباط بإحدى القوتين الأعظم .

وفى غمار السباق المحموم لتكريس المشروعات الخاصة للانظمة غفلوا جميعا أو تغافلوا عن **الخطر الصهيونى** . أو هادنوه بشكل مباشر أو غير مباشر .

العنصر الاخير فى ضرب معادلة نصر أكتوبر كان يتمثل فى **ضرب الجماهير العربية وتفتيت مشاعرها الموحدة وتقديم ــ بوصلات ــ متضاربة وأجهزة رادارية متباينة الموجات والذبذبات لبلبلة هذه الجماهير وقد تم ذلك من خلال .**

١ – **اطلاق النهم الاستهلاكى** والتسابق على احراز نصيب من الثروة التى فجرتها الزيادة الفلكية فى أسعار النفط.وصاحب هذا النهم وذلك التسابق خوف وهلع لدى أبناء الاقطار النفطية الغنية من طوفان أبناء الاقطار غير النفطية الفقيرة. وأدى ذلك بدوره إلى مظاهر السلوك

الاستعلائى والى القوانين والاجراءات التمييزية فى بلاد أغنياء النفط ضد أشقائهم من فقراء العرب . كما خلق تنافسا وصراعا بين الفقراء أنفسهم وهم يتهافتون على ما يسقط من موائد الاغنياء.والنتيجة هو زيادة مشاعر الشك والازدراء والاحباط بين أبناء الدول العربية حيال بعضهم البعض .

أصبح السعودى أو الكويتى يتعالى على المصرى والفلسطينى والسورى.وأصبح المصرى والسورى والفلسطينى يمقتون معاملة السعودى أو الكويتى من ناحية،ويمقتون بعضهم البعض وهم يتنافسون على الكسب الشريف أو غير الشريف فى ــ الاقطار المضيفة . وفى خضم هذا كله كان شعور الاخوة العرب والانتماء العربى الواحد يتآكل بسرعة رهيبة ..

٢ - **الصراعات القطرية** بين الانظمة فعلت بدورها الشيء الكثير فى استعداء الشعوب العربية على بعضها البعض . فالصراع على الصحراء خلق مشاعر عداوة بين المغاربة والجزائريين . والصراع بين اليمنيين ، وبين العراق وسوريا ، وبين سوريا والاردن ، وبين مصر وليبيا، وبين ليبيا والسودان .

ثم بين بعض اللبنانيين والفلسطينيين أدى بدوره الى استعداءات شعبية عربية وغذى هذه الاستعداءات أجهزة دعاية كل نظام والاجراءات التعسفية التى استخدمها ضد أبناء الشعوب العربية التى يعادى أنظمتها .

فى خضم هذا كله أصبحت «الهوية القطرية» للمواطن أهم بكثير من « هويته القومية» بل وأصبح هناك شعور بالشماتة والتشفى فى المصائب التى تلحق بهذا القطر أو ذاك ، لا فقط على مستوى الأنظمة المتصارعة وإنما أيضا على مستوى شعوبها . وبذلك اكتملت مؤامرة الاجهاز على المشروع القومى العربى العام . وأصبح الوطن العربى فى أوائل الثمانينات لقمة سائغة لكل طامع وساحة مستباحة لكل عدو .

لذلك فليس مستغربا أن تفعل اسرائيل ما تفعله الآن فى لبنان،وما ستفعله غدا فى سوريا والاردن ــ اذا استمرت حقبة المشاريع الخاصة العربية.وليس مستغربا ــ لنفس العوامل ما تفعله أثيوبيا على حدود الصومال أو ايران على أرض العراق .

● ضرورة العودة

ربما كانت النكبات العربية فى لبنان والعراق والصومال هى الصدمات الدرامية المطلوبة

لنفيق من أهوال ما جلبته علينا ـــ المشروعات الخاصة ـــ التى تبنيناها كأقطار وكأفراد. فالمطلوب الآن هو أن ننهض سريعا ونلتف حول مشروع قومى عام .

اذا فعلنا فاننا نكون قد كرمنا ثورة يوليو فى عيدها الثلاثين تكريما حقيقيا.والاهم من ذلك نكون قد بدأنا الخطوة الاولى فى طريق الالف ميل نحو الخلاص من الكوارث الحالية والكوارث المتوقعة .

عودة الوعى مرة أخرى إلى توفيق الحكيم

طالعنا الأستاذ الكبير توفيق الحكيم منذ أيام بمقال نشر بصحيفة الأهرام (٢٨ - ١٠ -١٩٨٢) بعنوان « توفيق الحكيم ويبجن على مائدة المفاوضات » وقد اغتبط كثير من القراء ، المعجبين بالكاتب الكبير لعودته الى الكتابة بعد انقطاع طويل .

وكأحد المعجبين بكاتبنا المبدع ، لدى سبب إضافى للترحيب بمقال الحكيم ، فهو يمثل عودة أمينة الى الحق والحقيقة ، والرجوع الى الحق فضيلة .

● **الحوار حول حياد مصر بين العرب وإسرائيل**

فى اليوم الثالث من شهر مارس ١٩٧٨ ، أطلق الأستاذ توفيق الحكيم دعوة علنية على صفحات جريدة « الأهرام » وتدعو إلى « حياد مصر » بين العرب وإسرائيل . وقد فجرت تلك الدعوة وقتها حوارا واسعا ، ومساجلات حامية ، بين عدد كبير من عمالقة الفكر والأساتذة والصحفيين ورجال القانون ، فى مصر والوطن العربى طوال الشهور الثلاثة التالية. وقد تطور ذلك الحوار حول حياد مصر الى حوار أوسع حول « هوية » « وعروبة مصر » ، وحول القومية العربية . وما كان للحوار أن يأخذ الشكل الدرامى الكبير ، وما كان له أن يستأثر بصفحات الجرائد والمجلات المصرية والعربية بذلك التركيز طوال ثلاثة شهور كاملة مالم يكن لمن بدأ الحوار ثم لمن إشترك فيه من بعد ، مكانة عالية فى عالم الفكر المصرى والعربى .

بدأ الأستاذ توفيق الحكيم مقاله الأول بعنوان « الحياد » بالفقرة التالية :

— لن تعرف مصر لها راحة ، ولن يتم لها استقرار ، ولن يشبع فيها جائع إلا عن طريق واحد يكفل لها بذل مالها لاطعام الجائعين والمحتاجين ، وتكرس جهدها للتقدم بالمتخلفين ،

* الجمهورية ، ٤ / ١١ / ١٩٨٢

وتوجيه عنايتها الى الارتقاء بالروح والعقل فى مناخ الحرية والأمن والطمأنينة .. وهذا لن يكون أبدا مادامت الاموال والجهود تضيع بعيدا عن مطالب الشعب ، بدافع من مشكلات خارجية ودولية تغذيها الاطماع الداخلية والشخصيه . ما هو الطريق اذن الى واحة الراحة والاستقرار وطعام المعدة والروح والعقل ؟ أن هذه الواحة المورقة المزهرة إسمها « الحياد » وفى خمس مقالات متتابعة — أخبار اليوم ٨-٣-٧٨ ، الاخبار ١٨-٣ ، الاهرام ١٣-٤-٧٨ ، ٢١-٤-٧٨ ، والأخبار ١٢-٥-٧٨ ، فصل الاستاذ الحكيم فى الدعوة الى حياد مصر ، وفى مبررات هذا الحياد ، واستشهد بأمثلة ونماذج حيادية مختلفة .

لقد كان تفجير الحوار جزءا من **مراجعة الحقبة الناصرية** ، وهى المراجعة التى أسهم فيها الحكيم نفسه بكتابة « **عودة الوعى** » ، والذى سرد فيه سلبيات تلك التجربة وأكد فيه أنه وغيره من كبار الكتاب كانوا مخدرين مبهورين بالزعامة الاسطورية لعبد الناصر ، بدرجة « أفقدتهم وعيهم » طوال ما يقرب من عشرين سنة .

فى فترة « غياب الوعى » تلك لم يكن الحكيم على حد قوله ، قادرا على التفكير الصافى أو التقييم والنقد الموضوعى للزعيم الراحل ولمبادئه وشعاراته .

وبعد رحيل عبد الناصر بسنتين استطاع الحكيم أن يستعيد قدراته النقدية لما يجرى حوله وحول وطنه من أمور . وجاءت الدعوة لحياد مصر ، بعد ذلك بست سنوات ، استكمالا للصحوة النقدية عند الحكيم بعد « عودة الوعى » .

كما كان تفجير الحوار حول حياد مصر وهويتها متزامنا مع مجهودات التسوية السلمية للصراع العربى — الاسرائيلى ، بعد مبادرة الرئيس الراحل أنور السادات وزيارته للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ . **فدعوة الحكيم كانت فى أحد جوانبها هى المكمل النظرى والفلسفى لمبادرة السادات السياسية الدبلوماسية .**

فمبادرة السلام ودعوة الحياد تكمل كل منهما الاخرى ، وكانا معا يكونان رؤية مستقبلية واحدة لما ينبغى أن تكون عليه أوضاع المنطقة فى الامدين القريب والوسيط .

● حياد بلا سلام

لاشك أن الحكيم والسادات بالدعوة الى الحياد والقيام بالمبادرة كانا يعتقدان أن ذلك سيضمن السلام للمنطقة والازدهار لمصر . وكان هذا الاعتقاد المشترك لكل من السادات والحكيم يستند الى فهم متفائل ، أقرب الى « الطوبلوية » لطبيعة الكيان الصهيونى .

جزء من هذا الفهم المتفائل هو أن إسرائيل حقيقة تريد العيش فى سلام مع جيرانها ، وأن الصراع بينها وبين العرب يرجع الى أسباب نفسية محضة — ٩٠ فى المائة — هى الخوف والشك المتبادل .

وبما أن مصر هى أكبر وأهم أعدائها ، فبمجرد أن تقدم مصر على مبادرة سلمية ، ثم بخروجها من حلبة الصراع ووقوفها على الحياد ، فإن مخاوف اسرائيل ستتبدد وتتلاشى وستعيش مع جيرانها فى سلام ووئام . بل أن إسرائيل قد تتشجع أو « تستحى » وتعطى الفلسطينيين بعض حقوقهم .

والاهم من ذلك أن مصر ستتمتع بالازدهار والرخاء والحرية فى أجواء السلام الموعود . وستصبح ، فى كلمات الحكيم « الواحة المورقة المزهرة » ، وفى كلمات الرئيس السادات « جزيرة الأمن والأمان » . وكان معظم من اختلفوا فى الرأى مع الأستاذ الحكيم لا يشاركونه هذا الفهم المتفائل لطبيعة الكيان الصهيونى .

كان من درس منا بعمق طبيعة ذلك الكيان يعلم جيدا أن **المشروع الصهيونى** هو فى جوهرة مشروع **استعمار استيطانى** ، تقوم فلسفته وديناميكية على التوسع فى أراضى الغير ، وجلب المهاجرين من أراضى طرف ثان ، وتمويل العملية بأموال طرف ثالث ، وفرض هذا كله كأمر واقع بالابتزاز وقوة السلاح .

ولكن أحلام السلام والرغبة الاصيلة فيه لدى المصريين ، والحاجة الملحة لحل مشكلات الداخل ، والتطلع الى حياة الرخاء والازدهار ، جعلت البعض يتلقف الرؤية الوردية التى صاغها الحكيم ، ويتشبث بذلك الفهم المتفائل لطبيعة الكيان الصهيونى .

ومرت السنوات ، وحدث فيها من اسرائيل ما حدث . لم تهدأ المنطقة يوما واحدا لم يتشجع الاسرائيليون على العيش فى سلام مع جيرانهم ولم يستحوا ويعطوا الفلسطينيين بعض حقوقهم المشروعة .

هوجمت عاصمة عربية قاصية هى بغداد . وضمت اسرائيل القدس العربية وضمت الجولان السورية . وغزت لبنان ، ودكت مدنها فى الجنوب . وحاصرت عاصمة عربية لأول مرة فى تاريخ صراعها مع العرب ، ثم دمرتها من الجو والبحر والبر ، وأصلت سكانها نارا حامية . ثم خططت ودبرت ونفذت أكبر مذبحة بشرية عرفها النصف الثانى من القرن العشرين . وهدد زعماء اسرائيل بالمزيد من الضرب والتدمير ، والردع والعقاب لكل من تسول له نفسه تحدى مطالبها ، سواء كان فى باكستان أو فى المغرب .

لقد فهمت إسرائيل أن مبادرة السلام المصرية هى صك استسلام ، وفهمت دعوة تحييد مصر على إنها رخصة تتيح لها المزيد من فرص التوسع والعربدة . حتى أصدق أصدقاء اسرائيل فى الغرب راعهم اكتشاف الطبيعة الحقيقية للكيان الصهيونى .

لقد تحقق حياد مصر .. ولكن لم يتحقق السلام فى المنطقة .

● عودة الوعى مرة أخرى

فى المقال الذى كتبه أستاذنا الحكيم منذ أيام يتصور الرجل نفسه على مائدة المفاوضات مع مناحم بيجين فى خريف ١٩٧٧ ، بعد مبادرة الرئيس السادات بعدة أيام . وفى هذه المفاوضات الخيالية يستحث الحكيم فى بيجين مشاعر العدالة والانصاف ، ويجادله بلطف ومودة وتعقل ، ويحاول أن يزيل مخاوفه ومخاوف اسرائيل .

منذ خمس سنوات كان الحكيم يخاطب فى بيجين صوت الضمير الانسانى ، ايمانا من الحكيم بان إسرائيل « دولة متحضرة » وإيمانا منه « بالفهم المتفائل » لطبيعة الكيان الصهيونى . وكنا نحن ــ الذين اختلفوا مع الحكيم وحاوروه وقتها ــ نتمنى أن يصدق فهمه ، وأن يثبت الزمن إننا نحن المخطئين فى ــ فهمنا المتشائم ــ لطبيعة ذلك الكيان .

بعد خمس سنوات من اللقاء الخيالى بين الحكيم وبيجين يقول الحكيم :

« كان هذا الاجتماع الخيالى ، وما جرى فيه من مفاوضات خيالية فى خريف عام ١٩٧٧ . ونحن اليوم فى خريف عام ١٩٨٢ وقد تغير الموقف . وانكشف الأمر عن طبيعة كل من الطرفين .. وظهر للعالم كله حقيقة الفلسطينيين ومنظمة التحرير من انهم شعب تائه مشرد يطلب وطنا . وان اسرائيل دولة معتدية تطلب ابادة والفضل فى ظهور الحقيقة واقناع العالم بها هو المستر بيجين نفسه ومعه جنراله شارون . وسوف يحكم عليهما تاريخ اسرائيل بأنهما أضاعا على شعبهما فرصة الحياة فى سلام بين أهل المنطقة »

حقا لقد ظهرت الحقيقة لتوفيق الحكيم بعد خمس سنوات كاملة ، بينما هى لم تغب لحظة واحدة عن البعض منا الذين تحاوروا واختلفوا معه .

فى ذلك الوقت منذ خمس سنوات رفض الحكيم أن يستمع الينا ، أو استمع لكنه لم يتفق معنا . لذلك لا فضل لنا فى اكتشافه « للحقيقة » . كان اكتشافه للحقيقة من خلال بيجين وشارون ، ومن خلال انهار الدماء الفلسطينية واللبنانية التى سالت فى بيروت ، وفى مخيمى صبرا وشاتيلا .

لقد كان ثمن اكتشاف الحقيقة ــ يا أستاذنا ــ ثمنا باهظا .. ولكننا رغم الالم والحسر ، على آلاف الضحايا من النساء والاطفال ، نقول أن بعض عزائنا هو « عودة الوعى » لأستاذنا الكبير مرة أخرى . وندعو الله أن يعود لغيره من حكامنا مثل هذا الوعى مرة أخرى .

المعــادلات الصعبــة فى التكــامل المصــرى السودانى*

فى عام ١٩٧٩ - أى منذ ثلاث سنوات قمت بدراسة ميدانية لقياس اتجاهات الرأى العام فى عشرة أقطار عربية نحو مسألة الوحدة العربية ، ومن هذه الاقطار مصر والسودان ..
الى ذلك الوقت كان بعض الحكام يتحدثون عن الوحدة ويوقعون اتفاقياتها ، ثم يتجاهلونها ، أو ينقضونها ، دون أن يكلف أحدهم خاطره بأن يرجع الى شعبه أو يجرى استفتاء حقيقيا للرأى العام .. وأقول استفتاء حقيقيا تمييزا له عن استفتاءات الـ ٩٩,٩ فى المائة التى اعتدناها فى العالم العربى خلال السنوات الاخيرة والتى لا يصدقها أحد فى الداخل أو الخارج بما فى ذلك الحكام أنفسهم .

لذلك أخذنا على عاتقنا ــ تحت اشراف مركز دراسات الوحدة العربية ــ أن نقوم بمجهود علمى جاد اشترك فيه حوالى مائة عالم وباحث اجتماعى عربى ، ولكى نجرى استقصاء حقيقيا لما نفكر فيه وما تشعر به شعوب الامة العربية ، نحو حاضرها ومستقبلها ..

ولن نطيل على القارىء بالتفصيلات الفنية والمنهجية لتلك الدراسة ، ولا بالصعوبات السياسية والامنية التى واجهت فرق البحث فى كل قطر عربى .

فقط نجتزىء بعض نتائج الدراسة التى تنير مناقشتنا لمسألة التكامل بين مصر والسودان التى وقع الرئيسان مبارك ونميرى ميثاقا لها منذ أسابيع ..

* كيف يفكر شعبا وادى النيل

قد يندهش بعض المناوئين لفكرة العروبة فى مصر أن يعلموا أن الشعب المصرى هو من أشد الشعوب العربية ايمانا بقوميته العربية (٨٦ فى المائة من الرأى العام المصرى) وأن هذا الشعور هو أقوى مايكون بين العمال والفلاحين ورجال الاعلام والتربية والتعليم والمحامين

* الجمهورية ، ١٨ / ١١ / ١٩٨٢ .

والاطباء ..

كما أن ايمان السودانيين بقوميتهم العربية كان لا يقل كثيرا ، حيث وصلت النسبة الى حوالى ثمانين فى المائة .. وهى نسبة عالية اذا أخذنا فى الحسبان أن قطاعا ليس بالقليل من أبناء السودان هم من غير العرب .. لغة وثقافة ، ويتركزون فى أقصى جنوب السودان ..

على أى الاحوال ، ايمان الغالبية الكبرى من المصريين والسودانيين بقوميتهم العربية ، وتمسكهم واعتزازهم بالانتماء لامة واحدة ، شيء وموقفهم من مسألة الوحدة شيء آخر ..

فى أمر الوحدة أو الاتحاد ، نجد أن ثلثى الرأى العام المصرى و ٥٤ فى المائة فقط من الرأى العام السودانى يعتقدون فى امكانية انجاز الوحدة (بأى صورة) فى الامد القريب .

مرجع هذه الفجوة بين ايمان الناس فى البلدين بالقومية العربية من ناحية واستبعادهم لامكانية تحقيق الوحدة فى الامد القريب من ناحية أخرى هو ، أولا ، عدم ثقة الرأى العام فى جدية الانظمة الحاكمة ..

فحينما سُئِل الناس عن **أهم عقبات الوحدة العربية** ، ذكروا خلافات الحكام فى المقام الاول، ثم ذكروا **مؤمرات القوى الاجنبية** فى المقام الثانى، ثم **التفاوت فى الثروات** ومستويات التقدم بين الاقطار العربية فى المقام الثالث ..

الاغلبية فى مصر (٧٧ فى المائة) والسودان (٦٢ فى المائة) مع ذلك ترغب فى الوحدة العربية ، وتفضل أن تكون من **النوع الفيدرالى** ، أو **الكونفدرالى** ، وأن يتم بشكل **تدريجى ، وبوسائل ديمقراطية سليمة** ..

هذا عن موقف الشعبين من الوحدة العربية بشكل عام ..

★ المعادلة الصعبة الأولى .

★ المسافة السياسية بين مصر والسودان .

فى جزء آخر من الاستقصاء سألنا أبناء كل قطر من الاقطار العربية العشرة (مصر — السودان — المغرب — تونس — لبنان — الاردن — الكويت — قطر — اليمن) عن أى الاقطار العربية يفضلون التكامل أو الاتحاد معها فى الاجل القريب .. واعتبرنا متوسط الاختيار بمثابة مؤشر (الجذب) أو (النفور) بين أبناء كل قطر تجاه الاقطار العربية الاخرى .. أطلقنا على هذا المؤشر اصطلاح «المسافة السياسية» ..

هنا نجد قوة جذب هائلة بين المصريين والسودانيين.فأكثر من ٦٦ فى المائة من

اختيارات المصريين للقطر الذين يفضلون الاتحاد معه ذهبت للسودان (يليه على بعد كبير السعودية وسوريا وليبيا). أما انجذاب السودانيين نحو مصر فقد كان أكثر قوة ، حيث أن ٨٧ فى المائة من اختياراتهم ذهبت لمصر (يليها على بعد كبير كل من ليبيا والسعودية). الطريف هنا هو أن السودانيين ليسوا فقط أكثر انجذابا للاتحاد مع مصر من أى قطر آخر ، وليسوا فقط أكثر استعدادا للاتحاد مع مصر من المصريين أنفسهم (٨٧ فى المائة مقابل ٦٦ فى المائة)، لكنهم كانوا أيضا **أكثر معرفة من المصريين بمشروعات الوحدة العربية السابقة** ، حتى تلك التى كانت مصر طرفا فيها ، ولم تكن السودان طرفا فيها .. بتعبير آخر ، الرأى العام السودانى هو أكثر الماما من الرأى العام المصرى بما يدور على الساحة العربية بصفة عامة وأكثر الماما بالمشروعات الوحدوية التى اشتركت فيها مصر بصفة خاصة ..

– واذا كانت هذه المعلومة طريفة للوهلة الاولى ، فانها فى نظرنا تمثل أحدى المعادلات النفسية الصعبة فى مشروع التكامل بين البلدين ..

– فرغم أن «الامية التعليمية» أكثر انتشارا فى السودان ، الا أن «الامية السياسية» أكثر انتشارا فى مصر ..

والسودانيون يعرفون عن مصر وتطوراتها ومشكلاتها الداخلية أكثر بكثير مما يعرف المصريون عن السودان وتاريخه ومشكلاته الداخلية ...

هذه «الفجوة المعرفية» ليست مقصورة على رجل الشارع ، وانما تصدق أيضا على « المثقفين » والمتعلمين فى مصر .. وهى فجوة تؤلم مشاعر الأشقاء السودانيين ، خاصة المتعلمين منهم ، وهم من أكثر الفئات حبا لمصر لكنهم أيضا أكثر الفئات حساسية نحو التوحد أو التكامل مع مصر ..

*** المعادلة الصعبة الثانية**

*** فجوة عدم التصديق**

الذين يذكرون منا أول مشروع وحدوى اشتركت فيه مصر مع سوريا عام ١٩٥٨ (الجمهورية العربية المتحدة) سيتذكرون على الفور الفرحة الجماهيرية العارمة التى أحاطت به ـــ لا فى مصر وسوريا وحدهما ، وانما بين كل شعوب الامة العربية .. لقد كانت تلك الوحدة الاولى فى نظر شعوب الامة هى البداية لمطلب جماهيرى عميق الجذور ، داعب خيال العرب منذ فجر نهضتهم الحديثة فى القرن التاسع عشر .. لكن فرحة الجماهير العربية بتلك الوحدة لم تدم طويلا ، وتبدد الحلم بعد ثلاث سنوات حينما وقع الانفصال عام ١٩٦١ .. وبكت الامة العربية كأشد ما يكون البكاء وأصبحت الشعوب أكثر تحفظا فى فرحها وبهجتها

عند اعلان مشروعات وحدوية جديدة ــ لا لأنها لا ترغب فى الوحدة،ولكن لأنها تحصن نفسها ضد خيبات الامل فى المستقبل.وهذا يفسر تزايد الفتور ثم عدم الاكتراث ، ثم أخيرا عدم التصديق لأى مشروعات وحدوية جديدة ..

ولا يمكن أن نلوم الشعوب العربية على ذلك.لكن اللوم يقع على عـاتق الانظمة الحاكمة التى لم تكن دائما على مستوى المسئولية القومية ، والتى ابتذل بعضها قضية الوحدة وأفاض فى الكلام عنها،وبخل بالتضحية من أجلها ..

بعض هذه الانظمة كان يوقع اتفاقيا وحدويا وهو ينوى مسبقا عدم تنفيذه ، بعض الحكام كان يدخل مشروعا وحدويا ، لكنه سرعان ما يفضه عند أول خلاف شخصى مع حاكم آخر ..

لذلك أصبحت هناك فجوة تصديق بين الشعوب والحكام .. وهى ظاهرة خطيرة ، لأن هناك احتمال أن يكون الحكام فى إحدى المرات صادقين فى نيتهم وعزائمهم ، ومع ذلك يخيب قصدهم لفتور الحماس الشعبى ..

* **المعادلة الصعبة الثالثة :**

* **التكامل بين الاستقلال والتبعية**

يمكن التغلب على الفتور أو عدم الاكتراث الجماهيرى لمشروعات التكامل العربية ــ ومنها التكامل المصرى السودانى ــ اذا كان هذا التكامل يتم فى إطار مشروع قومى أكبر من أجل تكريس الاستقلال وتقليص التبعية لقوى أجنبية .. فمن البديهى أن الناس لا تريد التكامل فى حد ذاته من أجل غاية رومانسية أو ميتافيزيقية ، وإنما تريده كوسيلة نحو حياة أفضل وكوسيلة للدفاع عن كرامة الوطن وحرية المواطن ..

فاذا أحست الجماهير من خلال قرون استشعارها التى لا تخيب ، أن مشروع التكامل يتم فى إطار مشروع أكبر لتكريس الاستقلال ، فانها يمكن أن تتحمس له.. أما اذا أحست ، من خلال قرون استشعارها،التى لا يمكن أن تخدعها أى إدعاءات من الحكام أو أى دعاوى من وسائل الاعلام أن مشروع التكامل يتم فى اطار التبعية لقوة أجنبية ، أو إنه يتم فى مناخ يتسم بالتراجع والخنوع فى وجه التحدى الخارجى ، فان الجماهير لا تتحمس له ، وقد تقف منه موقف السلبية أو العداء ..

مشروع التكامل المصرى السودانى يتم فى مناخ تختلط فيه الاشارات والمؤشرات فهو من ناحية أعلن فى أعقاب «الصيف الحزين» الذى تراجعت وتخاذلت فيه معظم الانظمة العربية أمام الهجمة الصهيونية ، والذى هرولت فيه بعض الأنظمة الى أبواب عواصم أجنبية تنشد عونها وحمايتها من الغول الصهيونى الذى أطلقته نفس هذه العواصم الأجنبية ..

ومن ناحية أخرى هناك مؤشرات تفيد «بعودة الوعى» وبضرورة المراجعة ، وبحتمية الاعتماد على الذات ، وبحيوية استرجاع ارادة المقاومة التى كادت أن تجف فى عروقنا ..

ولأن الاشارات الرادارية مختلطة ومتقاطعة ، فإن أجهزة الاستقبال الجماهيرية مضطربة مبلبلة ، ولا يعرف الناس هل يفرحون أو يتوجسون ..

★ **المعادلة الصعبة الرابعة :**

★ **التكامل والديمقراطية**

مشروعات التكامل العربية التى يمكن أن يتحمس لها الناس هى تلك التى تكرس استقلال الوطن وتحمى كرامة المواطن .. المعادلة الثالثة كانت عن استقلال الوطن .. المعادلة الصعبة الرابعة هى عن كرامة المواطن .. والذى يضمن هذه الكرامة هو الامن ضد الفقر من ناحية والامن على حريته وحقوقه الانسانية من ناحية ثانية ..

مصر والسودان قطران عربيان فقيران ، أى تجمعهما وحدة العوز والحاجة ، وليس هناك أمل قريب فى تأمين الرخاء لأغلبية سكانهما .. لكن أضعف الايمان هو توفير مزيد من الحرية السياسية والمشاركة الديمقراطية ..

فتأمين هذا الجانب من كرامة المواطن لا يحتاج الى رؤوس أموال أجنبية ، ولا إلى تكنولوجيا متطورة ، ولا الى « ثورة ادارية » كل ما يحتاجه هو اتاحة الفرصة أمام أكبر عدد من المواطنين للمشاركة السياسية الحقيقية .. ولا خوف على التكامل من مثل هذه المشاركة فكما ذكرنا فى فقرة سابقة ، أكثر من ٨٧ فى المائة من السودانيين وأكثر من ٦٦ فى المائة من المصريين يريدون هذا التكامل لكنهم يريدونه فى اطار ديمقراطى حقيقى . وقد خطت مصر فى هذا الطريق شوطا لابأس به ، برد الاعتبار لاحزاب المعارضة ولصحفها،وإن كان لايزال هناك الكثير الذى يمكن المضى فيه . يبقى أن تلحق بها السودان ، خاصة وأن الرأى العام فيها — كما ذكرنا — هو أكثر تسيسا وأكثر تهيؤا للمشاركة الديمقراطية ..

مبارك فى الهند :

من التبعية .. إلى عدم الانحياز*

زيارة الرئيس حسنى مبارك الى الهند تثير أعمق الخواطر فى قلوب المصريين والعرب وكل أبناء العالم الثالث ..
المعانى الرمزية للزيارة ربما تفوق فى أبعادها أى زيارة قام بها الرئيس المصرى منذ توليه المسئولية فى أكتوبر ١٩٨١ .
لن تجلب هذه الزيارات أى معونات إقتصادية أو مساعدات تكنولوجية ولن نحصل بها أو من خلالها على صفقات للسلاح ولن تؤدى الى ضغط فعال على اسرئيل لوقف عدوانها فى لبنان والضفة الغربية وطابا المصرية .
ومع ذلك فزيارة الرئيس المصرى للهند تثير خواطر عديدة عن الماضى والحاضر والمستقبل .

● **خواطر الماضى**

الهند ومصر ويوغوسلافيا هى الدول التى أسست حركة عدم الانحيازوالتى كان من أقطابها الاوائل كل من أندونسيا وغانا وغينيا .

كانت البداية الجنينية فى باندونج عام ١٩٥٥ ــ حيث اجتمع زعماء الدول الافريقية ــ الاسيوية المستقلة حديثا .

كان نجوم ذلك الاجتماع التاريخى كل من عبد الناصر ونهرو وشواين لاى .

كانت دول هؤلاء الزعماء وغيرهم ممن حضروا المؤتمر قد استقلت حديثا بعد كفاح طويل لتحرير شعوبها من ربقة الاستعمار الغربى ولكنها ايقنت فى السنوات الاولى صبيحة هذا الاستقلال انها جميعا لاتزال دولا تابعة للقوى الاستعمارية السابقة أو لقوى استعمارية جديدة .

فبالرغم من الاعلام الجديدة التى رفعتها هذه الدول،والاناشيد الوطنية التى رددها أطفالها،وخطوط الطيران التى حملت رموزها،وعضوية الامم المتحدة التى أعطتها بطاقة

* الجمهورية ، ٢ / ١٢ / ١٩٨٢

الاعتراف الدولى برشدها؛ بالرغم من هذا كله أيقن زعماء تلك الدول أن استقلالهم هو فى الحقيقة استقلال منقوص.وأن مقومات الاستقلال الحقيقى لا تتوفر لمعظمهم.وآن القوى الاستعمارية التى اعترفت لهم بهذا الاستقلال باليمين،قد أفرغته من محتواه باليسار قبل أن تغادر قواتها المحتلة أراضيهم .

بل أدهى من ذلك رتبت القوى الاستعمارية القديمة والجديدة الامور بحيث تظل بلاد آسيا وأفريقيا المستقلة حديثا فى حاجة دائمة اليها بل وعاد الاحتلال الى بعض هذه البلاد بأسرع مما كان متوقعا،وان كان فى صور جديدة وثياب خادعة.وكانت الحرب البادرة بين المعسكرين الغربى والشرق على أشدها فى تلك السنوات (منتصف الخمسينات)

كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يتسابقان على مناطق النفوذ وعلى عقد المعاهدات وأحس الواعون من زعماء آسيا وأفريقيا بالخطر المحدق حتى على استقلالهم المنقوص . ومن هنا التأم شملهم فى باندونج لتدارس الامر ، والتضامن فيما بينهم ، ومحاولة شق طريقهم بين العملاقين الأعظم . وأرتأوا فيما بينهم أن الطريق هو الحياد الايجابى بين الكتلتين .

وتطور اسم هذا الطريق فيما بعد الى ما يسمى بعدم الانحياز .

وهرولت دول أخرى استقلت بعد باندونج الى الانضمام الى هذه الحركة الجديدة. وأصبحت القاهرة ونيودلهى وبلغراد هى عواصم تلك الحركة.وأصبح عبد الناصر ونهرو وتيتو هم رعاتها .

كان عدم الانحياز هو ميثاق معنوى بين شعوب العالم الثالث للتضامن فى وجه محاولات عملاقين لجرهما الى تبعية جديدة ولتقليص التبعية القديمة هكذا كانت البداية .

وكانت بداية مشجعة أعطت شعوب العالم الثالث أملا فى مستقبل أكثر استقلالا، وأرحب رخاء.ومضت الحركة فى طريقها لما يقرب من عشر سنوات تحارب معاركها على جبهات متعددة.ورغم العداء المبكر الذى أظهرته أمريكا والغرب حيالها الا أن ذلك لم يدفع دول عدم الانحياز الى الارتماء فى أحضان الاتحاد السوفيتى .

وبعد فترة وجيزة أذعن الغرب لقبول الحركة على مضض،أو هكذا بدا الامر فى أوائل الستينات.وكانت رئاسة جون كيندى للولايات المتحدة رمزا لهذا القبول .

واختار الرئيس الامريكى الشاب أحسن العقول وأطيب القلوب من بنى وطنه وبعث بهم سفراء لدول عدم الانحياز .

أرسل الاقتصادى الليبرالى الفذ جالبيرث سفيرا لأمريكا فى الهند .

وأرسل أحد الأساتذة الكبار المتخصصين فى شئون العالم العربى والثقافة العربية هو جون بادو سفيرا لامريكا فى مصر .

وأسرع كيندى بتبادل الرسائل الودية مع زعماء عدم الانحياز.وأنشأ فيالق السلام فى محاولة لتقديم العون لمن يطلبه من دول العالم الثالث .

ورحب زعماء عدم الانحياز بهذه الروح الامريكية الجديدة فى البيت الابيض بل وذهب معظمهم لحضور دورة خاصة للامم المتحدة فى أواخر عام ١٩٦٠ ، لتدشين عصر جديد من الوئام والسلام والتعاون .

خواطر الانتكاس

لم تمض إلا ثلاث سنوات فى عقد الستينات الا وبدأ الأمل فى عالم جديد يهتز .

اغتيل الرئيس جون كيندى نفسه فى أواخر عام ١٩٦٣.وفى غضون فترة وجيزة بعد ذلك أطيح بعدد من زعماء حركة عدم الانحياز : سوكارنو فى أندونيسيا وكوامى نكروما فى غانا وومديبوكيتا فى مالى .

ثم أطيح بخروشوف نفسه فى الاتحاد السوفيتى،وتصاعدت الحرب فى فيتنام،ومات نهرو، وانفجر الشرق الأوسط فى حرب يونيو ١٩٦٧ وانهزم عبد الناصر .

ولم ينته عقد الستينيات ويبدأ عقد السبعينيات الا وكان العالم قد تغير تغيرا جذريا فى اتجاه مضاد لما حلم به زعماء العالم الثالث فى باندونج عام ١٩٥٥ .

واذا دققنا النظر فيما حدث فى منطقتنا نحن،نلاحظ أن هزيمتنا عام ١٩٦٧ كانت فى الواقع محاولة لضرب فلسفة عدم الانحياز ولتجربة التنمية المستقلة ولحركة التحرر العربى والقومية العربية ولتعويض المعسكر الغربى عن خسائره فى جنوب شرق آسيا .

أدت الهزيمة ــ فيما أدت اليه الى زيادة اعتماد مصر على الاتحاد السوفيتى للحصول على السلاح والعتاد والعون الاقتصادى لمواجهة العدوان الاسرائيلى المستمر .

وحدث نفس الشيء بالنسبة لسوريا.ثم جاءت حرب أكتوبر التى كان أداؤنا فيها رفيعا على كل المستويات (العسكرية والسياسية والاقتصادية والدبلوماسية).

وبدلا من أن يصبح انتصار أكتوبر نقطة تحول لتأكيد عدم انحيازنا من جديد كمصريين وكعرب اذ بعالمنا العربى يهدر تلك الفرصة التاريخية النادرة .

بل وبدأ العالم كله يتحدث عنا « كقوة سادسة » فى السياسة الدولية .

لكن زعماءنا فى مصر والوطن العربى أهدروا الفرص فاقتلعت بعض أقطارنا العربية النفوذ السوفيتى وأحلت محله التبعية للولايات المتحدة.وفى عقد السبعينيات أيضا اقتلعت بلاد عربية أخرى النفوذ الامريكى وأحلت محله نفوذا سوفيتيا.والذى ينظر الى الخريطة العربية

بامعان فى بداية الثمانينيات سيصعب عليه حقا أن يجد دولة عربية غير منحازة حقيقية .

وقد شجع ذلك كل من القوتين الاعظم على الاستخفاف بحركة عدم الانحياز فغزا الاتحاد السوفيتى بلدا غير منحاز هو افغانستان وتدخلت الولايات المتحدة فى السلفادور لاجهاض ثورتها الشعبية وتحرشت بليبيا وأسقطت بعض طائراتها فى المياه الاقليمية الليبية (صيف ١٩٨١).

ولم يكن لاسرائيل — وهى الانتهازى الدولى رقم واحد أن تضيع فرصة التشرذم العربى من ناحية،وضعف حركة عدم الانحياز من ناحية ثانية،وانشغال القوتين الاعظم بالتدخل فى أماكن أخرى من العالم من ناحية ثالثة .

بدأت اسرائيل بدورها تتحرش وتعتدى بشكل سافر لم يسبق له مثيل.وكان اختيارها الاول هو أن تضرب المفاعل الذرى العراق قرب بغداد قبل عدة شهورمن انعقاد مؤتمر عدم الانحياز بها.ثم تعتدى وتعربد فى لبنان وتحتل عاصمة قطر عربى لأول مرة فى تاريخها وهو أيضا قطر عربى من أعضاء حركة عدم الانحياز .

خواطر الأمل فى المستقبل

دارت كل هذه الخواطر فى رأسى وأنا أتحدث مع سفير الهند فى القاهرة قبل أيام قليلة من إعلان نبأ زيارة الرئيس مبارك الى بلاده .

كان الرجل سعيدا والدموع تكاد تترقرق فى عينيه فقد عاصر فى شبابه مولد حركة عدم الانحياز فى منتصف الخمسينيات .

كان مساعدا لكرشنامينون وزير خارجية الهند فى تلك الايام وكان مرافقا لنهرو فى معظم زياراته للقاهرة .

كانت تلك السنوات بالنسبة له ولبلاده وللعالم الثالث هى سنوات المجد .

وحينما وطأت أقدامه أرض مصر كسفير جديد لبلاده منذ أكثر من عام كان قلبه مثقلا بالالام لما آلت اليه حركة عدم الانحياز وكان يعز عليه أن يقترب من نهاية عمره الدبلوماسى وهو فى عاصمة أجبرتها الظروف على ادارة ظهرها لعدم الانحياز.وكان أمله أن تدير وجهها مرة أخرى وتعود الى موقع القيادة الطبيعى لها فى حركة عدم الانحياز مع الهند ويوغوسلافيا .

لم تكن سعادتى أقل من سعادة السفير الهندى بنبأ زيارة الرئيس مبارك الى بلاده.فهى أول زيارة لرئيس مصرى الى الهند فى عشر سنوات.وهى تتم قبل زيارة رئيسنا للولايات المتحدة بعدة أسابيع وهى بذلك تجسم مغزى هاما وهو أن التعاون مع دولة كبرى مثل الاتحاد

السوفيتي أو الولايات المتحدة لايتناقض مع الالتزام بعدم الانحياز ، ولاينبغي بالضرورة أن يقوض دعائم الاستقلال الوطني .

الخط الفاصل بين « التعاون » والتبعية هو خط رفيع.وكما استطاعت الهند بمهارة فائقة أن تحافظ عليه فإننا ينبغي أن نكافح فى مصر للمحافظة عليه .

ولكى لا يتحول التعاون الى تبعية يتطلب الأمر أكثر من الكلمات وأكثر من التمنيات .

ان أهم أسباب ومظاهر التبعية هو الاعتماد على الخارج لتلبية الحاجات الاساسية لشعب أى دولة وفى مقدمتها الغذاء والكساء والسلاح والدواء .

وبالقدر الذى تستطيع فيه أى من بلدان العالم الثالث أن تقلل من اعتمادها على الخارج لاشباع هذه الاساسيات بالقدر الذى تستطيع فيه أن تحول « الرغبة » فى عدم الانحياز الى « ممارسة » فعلية .

وقد استطاعت الهند بسكانها الستمائة مليون وبمواردها المحدودة وبمعدل دخلها الفردى الذى يقل عن نظيره فى مصر أن تكتفى ذاتيا من الغذاء والكساء ومعظم السلاح .

وقد خاضت الهند حربين فى العقدين الاخيرين ومع ذلك حققت كل ذلك ولم تتخل عن ديمقراطيتها لهذا فان عدم الانحياز بالنسبة لها أصبح « التزام »و« ممارسة » فى نفس الوقت .

هناك اذن الكثير الذى يمكن أن نتعلمه من الهند .

أى مصـــر ... أى وطن عـربى وأى عـودة *

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن عودة مصر إلى الصف العربى . هذا الحديث لم يبدأ فقط بعد الانسحاب الاسرائيلى من سيناء فى ٢٥ أبريل، ١٩٨٢ أو بعد إغتيال الرئيس أنور السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ . ولكنه بدأ فى الحقيقة همسا منذ أوائل عام ١٩٨١ ، ثم ارتفعت نبرته بعد ضرب اسرائيل للمفاعل الذرى العراقى فى يونيو ١٩٨١ ، وبعد غاراتها . الجوية على الأحياء السكنية فى بيروت بعد ذلك بأسابيع . ثم أصبح الحديث عالى الصوت فى أعقاب إغتيال الرئيس السادات . وكان للمواقف العديدة التى أخذها الرئيس حسنى مبارك منذ الأيام الأولى لتوليه الحكم أثر بعيد المدى فى تحويل هذا الحديث عن « عودة مصر » الى تيار قوى فى الرأى العام العربى خارج وداخل مصر . وبدأت بعض الحكومات العربية تلهث للحاق بهذا التيار — أما لقيادته . أو للتخفيف من قوته ، أو تحويله عن مساره الطبيعى . ويمكن لأى مراقب موضوعى أن يلمس تصاعد تيار « العودة » على كل المستويات الشعبية والرسمية .

● مؤتمر تونس والاحساس بالمخاطر

وفى المؤتمر الذى عقده مركز دراسات الوحدة العربية بالاشتراك مع جامعة الدول العربية فى تونس فى الأسبوع الأخير من شهر ابريل ١٩٨٢ ، اتضحت أبعاد هذا التيار الداعى لعودة مصر ، كما اتضحت أبعاد مشكلة هذه العودة . لقد كان موضوع المؤتمر هو « **الجامعة العربية بين الواقع والطموح** » وقد حشد له مركز دراسات الوحدة حوالى مائة من قادة الفكر وكبار المثقفين والأساتذة والسياسيين العرب المهتمين بالقضايا العربية القومية . وكان من بين الحاضرين رؤساء وزراء عرب ووزراء سابقون . ومنذ الجلسة الأولى للمؤتمر والى جلسته الختامية ، كان موضوع عودة مصر هو الذى يسيطر على جو المناقشات — رغم انه لم يكن مدرجا فى جدول الأعمال الرسمى للمؤتمر. لقد كان هناك اجماع

---

* الاهرام الاقتصادى ، ١٤ / ٦ / ١٩٨٢

على ضرورة عودة مصر للصف العربى . وكان المؤتمر مظاهرة قومية فريدة لم يحدث لها مثيل منذ عام ١٩٧٧ . وكانت فى ذلك تعبيرا عن هموم وأوجاع وسخط وأمال الجماهير العربية من المحيط الى الخليج . ومؤتمر تونس هو فقط مظهر واحد لهذا التيار العارم الذى يشتد يوما بعد يوم . وراء هذا التيار إحساس عميق — يتم التعبير عنه بأشكال مختلفة — بأن المخاطر الداخلية والخارجية التى تدهم الوطن العربى قد وصلت الى درجة قصوى . وان السكوت عن هذه المخاطر بعد اليوم يعتبر جريمة . وأكثر من ذلك أن الوقوف السلبى منها يعتبر **« إثما قومى »** لن تغفره لنا جميعا الأجيال العربية القادمة . ونقطة الانطلاق نحو دفع هذه المخاطر ، والتعامل معها ايجابيا ، هو عودة مصر .

ولكن السؤال الذى لا يوجد حوله إجماع هو : أى مصر تعود ؟ والى أى عرب تعود ؟ وعودة من أجل ماذا ؟

● العالم العربى الذى تعود اليه مصر

سنوات القطيعة الرسمية بين مصر وشقيقاتها العربيات لم تبدأ بزيارة الرئيس الراحل أنور السادات للقدس ، ولكنها بدأت مع بعض الأنظمة قبل ذلك بسنوات . وبالتحديد فى أعقاب حرب أكتوبر واتفاقات فض الاشتباك . وتصاعدت عملية القطيعة الى أن وصلت قمتها مع **« كامب ديفيد » وتوقيع المعاهدة المصرية الاسرائيلية.**والعالم العربى الذى قاطع مصر الرسمية تغير كثيرا ، كما تغيرت مصر نفسها طوال عقد السبعينات .

بدأ العالم العربى أثناء وفى أعقاب **حرب أكتوبر** مباشرة كما لو كان **قوة متنامية** ، لابد أن يعمل الآخرون لها حسابا . فقد كان اداء العرب عسكريا ودبلوماسيا فى تلك الحرب أداء رفيعا لم يتعود عليه العالم من قبل . وكانت طفرة أسعار البترول ، وكفاءة العرب فى استخدامه سياسيا من أجل قضاياهم القومية مسألة بارزة للعيان .

ولكن سرعان ما دهمت هذه القوة المتنامية أعراض الضعف والتحلل . فمع منتصف عقد السبعينات انفجرت الحرب الأهلية فى لبنان ، والصراع المغربى — الجزائرى على الصحراء ، والتوترات بين شطرى اليمن ، وبين مصر وليبيا ، وبين ليبيا والسودان ، وبين العراق وسوريا . ثم اتسعت الانفجارات والتوترات لتشمل مزيدا من الرقعة العربية وأقطارها . وزاد من أعراض التحلل والضعف العربى الاختناقات الاقتصادية الاجتماعية الداخلية فى عدد من الأقطار . وانفجرت هذه الاختناقات بدورها فى شكل انتفاضات شعبية فى كل من مصر وتونس والمغرب ، وأخذت فى بعض الأحيان أشكالا سلالية أو طائفية أو دينية مثلما حدث فى الجزائر ، والعراق ، وسوريا ، ومصر ، والسعودية ، والبحرين .

كذلك انقسم العالم العربى **انقساما طبقيا** حادا على مستوى الأقطار وفى داخل كل

قطر . لقد أصبحت « **القلة الميسورة** » أكثر يسرا بسبب صدف جيولوجيا طبقات الأرض المشبعة بالنفط . وأصبحت « **الأغلبية المعسورة** » أكثر عسرا بسبب ضغط السكان وتكاثرهم مع شحة الموارد ورؤوس الأموال . فى ناحية أصبح ٦ **فى المائة** من أغنياء العرب يستحوذون على حوالى **٥٠ فى المائة** من الناتج العربى الاجمالى ، وفى ناحية أخرى أصبح ٦٠ **فى المائة** من فقراء العرب لا يحصلون الا على **أقل من ٢٠ فى المائة من هذا الناتج** . ووصل معدل الدخل الفردى السنوى بين أغنى الأغنياء من الأقطار أكثر من ١٥٠٠٠ (خمسة عشر ألف) دولار ، بينما لم يتجاوز هذا الدخل الفردى السنوى ١٥٠ (مائة وخمسون) دولارا فى أفقر الأقطار العربية . ونفس الصورة المختلة فى توزيع الدخول نجدها فى داخل كل قطر عربى ـــ سواء كان غنيا أو فقيرا ـــ وان يكن بدرجات متفاوتة .

أخطر من ذلك أن أقطار اليسر وأقطار العسر على السواء قد اتبعت **نموذجا تنمويا مشوها** : يعتمد على الكم وليس على الكيف ، على الاستهلاك وليس الانتاج ، على الاستيراد وليس على التصدير ، على التبعية للخارج وليس على التنمية المستقلة ، على الانبهارى الحضارى بالغرب وليس على تأكيد الأصالة العربية واثبات الذات . وقد أسهم هذا النموذج التنموى المشوه ، مع الانقسام الطبقى الحاد بين الأقطار العربية وفى داخل كل منها ، الى تفاقم « **المسألة الاجتماعية** ».كما أدى العجز عن المواجهة الفعالة مع اسرائيل (حربا أو سلما) الى تفاقم « **المسألة القومية** ».وأدى الشيئان معا الى ذعر الحكام وخوفهم من شعوبهم ، ومن ثم عدم السماح بالمشاركة . وهو الأمر الذى أدى الى تفاقم « **المسألة السياسية** » . إننا ـــ اذن ـــ بصدد عالم عربى متشرذم داخليا وقطريا ، وتقاسى كل انظمته الحاكمة من **غياب الشرعية** مع شعوبها بسبب عجزها عن التعامل الخلاق مع المسألة الاجتماعية ، والمسألة السياسية ، والمسألة القومية . لذلك ليس من المبالغة فى شىء ان نقول ان كل نظام قطرى يواجه **أزمة حقيقية** . ومن مجموع هذه الازمات القطرية هناك **أزمة عربية قومية عامة** .

والذى يجعل الأزمة العربية أكثر شمولا وعمقا هو تحدى **الثورة الاسلامية** فى ايران .

● إبعاد التحدى الايرانى

يخطىء من يعتقد أن التحدى الايرانى هو مجرد تحد . عسكرى للعراق ودول الخليج . فالبعد العسكرى يمكن التعامل معه ان لم تكن له أبعاد أخرى أكثر خطورة على الأنظمة العربية . وأقصى درجات التعامل مع التهديد العسكرى الايرانى على العراق هو دعم العراق بالسلاح وبالرجال من الدول العربية ـــ على كل ما فى ذلك من استنزاف للموارد العربية والايرانية على السواء . بل ان الدول الكبرى لحساباتها الجيوبوليتيكية الخاصة بها ـــ لن تسمح بأى انتصار عسكرى ايرانى كاسح يخل « بالتوازن الاستراتيجى الضيق » فى المدى القصير

بمنطقة الخليج .

ولكن الانتصار الايرانى المحدد ــ استرجاع الأراضى التى احتلتها العراق ــ يعنى انتصارا معنويا هائلا للثورة الايرانية . ويعنى هذا بدوره توطيد دعائم نموذج الثورة الاسلامية بصياغاتها الخومينية . وينطوى على فشل محاولات خنقها فى المهد ، أو احتوائها داخل الحدود الايرانية . الاحتمال الأكبر هو أن هذا النموذج سيكتسب جاذبية شعبية فى أقطار عربية وإسلامية أخرى . فرغم كل تطرفات الثورة الايرانية ، ورغم فداحة كمية الدماء التى سفكتها ايران نفسها ، ناهيك عما سفك فى حرب الخليج ، الا انها تبقى بعد ذلك كله « ثورة شعبية ». وكلمة ثورة وكلمة شعبية كل منهما فى حد ذاته يرسل قشعريرة الخوف والفزع فى شرايين عدد من حكام المنطقة .

● أى مصــــر تعـود

مصر التى قادت العرب فى الخمسينيات والستينيات كانت «مصر الناصرية». ومصر عريضة فى الوطن العربى على امتداده من المغرب الى العراق . وحين قادت مصر أمتها العربية الناصرية كان لديها « مشروع قومى » متكامل مفهوميا . فقد كان يقوم على عدة دعائم منها : العمل من أجل إنجاز الوحدة العربية ، وتأكيد الاستقلال الوطنى ، وتقليص التبعية ، وبناء نموذج تنموى فريد عماده التصنيع والاعتماد على الذات . وقد كان لهذا المشروع القومى جاذبية شعبية هائلة من المحيط إلى الخليج . وأضاف الى هذه الجاذبية عاملين . أولهما شخصية عبد الناصر الكارزمية . وثانيها الثقل الحضارى والسكانى والعسكرى لمصر فى المنطقة . ورغم تعثر هذا المشروع وانتكاساته العديدة فى مجال التطبيق إلا أنه ظل معبرا عن آمال جماهير عريضة فى الوطن العربى على امتداده من المغرب الى العراق . وحين قادت مصر أمتها العربية فى سنوات السادات الأولى كان همها الأكبر صيانة التضامن العربى واعداد المسرح الاقليمى لحرب تحرير الأرض التى إحتلتها اسرائيل فى حرب ١٩٦٧ . ورغم أن المشروع الساداتى كان أكثر تواضعا وأقل جاذبية للجماهير العربية ، الا أنه فى سنواته الأربع الأولى حقق نجاحا باهرا . وكانت قمة نجاحه حرب أكتوبر المجيدة ، التى أعادت للعرب جميعا إحساسهم بالكرامة والثقة . كما أعادت إليهم ــ أو إلى بعضهم ــ الجزء الأعظم من ثرواتهم النفطية .

ولكن كما ذكرنا فى فقرة سابقة ، كانت قمة النجاح فى أكتوبر هى بداية عملية تدهور تدريجية للأوضاع العربية هنا وهناك . وبالتباعد المطرد بين مصر وشقيقاتها العربيات ، فقدت المنطقة العربية « ضابط ايقاعها » ، و « جهازها العصبى القادر » على الضبط والتحكم والتقنين . وفى قمة القطيعة ــ السنوات التالية فى الحقبة الساداتية ــ كانت مصر قد حاولت أن تشق طريقها منفردة أو بمعاونة آخرين من خارج المنطقة . بل وقد راود مصر الساداتية « مشروع خاص » تصبح بمقتضاه جزءا من « الغرب المتمدين » ، تنقل منه وعنه تجربته

التنموية ، وتجربته التكنولوجية ، وتجربته الديموقراطية . وكان هذا المشروع ينطوى فى أحد جوانبه على كسر إحتكار اسرائيل لتجربة الغرب ، وحب الغرب ، ومساعدات الغرب ، والجانب الأكبر فى المشروع الساداتى ، هو الذى أغضب العرب كثيرا كان المصالحة التاريخية بين مصر واسرائيل .

لذلك فمصر التى يعود اليها العرب ، ومصر التى تعود إلى العرب ليست تماما مصر التى عرفوها فى الحقبة الناصرية ، ولا مصر التى عرفوها فى أوائل الحقبة الساداتية . ولكنها مصر فى أواخر الحقبة الساداتية : مصر الانفتاح الاقتصادى ، ومصر التى دخلت فى تجربة ديمقراطية متذبذبة ، ومصر المتصالحة مع اسرائيل ، ومصر الصديقة للغرب .

واذا كان هناك عرب لايحبون مصر هذه بملامحها الرسمية الأربعة ، فهناك مصريون لا يحبونها أيضا . ولكن المسألة فى هذه اللحظة ليست حبا أو كراهية لهذه الملامح فى مصر الرسمية . فهذه الملامح هى تعبير عن واقع أرسى بعض جذوره فى أرض الواقع المصرى ، كما أرست الثروة النفطية بعض جذورها فى أرض الواقع العربى ، وكما أرست الثورة الايرانية بعض جذورها فى أرض الواقع الاسلامى وكما أرسلت السياسات الاسرائيلية العدوانية بعض جذورها فى أرض الواقع الشرق أوسطى .

● **خطر التوقعات العربية لعودة مصر**

إن عددا كبيرا من الأشقاء العرب الساعين بكل اخلاص لعودة مصر الى الصف العربى يحملون فى أعماقهم توقعات هائلة لمايمكن أن تحدثه هذه العودة.هناك احساس ، يعبرون عنه صراحة أو ضمنا ، بأن هذه العودة ستحل كل مشكلات الوطن العربى . وكأن مجرد العودة هو « عصا سحرية » ستمحو كل الآفات والأوجاع.وهذا ليس صحيحا ، والامعان فى هذا التصور لن ينتج عنه إلا مزيدا من الاحباط. فمصر التى تعود إليهم، تعود وهى ماتزال مثخنة بجراح حروب طويلة ، ومكتظه بسكانها ، وفقيرة فى مواردها ، وتنوء بأثقال الديون الخارجية ، وقواتها المسلحة لم تعوض كل السلاح الذى فقدته فى آخر حروبها ، وتعتمد على الخارج لمساعدتها ماليا ولسد فجوة العجز الغذائى لملايينها الذين يهرولون نحو رقم الخمسين ، ومرافقها مهلهلة.هذه الحقائق جميعا أصبحت جزءا من الوعى الوطنى المصرى . وقد جعلته أكثر واقعية فى أحلامه ، وأكثر عقلانية فى سلوكه .

ولكن هذه الواقعية والعقلانية لم تنس مصر الرسمية ولا مصر الشعبية أهمية عودتها إلى الصف العربى . فبقدر ما كشفت سنوات القطيعة عن عجز العرب بغير مصر فى مواجهة المخاطر الداخلية والخارجية، بقدر ماأدركت مصر محدودية المشروع الخاص بعيدا عن أمتها العربية . وان كانت مصر قد مضت فى طريق منفرد وحدها فلاشك انها ادركت أنه طريق

مسدود أو شبه مسدود. بل انها ادركت ان هذا المشروع الخاص يمكن أن يفجر مصر من الداخل ، كما فجرت مشاريع خاصة أخرى أقطارا عربية أخرى من الداخل .

● مالذى ينبغى أن يتوقعه العرب من مصر ؟

لن تستطيع مصر ولن ترغب فى قيادة العرب فى مواجهة عسكرية مع الكيان الصهيونى فى الاجلين القريب والمتوسط . ولكن لهم أن يتوقعوا أن تقودهم مصر فى مواجهة دبلوماسية وسياسية ضاغطة على اسرائيل لاستخلاص حق الفلسطينيين فى تقرير المصير ، ولتحرير الاراضى المحتلة منذ ١٩٦٧ ، ولاحتواء المطامع الاسرائيلية فى جنوب لبنان .

لن تستطيع مصر ولن ترغب فى خنق الثورة الايرانية بالسلاح أو بغير السلاح . ولكن لهم أن يتوقعوا منها الدعم الدبلوماسى والمساعدة العسكرية فى الدفاع عن حدودهم فى حالة التهديد المسلح لها من ايران .

لن تستطيع مصر ولن ترغب فى حماية أى نظام عربى من القوى الشعبية الداخلية الساخطة أو الغاضبة على حكامها . ولكن لهذه الانظمة أن تتوقع من مصر دعم جهودها التنموية بما تستطيع مصر من قوى بشرية وخبرات تقنية فى مواجهة التخلف المادى أو الحضارى الذى يولد هذا السخط فى المقام الأول .

أهم من كل ذلك تستطيع مصر أن تقدم لشقيقاتها العربيات نموذجا فى التطور الديمقراطى يمكن الاحتذاء به تدريجيا ، انطلاقا من أن المناعة الحقيقية ضد التقلصات الداخلية والتهديدات الخارجية هو تماسك ومشاركة المجتمع فى صياغة حاضرة ومستقبلة . هذا النموذج الديمقراطى لا يحتاج الى رؤوس أموال ضخمة ، ولا الى تكنولجيا متقدمة ، ولا الى جيوش جرارة أو سلاح متطور . هو فقط يحتاج الى **الجهاد الاكبر** من الحكام ضد نزوات الاستبداد فى الأمد القصير ومع مصالحهم فى الامد الطويل. ويحتاج الى الممارسة من المحكومين تدريجيا دون أن يضيق الحكام ذرعا ببعض مظاهر سوء الاستخدام فى البداية . **مصر الديمقراطية هى** مصر التى يمكن أن يرجو العرب منها خيرا . حتى ما يضايق بعضهم الآن من القيود التى فرضتها اتفاقيات كامب ديفيد على مصر لا سبيل الى الفكاك منها الا بارادة شعبية تعبر عن نفسها ديموقراطيا .

اذا إستطاع العرب أن يقبلوا مصر الديموقراطية ، واذا استطاعوا ان يحذو حذو مسيرتها ولو بخطى متفاوتة ولكن فى نفس الاتجاه فانهم جميعا سيستطيعون ان يضعوا حدا لعصر الانحطاط الذى يعيشون فيه منذ أكثر من عشر سنوات . ومعا سيستطيعون ان يرسموا مشروعا مشتركا للمستقبل .

● **ما الذى تتوقعه مصر من العرب**

مصر تدرك أن الرغبة الشعبية العربية فى عودتها لاشك فيها ، ولا شبهة فى أصالتها واخلاصها . وهى متبادلة على الجانبين . ولكن الذى تحوم حوله بعض الشبهات هو بعض المواقف الرسمية . فمن الانظمة من يريد عودة مصر فقط من أجل التصدى لما يتصورونه خطرا ايرانيا على الخليج أو خطر سوفيتيا على النفط العربى . ومن الانظمة من يريد عودة مصر ليخلق معها محورا ضد محاور عربية أخرى تهدده أو تبتزه . وطبعا هناك قلة من الانظمة لا تريد عودة مصر إلا فى صورتها الناصرية ، ونظام واحد على الاقل لا يريد عودة مصر الى الصف العربى فى أى صورة .

ولكن أيا كانت الاسباب الظاهرة أو المستترة التى تجعل معظم الانظمة راغبة فى عودة مصر ، فلابد لهم جميعا آن يدركوا آن مصر العائدة ليست مصر الناصرية ولا مصر الساداتية . ولكنها مصر المباركية التى مازالت ترتب بيتها من الداخل ، ومازالت تحاول صياغة مشروع وطنى ومشروع قومى جديدين تستفيد فيهما . من دروس النجاح والفشل فى العقود الثلاثة الماضية . وأغلب الظن أن مصر المباركية ستكون فى هذا الصدد نقطة هندسية متوسطة بين مصر الناصرية ومصر الساداتية . وفى هذا السعى لصياغة مشروعاتها تتوقع من العرب أن يساعدوها بعدم المزايدة الديماجوجية قوميا وأن يدركوا أن لمصر التزامات تعاهدية لابد أن تراعيها فى المستقبل المتطور.ومصر المباركية تتوقع منهم أن يساعدوها ماليا بقدر ما يستطيعون حتى تصبح أكثر تحررا من قيود التبعية للخارج ، وبالتالى يصبحون هم أيضا أقل تبعية . وهى تتوقع منهم أخيرا أن يدعموا جهودها الدبلوماسية والسياسية فى إحتواء الخطر الصهيونى وفى استرداد الحقوق العربية .

ان مصر بروح المسئولية القومية سارعت الى دعم العراق ــ رغم عدم موافقتها على حربه مع ايران ، ورغم عدم وجود علاقات دبلوماسية ، ورغم ان قمة القطيعة العربية الرسمية كانت قد دشنت فى بغداد . فعلت مصر ذلك كله بلا غوغائية أو شعارات عنترية . وهى تتوقع أن يكون سلوك العرب نحوها على نفس المستوى من الالتزام القومى العقلانى فى التعامل . وإلى أن نصل إلى ذلك المستوى العقلانى فى التعامل سيظل لكل عربى من المحيط الى الخليج وطنان . وطنه الأصلى ومصر كوطنه الثانى .

الفصل السابع

مصر تراجع نفسها
عبد الناصر والسادات
وثورة يوليو

- ☐ عبد الناصر والسادات .
- ☐ الفلسفة العامة لعبد الناصر والسادات .
- ☐ المسألة الاجتماعية بين عبد الناصر والسادات .
- ☐ التوجهات التنموية بين عبد الناصر والسادات .
- ☐ العروبة بين عبد الناصر والسادات .
- ☐ لماذا كان عبد الناصر زعيما قوميا ؟
- ☐ ثورة يوليو وإعادة تفسير التاريخ .

عبد الناصر والسادات *

جمال عبد الناصر وأنور السادات هما نتاج جيل واحد ، من نفس الأرض المصرية ، ومن نفس الطبقة الأجتماعية ، ومن نفس الخلفية التعليمية والمهنية .

كلاهما اشترك فى تنظيم الضباط الأحرار . كلاهما كان ساخطا على النظام الملكى ، بكل ما كان يمثله ذلك النظام اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً كلاهما كان يائسا من اصلاح ذلك النظام بعد أن بلغ العفن بالنظام مبلغاً كبيراً كلاهما ــ مع ذلك ــ كان مملوءاً بالامل فى انقاذ مصر ، ورفع شأنها .

وكانت تلك معادلة ثورة يوليو : السخط واليأس والأمل .

جمال عبد الناصر فجر تلك المعادلة ، بعناصرها الثلاثة . وكانت الثورة ، التى قادها فى عقديها الأول والثانى . أنور السادات وجه مسيرتها فى العقد الثالث . وقد تسلم حسنى مبارك دفتها فى بداية العقد الرابع .

هذا المقال ليس عن العقد الرابع وليس عن حسنى مبارك . ولكنه عن جمال عبد الناصر وأنور السادات

هل تصح المقارنة بين عبد الناصر والسادات ؟

المقارنة بين زعيمين ، مثل عبد الناصر والسادات ، شأنها شأن أى مقارنة أخرى : فهى يمكن أن تكون مقارنة موضوعية عادلة ، وهى يمكن أن تتحول الى مفاضلات وهمية ، أو انكى من ذلك يمكن أن تتحول الى مهاترات جارحة .

وبما اننا فى هذه الأيام نحتفل بذكرى رحيل الزعيمين ، فلا بأس من الاجتهاد الهادف نحو مقارنة موضوعية عادلة .

لقد حذر الرئيس حسنى مبارك من المقارنات المغرضة بين الزعيمين . وما كان حسنى مبارك ليطلق هذا التحذير لولا انه شعر وسمع وقرأ مثل هذه المقارنات المغرضة .

---

* الجمهورية ٧ / ١٠ / ١٩٨٢

ومادام الكثيرون في داخل مصر وخارجها يقارنون بين حقبتي عبد الناصر والسادات، سواء اردنا أو لم نرد ، فلنجعل هذه المقارنة موضوعية بقدر الامكان ، ولنبتعد عن المهاترات الجارحة ، وليكن هدفنا هو استخلاص الدروس من ماضى الحقبتين لكى نتسلح بها فى حاضرنا ومستقبلنا .

ما نريد ان نقوله هو ان المقارنة جائزة ، وانها تحدث فى اذهان الناس ، وتجرى على السنة معظمهم وتجد طريقها بشكل سافر أو مستتر الى اقلام الكتاب . وليس يضير ذكرى عبد الناصر أو ذكرى السادات أن يتناول الناس حقبتى حكمهما بالنقد والتقييم .

لقد حكم عبد الناصر مصر لمدة ثمانية عشر عاماً ، وحكمها السادات لمدة أحد عشر عاماً . وفى اثناء ولاية كل منهما تبلورت مفاهيم وتكرست سياسات وممارسات ، صبغت حقبة حكمهما لمصر ، واثرت فى المنطقة كلها .

ولان البشر يتأثرون سلبا أو ايجابا بمفاهيم الحاكم وسياساته وممارساته ، فمن الطبيعى ان تستقطب اراؤهم ومشاعرهم مع أو ضد هذا الحاكم . ومن يتجاهل هذه المقولة البسيطة فهو يتجاهل قوانين السياسة والاجتماع .

والذين استفادوا من مفاهيم وسياسات وممارسات الحقبة الناصرية لا يرون الا انجازاتها ، ويتغنون بأمجادها ، ويترحمون على أيامها . فالحقبة الناصرية بالنسبة لهم هى معارك التحرير المجيدة : التخلص من النظام الملكى الفاسد ، واجلاء الانجليز ، ومقاومة الاحلاف الأجنبية ، ومعاداة الامبريالية والصهيونية ، وانشاء حركة عدم الانحياز ، وتأميم قناة السويس ، وقيادة الحركة القومية العربية .

والحقبة الناصرية فى نظرهم لا تعنى الا معارك بناء مجتمع الكفاية والعدل : بناء السد العالى والقطاع العام ، والتصنيع ، والقضاء على الاقطاع ، والاصلاح الزراعى ، واعادة توزيع الثروة والسلطة لصالح الطبقات الكادحة من العمال والفلاحين والطبقات الوسطى .

الذين استفادوا من مفاهيم وسياسات وممارسات الحقبة الساداتية لا يرون ايضا الا انجازاتها ويحاولون الدفاع عن دعائمها ورموزها-فالحقبة الساداتية بالنسبة لهم هى نصر اكتوبر العظيم ، وسيادة القانون ، والتحول الى الديموقراطية التعددية ، ونهاية الحراسات والاعتقالات ، والانفتاح على العالم ، واقتلاع النفوذ السوفيتى ، ومبادرة السلام مع اسرائيل والتصالح معها

والحقبة الساداتية ، لمن استفادوا منها وما يزالون يحملون أعلامها ، هى الحقبة التى أنهت نظام

« الحاكم الواحد ، والحزب الواحد ، والكاتب الواحد »

حرب الخنادق فى السياسة المصرية

هذا الجزء من السجال بين انصار الحقبتين يتركز حول انجازات كل من الزعيمين . ورغم ما فيه من بعض المبالغة من أنصار هذه الحقبة أو تلك الا أنه فى حد ذاته لا ضرر منه . ولكن ليت الامر توقف عند هذا الحد .

فالشائع اكثر من ذلك هو أن أنصار كل حقبة ليسوا على استعداد لأن يتذكروا اخطاء الحقبة التى يحملون أعلامها . هناك غياب يكاد يكون كاملا لاى مراجعة موضوعية نقدية جادة من اصحاب كل حقبة . وفى المقابل هناك استعداد وحشى لنهش الحقبة التى لم يستفيدوا منها ، أو اضيروا من سياساتها ، أو قاسوا من ممارساتها ، هذا الاستعداد الوحشى للنهش والافتراء حول العلاقة بين أنصار الحقبتين الى حرب خنادق سياسية وأعلامية .

فالحقبة الناصرية ، فى نظر معظم من استفادوا أو شاركوا فى الحكم أثناء ولاية الرئيس السادات ، لا تعنى إلا الحراسات والاعتقالات ، ومراكز القوى ، والتغلغل السوفيتى ، والهزيمة ، والانغلاق ، والخراب الاقتصادى . ولا يبدو لهذه الحقبة فى نظرهم اى انجازات .

وفى المقابل ، لايرى من استفادوا من الحقبة الناصرية فى حكم الرئيس السادات الا عصر الانحطاط والفساد والنهب ، والتفريط فى السيادة الوطنية ، والتبعية للغرب ، والتخلى عن دور مصر القيادى فى الوطن العربى ، واهمال مصالح الطبقات الكادحة ، وتخريب الاقتصاد ، وترويج النهم الاستهلاكى والانشطة الطفيلية ، والاستدانة من الخارج ، والمسخ الحضارى . ولا يبدو للحقبة الساداتية فى نظرهم اى انجازات تستحق الذكر أو التنويه .

من حرب الخنادق الى حرب الابادة الفكرية

ان معظم من يقودون حرب الخنادق على الساحة الوطنية تحت اعلام ناصرية أو ساداتية هم ممن فى خمسينات العمر أو يزيد . وقد اشتد التراشق بينهم فى الشهور الاخيرة بشكل متصاعد ، ويوشك أن يحول حرب الخنادق الى حرب « ابادة فكرية »

وهم فى هذه الحرب ينسون ان اكثر من نصف سكان مصر قد ولدوا بعد ثورة ١٩٥٢ . وان معظم هؤلاء لم يعيشوا الحقبة الناصرية ، أو شهدوها فقط كأطفال . وهم ينسون ان شباب مصر فى حاجة الى معارك الحوار وليس الى حروب الابادة الفكرية .

فى معارك الحوار ، قد يبدأ كل طرف من نقطة مختلفة ، ولكنه على استعداد لرؤية وجهة نظر الاخر ، وكل طرف مهيأ لامكانية الاقناع والاقتناع ، فى سعى مخلص لتوسيع رقعة « الحقيقة » .
اما فى معارك الابادة الفكرية ، فلا مكان لوجهة نظر اخرى ، ولا فرصة لتفسير بديل لاحداث الماضى والحاضر .

فى معارك الابادة الفكرية هناك فقط وجهة نظر واحدة ، وتفسير واحد ، وكل من يدعى غير ذلك فهو كاذب ، أو موتور ، أو مأجور .
معارك الابادة الفكرية هى ثنائيات استقطابية : ابيض أو اسود ، « انفتاح » أو « انغلاق » ، قطاع عام أو قطاع خاص ، « اشتراكية خراب » أو « رأسمالية فساد » .. وقس على ذلك ثنائيات أخرى كثيرة .

معارك الابادة الفكرية هى معارك « صفرية » ، يعتقد المتعاركون فيها ان التزحزح عن أى موقع أو موقف معناه الهزيمة الفانية . ولكن « الحق » هو الضحية الكبرى فى معارك الابادة الفكرية ، وشباب هذا الوطن هو الخاسر الاكبر من جراء هذه المعارك
شباب مصر هم نصف المجتمع ونصف الحاضر ، وهم كل المجتمع وكل المستقبل فى غضون سنوات قليلة قادمة ، ومعارك « الابادة الفكرية » بين « الكبار » تبلبل « الشباب » وتحطم القيم ، وتفقدهم الثقة فى مجتمعهم وفى قياداتهم

● الخيارات والمناهج

الشباب فى حاجة الى معارك الحوار الهادف الذى ينير امامه طريق المستقبل . واذا كان لنا ان نقارن بين عبد الناصر والسادات فلتكن المقارنة محكومة بتوضيح فلسفة كل منهما ، والظروف الموضوعية التى أملت هذه الفلسفة وما ترتب عليها من سياسات ، وما حققته من انجازات ، وما شابها فى التطبيق من اخطاء .

لتكن المقارنة محكومة بتوضيح معدلات الاداء لكل حقبة ، والشرائح الاجتماعية التى افادت واستفادت من هذا الاداء . وليكن معلوماً ومقبولاً ان كل فلسفة ، يترتب عليها خيارات سياسية واجتماعية تفيد البعض ولا تفيد البعض الاخر . وقد لا يتساوى البعض والبعض الاخر فى العدد أو القوة . المهم أن يكون للبعض والبعض الاخر فرصة التعبير والتنظيم والحوار والتنافس فى اطار من الديموقراطية وسيادة القانون .
لقد كان عبد الناصر يمثل فلسفة وخياراً ومنهجاً . وكان السادات يمثل فلسفة أخرى ، وخياراً أخر ، ومنهجاً أخر . وكان لكل منهما انجازاته وأخطاؤه . ومن حق الاجيال الجديدة ان تقارن بينهما موضوعياً ومن حقها أن تختار فلسفة هذا أو ذاك ، أو ترفضهما ، أو توفق بينهما فى مشروع قومى حضارى جديد .

الفلسفة العامة لعبد الناصر والسادات *

طرحنا فى مقال سابق مقولتين الأولى هى امكانية المقارنة بين عبد الناصر والسادات ، حيث ان كلا منهما حكم مصر لسنوات طويلة ، وترك بصماته على خريطة المجتمع والمنطقة وعلى علاقات مصر الخارجية ..

والمقولة الثانية هى ضرورة ان تكون مثل هذه المقارنة موضوعية وعادلة وبعيدة عن المهاترات وعن الوان التجريح الشخصى لكلا الرئيسين الراحلين ..

وقد أكدنا ان المقارنة بين حقبتى عبد الناصر والسادات ، تدور فى عقول الناس وعلى السنتهم ومن خلال اقلام بعضهم ، فى كل الاحوال سواء اردنا أم لم نرد وقلنا انه مادامت هذه المقارنة تحدث ، فينبغى ترشيدها من ناحية ، وينبغى توظيفها لخدمة الحاضر ولبناء المستقبل من ناحية أخرى .. وقد أدركت منذ البداية ان محاولة المقارنة الموضوعية الهادفة ستغضب الكثيرين من أنصار هذه التجربة أو تلك ، ومع ذلك فأن إحدى الوظائف الاجتماعية للمثقف فى وطنه هى ان لا يتردد عن الاجتهاد فى اى مجال يشعر فيه ان لديه ما يقدمه خدمة للصالح العام ..
ان من يطالع الصحافة المصرية (الحزبية وغير الحزبية) فى الشهور الاخيرة لا يملك الا ان يخرج بنتيجة مفزعة ، اشرنا اليها فى الاسبوع الماضى .. وهى ان النقاش حول عبد الناصر والسادات ، قد تحول من الحوار الهادف ، الى ما يشبه (حرب الخنادق) ثم تحول — أو كاد ان يتحول الى حرب (ابادة فكرية) ان ما احاوله فى هذه المقالات هو العودة الى الحوار المستنير ...

التجربة الشخصية

لقد اوضحنا ان انصار كل حقبة والمدافعين عنها ، والذين يرفعون اعلامها ، هم ممن شاركوا

* الجمهورية ، ١٤ / ١٠ / ١٩٨٢

أو استفادوا من هذه الحقبة او تلك وهذا شيء طبيعي.والاستفادة هنا لا تعنى فقط الاستفادة المادية وانما ايضا تشمل الاستفادة المعنوية والادبية ، وتشمل الاشباع الوطنى والقومى.

وقد ورد لى رسالة من قارىء يقول فيها (انك كأى مصرى لابد أن تكون قد استفدت أو اضرت من حقبة عبد الناصر أو من حقبة السادات .. فلماذا تعتقد انك ستكون اكثر موضوعية ونزاهة فى المقارنة بينهما) ؟

وبدون تبديد لوقت القارىء فى امور شخصية فأننى اقرر اننى كغيرى من الالاف من ابناء الفلاحين قد استفدت من الحقبة الناصرية التى فتحت لى مجالات التعليم على مصراعيها فى الخمسينات والستينات وربما لم تكن مثل هذه الفرصة تتاح لى لولا قيام الثورة المصرية فى يوليو ١٩٥٢ ..

لكن هذا التعليم نفسه ، وخاصة فى ميدان العلوم الاجتماعية ، هو الذى يدفعنى الى التدقيق والتحليل والتقييم لكل ما يحدث على الساحة الوطنية المصرية ، وعلى الساحة القومية العربية .. وليس لدى إدعاء بالموضوعية الكاملة . ولكن لدى إدعاء بأننى أجتهد لكى أكون موضوعيا ، وللمجتهد أجران ان أصاب ، وأجر واحد إنْ لم يصب .. ويكفى هذا القدر من الحديث عن الذات ..

الفلسفة العامة لعبد الناصر

عبد الناصر والسادات هما من ابناء جيل واحد ، وينحدران من نفس الطبقة الاجتماعية ، وكانا رفيقى نضال ضد العهد الملكى البائد ، وكانا عضوين فى مجلس قيادة الثورة وظلا يعملان معا طوال ثمانية عشر عاما (١٩٥٢ — ١٩٧٠) فكيف توجد كل هذه الخلفية المشتركة ، وكل هذا التوازى والتقاطع فى سيرتهما الشخصية ثم يتبع كل منهما فلسفة عامة مختلفة عن الاخر ؟!

والاجابة على السؤال تبدأ من ان الفترتين الزمنيتين مختلفتين ، وهيكل المجتمع المصرى فى كل فترة يختلف عن الفترة السابقة ، وكذا التحديات المطروحة فى كل فترة داخليا وخارجيا وكل هذا يدخل فيما يمكن تسميته بالظروف الموضوعية التى تخرج عن ارادة الحاكم اى حاكم .

لكن الاجابة لا تكتمل اذا ما توقفنا فقط عند حدود تلك العوامل الموضوعية.هناك بالاضافة اليها العوامل الذاتية والشخصية ، فهذه الاخيرة تكون ادراكات الحاكم وتحدد تفضيلاته من بين ما توفره الظروف الموضوعية من خيارات عديدة .

بل ان الحاكم قد لا يرى احيانا كل الخيارات المتاحة امامه ، بتأثير من يحيطون به من معاونين ومرؤوسين.فهؤلاء هم بمثابة الحراس أو البوابين ، الذين يتحكمون فى تدفق المعلومات ، أو فى تشويهها ، أو فى «تزويقها» . وقد يكون استعداد الحاكم نفسه محدودا للقراءة والاطلاع او للاستماع الى وجهات النظر المتباينة وقد يبالغ من يحيطون بالحاكم فى تهويل المخاطر أو فى الاستخفاف بها

ما نريد ان نخلص اليه هو ان الحاكم فى النهاية انسان مثل باقى البشر .. فله تاريخه الشخصى وله خلفيته الطبقية التى قد يظل اسيرا وخادما لها ، أو قد يدير لها ظهره مفضلا ان يتجاوزها لخدمة طبقات أدنى ، أو لخدمة طبقات أعلى ، والحاكم كأى إنسان يتأثر بكمية مايتساقط عليه يوميا من معلومات سواء من أفراد أسرته ومن أصدقائه أو من معاونيه أو ممن يختار التحالف معهم اقليميا وعالميا ...

وقد اضطلع عبد الناصر بمهام الحكم وهو فى مقتبل الثلاثينات ، اى انه كان فى ذروة شبابه .. والشباب فى حد ذاته يعنى المثالية اللهفة والطموح والتحدى ..

كان عبد الناصر من الجيل الغاضب الذى تبلور وعيه السياسى من خلال التيارات الفكرية للاحزاب والتنظيمات السياسية الغاضبة ، والتى لم تكن جزءا من السلطة فى العهد الملكى . وكان عقد الاربعينات بالذات يمثل قمة هذا الغضب وكانت الروافد الفكرية التى تساقطت على عقل عبد الناصر فى تلك السنوات هى :

* مصر الفتاة (حزب مصر الاشتراكى فيما بعد) .
* الاخوان المسلمون
* الحزب الوطنى القديم
* الطليعة الوفدية
* الفكر الماركسى

وقد كانت مجموعة الضباط الاحرار هى خليط من القارئين أو من المؤمنين بهذه الادبيات .. ورغم ما قد يبدو بين هذه الروافد الفكرية من تناقض مثل فكر الاخوان المسلمين والفكر الماركسى الا انه كان يجمع بينهما جميعا نقدها الاجتماعى اللاذع للنظام الملكى القائم .. وكان يجمع بين من يروجون لهذه الافكار صفات الجدية ، والاستعداد للتضحية والنزاهة ، وعدم التورط او التلوث فى لعبة السباق على كراسى الحكم ..

والمتأمل لكل التوجهات الرئيسية للحقبة الناصرية يمكنه ان يجد البذور الجنينية لكل توجه فى واحد او اكثر من هذه الروافد الفكرية التى ازدهرت فى الاربعينات واوائل الخمسينات .. ففكرة الاصلاح الزراعى ، مثلا ، نبتت وترعرعت فى أدبيات مصر الفتاة والطليعة الوفدية ..

كذلك كانت افكار التأميم والعدالة الاجتماعية من اركان الفكر السياسى لكل من مصر الفتاة والاخوان المسلمين ، على التوالى .. وكان التأكيد على الاستقلال الوطنى ومعاداة الاستعمار هو القضية الرئيسية ، وربما الوحيدة التى انشغل بها الحزب الوطنى (القديم) وكان التأكيد على دور مصر العربى وعلى مبدأ الحياد بين الكتل العالمية المتصارعة ، ونبذ الاحلاف من الافكار التى روجت لها كل من الطليعة الوفدية والاخوان المسلمين ومصر الفتاة .

كانت عبقرية عبد الناصر انه فى خلال السنوات القليلة التى أعقبت الثورة نجح فى ان ينسج من هذه الروافد العديدة فلسفة عامة لاقت قبولاً جماهيريا واسعا داخل مصر وفى الوطن العربى ، وفى العالم الثالث ..

وكانت الخطوط العريضة لهذا النسيج المتكامل هى : الاشتراكية كنظام اجتماعى اقتصادى فى الداخل،والقومية العربية والوحدة كمحور لنشاط مصر وسياستها الاقليمية ، والحياد الايجابى ومعاداة الاستعمار والصهيونية كركيزة لنشاط مصر وسياستها الدولية ..

وقد وجدت هذه الفلسفة أشمل وأوضح تعبير عنها فى صفحات الميثاق (١٩٦١).وكانت آليات تطبيق هذه الفلسفة هى جهاز الدولة والتخطيط الشامل والقطاع العام وشخصية عبد الناصر نفسه بما لها من صفات قيادية ، وبكل قدراتها على مخاطبة الجماهير والهاب حماسها وسرعة تعبئتها فى داخل مصر وعلى مستوى الوطن العربى ..

الفلسفة العامة للسادات

ماذا عن الحقبة الساداتية ، وفلسفتها العامة ، واختياراتها الاجتماعية والقومية والعالمية ؟!

بادىء ذى بدء كان انور السادات بدوره وفى شبابه نتاجا أمينا لعقد الاربعينات ، ومتأثرا بنفس الروافد الفكرية التى تساقطت على عبد الناصر .. ولكنه عندما اعتلى سدة الحكم ، كان فى **الخمسينات من عمره** ، وكانت تلك الروافد الفكرية قد تقادمت ، وبهت لونها ، وفقدت الكثير من حرارتها .

واهم من ذلك جاء انور السادات الى الرئاسة لا كثائر غاضب ، ولكن كجزء من نخبة كان قد مر عليها فى السلطة اكثر من ثمانية عشر عاما وكان قد رأى وخبر ما يحدث احيانا للمبادىء والافكار الثورية من تشوه أو ما يصادفها من تعثر ، اثناء التطبيق والممارسة .

وجاء انور السادات الى الرئاسة ومصر جريحة مهزومة ، يجثم على صدرها وعلى ارضها كابوس احتلال اسرائيلى بغيض ، استنزف قدرا كبيرا من مواردها فى المجهود الحربى،وتوقفت خطط التنمية الطموحة.لكنه فى السنوات الثلاث الاولى ظل يستمد شرعيته اساسا من خلافته لعبد الناصر ، وظل مبقيا على التوجهات الرئيسية للناصرية ، مع تعديلات جزئية محدودة استلزمتها الضرورة الموضوعية القصوى .. الى ان اتخذ قرار الحرب فى اكتوبر ١٩٧٣ وكان الاداء فيها رائعا .. واحس الرجل ـــ ومعه كل الحق ـــ ان ذلك الانجاز الهائل فى اكتوبر يبرر شرعية مستقلة ، تعطيه حرية الحركة النفسية والسياسية ..

لذلك شهدت السنوات الأربع التالية (١٩٧٤ ـــ ١٩٧٧) توجيهات جديدة ، تحمل بصمات السادات ورؤيته داخليا ، واقليمياء وعالميا .

هذه التوجهات تبلورت فى أربع سياسات مترابطة متكاملة ، هى : **الانفتاح الاقتصادى، والديمقراطية التعددية داخليا ، والتصالح مع إسرائيل إقليميا ، والوفاق مع العرب** ، وخاصة الولايات المتحدة عالميا ..

وكما حققت سياسات عبد الناصر من نجاح وكما اصابها من تعثر ، فان سياسات السادات الاربع كانت ذات سجل مختلط من التوفيق والفشل .. ان الاختلاف الكيفى بين توجهات الحقبتين لا يمكن ان تخطئه عين المراقب المحايد ، ولا يمكن ان ينكره من استفادوا او اضيروا ويحتاج تفصيل هذه الفروق الى مقالات اخرى ..

المسألة الاجتماعية بين عبد الناصر والسادات

بقدر أوجه الشبه العديدة بين عبد الناصر والسادات فى أسلوب الحكم ، بقدر ما كان بينهما من خلاف واختلاف فى النظرة والممارسة حيال « المسألة الاجتماعية » والذى نقصده « بالمسألة الاجتماعية » هنا هو طبيعة العقد الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم ، وهو ليس عقداً قانونياً مكتوباً ، ولكنه تفاهم ضمنى ، نستدل عليه من لغة الخطاب الاجتماعى ، ومن أسلوب حياة الحاكم ، ومن التشريعات والممارسات التى تؤثر فى توزيع الثروات والأرزاق بين فئات المجتمع ، ومن القيم والمعايير التى يدعو إليها الحاكم ، وتروج لها وسائل الاعلام .

هذا العقد الاجتماعى الضمنى بين النظام الحاكم وبين المجتمع ، قد يصطفى قصدا فئات معينة على فئات أخرى وقد تؤدى ممارساته الفعلية من حيث يقصد أو لا يقصد – إلى تغليب أو تكريس مصالح شريحة إجتماعية على حساب مصالح الشرائح الأخرى . لذلك ما هى الا سنوات قليلة حتى يتبلور « **تحالف إجتماعى** » أو « **ائتلاف إجتماعى** » معين حول الحاكم ونظام حكمه . ويصبح هذا « التحالف » هو القاعدة الاجتماعية السياسية التى يستند اليها النظام . وفى مقابل هذا « التحالف الاجتماعى » ينشأ عادة وبشكل تلقائى وتدريجى « **تحالف اجتماعى مضاد** » من القوى والفئات التى اضيرت من توجهات النظام المبدئية أو ممارساته الفعلية . والاطراف التى يتكون منها « التحالف الاجتماعى » للحاكم أو « التحالف الاجتماعى المضاد » ليست ثابتة أو جامدة ، وإنما يطرأ عليها التغير والتبدل طبقاً لعملية التقييم الدائم التى تقوم بها هذه الاطراف . فمنها من يبدأ بالانضمام الى التحالف الاجتماعى للنظام ، ثم تتغير مصالحه ، فيهجر هذا التحالف لينضم الى التحالف المضاد ، وقد يحدث العكس .

● **التحالف الاجتماعى فى نظام عبد الناصر**

التوجهات الاجتماعية لعبد الناصر فى اوائل الخمسينات كانت توجهات إصلاحية للنظم

---

* **الاهرام الاقتصادى ، ٢٢ / ١١ / ١٩٨٢**

الذى ورثه عن العهد الملكى . وقد يندهش الكثيرون من الاجيال الشابة أن يعلموا أن القوانين والاجراءات التى صدرت فى السنوات الاولى للثورة كان هدفها الاساسى هو زيادة فعالية النظام الرأسمالى الموروث عن العهد الملكى . حتى قانون الاصلاح الزراعى الذى صدر فى الأسابيع الأولى للثورة كانت أحد اهدافه هو تحويل كبار ملاك الارض الزراعية الى « رأسماليين صناعيين » . فالاستيلاء على جزء من املاكهم وتوزيعها على المعدمين من الفلاحين كان مقابل تعويض مالى معقول ، على أمل أن يستخدمه كبار الملاك فى استثماره فى الصناعة . كذلك سنت الثورة فى سنواتها الأولى عدة قوانين لتشجيع رأس المال الوطنى والاجنبى على الاستثمار فى الصناعة ، وهى قوانين أشبه بالقوانين التى صدرت بعد ذلك بعشرين سنة والتى عرفت فى الحقبة الساداتية بأسم قوانين الانفتاح (وأهمها القانون ٤٣ لسنة ١٩٧٤) . وحتى عندما اتخذت الثورة اجراءات « التمصير » بالاستيلاء على الشركات الاجنبية فى اعقاب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، فقد كان القصد هو نقل ملكية وأنشطة تلك الشركات إلى الرأسمالية الوطنية . وأنشأت الثورة ما كان يسمى وقتها « بالمجلس الدائم للانتاج » و « المجلس الدائم للخدمات » ، لتشجيع النشاط الرأسمالى الانتاجى الذى يساعد على تكريس الاستقلال الوطنى من ناحية ، ولضمان العدالة فى توزيع الخدمات الاساسية على أغلبية المواطنين من ناحية اخرى .

ولكن « الرأسمالية الوطنية » لم تستجب لما كانت الثورة تأمله وترجوه . فهى أما أحجمت عن الاستثمار فى الاقتصاد القومى كلية ، أو إستثمرت فقط فى الانشطة التجارية والطفيلية طوال الخمسينات . والسبب فى هذا الاحجام كان يرجع إما لعدم اطمئنانها لمن فى ايديهم مقاليد السلطة السياسية (الضباط الأحرار) ، أو لرغبتها فى الاثراء السريع من خلال الصفقات التجارية والمضاربات العقارية . وأدى اخفاق الرأسمالية المحلية عن القيام بدورها فى تنمية الاقتصاد القومى إلى دخول الدولة التدريجى فى مجالات التصنيع فى أواخر الخمسينات ، من خلال جهاز جديد سمى « بالمؤسسة الاقتصادية » . ولكن فلسفة الدولة ظلت الى ١٩٦٠ هى المنهج الرأسمالى الاصلاحى . ولم يكن هناك إلى ذلك الوقت أى حديث ذا بال عن « التأميم » أو « الاشتراكية » . وأدى نجاح « المؤسسة الاقتصادية » من ناحية ، واستمرار اخفاق الرأسمالية المحلية وأنشطتها الطفيلية من ناحية أخرى الى اتخاذ الاجراءات الاشتراكية فى أوائل الستينات . وبتلك الاجراءات أصبحت الدولة من خلال القطاع العام تسيطر على الاقتصاد القومى سيطرة شبه كاملة ، وأخذت بسياسة التخطيط الشامل ، وبتنفيذ أول خطة خمسية (١٩٦٠ — ١٩٦٥) ، وسنت العديد من القوانين التى أدت الى اعادة توزيع الثروة الوطنية والدخل القومى لصالح الطبقات الدنيا والوسطى .

هذه الاجراءات الاشتراكية فى الستينات ، مع الاجراءات الاصلاحية فى الخمسينات ، مع توجهات النظام الأخرى العربية والدولية ، أدت إلى تبلور تحالف إجتماعى عريض التف حول نظام

عبد الناصر . وظل هذا التحالف مؤيداً له ومتماسكاً من خلفه إلى حرب ١٩٦٧ . وكانت الشرائح الاجتماعية لذلك التحالف هى **الفلاحين والعمال وأبناء الطبقات الوسطى** ، أى الفئات التى استفادت فائدة قصوى من ممارسات النظام الناصرى فى السنوات الخمس عشرة الأولى للثورة . لقد فتحت الثورة أمام هذه الفئات قنوات **الحراك الاجتماعى** إلى أعلى من خلال التوسع فى التعليم والتصنيع والخدمات والعمالة ، ومن خلال أليات إعادة توزيع الثروة بالاصلاح الزراعى ، وتحديد ايجارات المساكن ، والتمصير ، والتأميم .

فى مقابل هذا التحالف الاجتماعى الناصرى ، كان هناك **تحالف اجتماعى مضاد** . **بدأت نواة هذا التحالف المضاد فى الخمسينات بكبار الملاك** (أو الأقطاعيين كما دأبت الصحافة على تسميتهم) **وبالسياسيين القدامى** من رجال أحزاب ما قبل الثورة . ثم أنضم الى التحالف فى منتصف الخمسينات معظم أعضاء **الاخوان المسلمين** . وفى الستينات أنضم الى التحالف معظم من أممت شركاتهم أو أملاكهم من « **البرجوازية الكبيرة** » وكذلك **بعض المثقفين** من ذوى النزعات الليبرالية الديمقراطية .

ولكن التحالف الاجتماعى المضاد ظل الى عام ١٩٦٧ صغيراً فى حجمه العددى ، ومحدوداً فى قدراته السياسية الحركية ، ومعزولا جماهيريا ، وظل أفراد هذا التحالف المضاد اما قابعين فى الداخل ، أو منتشرين فى الخارج (يمارسون بعض الأنشطة التجارية) .

كانت هزيمة نظام عبد الناصر فى حرب ١٩٦٧ هزيمة مروعة ، وتزامنت الهزيمة مع تعثر مسيرة النظام فى جهوده التنموية وتجميد الخطة الخمسية الثانية ، والاستنزاف المالى والبشرى لحرب اليمن . كما كشفت الهزيمة عن العديد من الاخطاء والتجاوزات فى السنوات السابقة . لذلك بدأ النظام كله يهتز . وبدأت بعض عناصر التحالف الاجتماعى للنظام تنفض عنه وتلتحق تدريجيا بالتحالف المضاد – وخاصة من بعض المثقفين وقيادات القطاع العام . ورغم اهتزاز النظام إلا انه لم يسقط أو يقع أرضاً بسبب شخصية عبد الناصر العملاقة من ناحية ، وبسبب استمرار التفاف الفلاحين والعمال والطبقة الوسطى الصغيرة من حوله ، وبسبب التحدى الجديد الذى فرضه احتلال اسرائيل لجزء من التراب المصرى .

● التحالف الاجتماعى لنظام السادات :

البذور الجنينية لتوجهات النظام الساداتى فى المسألة الاجتماعية بدأت كلها فى السنوات الاخيرة من حكم عبد الناصر . فهزيمة هذا الأخير قد أعطت فرصة للتحالف المضاد لكى تخرج من منطقة الظل التى قبع فيها لسنوات طويلة . وبأنضمام عناصر جديدة إلى التحالف المضاد

بوازع الوطنية فى المقام الأول ، فان نقد النظام الناصرى أصبح يقوم فى جزء كبير منه على مبررات وطنية مشروعة . وقد اعترف النظام بمشروعية هذا النقد ، وبدأ منذ عام ١٩٦٨ يعدل فى كثير من سياساته الداخلية كضمان لوحدة الجبهة الوطنية . ولكن هذا التعديل لم يتطرق الى جوهر المنطلقات الأساسية للنظام فى المسألة الاجتماعية .

حتى رحيل عبد الناصر المفاجىء عام ١٩٧٠ ، وتولى الرئيس السادات لدفة الحكم لم يؤد تلقائيا الى تغيير جوهر تلك المنطلقات . كل ما هنالك أن النقد للحقبة الناصرية أخذ لهجة **أكثر ارتفاعاً وخاصة بعد ١٩٧٣ . التغيير بدأ فى أعقاب حرب أكتوبر . وربما كان صدور القانون ٤٣** فى أوائل عام ١٩٧٤ هو النقطة الرمزية لهذا التحول فى منطلقات النظام الساداتى حيال المسألة الأجتماعية . مع ذلك الوقت كان الرئيس السادات قد كرس شرعيته المستقلة من خلال نصر أكتوبر ، وكان قد تخلص من بقايا الرؤوس الكبيرة التى ورثها من الحقبة الناصرية ، كما أن المتغيرات الأقليمية ، وفى مقدمتها الطفرة المالية النفطية ، والمتغيرات الدولية وفى مقدمتها التقارب مع الغرب ، وخاصة الولايات المتحدة ، كانت كلها عوامل مساعدة وحاسمة فى الأسراع بهذا التحول فى توجهات النظام حيال المسألة الأجتماعية .

عناصر التحالف الأجتماعى الذى التف حول الرئيس السادات فى البداية كانت عديدة ولكل منها أسبابه الفئوية الخاصة فى الأنضمام الى التحالف . **أحد أطراف التحالف** كان يتكون ممن أضر بهم نظام عبد الناصر اقتصاديا واجتماعيا — أى ممن خضعوا لقوانين الأصلاح الزراعى واجراءات التأميم والحراسة . **طرف ثان** فى التحالف كان يتكون ممن أضر بهم عبد الناصر سياسيا ، وفى مقدمتهم الأخوان المسلمين والجماعات الدينية الجديدة ورجال أحزاب ما قبل الثورة . **طرف ثالث** كان يتكون من المصريين الذين كونوا بجهودهم الذاتية ثروات ومدخرات متوسطة أو كبيرة فى الخارج ويودون استثمارها فى مصر ، ولكن فى ظل اطار سياسى اقتصادى جديد يضمن لهم أموالهم . **طرف رابع** فى التحالف الاجتماعى للرئيس السادات كان يتكون من بعض قيادات القطاع العام الذين وصلوا إلى أعلى مراتب هذا القطاع ، وهم مازالوا فى أربعينات أو خمسينات العمر ، ويريدون فرصا أخرى أكثر عطاء خارج القطاع العام . **طرف خامس** فى التحالف كان يتكون من مثقفى الطبقات الوسطى والعليا الليبراليين الذين أشتد توقهم لأنفتاح ديموقراطى يصاحب الأنفتاح الأقتصادى . حتى العمال والفلاحون وأبناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، وهم العمود الفقرى للتحالف الأجتماعى الناصرى ، لم يعترضوا فى البداية على سياسة الأنفتاح ، على أمل أن تجلب لهم أيضا بعض المكاسب .

اذن بدأ العقد الأجتماعى لنظام الرئيس السادات فى أوائل ١٩٧٤ بتحالف اجتماعى قوى يتكون فى معظمه من **شرائح النصف الأعلى من المجتمع** ، مع صمت أو حياء أو ترحيب سلبى من شرائح النصف الأدنى من المجتمع . ومع مرور السنوات الثلاث الأولى ، بدأت شرائح النصف الأدنى تخرج من صمتها أو حيائها وتعبر عن هواجسها فى أن العقد الأجتماعى الجديد يلحق بها

الأضرار ، بينما يفيد الشرائح العليا . وكانت **أحداث يناير ١٩٧٧ هى التعبير الرمزى عن هذه المواجس** . كما بدأت بعض أطراف التحالف الأجتماعى للنظام تنفض عنه تدريجيا ، وفى مقدمتها **الجماعات الدينية** (التى دخلت أولها فى مواجهة مع النظام فى ابريل ١٩٧٤ ، ثم فى يوليو ١٩٧٧ ، ثم كان خروج ما تبقى منها فى التحالف مع نهاية ١٩٧٧ بعد زيارة الرئيس للقدس) . وتلى ذلك خروج السياسيين القدامى والعناصر الليبرالية من التحالف الساداتى بسبب خيبة أملها فى بطء التحول الديمقراطى أو فى التراجع عن بعض مظاهره . مع أوائل الثمانينات كان التحالف الأجتماعى للنظام قد تقلص بصورة محسوسة ولم يتبق فيه إلا الشرائح التى استفادت من سياسة الأنفتاح ، أو التى استغلت هذه السياسة استغلالا طفيليا مشروعا أو غير مشروع ، أو بعض العناصر الوطنية التى لم تفقد ايمانها بجدوى توجهات النظام فى المدى الطويل .

*** لغة الخطاب الاجتماعى :**

الذى يقوم بتحليل مضمون لغة الخطاب الاجتماعى فى الحقبتين الناصرية والساداتية يلاحظ على الفور الفروق الهائلة فى توجهاتهما وفى تحالفاتهما . لغة الخطاب الناصرى كانت ـــ وخاصة من بداية الستينات ـــ تركز على « محاربة الأستغلال » وتذويب الفوارق الطبقية » ، « والكفاية فى الأنتاج والعدالة فى التوزيع » ، « والتنمية المستقلة » كدعامة للاستقلال السياسى الحقيقى ، وعلى ما أسمته « بالديمقراطية الأجتماعية » . ولم تخف لغة الخطاب الأجتماعى الناصرى المتناقضات الطبقية ، بل على العكس أبرزت وشددت على الصراع الطبقى كحقيقة اجتماعية ، وأن كانت قد حرصت على أن تدير هذا الصراع بطرق سلمية غير دموية . وقد أدخرت لغة الخطاب الأجتماعى الناصرى كل هذه الشعارات والمسميات تحت أسم « **الأشتراكية العربية** » حينا ، وتحت أسم « **التطبيق العربى للأشتراكية** » حينا أخر .

أما لغة الخطاب الاجتماعى فى الحقبة الساداتية فقد سقطت منه معظم تلك الشعارات والمسميات ، وكان الرئيس الراحل فى أواخر سنواته يضيق ذرعاً بها ، ويسخر منها . وكان يهاجم من أستمر فى أستخدامها على أساس أنهم يريدون « اشتراكية الفقر والحراسات والمعتقلات » « **ويتاجرون بمعاناة الجماهير** » . وأستحدثت الحقبة الساداتية لغتها المفضلة التى تتواءم مع توجهاتها فى المسألة الأجتماعية ، والتى تتفق مع تحالفها الأجتماعى . أهم مفردات لغة الخطاب الاجتماعى فى هذه الحقبة هى « **السلام الاجتماعى** » « **والعائلة المصرية الواحدة الكبيرة** » ، « **والرخاء** » و « **والغنى المشروع** » ، و « **العلم والايمان** » ، « **واللحاق بتكنولوجيا العصر** » ، « **واللحاق بالعالم المتقدم وبالقرن العشرين** » كما عبر الرئيس السادات عن حرصه أن يمتلك كل مصرى « **فيلا وسيارة** » أو قطعة أرض على تراب مصر .

*** الحصاد :**

لا يمكن هنا أن نعطى تقييما عادلا للحصاد النهائى لتوجهات وممارسات الحقبتين حيال

المسألة الأجتماعية . فالحوار والأرقام والدعاوى التى يسوقها أنصار كل حقبة يشوبها الكثير من الخلط أحيانا ، ومن المغالطة أحيانا أخرى ، كما أن تداخل العوامل الخارجية ، الاقليمية منها والدولية ، مع الأداء الاقتصادى والاجتماعى لكل حقبة يجعل من العسير عزل وتقييم كل منهما بشكل موضوعى . ولكن هذا لا يمنع من الاقرار **بأن الحقبة الناصرية قد أفادت بشكل رئيسى الشرائح الدنيا والوسطى فى المجتمع ، بينما أفادت الحقبة الساداتية بشكل رئيسى الشرائح العليا من الطبقة الوسطى والطبقة العليا فى المجتمع** . كما أن الحقبة الأخيرة قد أشاعت – ربما من حيث لا تقصد ــ قيم النهم الأستهلاكى ، والتكالب على الأثراء المادى بشكل لم تشهد له مصر مثيلا فى تاريخها الحديث . وقد تولد عن هذه القيم أنماط من السلوك والممارسات الممعنة فى استغلالها وفسادها .

التوجّهات التنموية بين عبد الناصر والسادات

منذ دخلت مصر عصر النهضة الحديثة — التى نرمز لها عادة بالحملة الفرنسية فى اوائل القرن التاسع عشر — جربت مصر خمس محاولات تنموية كبيرة هى على التوالى :

* تجربة محمد على (١٨٠٥ — ١٨٤٩) والتى يمكن أن نسميها النمو الاقتصادى من خلال رأسمالية الدوله والأستبداد الشرق .
* تجربة الخديوى أسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) ويمكن أن نصفها بالنمو الاقتصادى من خلال الاعتماد على الخارج والبذخ الشرق .
* تجربة طلعت حرب وبنك مصر (١٩٢٠ — ١٩٤٠) ويمكن أن نصفها بالنمو الاقتصادى من خلال الرأسمالية الوطنية فى ظل الليبرالية السياسية .
* تجربة عبد الناصر (١٩٥٢ — ١٩٧٠) ويمكن أن نطلق عليها وصف التنمية من خلال اشتراكية الدولة وهيمنة القيادة الكارزمية .
* تجربة السادات (١٩٧٠ — ١٩٨١) ويمكن وصفها بالنمو الاقتصادى من خلال الانفتاح على الغرب والتأرجح بين الديموقراطية والاستبداد .

ونتعرض فى هذا المقال فقط للتجربتين الأخيرتين لقرب عهدنا بهما ، ولاننا مازلنا نعيش ميراثهما ، ايجابا وسلبا . وأهم من ذلك فأننا فى فترة مراجعة عامة للمفاهيم والممارسات المتصارعة خلال العقود الثلاثة الماضية . ونحن جميعا فى حاجة الى استخلاص دروس النجاح والفشل لكى تكون انطلاقاتنا فى الثمانينات ، وما بعدها ، من أرضية معرفية صلبة .

* التوجه الناصرى فى التنمية

ارتبط التوجه الناصرى فى التنمية منذ البداية بهدف تكريس الاستقلال الوطني وتقليص تبعية مصر لقوى الهيمنة الغربية فى النظام الرأسمالى الدولى . وفى تصوراته ، عبر عبد الناصر بشكل مباشر وغير مباشر ، عن ضرورة محاربة الاستغلال داخليا وخارجيا ، حتى تنطلق قوى

* الاهرام الاقتصادى ، ١٣ / ١٢ / ١٩٨٢

الانتاج الوطنية وتحقق مستوى معيشيا لائقا للمواطنين من ناحية وتصون كرامة واستقلال الوطن من ناحية آخرى . أن مبدأ مقاومة الاستغلال داخليا وخارجيا هو الخيط الرئيسى الذى يفسر كل اجراءات ومعارك عبدالناصر المحلية والاقليمية والدولية فى مضمار التنمية ، كما فى غيرها من المجالات .

أدرك عبد الناصر من البداية أن مسألة الأرض والفلاح هى إحدى المسائل المركزية فى مصر على مر العصور . لذلك صدرت قوانين الاصلاح الزراعى ، التى حددت الملكية الزراعية ونظمت العلاقة بين المالك والمستأجر . وكان الانحياز فيها واضحا لصالح الطبقات الدنيا فى الريف لتقليص الاستغلال. غير أن هذا كان جانبا واحدا من ثنائية التنمية عند عبد الناصر — أى جانب تقليص الاستغلال . كشرط لاطلاق قوى الانتاج فى الريف . الجانب الثانى كان توفير الشروط الهيكلية لزيادة الانتاج . فعملت الثورة على تحسين وسائل الرى والصرف وإستصلاح الاراضى وتوسيع الرقعة الزراعية . وكان بناء السد العالى أحد المشروعات العملاقة فى تجسيم محاولات عبد الناصر الجادة فى تنمية مصر اقتصاديا. فزادت المساحة المنزرعة أثناء ولايته بحوالى ٨ فى المائة ، وزادت المساحة المحصولية حوالى ١٥ فى المائة . وفى الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٥ نجحت مصر فى زيادة إنتاج الطعام بنسبة تفوق زيادة السكان لأول مرة منذ الثلاثينات من القرن الحالى .

وفى الصناعة نجحت مصر الناصرية فى تحطيم اسطورة قدرها الزراعى واستطاعت فى السنوات العشر الأولى من الثورة مضاعفة الانتاج الصناعى مرتين . فقد ارتفعت الارقام القياسية للانتاج فى المصانع التى توظف عشرة عمال فأكثر من ١٠٠ عام ١٩٥٢ الى ٣٨٣ فى سنة ١٩٦٠ . وزاد إنتاج الكهرباء نحو ٨٠٠ فى المائة بين سنتى ١٩٥٢ و ١٩٧٠. وزاد عدد العاملين فى الصناعة من ٣٥٠ ألفا الى ١,٢ مليون. وارتفع نصيب الصناعة فى الناتج المحلى الاجمالى من ٩ الى ٢٢ فى المائة بين أوائل الخمسينات وأوائل السبعينات . هذه القفزات الهائلة فى تصنيع مصر ما كان لها أن تتم بهذا الحجم وهذه السرعة لولا تدخل الدولة وخلقها قطاع عام ، أخذ على عاتقه قيادة الاقتصاد القومى .

ومن هنا قولنا أن النمو الاقتصادى فى مصر — وخاصة بين ١٩٥٢ و ١٩٦٥ — كان نموذجا لاشتراكية الدولة . فهو مشابه لتجربة محمد على فى مركزيته ، ولكنه يختلف عنه فى دوافعه ونتائجه . فبينما كان محمد على محتكرا لكل أوجه النشاط الاقتصادى الرئيسية ، ومديرا لها من خلال بيروقراطية مركزية ، إلا أنه لم يوظف فائض القيمة لمصلحة من يعملون بالانتاج ، أو لتحسين فرص حياتهم ، أو لتحقيق أى نوع من المساواة بين فئات الشعب وطبقاته بينما كان العكس صحيحا فى ظل الناصرية — حيث نرى مظاهر الاندفاع نحو تعظيم فرص الحياة ، والمساواة فى فرص الحياة .

فى التعليم كان أبرز منجزات الناصرية هو خلق نظام قومى موحد للتعليم . وبذلك وضعت الثورة حداً للتشتت والفوضى والتناقض فى تنشئة الاجيال المصرية . فقد كانت هناك

عدة أنظمة متوازية لا ترتبط مع بعضها من ناحية ، ولا ترتبط بأهداف قومية أو إنتاجية من ناحية أخرى . مع بداية الحقبة الناصرية كان عدد التلاميذ والطلاب فى مراحل التعليم المختلفة لا يتجاوز ٢ مليون ، ومع نهايتها وصل العدد إلى ٦ مليون ــ أى بزيادة ٣٠٠ فى المائة فى مقابل زيادة سكانية لا تتجاوز ٧٠ فى المائة خلال نفس المدة . وأهم من ذلك أن هذا النمو الهائل قد فتح قنوات الحراك الاجتماعى والسيولة الطبقية أمام فئات عديدة من المستويات الشعبية الدنيا .

فى الصحة تحسنت فرص المصريين فى الحصول على الغذاء كما وكيفا ، فى المدة من ما بين ١٩٥٢ و ١٩٦٢ فقد إرتفع متوسط عدد السعرات الحرارية للفرد المصرى يوميا من ٢٣٠٠ الى ٢٦٠٠ ، وزادت نسبة البروتين من ٣٥ الى ٥٠ جراما . فى هذا الصدد وصلت تغذية المصرى الى المستوى العالمى المقبول ، طبقا لمعايير منظمة الصحة العالمية ومنظمة الاغذية والزراعة الدولية . كما تحسنت فرص المصريين فى الحصول على الرعاية الطبية . فقد تزايد عدد الاطباء الى ثلاثة أمثال (من ٥٠٠٠ طبيب فى ١٩٥٢ الى ١٨,٠٠٠ فى عام ١٩٧٠ ، أى بنسبة ٣٧٥٪) وأصبح معدل السكان الى كل طبيب هو ٢٠٠٠ شخص بعد أن كان ٤٠٠٠ شخص . وانعكس كل ذلك على معدل الوفيات والمتوسط العمرى للمصريين . فقد انخفض المعدل الأول من ١٨ فى الألف الى ١٣ فى الألف بين سنتى ١٩٥٢ و ١٩٧٠ . وارتفع المتوسط العمرى من ٤٢ سنة الى ٥٣ سنة .

ان اختيارنا للزراعة والصناعة كمؤشرين للنمو الاقتصادى هو لتبيان اطلاق قوى الانتاج فى **القطاع السلعى الاساسى** . واختيارنا للتعليم والصحة كمؤشرين للخدمات هو لتبيان ان فائض القيمة الاقتصادية كان يوظف فى معظمه لضمان **الاحتياجات الاساسية** لعموم المواطنيين .

ويمكن بالطبع أن ننموا فى تقييم التجربة التنموية فى الحقبة الناصرية النحو المفضل عند الاخوة الاقتصاديين فنجملها فى مؤشرين مركبين بشكل كمى ــ وهما نمو **الناتج المحلى الاجمالى** ونمو **الدخل القومى** .

فى الفترة من ١٩٥٥ الى ١٩٦٥ تضاعف الناتج المحلى الاجمالى من بليون جنيه الى ١,٩ بليون بالأسعار الثابتة . وهى معدل نمو يصل إلى ٦,٥ فى المائة سنويا . وكان للصناعة فيه كما رأينا ــ نصيب الأسد . وارتفع متوسط الدخل الفردى السنوى خلال نفس المدة بنسبة ٤٣ فى المائة بالأسعار الثابتة . وهو فى رأى الدكتور **على الجريتلى** ، رحمه الله **« يعتبر حدثا جديدا فى التاريخ الاقتصادى الحديث لمصر »** ففى الاربعين سنة السابقة للثورة لم يرتفع متوسط الدخل الحقيقى للفرد على الاطلاق . بل أغلب الظن إنه إنخفض قليلا عما كان عليه فى أوائل القرن . هذا بينما لم تزد نسبة ارتفاعه فى الفترة من ١٩٦٧ الى ١٩٧٧ عن ١ فى المائة سنويا (على الجريتلى : **خمسة وعشرون عاما ، دراسة تحليلية للسياسات الاقتصادية فى مصر ١٩٥٢ - ١٩٧٧** ،

ص ١١٨ - ١١٩)

كان يغلب على التجربة الناصرية فى التنمية عدة سمات بارزة . أهمها مركزية الدولة وقيادة القطاع العام فى كل الانشطة الرئيسية الانتاجية والخدمية . ثانيا ، أخذت التجربة بأسلوب التخطيط الجزئى فى البداية ثم التخطيط الشامل فى الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٥ .

ثالثا ، هيمنة القيادة الكارزمية (الملهمة) لعبد الناصر على مسيرة هذه الجهود التنموية ، بما انطوت عليه هذه الهيمنة من إيجابيات وسلبيات . لذلك فقد كانت تنمية فوقية تستند الى شخصية الزعيم أو البطل ، وتمت من خلال جهاز بيروقراطى ، قوامه أبناء الطبقات الوسطى بكل شرائحها العسكرية والمدنية ، ودون مشاركة شعبية حقيقية فى اتخاذ القرارات الكبرى ، سياسية كانت أو إقتصادية . هذا رغم إنتفاع الطبقات الشعبية الدنيا في الريف والحضر بنصيب وافر من ثمرات التجربة الناصرية فى التنمية لهذا أطلقنا على هذه التجرية عنوان : التنمية من خلال اشتراكية الدولة وهيمنة القيادة الكارزمية .

ان قوة الدفع الهائلة فى تجربة عبد الناصر التنموية وصلت إلى أعلى مدها فى منتصف الستينات . وبعدها أطبقت عليه التحديات التى لم يفلح فى مواجهتها بالاستجابة الخلاقة المطلوبة . لقد كانت « الفريضة الغائبة » من المشروع الناصرى بوجه عام ،وتجربته التنموية بوجه خاص ، هو غياب المشاركة الشعبية ، رغم ولائه الذى لا شبهة فيه لقطاعات الشعب العريضة . وكما كانت الضربة التى نكست بتجربتى محمد على وإسماعيل من الخارج ، فإن الضربة التى نكست بتجربة عبد الناصر كانت أيضا من الخارج ـــ هزيمة ١٩٦٧ .

● التوجه الساداتى فى التنمية

ارتبط التوجه الساداتى فى التنمية بتوجهه العام فى التحالف مع الغرب ، وإنبهاره بالتكنولوجيا الغربية ، ونمط الانتاج وأسلوب الادارة وأسلوب الحياة الغربى . لقد كان حلمه هو أن يقفز بمصر فى طفرات متتالية لكى تلحق بالغرب ، وتصبح جزءا منه لو أمكن . لذلك فقد انفتح على الغرب بكل قوة وبكل سرعة . وعمل على أن تكون الولايات المتحدة زعيمة المعسكر الغربى ـــ شريكا كاملا لمصر فى السلام ، وفى إعادة البناء والتعميرلاقتصادها وبنيتها الاساسية . لذلك إعتمد نموذج السادات التنموى على النمط الغربى، والمعونة الغربية ، والاستثمارات المشتركة الغربية والنفطية العربية . وصدرت القوانين والتشريعات والقرارات من أجل تحقيق هذا التحول الكيفى خلال الفترة من ١٩٧٤ إلى ١٩٨٠ . وهى التى يشار إليه إجمالا بسياسة **الانفتاح** . وشملت مجالات الاستثمار والعملة والتجارة والمصارف والاستيراد .

خلال المرحلة الأولى للانفتاح (١٩٧٤ - ١٩٧٧) كان معدل النمو الاقتصادى

بطيئا ، ولم تظهر الآثار المرجوة من السياسات الجديدة ولكن السنوات الأربع التالية شهدت معدلات عالية للنمو الاقتصادى وصلت فى المتوسط الى ٨,٥ فى المائة سنويا بالاسعار الثابتة .

فى الفترة من ١٩٧٥ الى ١٩٨٠ زاد الناتج الاجمالى المحلى من ٤,٨ بليون دولار أمريكى الى ٦,٦ بالاسعار الثابتة (لعام ١٩٧٥).وبالتالى إرتفع متوسط نصيب الفرد من ١٢٧ الى ١٦٠ دولارا بالاسعار الثابتة ، وهى زيادة تصل الى حوالى ٢٥ فى المائة فى خمس سنوات . فى النصف الثانى من السبعينات معظم النمو الاقتصادى الذى تحقق فى الحقبة الساداتية كان فى قطاعات البترول (٣٣ ٪ سنويا) والنقل والموصلات ، خاصة قناة السويس (٢٥ ٪ سنويا)،والتشييد (١١ ٪ سنويا)،والمرافق العامة (٩ ٪ سنويا)، والتجارة والبنوك (٩ ٪ سنويا).وهى قطاعات غير سلعية . أما أهم القطاعات السلعية وهى الزراعة والصناعة فقد كان معدل نموها دون المعدل العام ١,٦ فى المائة للزراعة سنويا و ٧,٧ فى المائة للصناعة . كذلك كان معدل النمو فى قطاع الاسكان أقل من المتوسط العام ، حيث لم يتجاوز ٥,٥ فى المائة سنويا خلال النصف الثانى من السبعينات .

وفى دراسة حديثة لمنظمة العمل الدولية (أعدها بنت هانس وسمير رضوان) استخلصت من فحص تركيب الاقتصاد المصرى ومعدلات النمو فيه خلال الفترة من ١٩٧٥ ١٩٨٠ الى ما يلى :

(١) إن عملية التصنيع لم تتقدم عما كانت عليه فى الستينات . بل ان نصيب الصناعة فى الناتج المحلى الاجمالى قد تناقص خلال السنوات الخمس رغم أن الفترة ككل هى فترة نمو سريع . فقد كان نصيبها فى أوائل السبعينات ٢٠,٤ ٪ وانخفض فى ١٩٧٥ الى ١٨ ٪ ثم الى ١٧ ٪ عام ١٩٧٩ .

(٢) ان نصيب الزراعة فى الناتج الاجمالى قد تناقص بدوره من ٣٢ ٪ فى منتصف الستينات ، الى ٣١ ٪ فى منتصف السبعينات ، الى ٢٤ ٪ فى نهاية السبعينات .

(٣) رغم النمو الهائل فى عملية التشييد ككل ، إلا أن نصيب قطاع الاسكان فى الناتج الاجمالى قد تناقص بدوره — من ٥,٧ ٪ فى منتصف الستينات الى ٢,٧ ٪ فى منتصف السبعينات ، الى ٢,٤ ٪ فى أواخر السبعينات .

ان تناقص نصيب الزراعة والاسكان بوجه خاص فى الناتج المحلى الاجمالى خلال الحقبة الساداتية يعنى **عجز الاقتصاد القومى عن مواكبه وتلبية الاحتياجات الاساسية للشعب المصرى عموما ، ولطبقاته الدنيا خصوصا .**

وقد اعتمد الاقتصاد المصرى فى تمويل معظم نموه فى الحقبة الساداتية على المساعدات الخارجية العربية والغربية ، والتى بلغ مجموعها فى عقد السبعينات حوالى عشرة بلايين دولار، منها حوالى ٧ بلايين من الولايات المتحدة،مقارنة بحوالى بليون دولار فى الحقبة الناصرية (أى

معظمها من الاتحاد السوفيتى) .

وقد إنعكس نمط النمو فى الحقبة الساداتية على **نمط توزيع الدخل القومى** بين شرائح المجتمع . فطبقا لأحد تقارير **البنك الدولى** (**جداول عالمية** الصادر عام ١٩٨٠) ارتفع نصيب أعلى خمسة فى المائة من السكان فى مصر من ١٧ فى المائة من الدخل القومى فى أواخر الستينات الى ٢٢ فى المائة فى أواخر السبعينات . بينما إنخفض نصيب أفقر ٢٠ فى المائة من السكان من ٧ الى ٥ فى المائة خلال نفس العقد الزمنى . **أى أن توزيع الثروة فى مصر قد زاد اختلالا لصالح « الاقلية الميسورة » على حساب « الاغلبية المعسورة »** .

وقد ضاعف من حدة التفاوت فى توزيع الدخل موجة التضخم التى اجتاحت الاقتصاد المصرى أثناء الحقبة الساداتية . وقد تراوح معدل التضخم ما بين ٢٠ و ٣٠ فى المائة سنويا خلال السبعينات . وهذا معناه عادة أن اعادة توزيع الدخل تتم لصالح العاملين فى التجارة الداخلية والخارجية وأصحاب الحرف والمهن الحرة ، وعلى حساب أصحاب الدخول الثابتة من الموظفين وأصحاب المعاشات . بل أن الشواهد العديدة تشير الى أن القدر الأعظم من سوء التوزيع قد استفادت منه طبقة غير منتجة من وجهة النظر الاجتماعية،وهى الرأسمالية الطفيلية ، التى تعمل للكسب السريع من المضاربة والسمسرة والعمولات واستغلال النفوذ . وتتميز هذه الطبقة الطفيلية بإرتفاع ميلها لأنماط الاستهلاك الترفى ، وهو الامر الذى يؤدى اقتصاديا الى تزايد الواردات من السلع الكمالية ، وبالتالى الى تفاقم ميزان المدفوعات . هذا فضلا عما يؤدى اليه اجتماعيا ، حيث تعمل أنماط الاستهلاك الترفى — من خلال أثر التقليد والمحاكاة — على خلق فجوة كبيرة بين التطلعات الاستهلاكية لأبناء الطبقات الوسطى والدنيا من ناحية وبين دخولهم المتواضعة من ناحية أخرى ويؤدى ذلك بدوره الى سعى أبناء هذه الطبقات الى كسب المال بأى وسيلة — وهو الامر الذى يدفع الى الانحراف والفساد ، والى السخط الذى يؤدى الى التطرف .

ويبدو أن الانفاق الترفى فى الحقبة الساداتية لم يقتصر على أفراد الطبقة الطفيلية الجديدة ومن يقلدها من الطبقات الاخرى وإنما إنطبق على الانفاق الحكومى أيضا . فاذا استثنينا نفقات الدفاع والتعليم والصحة والمرافق والخدمات الاخرى ، فإننا نلاحظ أن باقى بنود الانفاق الاخرى قد زادت نسبتها فى السبعينات الى حوالى ١١ فى المائة من مجموع الانفاق الحكومى — بعد أن كانت نسبتها لا تتجاوز ٥ فى المائة فى منتصف الستينات . ومعظم هذه الزيادة تعزى الى النمو السرطانى للجهاز الحكومى الذى لا تربطه أدنى صلة بقضية الدفاع أو مسألة التنمية .

وكنتيجة حتمية لنمط النمو فى الحقبة الساداتية **تزايد العجز العام فى ميزانية الدولة** من ٩١ مليون جنيه عام ١٩٦٥/١٩٦٦ ، الى ١١٥٤ مليونا عام ١٩٧٥/١٩٧٦ ، الى حوالى ١٤٥٠ مليونا عام ١٩٧٩/١٩٨٠ . **وزادت الديون الخارجية من حوالى ١,٠٠٠ مليون**

جنيه عام ١٩٧٠ الى حوالى ١٢,٠٠٠ مليون عام ١٩٨٠ . وأصبح تسديد أقساط هذه الديون وخدمتها يلتهم حوالى ٢٣ فى المائة من قيمة الصادرات المصرية سنويا . وكان الموقف يمكن أن يسوء عن ذلك لولا حصيلة تحويلات المصريين العاملين فى الخارج ، والتى وصلت فى أواخر السبعينات الى حوالى ٢ بليون دولار سنويا .

لقد ترتب على زيادة ديون مصر الخارجية والعجز الدائم فى ميزانية الدولة الى تعاظم الاعتماد على الخارج وخاصة الولايات المتحدة والهيئات المالية الاجنبية . وقد أدى ذلك بدوره الى زيادة تدخل هذه الجهات فى شئون مصر الاقتصادية وكان أبرز مظاهر هذا التدخل فى أواخر ١٩٧٦ وأوائل ١٩٧٧ ، حينما اشترط كل من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى على الحكومة المصرية ضرورة سحب دعمها لبعض السلع الاساسية ، وتعويم الجنيه المصرى ، والسماح لقوانين العرض والطلب بممارسة مفعولها فى تسيير جهاز الاسعار . وحينما أذعنت الحكومة لهذه التوصيات وأعلنت قراراتها الاقتصادية بسحب الدعم فى يناير ١٩٧٧ ، انفجرت المظاهرات الغاضبة فى كل المدن الرئيسية . واشتبك المتظاهرون بقوات الامن وسقط أكثر من سبعين قتيلا ، ومئات الجرحى طبقا للبيانات الرسمية . وكانت تلك الاحداث أبشع ما مر بمصر من مظاهر العنف والعصيان الداخلى منذ حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ .

لقد اعتمدت تجربة التنمية فى الحقبة الساداتية شأنها شأن تجربة الخديوى إسماعيل — على الانفتاح على الغرب ، والاعتماد عليه ، والاستدانة منه ، وعلى الانفاق الاستهلاكى ، والاستهلاك الكمالى . وقد رافق تجربة السادات التنموية انفتاحا ديموقراطيا محكوما ، تعرض للمد والجزر فى سنواته الأربع الأخيرة . كما رافقت التجربة نموا متعسرا لرأسمالية وطنية منتجة حقا ، ونموا سرطانيا سريعا لرأسمالية طفيلية . لم يتراجع الرئيس السادات فى تجربته عن معظم المكاسب والانجازات التى تحققت فى مضمار التنمية فى الحقبة الناصرية — وأهمها القطاع العام . غير أن هذا الاخير تعرض لنوع من الاهمال والمحاصرة المقصودة أو غير المقصودة . وتغيرت الى حد ما وظيفته الاجتماعية والاقتصادية خلال الحقبة الساداتية فمن ناحية حرم من دوره فى قيادة الاقتصاد الوطنى ، ومن كثير من الامتيازات التى منحت للقطاع الخاص . ومن ناحية أخرى أصبح مشجبا تعلق عليه كل الخطايا ، وأصبح كبش فداء يتلقى كل اللوم وكل شحنات الغضب والاحباط من جانب الفئات الشعبية لدى حدوث اختناقات اقتصادية أو أزمات تموينية . أما الميسورون والأغنياء فقد وفر لهم قطاعهم الخاص ما يحتاجونه من سلع وخدمات (بما فى ذلك خدمات الصحة والتعليم والترويح) وأصبحت هناك ثنائية صارخة فى الاقتصاد المصرى – كل شطر منها يتعامل بأسعار مختلفة . مع استقطاب ثنائية الاقتصاد ، حدث ما هو أخطر وهو استقطاب ثنائية المجتمع .

عروبة عبد الناصر وعروبة السادات

علاقة مصر بالوطن العربى هى علاقة الجزء بالكل . والمصريون هم أحد شعوب الأمة العربية . ولكن علاقة الجزء المصرى بالكل العربى والشعب المصرى بالأمة العربية هى ليست كعلاقة الأجزاء الأخرى أو الشعوب الأخرى بالكل العربى أو بالأمة العربية . إنها علاقة أكثر تعقيدا ، وتنطوى على جدلية فريدة ، وتحتمل بالتالى إمكانيات هائلة من التمدد أو الانكماش ، ومن المثالية أو الانتهازية ومن القيادة أو التبعية . هذه الاحتمالات وإمكانية كل منها فى حالة تجسدها الفعلى على أرض الواقع ، تكون لها مضاعفات وطنية وقومية وعالمية خاصة .

هناك ثلاثة مستويات لعلاقة مصر بالوطن العربى . المستوى الأول هو «الهوية» أو الشعور بالانتماء . والمستوى الثانى هو القومية العربية كحركة سياسية تهدف الى توحيد أقطار الوطن العربى . والمستوى الثالث هو المصالح المشتركة من استراتيجية الى اقتصادية الى ثقافية . وفى كل هذه المستويات الثلاثة يمكن أن تتراوح توجه النظام الحاكم فى مصر بين قطبى المثالية والبرجماطية . قد شهدت فى مصر الحقبتين الناصرية والساداتية حركة سريعة بين القطبين خلال العقود الثلاثة الماضية .

عبد الناصر والعروبة

توجهات عبد الناصر نحو الوطن العربى بدأت تأخذ ملامحها الأولى منذ السنة الثانية لقيام **ثورة يوليو** . ففى كتاب **فلسفة الثورة** الذى صدر أواخر عام ١٩٥٣ تحدث عبد الناصر عن **الدوائر الثلاث** التى تنتمى إليها مصر ، وبالتالى لابد أن تتحرك فى إطارها . وكان أولها الدائرة العربية ، ثم الاسلامية ، ثم الافريقية . وتعقب عبد الناصر البذور الجنينية لحسه العربى الى سنوات تلمذته فى المدرسة الثانوية أيام كان يخرج فى المظاهرات التى تحتج على وعد بلفور فى الثانى من نوفمبر كل عام . ونمت هذه البذور تدريجيا من خلال دراسته العسكرية واشتراكه فى حرب فلسطين الأولى (١٩٤٨) . وبدأت تلتحم فى داخله مسألة الهوية أو الانتماء بالمسألة الاستراتيجية أى قضية الدفاع عن مصر . وتعمق هذا الالتحام وتضاعف نموه

بقراءة التاريخ والجغرافيا والتراث .

مع منتصف الخمسينات ، أصبحت العروبة عند عبد الناصر جزءا لا يتجزأ من مشروعه العام فى تكريس الاستقلال الوطنى ، والتنمية الشاملة والعدالة الاجتماعية وعدم الانحياز . لقد أدرك عبد الناصر أن نجاح ثورته فى هذه المجالات يتأثر سلبا وإيجابا بحركة الوطن العربى ككل . وبالتالى فهناك وحدة مصير بين مصروالأقطار العربية . ومادامت هناك وحدة مصير فلابد أن تتواءم الحركة السياسية والاجتماعية والدولية لكل أقطار العروبة . ومن هنا كان حرصه المبدئى والاستراتيجى والتكتيكى على :

- دعم حركات التحرير العربية التى كانت لاتزال تكافح ضد الاستعمار .
- محاربة الأحلاف الأجنبية فى المنطقة .
- تحرير الثروات العربية وخاصة النفط . من قبضة الاحتكارات الأجنبية .
- دعم الثورات والانتفاضات الشعبية الهادفة الى التخلص من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى .
- التصدى لاسرائيل باعتبارها جزءا من الاستعمار العالمى بشكله القديم والجديد .
- الوحدة العربية .

وكانت حرب السويس تجسيما حيا لكل جوانب المشروع الناصرى — بما فى ذلك جانبه العربى القومى . فتأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ كان ينطوى على تأكيد الاستقلال الوطنى من ناحية ، وعلى كسر الاحتكارات الأجنبية من ناحية ثانية ، وعلى إستخدام دخلها لبناء السد العالى وتمويل برامجه التنموية من ناحية ثالثة . وكان ما كان من تطورات أعقبت قرار التأميم ، وأهمها العدوان الثلاثى الذى شنته انجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر . وكان هذا العدوان تأكيدا جديدا لعبد الناصر على تداخل عناصر مشروعه الأكبر ، ومنها وحدة المصير العربى . فقد كشف العدوان بشكل درامى عن أن فرنسا اشتركت فيه ، ليس فقط بسبب تأميم قناة السويس ، ولكن أيضا كإنتقام من مصر الناصرية ردا على دعمها لثورة الجزائر . وإن بريطانيا اشتركت فى العدوان ليس فقط بسبب التأميم ، ولكن أيضا كإنتقام من مصر الناصرية بسبب دعمها لحركات التحرير العربية فى جنوب الجزيرة العربية والخليج ، وبسبب مقاومتها لحلف بغداد (الذى كانت انجلترا وتركيا والعراق وإيران وباكستان قد أنشأته بمباركة أمريكية) . وأكد العدوان دور إسرائيل الامبريالى الصغير ، وكمخلب قط للامبريالية العالمية الأكبر .

غير أن الذى يهمنا فى هذا كله لموضوع المقال هو أن مصر الناصرية قد فوجئت حقاً لا فقط بمجرد التعاطف الشعبى العربى معها فى معركة السويس ، ولكن بمد القومية العربية الهادر من المحيط الى الخليج . لقد كانت ملحمة السويس بحق هى نقطة الانطلاق الاستراتيجى

الهجومى فى مسيرة عبد الناصر القومية . لقد حسم عبد الناصر قبل السويس مسألة الهوية حيث نص دستور ١٩٥٦ لأول مرة صراحة على أن مصر جزء من الوطن العربى وعلى أن شعبها جزءلا يتجزأ من الأمة العربية . ولكن معركة السويس هى التى وضعت مصر الناصرية فى مركز قيادة حركة القومية العربية ، وحركة الوحدة العربية . الى ذلك الوقت كان الفكر القومى هو فقط شغل عدة آلاف من المثقفين العرب فى المشرق . وكان العمل الوحدوى الى ذلك الوقت هو شغل عدة أحزاب صغيرة فى مقدمتها حزب البعث وحركة القوميين العرب (بزعامة جورج حبش) . وبقيادة عبد الناصر للحركة القومية العربية ، تحول الفكر القومى والعمل الوحدى الى تيار شعبى هائل من المحيط إلى الخليج . وظل هذا التيار كاسحا الى منتصف الستينات . ودخل عبد الناصر بإسمه وتحت رايته العديد من المعارك ، انتصر فى بعضها،وإنتكس فى بعضها ، وانهزم فى بعضها . ولكن الجماهير العربية ظلت على تأييدها له وإلتفافها حوله حتى فى أقسى لحظات الهزيمة (١٩٦٧) — وحتى رحيله المفاجىء من عالمنا عام ١٩٧٠ .

يقين عبد الناصر بهوية مصر العربية كان يقينا عميقا لم يتأثر بهول المعارك التى خاضها ، ولم يهتز من مرارة الهزائم التى ذاقها . كذلك لم يتأثر إيمانه بوحدة المصير العربى حاضرا ومستقبلا ، وإن كان قد أصبح أقل إندفاعا فى مشاريعه الوحدوية بعد نكسة الانفصال وخروج سوريا من الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١ .

مثالية عبد الناصر القومية كانت دافعة الى وضع ثقل مصر العسكرى فى خدمة الثورة اليمنية (١٩٦٢) . وكان ما كان من التورط فى حرب استنزافية داخلية طويلة فى جبال اليمن ووديانها . وكان ذلك خطأ فادحا دفعنا له ثمنا باهظا بعد ذلك بعدة سنوات . لم تكن مثالية عبد الناصر هى الخطأ .. ولم يكن مبدأ دعم ثورة اليمن هو الخطأ .. ولكن الخطأ كان فى شكل هذا الدعم وفى آلياته .

مثالية عبد الناصر القومية كانت الدافع وراء سرعته فى النهوض الى دعم سوريا حينما شاعت أنباء بقرب هجوم اسرائيلى عليها فى مايو ١٩٦٧ . فدفع بقواته الى سيناء . وأغلق مضايق تيران فى وجه الملاحة الاسرائيلية تحسبا لمعركة مع اسرائيل يخفف بها الضغط العسكرى على سوريا وكان ما كان من هجوم اسرائيلى كاسح أوقع بجيوش مصر وسوريا والأردن هزيمة نكراء فى يونيو ١٩٦٧ . ومرة أخرى لم تكن مثالية عبد الناصر هى الخطأ .. ولم يكن مبدأ دعم سوريا معنويا وعسكريا هو الخطأ . ولكن الخطأ كان فى حسابات القوة للذات وللخصم ، وفى الاعداد الحقيقى لمعركة مرتقبة ، وفى إختيار القيادة العسكرية الصالحة لادارة مثل هذه المعركة خاصة وأن ثلث الجيش المصرى كان لايزال على أرض اليمن .

هذان النموذجان الى جانب غيرهما يوضحان كيف يمكن أن تكون قراءة الزعيم المصرى

لواقع المنطقة صحيحا ، وكيف يمكن أن يكون يقينه بهوية مصر العربية صحيحا ، وكيف يمكن أن تكون توجهاته صادقة .. ومع ذلك كيف يمكن أن يؤدى الخطأ فى تحديد الأولويات ، وفى حسابات موازين القوى ، وفى توقيت المعارك الى أفدح النتائج . لقد أدت حرب اليمن الى تقليص الخطة الخمسية الثانية ، وأدت حرب ١٩٦٧ الى تجميدها تماما . وانعكس ذلك على مسيرة التنمية الداخلية ، بل حتى على مسيرة الحركة القومية العربية . وكما أثبتت ملحمة السويس عام ١٩٥٦ مدى الارتباط المصيرى بين معارك مصر الوطنية ومعارك العرب القومية بشكل ايجابى،فقد أثبتت هزيمة ١٩٦٧ نفس قوة الارتباط ولكن بشكل سلبى .

التوجه الساداتى نحو العرب

كان الرئيس السادات ينظر لمسألة العروبة نظرة برجماطية فى الأساس.فمن بين الأبعاد الثلاثة للمسألة (وهى الهوية والقومية والمصالح) لم يهتم إلا **بالمصالح** . وفى هذه كان تحديد المصالح من منطلق مصرى بحت كما تصوره هو .

لم يكن السادات يحارب من أجل هوية مصر العربية . ولا من أجل القومية العربية ، الا بقدر ما كان ذلك يخدم مصلحة مصرية بحتة.وفى اللحظة التى يلوح له فيها ان هوية مصر العربية أو القومية لا تخدم هذه المصلحة فقد كان يبدو مستعدا ليس فقط لادارة ظهره لهما بل أيضا للاستخفاف بهما ، وربما محاربتهما

هذا يفسر **المسيرة المتعرجة** لسياسة الرئيس السادات نحو العرب والعروبة . ففى الفترة الأولى من حكمه (١٩٧٠ - ١٩٧٣) ، كان الرجل حريصا أشد الحرص على **التضامن العربى** ، ومهادنة كل الأنظمة العربية على مختلف مشاريعها الايديولوجية ولم يسمح بأى حملات دعائية ضد أى منهم . لقد كانت تلك هى فترة الاعداد لمعركة أكتوبر . ومن أجل ذلك تعاون مع **سوريا البعثية** ، ومع **السعودية الملكية** ، ومع **ليبيا القذافية** ، ومع **السودان النميرية** ، ومع **الأردن الهاشمية** . تعاون مع هؤلاء جميعا من منطلق برجماطى بحت تحكمه المصلحة الوطنية المصرية ، فى دخول معركة محدودة مع اسرائيل بأمل تحرير سيناء . تعاون مع هؤلاء جميعا على مابين أنظمتهم من خلاف أو تناقض .

ولأن الرئيس السادات لم يكن يتعاون مع هذه الأنظمة وغيرها من منطلق الهوية أو القومية فان علاقته بكل منها بعد حرب أكتوبر قد خضعت لحسابات المصالح الجديدة لمصر، كما تصورها هو . وقد تصور مصالح مصر بعد أكتوبر فى :

١ - الصداقة مع الغرب .

٢ - جذب الاستثمارات المالية من الدول العربية النفطية .

٣ - مهادنة اسرائيل . وفى المدة من عام ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧ نجده بالتالى يتبرم بكل من

سوريا وليبيا التى كانت تربطه بهما اتفاقية اتحاد ، ويقترب أكثر الى السعودية ودول الخليج . وكما يعتقد أن علاقته بالسعودية خصوصا وسيلة،ليس فقط فى اجتذاب الاستثمارات منها لاعادة تعمير مصر،وإنما أيضا لخدمة وتدعيم سعيه الدائب الى مصادقة الولايات المتحدة .ومع نهاية تلك الفترة (أوائل ١٩٧٧) كان الرئيس قد خلص الى أن علاقته بالولايات المتحدة أصبحت قوية ومباشرة ولا تحتاج الى الوسيط السعودى . كما خلص الى أن حجم المساعدات القادمة من السعودية ودول الخليج الأخرى أقل بكثير مما كان يرجوه ويتمناه . حتى بعد أحداث يناير ١٩٧٧ التى هزت النظام الساداتى ، لم يظهر عرب النفط بمستوى الكرامة والشهامة التى توقعها منهم وهو فى أحد لحظات محنته . ومن هنا بدأ يتبرم أيضا بالانظمة النفطية،وبدأ يظهر هو استعداده لفك الارتباط معهم . فهم شأنهم شأن الأنظمة التقدمية فى فترة سابقة بالنسبة له ، لا تربطه بهم فى الأساس رابطة الهوية أو السعى القومى المشترك نحو الوحدة.الذى يربطه بهم هو المصالح فقط.وماداموا قد تلكأوا فى مساعدته ماليا واقتصاديا فلا فائدة منهم .

ومن هنا يدخل نظام الرئيس السادات مرحلته الثالثة والأخيرة فى موقفه من العرب والعروبة وهى المرحلة التى بدأت فى نوفمبر ١٩٧٧ بزيارته لاسرائيل . وفيها يقامر بقطيعة شبه كاملة مع كل العرب تقدميين ومحافظين ،جمهوريين وملكيين . وقد كانت قمة هذه المرحلة (١٩٧٧ - ١٩٨١) هى توقيع اتفاقية السلام مع اسرائيل (١٩٧٩) . ولم يبال الرئيس السادات كثيرا بقرارات قمة بغداد ، وبالمقاطعة العربية وبتعليق عضوية مصر فى جامعة الدول العربية . فقد كان على يقين ان العرب هم الذين سيحتاجون اليه . وكان على يقين أن الولايات المتحدة ستعوضه ماليا ودبلوماسيا عن قطيعة العرب له .

فى **مرحلة القطيعة** (١٩٧٧-١٩٨١) كان الوطن العربى يزداد ضعفا وتفككا . وكان استشساد اسرائيل وتحرشها بجيرانها العرب الآخرين يزداد يوما بعد يوم. كانت الأنظمة العربية تعزوا هذه الحالة المتردية لسياسة **«صلحه المنفرد»** مع اسرائيل، بينما كان الرئيس السادات يعزوها الى غباء الأنظمة وجهلها وعدم انصاتها اليه ، وخروجها عن المسيرة التى اختارها هو للتعامل مع اسرائيل والغرب والعالم .

كان الرئيس السادات يرى الوطن العربى حول مصر ينفجر من الداخل (حادث مكة فى السعودية تصادم الأخوان المسلمين مع النظام السورى ، حادث جفصة فى تونس ، أحداث تيزى أوزو فى الجزائر ، واشتبكات الحدود العربية ، والصراعات الداخلية فى العراق ثم حربها مع ايران . وكان يعتبر ذلك بمثابة البرهان على أن الانظمة العربية الأخرى فى خطر بينما نظامه هو فى أمان . وكان يردان مصر الساداتية هى **جزيرة الأمن والأمان** فى المنطقة . وربما حتى لحظة وفاته المأساوية كان يعتقد أنه فى جزيرة آمنة مطمئنة .

لغة الخطاب القومى

كانت لغة الخطاب القومى عند عبد الناصر تجسد قناعاته المبدئية حول عروبة مصر ، وقدرها التاريخى فى أن تقود الأمة العربية فى معارك التحرير والبناء والوحدة . وإبتداء من معركة السويس عام ١٩٥٦ والى يوم رحيله فى ١٩٧٠،كان الرجل يوجه خطاباته الى شعب مصر والأمة العربية كانت الأولوية فى تخاطبه مع الشعوب العربية ، كان يتواصل معها مباشرة على الهواء أو فى الميادين العامة . وكانت الجماهير العربية من المحيط الى الخليج تصغى اليه ، وتستجيب لنداءاته وتهتف باسمه وبالشعارات التى رفعها . وكانت اذاعة صوت العرب هى احدى الياته الفعالة فى التخاطب مع هذه الجماهير . وكانت هذه السطوة العاطفية على الجماهير هى وسيلته فى الضغط على الأنظمة الحاكمة . فخطابه مع الأنظمة الحاكمة كان يأخذ المرتبة الثانية فى أولوياته . لذلك بقدر ماكانت علاقته مباشرة وإيجابية ووجدانية مع الجماهير العربية فى كل مكان ، بقدر ماكانت علاقاته بالأنظمة الحاكمة مليئة بالشكوك والريبة من الجانبين . ولم يكن يلجأ إلى التعامل مع الأنظمة إلا مضطرا . من ذلك دعوته لها للاجتماع فى مؤتمر القمة الأول بالاسكندرية (عام ١٩٦٤) لمواجهة مشاريع اسرائيل لتحويل مياه نهر الأردن . وهو التقليد الذى استمر فى حياته وبعد مماته ، والى يومنا هذا . ولكن القاعدة فى الحقبة الناصرية والى هزيمة ١٩٦٧ ، كانت معاداة الأنظمة العربية الحاكمة ، واستعداء شعوبها عليها . وكانت فترات مهادنة هذه الأنظمة قصيرة وتمثل الاستثناء من القاعدة العامة . كما كان يلجأ النظام الناصرى فى أحيان كثيرة الى إستخدام أجهزة المخابرات المصرية لخلق المتاعب للأنظمة العربية المعادية . وكان تجنيد الأعوان فى كل البلاد العربية أمرا ميسورا ، نظرا لايمان الملايين بإخلاص عبد الناصر وبزعامته الكارمزية ولكن عبد الناصر طوال حياته لم يستعد شعبا عربيا على شعب عربى آخر . ولم يثر أى نزعات قطرية شوفينية ، ولم يباه الشعوب العربية الأخرى بما فعله من أجلها ، أو يوحى بأن مصر والمصريين أفضل من غيرهم ، أو أكثر تحضرا أو تمدينا من باقى الأمة العربية . باختصار كانت حملات عدائه واستعدائه موجهة دائما ضد حجام آخرين ، ولم توجه أبدا ضد الشعوب العربية . وكان عبد الناصر حريصا على التمييز فى خطابه القومى بين الحكام والشعوب ، لاالعربية فقط ولكن غير العربية أيضا . ففى قمة عدائه لشاه ايران مثلا لم يهاجم الشعب الايرانى مرة واحدة . وبالعكس كان يعتبر الشعب الايرانى ككل الشعوب المسحوقة ، حليفا له ضد الاستعمار والطغيان .

لغة الخطاب القومى عند الرئيس السادات فى علاقته بالعرب والعروبة كانت بدورها تجسم مفاهيمه وقناعاته فى هذه المسألة . وكما مرت علاقته بالعروبة بمراحل ثلاث،فقد تراوحت لغة الخطاب من مرحلة إلى أخرى . ففى المرحلة الأولى (١٩٧٠ - ١٩٧٣) كان

التركيز على مفاهيم الأخوة العربية والتضامن العربى والأسرة العربية الواحدة . وكان تعامله أساسا مع الحكام والأنظمة الحاكمة وليس مع شعوب الأمة العربية . وبعكس عبد الناصر نادرا ما نجد السادات يوجه خطابا مباشرا لجماهير الأمة . وقد إعتبر بعض المراقبين ذلك فى البداية حرصا منه على ألا يثير شكوك الحكام العرب، الذين كان يضايقهم وصول عبد الناصر الى رعاياهم مباشرة . ولكن التفسير الأدق لأسلوب السادات فى هذه المسألة هو أن قناعته المبدئية بأمة عربية واحدة وبمصير عربى واحد لم تكن بنفس العمق أو اليقين الذى كان لدى عبد الناصر. أقصى ما كان يؤمن به فى هذه الناحية هو أن الشعوب العربية والاسلامية هى أمم متآخية تربطها وشائح اللغة أو الدين. ولكن هذه الوشائح فى حد ذاتها لا يترتب عليها حقوق أو التزامات أو واجبات. فاذا استطاع نظامه أن يتعامل مع الأنظمة الحاكمة فيها من منطلق المصالح، ويحصل منها على تأييد مادى أو معنوى هنا وهناك فان ذلك كله يتوقف على المهارات الفردية للحاكم .

أما ايجابات برجماطية السادات المصرية فقد كان أهمها إنجاز حرب أكتوبر ، وتحرير سيناء . أهم سلبياتها هى إنها فى سنواتها الأخيرة (١٩٧٧ - ١٩٨١) **قد عزلت مصر عن محيطها الحيوى** ، وتركت العالم العربى بلا قيادة فزاد انقسامه وتشرذمه . وبإنعزال مصر عن العرب زاد ضعفها ، وتكرست تبعيتها ، وزاد ضعف العرب وتكرست تبعيتهم . وكان المستفيد الأكبر من هذه البرجماطية المصرية هو اسرائيل فى المقام الأول . فقد أصبحت هى الدولة الاقليمية العظمى فى المنطقة ، تعيث فسادا ، وتضرب هنا وهناك ، وتتوسع هنا وهناك . واصبحت تملى ارادتها بالقوة وبالوعيد والتهديد لا على دول المشرق العربى وحدها ، وانما على مصر أيضا بل أصبحت تمارى أن **مجالها الحيوى يمتد من باكستان الى الغرب** .. وكان المستفيد فى المقام الثانى هو القوتان الاعظم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فبتناول مصر عن قيادتها القومية لوطنها العربى ، تقدمت كل من الدولتين الأعظم تملأ هذا الفراغ القيادى بشكل مباشر أو غير مباشر . وأصبحت الأقطار العربية عند كل أزمة تحل بها تولى وجهها شطر واشنطن أو موسكو .

هذا هو الحصاد المختلط لكل من الحقبتين الناصرية والساداتية فى مسألة العرب والعروبة ان دروس النجاح والفشل لابد أن تدفعنا الى تنقية هذا الحصاد المختلط وتحويله الى حصاد صاف بقدر الامكان هذا هو تحدى الثمانينات لكل من مصر وأمتها العربية .

لذلك كله نجد لغة الخطاب الساداتى فى مواجهة الأنظمة العربية تنتقل فى لهجتها من **الشكر والامتنان فى المرحلة الأولى** (١٩٧٤ - ١٩٧٧) الى **الاستكبار والاستهتار فى المرحلة الثالثة** (١٩٧٧ - ١٩٨١) بل إننا نلاحظ فى المرحلة الأخيرة أن هناك استنفاراً لهوية مصرية خالصة ومتعالية ، وتقترب من **العصبية القطرية** فى مواجهة العرب الاخرين . وعند تلك النقطة

بدأت الحدود حتى بين الحكام وشعوبهم تكاد تختفى . وأصبحت لغة الخطاب الساداتى تمعن فى **احتقار العرب** الآخرين ، **فنحن** المصريين فقط أصحاب الحضارة الحقيقية فى المنطقة ومن ورائنا ستة آلاف سنة من المدنية .. بينما **هم** « العرب » قبائل لكل قبيلة علما ، وانخدعوا بتسمية أنفسهم شعوبا ودولا . باختصار تحولت لغة الخطاب الساداتى فى السنوات الأخيرة الى التشفى فى العرب والتحقير لهم أنظمة وشعوبا واستعداء المصريين عليهم . وظهرت شعارات من قبيل **مصر فوق الجميع** ، **ومصر أولا .. ومصر دائما** .

الحصاد

مثالية عبد الناصر القومية وبرجماطية السادات المصرية كانتا تمثلان طرفى نقيض فى التعامل مع مسألة العرب والعروبة . وقد كان لكل طرف نقيض نتائج إيجابية وعواقب سلبية . ايجابية مثالية عبد الناصر القومية أضفت على مصر والعرب قوة معنوية هائلة فى فترة المد التحررى من ١٩٥٢ الى ١٩٦٢ . كانت مصر قوية بالعرب من حولها ، وكان العرب أقوياء بمصر فى وسطهم . كانت خطوط المعارك واضحة فى لحظات النصر وفى لحظات الهزيمة . وفى الفترة من ١٩٦٢ الى ١٩٧٠ ظهرت سلبيات مثالية عبد الناصر القومية . فقد استدرج عبد الناصر ومعه مصر الى حروب غير محسوبة ، والى معارك لم يحسن اختيار زمانها ومكانها وكانت النتيجة استنزافا للطاقات والدماء وانتكاسا للمشروع الناصرى برمته — سواء فى جانبه التنموى الداخلى أو فى سعيه لتكريس الاستقلال الوطنى وعدم الانحياز ، أو فى مسيرته لتحقيق الوحدة العربية .

لماذا كان عبد الناصر زعيماً قوميا ؟

يقال ان هناك شخصيتين فقط فى التاريخ العربى الحديث ، استمعت لهما الجماهير العربية ، من المغرب الى العراق ، بحب وشغف ، هما جمال عبد الناصر وأم كلثوم . الشخصية الاولى عبد الناصر (١٩١٨ - ١٩٧٠) كان رئيساً لمصر (١٩٥٦ - ١٩٧٠) ولكن أهم من رئاسته للدولة المصرية ، نصبته الجماهير العربية زعيماً لكل العرب . وقد اقر العالم كله ، بما فى ذلك أشد اعدائه فى الداخل والخارج ، بشرعية هذه الزعامة ومازال الجميع يقرون بأنه فى انتصاراته وفى هزائمه ، اثناء حياته وبعد مماته ، مارس عبد الناصر سطوة عاطفية غير مسبوقة على مشاعر وقلوب وعقول وسلوك الجماهير العربية من المحيط الى الخليج .

واذا كان من السهل تفسير التفاف هذه الجماهير العربية حول عبد الناصر وهو فى قمة انتصارته ، فليس من السهل تفسير استمرار هذا الالتفاف حوله وهو فى سفح هزائمه - خاصة ان إحدى هذه الهزائم (على يد اسرائيل عام ١٩٦٧) جلبت على الامة العربية اشد ماخبره العرب فى تاريخهم الحديث من مشاعر الألم والاذلال .

لقد حاول عشرات الكتاب ومئات الصحفيين ، خلال السنوات الثلاثين الماضية ، ان يفسروا ظاهرة القيادة الناصرية للأمة العربية . ولكن قلة قليلة منهم هى التى استطاعت ان تسبر أغوار الظاهرة . فالقيادة العملاقة لعبد الناصر تختلط فيها أبعاد كثيرة ، وتحتوى على مستويات عديدة ، وتتداخل فيها رئاسته للدولة المصرية ، مع زعامته لثورة يوليو ، مع قيادته لحركة التحرر العربى ، مع مشاريعه للوحدة العربية ، مع تصديه للاستعمار والامبريالية والصهيونية ، مع تبشيره بفلسفة عدم الانحياز ، مع أبعاد شخصيته المتدفقة ، مع اشياء كثيرة اخرى فى الداخل والخارج .

نقد الكتابات السابقة عن عبد الناصر

ماكتب عن عبد الناصر وثورة يوليو فى الثلاثين سنة الأخيرة لا يمكن حصره بسهولة .

فهو يقدر بمئات الكتب وآلاف المقالات ، وبكل اللغات الحية تقريبا . ولكن بعض ما أمكن لهذا الكتاب حصره والاطلاع عليه ممن كتبه الاكاديميون والعلماء الاجتماعيون ، قابل للتصنيف فى عدة نماذج او منظورات ، من تلك التى يستعين بها العلم الاجتماعى فى تحليل وتفسير الظواهر . من هذه المنظورات النموذج « الفيبرى » (نسبة الى ماكس فيبر عالم الاجتماع الالمانى) ، والنموذج « الماركسى » ، و« النموذج العسكرى » ، و « النموذج البيروقراطى » ، و « النموذج السلطوى » Authoritarian Model . بعض هذه النماذج نفسها متداخلة ، ولكن كل منها يتميز بنقطة ثقل مركزية فى التحليل .

ورغم ثراء ماينطوى عليه كل نموذج فى حالة تطبيقه على الظاهرة الناصرية ، فإنها تظل جميعاً اسيرة مفاهيم العلم الاجتماعى الغربى ، وبالتالى تقصر عن الالمام بكل جوانب الظاهرة ، أو تقديم تفسير شامل لها . كما أن معظم هذه النماذج إما استاتيكية ثبوتية ، أو يغلب عليها فى التحليل الانتقائية لمسألة أو مجموعة محدودة من القضايا التى انفجرت فى الحقبة الناصرية ، أو يسيطر على صاحبها نوع أو أخر من أنواع التحيز الايديولوجى .

ولضخامة التراث العلمى المكتوب حول القيادة الناصرية ، فاننا لايمكن أن نتعرض له كله ، أو حتى لمعظمه ، بالتحليل والنقد . لذلك سنختار هنا بعض الأمثلة النمطية البارزه لكل منظور أو نموذج .

١- الكتابات العلمية الغربية المبكرة (فى الخمسينات مثلا) كانت تميل الى التركيز على الابعاد « التآمرية » و « الديكتاتورية » لعبد الناصر ورفاقه من قادة ثورة يوليو والضباط الأحرار . فقيامه بالاعداد للانقلاب ، وخلع الملك فاروق ، ومراحل تثبيت أنفسهم فى السلطة كحكام مصر الجدد ، كان يمثل صلب هذه الكتابات . وفيها يظهر عبد الناصر كمخطط ، وكمتآمر ، وكمنظم ، وكمنفذ بالغ الدهاء والذكاء . وفى معظم هذه الكتابات المبكرة فى الغرب خصوصاً ، عزت كل هذه الصفات لعبد الناصر ، وأرجعتها الى رغبة عارمة فى الوصول الى السلطة . وفى سبيل تلك الغاية استغل عبد الناصر كل ماصادفه من أشخاص أو اشياء أو حوادث ، ووظفها بمهارة واقتدار .

ويعتبر هذا المنظور من أشد المنظورات ضيقاً فى افقه ، ومن أشدها سطحية فى تفسيراته . وقد يكون أحد اسباب الضيق والتسطح فى هذا المنظور هو أن الكتابات التى تندرج تحته قد ظهرت مبكرا جدا بعد قيام ثورة يوليو . ولم يكن اتساع وعمق المعارك التى دخلتها الثورة بقيادة عبد الناصر قد أتضح بعد لأصحاب هذه الكتابات . كما أن النماذج الوحيدة القريبة من أذهان هؤلاء الكتاب فى ذلك الوقت (أوائل الخمسينات) كانت الانقلابات العسكرية أمريكا

اللاتينية . اما الكتابات التى ظهرت بنفس المقولات فى الستينات وبعدها ، فهى بالقطع متحيزة تحيزا ايديولوجيا فاقعاً ، ولا يمكن أن ترقى الى مايمكن تسميته بكتابات فى العلم الاجتماعى ، حتى بصياغاته الغربية ، حتى لو صدرت من أشخاص يحملون درجات اكاديمية رفيعة . ومن أمثلة هذا النوع من الكتابات كتاب « عاموس » بعنوان « مصر : دولة الحرس الامبراطورى » (١٩٧٧)[١] ، ب . ج . فاتيكيوس (P. j. zvatikotis)بعنوان « ناصر وجيله » (١٩٧٨)[٢] . الكتاب الأول من أصل اسرائيلى صهيونى ، يعمل فى الجامعاتالأمريكية ، ومشكوك فى نزاهته العلمية . أما الكتاب الثانى فهو من أصل يونانى مصرى ، وهو أستاذ زائع الصيت فى جامعة لندن .

ومن الطريف ، والمريب فى نفس الوقت ، أن فاتيكيوتس ، وهو ثقة فى الشئون العربية والمصرية ، كان قد كتب كتابا فى ١٩٦١ بعنوان « الجيش المصرى فى السياسة »[٣] . وفيه أشاد بدور العسكريين بقيادة عبد الناصر فى عملية « التحديث » وبناء الدولة المعاصرة . وأعتبر ذلك نبراساً لكل العالم الثالث (باستثناء امريكا اللاتينية) . أما فى كتابه « عبد الناصر وجيله » ، والذى صدر بعد ثمانى سنوات من رحيل عبد الناصر ، فانه يعتمد على شهادات كثير من رجال السياسة والشخصيات العامة فى مصر . وقد جمع مادته « العلمية » فى قمة الحقبة الساداتية ، وماسادها من مراجعات نقدية موضوعية مختلطة بحملات التشوية والتجريح والانتقام الذاتية . وكان من المفوض على الاستاذ فاتيكيوتس أن يميز بين هذا وذاك ، حيث أنه عالم اجتماعى ، ومؤرخ سياسى . ويبدو أنه فى غمار الحملة ضد عبد الناصر (منتصف السبعينات) قد إنجرف فى تحليلاته وتفسيراته حتى لأحداث لايختلف على مغزاها اثنان . من ذلك مثلاً ، وهو فى معرض تفسيره لما « يبدو أنه شعبية عبد الناصر » ، يوحى القارىء أن الملايين الخمسة التى تدافعت فى جنازته وحول نعشه ، « لم يكونوا يعبرون عن حزنهم بقدر ماكانوا يعبرون عن ارتياحهم بالتأكيد من أن الطاغية حقيقة قد مات »[٤] .

١ – Amos Perlmutter, **The Praetorian State,** New Brunswick, N.J. : Rutgers university Press, 1974. اموس برلمتر . **الدولة البريتورية** ، ١٩٧٤ .

٢ – P.J. Vatikiotis, **Nasser and his Generalion,** London : crom Helm, 1978. ب.ج. فاتيكيوتى : **ناصر وجيله** ، ١٩٧٨ .

٣ – **The Egyptian Army in Politics,** Bloomington, Indiana : university of Indiaua Press, 1961. ب.ج. فاتيكيوتس (الجيش المصرى فى السياسة) .

٤ – فاتيكيوتس ، **ناصر وجيله** ، مرجع مشار اليه سابقا .

٢ – أحد المنظورات الأخرى التى حاولت تفسير ظاهرة القيادة الناصرية ، هى تلك التى وضعتها فى « سياق مؤسسى Institutional Frawework » . فالجيش ، بالنسبة لأصحاب هذا المنظور ، هو أهم مؤسسات المجتمع حداثة فى العالم الثالث . فهو يتصف بالانضباط ، والنظام ، والتسلسل القيادى الصارم ، ويتعامل مع اكثر منتجات التكنولوجيا الحديثة تعقيداً وتطوراً . كما أن الجيش فى مجتمعات العالم الثالث هو أهم بوتقة لعملية الاندماج والصهر الاجتماعى ، حيث يأتى جنوده وضباطه من كل الفئات والطبقات ، ومن الريف والحضر ، ومن كل اقاليم الدولة . وفى المرحلة التالية للاستقلال مباشرة تكون عملية تحلل اركان المجتمع التقليدى (التى بدأت مع الاستعمار) فى عنفوانها ، وتكون توقعات وأحلام الجماهير بأن يجلب عليها الاستقلال كل الوان الازدهار فى قمتها (فهكذا وعدتهم القيادات الوطنية اثناء النضال ضد الاحتلال) . فى مواجهة هاتين الظاهرتين (تحلل قواعد المجتمع التقليدى ، ولهفة الجماهير على الانجاز) تصطدم الحكومات الوطنية المدنية التى تسلمت السلطة لتوها (من قوى الاحتلال) بمشكلات لا حصر لها . ومع مرور بضع سنوات بعد الاستقلال يزداد الاحباط ، لبطء الانجاز . والجماهير لاتعرف عدم الانجاز ، لا لطبيعة المشكلات وأسبابها الهيكلية ، ولكن لعجز الساسة المدنيين ، وصراعاتهم على السلطة ، وفسادهم المالى والاخلاقى ، ولتعدد احزابهم وفرقهم المتنافرة . هنا يتدخل العسكريون ، كفئة منظمة منضبطة ، غير متحزبة ، تمثل الشعب كله . ويساعد على تدخلها بالطبع أنها الفئة الوحيدة التى تحتكر سلاح القوة العسكرية المادية . وعادة مايرحب بهم الشعب كوجوه شابة نظيفة مخلصة وحاسمة ، على أمل أن تنتشل المجتمع مما هو غارق فيه من مشكلات .

معظم العلماء الاجتماعيين الذين كتبوا فى نهاية الخمسينات وأوائل الستينات وضعوا ظاهرة القيادة الناصرية فى هذا الاطار – أى نموذج تدخل الجيش فى السياسة كأهم مؤسسة تحديثية فى المجتمع . ومنهم فاتيكيوتس نفسه فى كتابه الاول (١٩٦١) الذى أشرنا اليه أعلاه ، وكل من مورو بيرجر (١٩٦٢) ، ومانفريد هالبرن (١٩٦٣) ، وليونارد بايندر (١٩٦٥)[٥] . وقد

٥ – انظـــــر كتب هؤلاء ، وهـــــى : Leonord Binder, The Idedogical Revdution in the Middle East, New York : John Wiley, 1964 ليونارد بايندر : الثورة الايديولوجية فى الشرق الأوسط ، ١٩٦٤ .

- Manfred Halpern, The Politics of Social change in the Middle East and North Afeica, Princeton, N.J. : Princeton university Press, 1963.

مانفريد هالبرن : السياسة والتغير الاجتماعى فى الشرق الأوسط وشمال افريقيا ، ١٩٦٣ .

- Morree Berget, Bureacracy and Society in Modern Egypt, Princton : Princeton university Press, 1957; The Arab World Today, Garden city, n.Y. : Doubleday, 1962. موروبيرجر : البيروقراطية والمجتمع فى مصر الحديثة ، ١٩٥٧ ، والعالم العربى اليوم ، ١٩٦٢ .

حرص هؤلاء وغيرهم على أظهار وتأكيد الفروق بين ظاهرة تدخل المؤسسة العسكرية فى حالة القيادة الناصرية المصرية عنه فى أمريكا اللاتينية . فحركة عبد الناصر فى نظرهم كانت تمرداً – إن لم تكن ثورة كاملة – على قوى اليمين المحافظة فى المجتمع : العهد الملكى ، كبار الاقطاعيين ، كبار الرأسماليين ، والاحتلال الأجنبى . كما أن هؤلاء الكتاب قد دللوا على أن القاعدة الاجتماعية لعبد الناصر ورفاقه كانت هذه الشريحة أو تلك من الطبقة الوسطى . بعضهم سماها « البرجوازية الصغيرة » (مثل أنور عبد الملك ، ومحمود حسين(٦) ، وفاتيكيوتس(٧)) . وبعضهم أطلق عليها اسم « الطبقة المتوسطة الدنيا » (مثل بورو بيرجر)(٨) ، او « الطبقة المتوسطة الجديدة » (مثل مانفريد هالبرن)(٩) . وكان دليلهم الأمبريقى على ذلك ماجمعوه من بيانات عن الخلفيات الأجتماعية لعبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة والضباط الأحرار .

مايعيب هذا المنظور ، ويقلص من قوته التفسيريه ، هو أن أصحابه ذهبوا الى أن أدوات عبد الناصر فى التأثير السياسى كانت تعتمد أساساً على الجهاز البيروقراطى بجناحيه العسكرى والمدنى ، وعلى المهارة فى استخدام وسائل الاتصال والاعلام الجماهيرى . نلاحظ هذه المقولة خاصة فى كتابات مورو بيرجر ، ودانيال ليرنر(١٠) ، ونزيه نصيف الايوبى(١١) ، وروبرت ديكميجيان(١٢) ، وفاتيكيوتس . يقول الأخير مثلا :

٦ – انظـــــ - Anouar Abdel Malek, **Egypt : Mility Society**, New York : Vantage Books, 1968 انور عبد الملك : مصر ، مجتمع عسكرى ، ١٩٦٨ .

محمود - Mahmoud Hussan, **Class Conflict in Egypt**, New York; Monthly Review Press, 1975 حسين : الصراع الطبقى فى مصر ، ١٩٧٥

٧ – فاتيكوتس ، **الجيش المصرى فى السياسة** ، مرجع مشار اليه سابقا .

٨ – بيرجر ، **العالم العربى اليوم** ، مرجع مشار اليه سابقا .

٩ – هالبرن ، **السياسة والتغير الاجتماعى فى الشرق الأوسط وشمال افريقيا** ، مرجع مشار اليه سابقا .

١٠– Daniel Lernen, **The Passing of Traditional Society**, New York : free Pree, 1958

١١– Nazih N. Ayubi, **Bureaucracy and Politics in Conteniporary Egypt**, London : Ithica Press, 1980. نزيه الايوبى ، **البيروقراطية والسياسة فى مصر المعاصرة** ، ١٩٨٠ .

١٢– R.H. Dekmejian, **Egypt under Nasser : Astudy in Political Dynamics** London : university Press, 1971. ر.ه. ديكميجان ، **مصر فى ظل ناصر : دراسة فى دينامية السياسة** ، ١٩٧١ .

« كان عبد الناصر قادراً من حلال مختلف اللجان والمجالس التى أستحدثها ، والتى كانت مسئولة أمامه ويمسك بكل خيوطها وينسق فيما بينها ، ان يفرض تحكما كاملاً للجيش على كل أنشطة الدولة[١٣] ».

وذهب أخرون فى التفسير الى اعتبار عبد الناصر مجرد امتداد تاريخى لظاهرة السلطة فى مصر . ففى رأيهم ورث عبد الناصر وتربع على قمة اقدم بيروقراطية فى أقدم دولة مركزية فى التاريخ . واستطاع من خلال ذلك ان يسيطر على مجتمع مهيأ ومعتاد على هذه السيطرة من أعلى . نجد هذه المقولة واضحة عند روبرت ستيفنز[١٤] ونزيه الايوبى[١٥] . ويذهب الأخير خصوصاً الى وضع الظاهرة الناصرية فى سياق تاريخى طويل لمجتمع نهرى مركزى ، يشترك مع غيره من المجتمعات النهرية ، فى التعود على مايسميه ويتفوجل « بالطغيان الشرقى » (Oriental Despotism) .

والخلل الواضح فى هذا النوع من التفسير يتجلى فى حقيقة أن العديد من الزعماء العرب وزعماء العالم الثالث قد أستخدموا ، أو حاولوا استخدام ، نفس الآليات التى فسروا بها القيادة الناصرية (الجهاز البيروقراطى المدنى والعسكرى ووسائل الاعلام والاتصال الجماهيرى) . ولكن لم يحصلوا على نفس النتيجة . بل إن خليفة عبد الناصر نفسه فى مصر وهو أنور السادات ، أستخدم نفس هذه الآليات دون أن يتحول الى نفس القيادة العملاقة التى كانت لعبد الناصر . ثم أننا لو أفترضنا جدلاً الأهمية القصوى لهذه الآليات ، فى تكريس قيادة عبد الناصر فى مصر ، حيث الوجود المادى لهذه الآليات ، فكيف نفسر امتداد زعامته الى كل أرجاء الوطن العربى حيث لا توجد هذه الآليات تحت سيطرته ؟

٣ - المنظور الثالث الذى نتعرض له هنا هو بعض الكتابات اليسارية والماركسية التى حاولت فهم الظاهرة الناصرية . معظم هذه الكتابات فى الستينات واوائل السبعينات كانت شديدة النقد لأن القيادة الناصرية لم تكن « اشتراكية » بالدرجة الكافية . ومن ممثلى هذا المتطور

١٣- فاتيكيوتس ، **الجيش المصرى فى السياسة** ، مرجع مشار اليه سابقا ، ص ٤ .

١٤- Robert Stephens, **Nasser**, London : Allen Lane, The Peguin Press, 1971.
روبرت ستيفنز ، ناصر ، ١٩٧١ .

١٥- الايوبى ، **البيروقراطية والسياسة فى مصر المعاصرة** ، مرجع مشار اليه سابقا .

صادق جلال العظم[١٦] ، وأنور عبد الملك[١٧] ، ومحمود حسين[١٨] .

فصادق جلال العظم ، مثلا ، يحمل عبد الناصر بسبب « وسطيته » فى كل المسائل الكبرى ، وبسبب غلبة السلب على معظم شعاراته: « الطريق اللارأسمالى » ، « عدم الانحياز » ، « الملكية غير المستغلة » ، « تذويب الفروق بين الطبقات سلميا » ، « وعدم سيطرة طبقة على أخرى ».

أنور عبد الملك ومحمود حسين ، ومعظم الماركسيين المصريين ، يؤكدون بما يشبه اليقين أن مصر فى اوائل الخمسينات كانت ناضجة وعلى شفا ثورة شعبية (بروليتارية) حقيقية أكثر عمقاً وأعظم اتساعاً ، مما حدث فى عام ١٩٥٢ . والمغزى الصريح أو الضمنى لهذا التأكيد هو أن عبد الناصر ، « وثورة البرجوازية الصغيرة » التى قادها ، هى التى أجهضت الثورة الأكبر للطبقات المصرية الكادحة . وبعض كتاب هذا المنظور ظلوا لفترة طويلة لا يغفرون لعبد الناصر هذا « التآمر التاريخى » ضد الثورة الشعبية التى كانت تعتمل فى احشاء مصر الحبلى . كما أنهم ظلوا لفترة طويلة لا يغفرون له الاجراءات الاصلاحية « نصف الثورية » التى أدت الى تمييع الاستقطاب الاجتماعى ، وحالت بين الجماهير وبين حقها فى القبض على زمام التاريخ والسلطة فى يديها .

ورغم الثراء المنطقى والفكرى لأصحاب هذا المنظور من اليساريين العرب ، إلا أن الأدلة الامبريقية والتاريخية – قبل وأثناء وبعد الحقبة الناصرية – لا تدعم هذه التأكيدات الراديكالية « شبه اليقينية » . فهناك العديد من اقطار الوطن العربى والشرق الأوسط التى تتشابه مع مصر فى بنائها الاجتماعى ، واطارها المؤسسى ، وهياكلها الطبقية (مثل تركيا وايران والعراق والمغرب) ، ولم يأتها « ناصر » بثورة برجوازية صغيرة ، ومع ذلك لم تشهد هذه الأقطار ثورة شعبية بروليتارية اشتراكية ، بالمعنى الذى يقصدونه . حتى الذى وقع فى ايران فى أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات رغم أنه ثورة شعبية ، الا أن الذى قادها هم رجال الدين . وليس هناك دلائل بعد تشير الى أنها ستتحول الى « ثورة بروليتارية » .

١٦– صادق جلال العظم ، **النقد الذاتى بعد الهزيمة** ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩ .

١٧– انور عبد الملك ، **مصر : مجتمع عسكرى** ، مرجع مشار اليه سابقا .

١٨– محمود حسين ، **الصراع الطبقى فى مصر** ، مرجع مشار اليه سابقا .

إن مابدا وكأنه « وسطية ممجوجه » فى نظر كتاب اليسار الماركسيين فى الستينات ، أثبتت السنوات العشر التالية فى مصر والوطن العربى أنه ربما كان أقصى مايمكن تحقيقه من ممارسات تقدمية . فحتى هذه الممارسات الاشتراكية الاصلاحية المعتدلة ، فى نظرهم ، لم يستطيعوا هم أو أحزابهم أن يحافظوا عليها فى وجه « الردة الرجعية أو المحافظة » التى اجتاحت مصر والوطن العربى كذلك لم تحدث بعد « الثورة الشعبية » الموعودة ، رغم اشتداد الاستقطاب الطبقى عما كان عليه فى أوائل الخمسينات .

وأخيرا ، فان كانت وجاهة أو صدق انتقادات اليسار الماركسى لعبد الناصر ، فإن منظورهم يظل قاصراً عن تقديم تفسير مقنع لا لتفاف الجماهير العربية ، بما فى ذلك الكادحين ، حول عبد الناصر ، وليس حول أى زعيم أخر ، وليس حول أى حزب أخر ، بما فى ذلك أحزاب اليسار الأكثر راديكالية من عبد الناصر .

٤ – المنظور الرابع والأخير الذى نعرض له هنا هو « المنظور الفيبرى » (نسبة الى ماكس فيبر) فى تفسير قيادة عبد الناصر للأمة العربية . وربما كان هذا المنظور من خلال مفهومه الرئيسى عن « الكاريزما Charisma » هو اكثر المنظورات قدرة على سبر أغوار الظاهرة الناصرية . ومع ذلك يظل عطبة الرئيسى هو أن مفهوم « القيادة الكاريزمية » ، أو « القيادة الملهمة » ، هو مفهوم فضفاض ، يقذف الكتاب تحته وحوله كل ما لايستطيعون تفسيره موضوعيا وعقلانيا .

من ذلك ، مثلاً ، أن أهم كاتب غربى متعاطف استخدم النموذج الفيبرى لدراسته الظاهرة الناصرية وهو روبرت داكميجيان يقول :

« ان القائد الكارزمى (الملهم) هو صانع اساطير myth- maker أو خرافات . والأسطورة (أو الخرافة) لا تخضع للتحليل العقلانى ، لأنها تعتمد على الحدس والغريزة والعقيدة ... سواء فى أصلها أو فى استخداماتها السياسية . فالقيادة الملهمة والأسطورة متشابكتان بكثافة . وتشتركان فى اصولهما غير العقلانية ، وفى أبعادهما الحدسية والعقيدية والوجدانية »[١٩]

أن فحوى مثل هذه المقولة هو أنه لكى تتحول أى قيادة الى النوع الكارزمى الملهم ، لابد

١٩– ديكمجيان ، مصر فى ظل ناصر .. ، مرجع مشار سابقا ، ص ٥٦ – ٥٧ .

لصاحبها من القدرة الفائقة على صنع « الأساطير » ، وأن هذه الاساطير والقيادة الملهمة ذاتها هما من الظواهر التى لايمكن تحليلها عقلانيا . هذا معناه فى الواقع أن نلغى ، أو نعلق ، أو نتوقف ، عن محاولات التفسير العلمية . ويتقلص دور العالم الاجتماعى فى هذه الحالة الى التعرف على « الاساطير » التى خلقها القائد الملهم ، ورصدها ، واستكشاف آثارها . والاقتباس التالى من داكمجيان يوضح خلاصة هذا المنظور فى التعامل مع الظاهرة الناصرية :

« إن نجاح عبد الناصر فى تعبئة العرب من ورائه يعزى الى حد كبير الى قدراته الفائقة فى خلق الاساطير. وأول هذه الأساطير فى معرض تأسيسه لحركة ثورية هى عظمة الشعب المصرى والأمة العربية . فعندما تطلبت مقتضيات الأمن المصرى عام ١٩٥٥ التمثل الوثيق مع الأقطار العربية الأخرى ، تبنى عبد الناصر الاسطورة البعثية عن الوحدة العربية . وفى السنوات التالية قام الايديولوجيون المصريون بتوفير التبرير النظرى والتأصيل التاريخى لمذهب الوحدة العربية ، التى أصبحت جزءاً لايتجزأ من الايديولوجية الناصرية . ولكن جوهر مذهب الوحدة العربية يظل اسطورة بالمعنى الذى يقصده سوريل ، برغم كل المحسنات الايديولوجية التى أُحيطت بها »[٢٠] .

ان المثلب الرئيسى فى هذا المنظور الفيبرى هو « ضبابيته » (من ضباب) فى تعامله مع القوى الاجتماعية والعمليات التاريخية . انه يعكس التسلسل السببى فى دراسته لظاهرة « القيادة الملهمة » . فبدلاً من أن ينظر للقائد كتجسيم لمحصلة التفاعلات الاجتماعية والتاريخية ، فإنه يعزو « الهامية » القائد الى قدراته على صياغة الاحلام . فكيف يمكن لأى دارس جاد للتاريخ العربى وللمجتمع العربى أن يهمل تراكمات مائة سنة من الانتفاضات والمعارك القومية ، قبل أن يصل عبد الناصر الى السلطة فى مصر . ان تراث الحركة العربية القومية الحديثة يعود الى ستينات القرن التاسع عشر . وتحركات الطلبة العرب وجمعياتهم السرية العديدة فى داخل الوطن العربى وفى أوربا ازدهرت وتفرخت فى العقود الأخيرة من القرن الماضى وأوائل هذا القرن . وكانت الثورة العربية الكبرى (١٩١٥ – ١٩١٨) ، بقيادة الشريف حسين ، هى محصلة التراكم الكمى والكيفى لتلك الارهاصات العديدة فى الاربعين سنة السابقة . وكانت الثورة العربية الكبرى تهدف الى نوع من الوحدة العربية – على الأقل بين أقطار المشرق . كل ذلك حدث قبل أن يولد عبد الناصر ، وقبل أن ترى عيناه النور . فإذا كانت القومية العربية من قبيل « الأساطير » ، فأنها على اليقين تعتبر « اسطورة جماعية » ، لم يخلقها عبد الناصر ، وانما نسجت خيوطها وعناصرها ثلاثة اجيال متعاقبة ، من التجار والشباب والطلاب والمفكرين والادباء والسياسيين وزعماء العشائر والقبائل

٢٠– نفس المرجع أعلاه ، ص ٥٦ .

وفئات شعبية أخرى . كذلك فإن الاسطورة - إذا جاز التعبير - مستمرة بعد رحيل عبد الناصر عن مسرح دنيانا .

بعض العلماء الاجتماعيين الغربيين لا يكادون يخفون فرحتهم فى الاعتقاد بأن « أسطورة القومية العربية » ومطلب الوحدة العربية قد ماتت مع موت صاحبها يقول أحدهم :

« إن الأمن معقود على أنه مع تمزيق أسطورة ناصر فى الوحدة العربية ، فإن الحكومات العربية ، كل على حده ، ستتبنى تصوراً عاقلاً ، معتدلاً ، ومنضبطا لدورها هى وحدها »[٢١]

إن هذا التهليل لنهاية فكرة الوحدة العربية[٢٢] ربما كان بنفس التعجل الذى هلل به علماء اجتماعيون غربيون آخرون فى الخمسينات والستينات « بنهاية الاسلام » كقوة سياسية فى المنطقة . إن هؤلاء العلماء ، وخاصة من أنصار نظرية « التحديث » (Modernization Theory) الذين بشروا بنهاية الاسلام كقوة سياسية[٢٣] هم أنفسهم او تلاميذهم الذين بشروا ، ومازالوا ، بنهاية فكرة العروبة والقومية العربية كقوة سياسية . وكما اثبتت احداث السبعينات واوائل الثمانينات ان الدين عموماً والاسلام خصوصاً مازال يحتوى على قوة تعبوية سياسية هائلة ، فقد تثبت السنوات القادمة نفس الحقيقة بالنسبة لفكرة العروبة والقومية العربية . ففى دراسة مسحية حديثة عن اتجاهات الرأى العام فى عشرة أقطار عربية نحو مسألة الوحدة ، قررت الاغلبية من المغرب الى الكويت تمسكها القوى بما يسميه الكتاب الغربيون « بأسطورة العروبة والوحدة العربية » .

٢١- Malcolm Kerr, **The Illrsive Peace in the Niddle Egypt,** Albany, N.Y. : State university of New York Press, 1975, P. 55. مالكولم كير ، **السلام الواهم فى الشرق الأوسط** ، ١٩٧٥ ، ص ٥٥ .

٢٢- من منظور مختلف ، ناقش فؤاد عجمى مسألة نهاية الوحدة العربية كما عرفها الناس فى الخمسينات ، أنظر : Fouad Ajami, The End Pann-Arabism in **Foreign Affairs** (January 1969). فؤاد عجمى ، نهاية فكرة الوحدة العربية فى مجلة الشئون الخارجية (يناير ١٩٧٩) .

٢٣ راجع مناقشة لهذه الكتابات فى :
Sad Eddin Ibrahim Anatorvy of Egypt,s Islamic Militauts in **International Journal of Middle East Studies,** (December 1980). سعد الدين ابراهيم تشريح جماعات العنف الاسلامى فى مصر فى **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط** (ديسمبر ١٩٨٠) .

هذا النقد للكتابات المختلفة عن عبد الناصر وأفكاره وممارساته ، لا يعنى ان تلك الكتابات عديمة القيمة أو منعدمة الجدوى . فعدد لا بأس به منها يحتوى على مادة وصفية غاية فى الثراء ، وعلى دراسات تحليلية غاية فى العمق . وكل ماقصدناه من نقدها هو لبيان قصورها أو تحيز بعضها فى الالمام بأبعاد القيادة الناصرية وفى تفسير هيمنتها الوجدانية والسياسية على الجماهير العربية فى كل مكان ، متخطية حدود الدولة المصرية ، ومتجاوزة حدود الشرعية التقليدية . وبنقدنا هذا فإننا فى الواقع نمهد الساحة المفهومية لجهود نظرى عام يساعد على فهم القيادة الناصرية كتجسيم خاص فى اطار نموذج نظرى اكثر شمولية .

نحو نموذج نظرى عام للقيادة فى الوطن العربى

إننا نذهب بداية الى أن قائداً مثل عبد الناصر هو فى الحقيقة بمثابة تقاطع لثلاثة خطوط محورية : التاريخ ، والبناء الاجتماعى ، والشخصية الفردية . وربما كانت أحد مثالب الدراسات التى أستعرضناها هى أنها ركزت على أحد المحاور ، وخاصة محور الشخصية . فوصف بعضها عبد الناصر بأنه كان يمثل قيادة سلطوية ، أو متسلطة ، أو طموحة ، أو جموحة ، أو خيرة أو شريرة ، أو ملهمة أو متآمرة ، وما الى ذلك من أوصاف وما نقترحه نحن هو أن يأخذ هذا المحور (محور الشخصية) حجمه الطبيعى ، دون مبالغة بالافراط أو النقصان . فهو فى نظرنا محور واحد فقط من ثلاثة محاور تفسر ظاهرة قيادته العملاقة للوطن العربى . المحوران الآخران هما التاريخ والبناء الاجتماعى . بل اننا نذهب الى أن محور الشخصية هو « المتغير التابع » للمحورين الآخرين . فشخصية عبد الناصر ، أو غيره من البشر ، هى فى النهاية نتاج للتاريخ والبناء الاجتماعى . ولكنه نتاج يتحول فى مرحلة تالية الى محرك للتاريخ والهيكل الاجتماعى . كما أن السيرة الشخصية هنا تصبح اكثر من مجرد حديث أو دراسة لفرد واحد ، وانما تصبح تعبيرا عن جيله ، ومرآة لفهم أنصاره وأتباعه ، وفى نفس الوقت يمثل الزعيم مجموعة من القوى والعوامل الموضوعية التى تشكلهم وتحملهم فى أمواجها عبر الزمان . ويصبح البناء الاجتماعى ، بالتالى ، ماهو الا لحظة تاريخية . أو بتعبير أخر فان التاريخ هو عبارة عن هياكل اجتماعية متلاحقة ومتداخلة .

نبدأ حديثنا عن المحاور الثلاثة المتقاطعة بمحور التاريخ . المنطقة الحضارية – الجغرافية التى نطلق عليها اسم « الوطن العربى » هى القلب الجغرافى الحضارى لكل من الشرق الأوسط ، والعالم الاسلامى . وتاريخ هذا القلب ، أى الوطن العربى ، فى أحد وجوهه هو تاريخ الأنبياء والزعماء العمالقة . ويذهب بعض الدارسين لشئون المنطقة الى أن دور الزعيم الملهم يفوق بكثير دور المؤسسات والنظم السياسية . ولا تعنى هذه الملاحظة أن الوطن العربى أفتقد فى الماضى ، أو

يفتقد فى الحاضر ، الى مثل تلك المؤسسات والنظم الرسمية . ففى بعض اجزائه على الأقل (مثل وادى النيل والعراق واليمن) عرفت البشرية اقدم المؤسسات النظامية فى التاريخ . ولكن معظم هذه المؤسسات (مثل البيروقراطية المدنية ، والجيش ، والمؤسسة الدينية) نادراً ماكانت ذات قوة دفع ذاتية مستقلة فى ادارة المدنيات الكبرى فى المنطقة . لقد كان هذا الدور من نصيب بعض الملوك والانبياء والقادة العظام . فهؤلاء اما أنهم كانوا يخلقون المؤسسات من البداية ، أو يضحون فيما يجلونه منها روحاً جديدة ودماً جديداً يصل بأدائها الى قمة حضارية جديدة . فتاريخ المنطقة — إذن — هو تاريخ مينا ورمسيس ، وابراهيم وموسى والمسيح ومحمد . وهو تاريخ الخلفاء الراشدين ، ومعاوية والمنصور وهارون الرشيد . وهو تاريخ امثال صلاح الدين ومحمد على وعبد الناصر .

● والمقولة الأولى فى نموذجنا النظرى لفهم ظاهرة القيادة فى الوطن العربى هى : « **ان كلا من هؤلاء العمالقة التاريخيين قد ظهروا فى مجتمع يمر بأزمة كبرى ، ويواجه تحديا هائلاً ، وكان لدى كل منهم رسالة ، وجد الناس مهيئين لقبولها والايمان بها ، ومستعدين للألتفاف حوله ، والمضى من خلفه ، بحثاً عن الخلاص اما فى الدنيا أو الأخرة ، أو فيهما معا** » .

ان هذه المقولة المكثفة تحتوى مانعتقد نحن أنه العناصر الرئيسية لتفسير ظاهرة القيادة العملاقة فى الوطن العربى ، أو فى محيطة الاكبر وهو العالم الاسلامى . وبالطبع فإن هذه المقولة ، كأى شيىء مكثف مضغوط ، يغلب عليها صفة العمومية . كما انها قد تفسر ظاهرة القيادة العملاقة أو الملهمة فى اجزاء أخرى من العالم . ولكن عزاءنا هو أنها مستوحاه من قراءة واعية لتاريخ منطقتنا الطويل . وحينما نسوق المقولات الأخرى فى نموذجنا النظرى ، فإن هذه المقولة التى تبدو غاية فى العمومية لأول وهلة ، ستكتسب مزيداً من القسمات الخصوصية لمنطقتنا .

ذكرنا أن الوطن العربى هو القلب الحضارى والجغرافى للشرق الأوسط والعالم الاسلامى . ونضيف هنا أنه القلب الاستراتيجى للعالم بأكمله . فهو حلقة الوصل بين القارات الثلاث للعالم القديم ، وهو المعبر البرى بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، وهو يطل على محيطين من محيطات الدنيا الثلاثة ، وعلى اربعة من بحورها الرئيسية . لذلك شغلت منطقتنا مكان الصدارة فى تفكير وتخطيط كل بناة الامبراطوريات العظمى فى التاريخ ، سواء كانوا من داخل المنطقة أو من خارجها : من رمسيس الى محمد على ، ومن الاسكندر الى نابليون ، ومن روما الى لندن وباريس وبرلين ، ومن موسكو الى واشنطن .

اذا كان بناة هذه الامبراطوريات من خارج المنطقة ، فان اختراقهم لها يمثل حالة من حالات « الأزمة » التى ذكرناها فى مقولتنا العامة . والأزمة فى هذه الحالة ليست بالمعنى العسكرى البحث فحسب ، ولكن بالمعنى المجتمعى والحضارى والروحى كذلك . وتبدأ مع هذه الأزمة جدلية الصراع بين « قوى الداخل » الأصيلة من ناحية « وقوى الخارج » الغازية من ناحية أخرى . وفى أحشاء هذه الجدلية ، المتعددة الابعاد والمستويات ، تنمو البذور الجنينية لقيادة تاريخيه عملاقة .

المنطقة التى نسميها الأن « بالوطن العربى » ، بسبب موقعها الجغرافى الاستراتيجى الذى ذكرناه ، كانت ايضا هى الاناء الذى نشأت فيه أول مدنيات التاريخ الانسانى ، وكانت فى نفس الوقت هى ملتقى للتفاعل بين المدنيات التى نشأت خارجه . فى اللحظات التاريخية التى كانت المدنية (كأرقى صور الحضارة فى عصر معين) تنبت وتترعرع محليا ، أصبحت المنطقة هى مركز العالم ، وأصبحت بقية العالم هى بمثابة الهامش أو المحيط ، والعكس صحيح .

ولكن فى كل الأحوال ، سواء كانت منطقتنا مركزاً أو هامشاً ، فان المنطقة نفسها كانت تدور حول قطب اقليمى واحد داخل المنطقة . وفى القرون الأربعة عشرة الأخيرة كان هذا القطب المركزى للمنطقة كلها هو مكة ، أو دمشق ، أو بغداد ، أو القاهرة . ونادراً ماكان للمنطقة أكثر من قطب واحد لأى فترة طويلة من الزمن . فحتى فى الحالات التى كان يقوم فيها التنافس بين قطبين ، فإن هذا التنافس لم يكن يستمر طويلاً ، وكان يحسم فى غضون سنوات لصالح قطب مركزى واحد . ونقصد بذلك ان توجهات سكان المنطقة وشعوبها وولاءاتهم الروحية والسياسية والوجدانية كثيرا ماكانت تحسم معركة التنافس حول مركز الاقليم . وكان يساعد على ذلك بالطبع عوامل اخرى هامة مثل الثقل السكانى والعسكرى والثقافى لكل من المتنافسين .

واذا كان الوطن العربى هو القلب الحضارى — الجغرافى للشرق الأوسط وللعالم الاسلامى على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية ، فإن مصر كانت هى مركز هذا القلب على مدى القرون التسعة الأخيرة منها ، والقاهرة هى عاصمتها . فمنذ العصر الذهبى الوسيط للاسلام ، والقاهرة تشق طريقها لتصبح عاصمة للوطن العربى بأكمله . وفى ذلك يقول روبرت ستيفن : « .. أصبحت القاهرة لا فقط أهم مدينة فى مصر ، ولكنها أصبحت أيضا عاصمة امبراطورية ، مثلها مثل القسطنطينية وفيينا ، ترسل باشعاعها الحضارى البراق الى ماوراء حدودها الوطنية بمسافات شاسعة . ومنذ ذلك الوقت (القرن العاشر الميلادى) لم تفقد القاهرة هذه المكانة الامبراطورية »[٢٤] .

---

٢٤ – روبرت ستيفنز ، ناصر ، مرجع مشار اليه سابقا ، ص ١٢

لقد ظل العالم العربى – الاسلامى موحداً حضاريا طيلة الأربعة عشر قرنا الماضية ، رغم أن عوامل الانقسام والتشرذم السياسى قد دهمته منذ عصر الخلافة العباسية والذى يشير اليه ستيفن فى الاقتباس السابق هو أن القاهرة ظلت هى العاصمة الثقافية لهذا العالم. العربى – الاسلامى الموحد حضاريا ، حتى فى أشد حالات انقساماته السياسية . وهذه النقطة جديرة بالاهتمام ونحن بصدد صياغة نموذج عن القيادة فى الوطن العربى .

ففى كل منطقة حضارية – جغرافية ، مثل الوطن العربى ، هناك ما يمكن تسميته « بالموحدات » العريضة و « الخصوصيات » القاسمة . الموحدات الحضارية العريضة فى الوطن العربى هى أساساً : الاسلام ، كدين وكنمط حياة ، واللغة العربية ، كأداة تخاطب وكقالب للادراك والتفكير ، والتراث الثقافى والقيمى المشترك ، كرابطة مجتمعية .

اما الخصوصيات القاسمة فتشمل التنويعات والالوان المحلية لكل من الموحدات الحضارية المذكورة أعلاه . من ذلك مثلاً ان الاسلام كموحد حضارى عريض فى الوطن العربى بأسره ، ينطوى ايضا على تنويعات قاسمة ، تعطى لكل جزء من هذا الوطن العربى المتسع خصوصية معينة : مثل تعدد المذاهب والفرق الاسلامية ، والمدارس الفقهية ، والطرق الصوفية ، وما الى ذلك. نلاحظ نفس الشيء بالنسبة لموحد حضارى أخر مثل اللغة العربية . ففضلاً عن استمرار بعض الجيوب اللغوية غير العربية داخل الوطن العربى ، وهو مايضفى فى حد ذاته خصوصية كيفية على بعض اجزاء وجماعات هذا الوطن ، فإن هناك لهجات ولكنات عديدة ومتباينة بين من يتحدثون العربية وهم أغلبية السكان .

ان الموحدات الحضارية فى الوطن العربى هو مايطلق عليه علماء الانثربولوجيا اسم « التقاليد الكبرى » (Big Traditions) . وجود واستمرار هذه التقاليد الكبرى على مدى أربعة عشر قرناً هو الذى يجعل من الممكن لدى الغالبية العظمى من سكان الوطن العربى القدرة على والتهيؤ للاستجابة لمركز حضارى واحد أو لقائد سياسى واحد ، أو لزعيم دينى واحد ، حتى لو ظهر فى قطر بعيد عن القطر الذى يعيشون فيه .

اما « الخصوصيات » القاسمة فى الوطن العربى فهى مايطلق عليه علماء الانثربولوجيا اسم « التقاليد الصغرى » (Small Traditions) . وهى فى وطننا العربى قد عاشت وتعايشت مع بعضها البعض فى صمت ، وفى ظل الموحدات الحضارية أو التقاليد الكبرى . ومع ذلك

فهى قابلة للضجيج والاشتعال بين الحين والأخر بواسطة زعماء محليين – اما على اساس قبلى أو دينى ، أو مذهبى ، أو لغوى ، أو سلالى . ومن الملاحظ أن مثل هذه العصبيات المحلية تكون قابلة للاثارة والاستثارة فى فترات الانحطاط التاريخى والانحسار القومى . ولا مجال هنا لظهور قيادة تاريخية عملاقة ، إنما المجال واسع لظهور « قيادات قزمية » عديدة ، لا فقط بين الأقطار العربية ، وانما أيضا فى داخل كل قطر .

القائد العملاق هو الذى يثير ويستثير الموحدات الحضارية الكبرى فى المنطقة. وقد استجابت شعوب الوطن العربى لمثل هذه القيادات العملاقة فى لحظات الدراما التاريخية ، أى فى لحظات الأزمة المجتمعية . ولأن المنطقة هى القلب الاستراتيجى للعالم ، ولأن قائمة الطامعين فى السيطرة عليها لم تنقطع ، فإن معظم الأزمات التى صادفتها المنطقة قد تولدت فى خضم جدلية الصراع بين الداخل والخارج . والشريحة الاجتماعية التى تتأثر أعمق مايكون التأثر بتلك الأزمة هى الشريحة التى تفرز عادة مثل هذه القيادة التاريخية العملاقة لمواجهة الأزمة . ويكون حجم الانصار والاتباع الذين يلتفون ويسيرون خلف القائد العملاق بقدر ماتكون رسالته ومصدافية سلوكه متجاوزة حدود الشريحة التى خرج منها ، وحدود القطر الذى نشأ فيه . بتعبير أخر أن عظمة القائد فى الوطن العربى تتحدد بدرجة استثارته للموحدات الحضارية الكبرى التى يمكن أن تستجيب لها الاغلبية العظمى من سكان وشعوب الوطن العربى الكبير . كما تتحدد درجة نجاح هذه الاستثارة ومصداقيته طبقاً للقاعدة الحضارية – الديموجرافية التى يتحدث منها . فاذا كانت تقع فى المركز فان احتمالات النجاح تكون اعظم عما اذا كانت تلك القاعدة تقع فى الاطراف من الوطن العربى .

اذا كانت هذه المقولات مقبولة من حيث الصدق التاريخى والاتساق المنطقى ، يصبح من الممكن ان نفسر ظاهرة قيادة عبد الناصر للوطن العربى فى الخمسينات والستينات من هذا القرن . وهذه المقولات نفسها هى التى تفسر ايضا لماذا يمكن لبعض الزعماء ان يتحولوا الى قادة قوميين للأمة كلها ، بينما لا يتحول آخرون للقيام بهذا الدور مرة اخرى ، وفى عبارة واحدة ، نقول أن اولئك القلائل من الرجال الذين استطاعوا ان يتجاوزوا الخصوصيات القاسمة ، واستطاعوا ان يتخاطبوا مع الموحدات الحضارية الكبرى ، من قاعدة مركزية فى الوطن العربى ، هم الذين يصبحون قادة قوميين لعموم الأمة العربية . مثل هؤلاء يؤمنون ايمانا راسخا فى قلوبهم وعقولهم أنهم يجسمون نقطة التقاطع بين التاريخ والبناء الاجتماعى ، ويتصرفون على هذا الاساس . لقد وعى عبد الناصر هذه الحقيقة ، وعبر عنها فى كلمات من عنده وهو يستعيد ذكريات الاحداث الاولى لثورة ١٩٥٢ ، فيقول :

« ان تلك لم تكن مشيئتى ، أو مشيئة اولئك الذين اشتركوا فى ثورة يوليو . لقد كانت ارادة القدر ، وارادة تاريخ شعبنا ، والمرحلة التى يمر بها فى الوقت الحاضر »[٢٥]

ظاهرة عبد الناصر

حينما ظهر عبد الناصر على مسرح الحياة العامة ، كان الوطن العربى لايزال فى خضم مواجهته مع الغرب ، وهى المواجهة التى بدأت قبل ذلك بأكثر من قرن كامل . كانت بداية تحدى المواجهة هى اللحظة التى رست فيها مراكب نابليون على شاطىء الاسكندرية (١٧٩٨) . يقول عبد الناصر عن هذه اللحظة فى كتاب فلسفة الثورة :

« جاءت الحملة الفرنسية وتحطم الستار الحديدى الذى فرضه المغول علينا ، وتدفقت علينا افكار جديدة ، وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد . وورثت اسرة محمد على كل ظروف المماليك ، وان حاولت أن تضع عليها من الملابس ما يناسب زى القرن التاسع عشر ... وبدأ اتصالنا باوربا والعالم كله من جديد . بدأت اليقظة الحديثة .. ! وبدات اليقظة بأزمة جديدة ... لقد كنا – فى رأيى – أشبه بمريض قضى زمنا فى غرفة مغلقة ، وأشتدت عليه الحرارة داخل الغرفة المغلقة ، حتى كادت أنفاس المريض تختنق .. وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدافعت تيارات الهواء الباردة تلسع جسد المريض الذى مازال يتصبب عرقاً . لقد كان فى حاجة الى نسمة هواء ... فانطلق عليه اعصار عات وأنشبت الحمى أظفارها فى الجسد المنهوك القوى ، هذا هو ماحدث لمجتمعنا تماماً ، وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر »[٢٦]

لقد كان التحدى الغربى شاملاً ومهينا لكل جوانب المجتمع العربى وثقافته . فهو لم يكن مجرد استغلال اقتصادى أو سيطرة سياسية فقط . لقد كشف التحدى عن عجزنا الكامل ، وفرض علينا معادلة « التفوق والنقص » – تفوق الغرب وشعور بالنقص لدى ابناء الامة . ويستذكر عبد الناصر المحاولات الباسلة التى قام بها ابناء وطنه للتحرر من تلك المعادلة بكل جوانبها السياسية والاقتصادية والحضارية والنفسية . ولكنه يقر أيضا بأن معظم تلك المحاولات كان نصيبها الاحباط فى معظم الحالات – اما لأن بعض القيادات لشعوبنا خانت الأمانة ، أو لم

٢٥– جمال عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، القاهرة : مصلحة الاستعلامات ، ١٩٥٤ ، ص ٢٩ .

٢٦– نفس المرجع ، ص ٤٢ .

تتح لها فرصة الاعداد والاستعداد لملاقاتها . ويستشهد عبد الناصر على ذلك بالروح القدرية التى تولدت وترسخت فى الشعب المصرى – مثلاً – نتيجة الاحباطات المتتالية ، والتى جسمتها فى فترة ما ابتهال الناس الى الله بالدعاء « يارب يا متجلى داهية تأخد العثمانلى » ، ثم تطورت بعد ذلك ليصبح نفس النداء « يارب ياعزيز ... داهية تاخد الانجليز » . ويستذكر عبد الناصر كيف اتضح فى مقتبل الشباب أنه لا هذه الدعوات ، ولا ترديد الشعارات الغاضبة فى المظاهرات ، قد غيرت من الوضع كثيرا . فهى لم تحرر ارض الوطن من الاستعمار الغربى .[٢٧]

المحاولات التى بذلتها الاجيال المتعاقبة منذ الاحتراق الغربى لكى تغير من أطراف معادلة « التفوق والعجز » لم تنقطع . بعض هذه المحاولات غلب عليها طابع تقليد الغرب أملاً فى اكتساب القوة التى تعيد شيئا من التوازن الى معادلة « تفوقهم وعجزنا » . وقد قاد هذه المحاولة بعض المثقفين العرب ذوى الاتجاهات الليبرالية . ولكن نتاجها جاء مسخا حضاريا سطحيا . أما المحاولات الجادة للتحديث ، فان الغرب لم يتسامح فيها وضربها وهى فى المهد (مثل تجربة محمد على فى مصر ، وخير الدين التونسى فى تونس ، وداود باشا فى العراق ، والأمير بشير فى لبنان) . الغرب شجع فقط النوع الأول من التحديث السطحى لقشور المجتمع ، وهو النوع الذى كان لا يعرقل محاولات السيطرة الاستعمارية ، بل ويساعدها – وذلك مثلما حدث فى مصر فى عهد الخديوى اسماعيل . لقد انتهى مثل ذلك النوع من التحديث الى افلاس مصر ، وادى بالتالى الى احتلالها بواسطة الانجليز فى عام ١٨٨٢ . وشىء قريب من ذلك حدث فى اقطار عربية اخرى .[٢٨]

العودة الى السلفية والى صفاء الاسلام كان نموذجا آخر لمحاولات التصدى للهجمة الاستعمارية الغربية . فالرؤية الاسلامية ، وذكريات العصر الذهبى للخلفاء الراشدين ، كانت ومازالت من أقوى آليات تحريك الناس وتعبئتهم روحيا وسياسيا . ولكن معظم محاولات الاحياء الاسلامى تلك انتهت بدورها الى الاحباط – اما لأنها كانت مغرقة فى سلفيتها وانفض الناس عنها مبكرا ، أو لأنها ضُربت بقسوة بواسطة حكام مستبدين وطنيين أو اجانب ، أو لأنها نشأت فى

٢٧- نفس المرجع ، ص ٣١ – ٤١ .

٢٨- حول هذه المحاولات التحديثية ، اقرأ جلال أمين : **المشرق العربى والغرب** ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٧٩ .

اماكن هامشية معزولة فى اطراف الوطن العربى ، مثل الوهابية فى شبه الجزيرة العربية ، والسنوسية فى ليبيا ، والمهدية فى السودان . فى تلك الامثلة جميعها استخدمت وسائل البطش والارهاب لاخمادها ، او وسائل الترغيب والافساد لتدجينها وتحويلها الى مؤسسات طقوسية ، أو اشراكها فى السلطة وفى حماية الوضع القائم بعد تفريغها من محتواها الاصلاحى . لقد تحول قادة حركتين من حركات الاحياء المذكورة الى ملوك (فى السعودية وليبيا) . وانتهى الأمر بنجل قائد الحركة الثالثة الى تنصيبه فارسا من فرسان الامبراطورية البريطانية فى بلاط سانت جيمس ، وأصبح « السير عبد الرحمن المهدى » ، وأصبح واحدا من اكبر ملاك الاراضى فى السودان .

ولكن حتى بلا بطش أو تدجين أو شراء أو احتواء لحركات الاحياء الدينى تلك ، فمن المشكوك فيه أنها كانت ستستطيع ان تمارس تأثيرا مستمرا وفاعلاً فى قيادة الوطن العربى لمواجهة التحدى الغربى ، لأنها كما قلنا حركات ظهرت فى الأطراف وليس فى المركز . هذا الوضع الهامشى – جغرافيا وحضاريا – كتب عليها منذ البداية محدودية التأثير على مسيرة الاحداث القومية .

ولم يعدم الوطن العربى نصيبه الوافر من « التوفيقيين » الذين حاولوا المواثمة بين « الاصالة العربية الاسلامية » والتحديث على الطريقة الغربية . ولكن هذا النموذج التوفيقى ، على كل ماينطوى عليه من امكانيات حضارية هائلة ، انتهى فى التطبيق الفعلى الى مايشبه الترقيع او التلفيق . والذين حاولوا اتباع النموذج التوفيقى بشكل جاد وخلاق – مثل جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبى ، ورشيد رضا – اصطدموا بدورهم بعقبات عاتيه . فالسلطة لم تتسامح مع محاولاتهم ، وأضطهدتهم أو طاردتهم . والمقلدين للغرب سخروا من محاولاتهم ، والسلفيين ساورتهم الشكوك . ولكن الصعوبة الرئيسية كانت فى المستوى الفكرى المرتفع لكتابات هؤلاء التوفيقيين ، وهو العامل الذى جعل محاولاتهم وقفا على صفوة مثقفة محدودة العدد . ولم يكتب لتلك المحاولات – بالتالى – ذيوعا جماهيريا واسعا ، ولم تنشأ عنه حركة سياسية شعبية تستطيع أن تؤثر فى مجرى الاحداث القومية . حتى الاحزاب السياسية الوطنية الاصلاحية التى حاولت هذا النموذج التوفيقى (مثل الوفد فى مصر ، والدستورى فى تونس ، والاستقلال فى المغرب ، والشعب فى سوريا) ، والتى قادت الكفاح ضد الاستعمار ، وصلت الى مايشبه الطريق المسدود فى السنوات الأولى بعد الاستقلال . فقد كانت قدرتها على « التوفيقية » فى المسألة الاجتماعية اما منعدمة ، أو هزيلة باهتة .

وهكذا مع خمسينات هذا القرن ، أى بعد مايزيد عن مائة سنة منذ الاحتراق الغربى للمنطقة ، وجد الوطن العربى نفسه عند نفس المأزق الحضارى ، رغم التغيرات الهيكلية العديدة

التى طرأت على بنية الاقتصاد والمجتمع . ولم يبدد هذا المأزق ما ساد الاقطار العربية من بهجة او تفاؤل سطحى صبيحة الاستقلال . فقد كان ميلاد اسرائيل ، وعجز العرب عن مواجهة التحدى الصهيونى ، بمثابة السكين الذى مزق الغلالة الرقيقة التى حجبت هذا المأزق الحضارى الى حين . لقد اعاد ميلاد اسرائيل الى الذاكرة العربية معادلة « التفوق والنقص » التى ناضلوا لتغيير طرفيها طيلة قرن من الزمان . وكما لو كانوا يرفضون رؤية المعادلة ، لجأ معظمهم الى نوع من الخداع الجماعى للذات ، وفسروا واقع الهزيمة الأولى مع اسرائيل بعجز الحكومات المدنية التى كانت تحكم فى بداية عهد الاستقلال ، وليس بالعجز المجتمعى الأعمق . لذلك ما يلبث الوطن العربى أن يشهد نموذجا رابعا من ورود الفعل حيال التحدى الغربى (ممثلا هذه المرة فى الكيان الصهيونى) . هذا النموذج الرابع هو موجه « الانقلابات العسكرية » . ولم يكن هذا النموذج اكثر فاعلية من ورود الفعل المتمثلة فى النماذج الثلاثة السابقة التى عرضنا لها أعلاه . فقد اثبتت معظم هذه الانقلابات العسكرية انها بلورها طريق شبه مسدود .

ربما كان الاستثناء الوحيد للطريق المسدود فى حالة الانقلابات العسكرية العربية ، هو ماحدث فى مصر يوليو ١٩٥٢ . فقد نجح عبد الناصر ان يحول الانقلاب الذى قاده الى ثورة كاملة . وفى غضون هذه العملية التاريخية الفذة – تحويل الانقلاب الى ثورة – تعملق عبد الناصر ، وأصبح القائد العربى الوحيد الذى دانت له الجماهير العربية بالولاء من بغداد الى الدار البيضاء ، واستجابت لنداءاته بمشاعر مشبوبه لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العرب الحديث .

لقد ايقن عبد الناصر منذ البداية أن الحركة التى قادها فى تلك الليلة من يوليو ١٩٥٢ لم تكن مجرد انقلاب عسكرى . فى الواقع ايقن انه على شفا ، لا ثورة واحدة فحسب ، وانما ثورتين ، أو بالاحرى « ثورة مزدوجة » – سياسية واجتماعية . كان لدى عبد الناصر هذا اليقين ، وعبر عن ذلك كتابة عام ١٩٥٣ بقوله :

« وأنا الأن استطيع ان اقول اننا نعيش فى ثورتين وليس فى ثورة واحدة .. ولكل شعب من شعوب الارض ثورتان : ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد اقام فى ارضه دون رضاه .. وثورة اجتماعية ، تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر على مايحقق العدالة لابناء الوطن الواحد . لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ، ولكنها لم تعشهما معا ، وانما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين . اما نحن فان التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن نعيش الثورتان معا فى وقت واحد »[٢٩]

٢٩– جمال عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، مرجع مشار اليه سابقا ، ص ٢٦ .

وفى قيادته للثورتين ، على ماينهما من تعارض تكتيكى ، كان عبد الناصر يضع يده على جوهر المأزق الحضارى لمصر والأمة العربية ، وكانت المهمة ، وماتزال ، هائلة الصعوبة ولكن مواجهة جسيم المآزق والصعاب هي احدى مظاهر وضرورات « العظمة التاريخية » لأى قائد ، ولأى شعب .

كان عبد الناصر يدير الثورة المزدوج من على مركز المسرح الأمامى للوطن العربى – وهو مصر . فقاعدة للحركة والانطلاق ، كانت مصر (وماتزال) تحتوى على أكبر كتلة بشرية فى المنطقة ، ويتسم مجتمعها بأكبر قدر من التجانس والتماسك الثقافى ، وبأطول استمرارية تاريخية ، وبأبكر انفتاح على العالم الخارجى ، وبأقوى تأثير حضارى على الأقطار المجاورة . كما أن تاريخ مصر الحديث ، فضلاً عن مجدها القديم ، يجسم كل الاختناقات والضغوط والمآزق التى تواجهها الأمة العربية تجسيما دراميا مكثفا . وبنفس القدر كانت مصر (وماتزال) تجسم كل الآمال الواعدة لابناء الامة العربية . وفى هذا يقول روبرت ستيفنز وهو من أحسن الكتاب الاجانب الذين تصدوا بالدراسة لسيرة عبد الناصر :

« بينما كان عبد الناصر اساسا انسانا طبيعيا تلقائيا ، يتصف بالعمق المشوب بمسحة مأساوية وبعقلية سياسية رصينة ، الا انه كان متأثرا اعمق التأثير بالسياق التاريخى والحضارى الذى يتحرك فيه . لقد كان مصريا عربيا ، مسلما ، ولكنه كان ايضا وفى الاساس ثائرا من ثوار العالم الثالث . لقد كان نتاجا ومحركا لنفس الثورة المعادية للاستعمار والامبريالية التى افرزت نهرو ، وماوتسى تونج ، وسوكارنو ، وكاسترو ، وهوتشى منه »[٣٠] .

لقد كانت مصر ، التى انتجت عبد الناصر وحركها عبد الناصر ، هى المركز لاربع دوائر متتالية : الدائرة العربية ، والاسلامية ، والأفريقية ، ودائرة العالم الثالث . وكان عبد الناصر من اول الواعين بهذه الحقيقة الحضارية والجيوبوليتيكية . وقد عبر عن ذلك فى اول سنوات عهده بالقيادة ، فكتب فى عام ١٩٥٣ :

« إن القدر لا يهزل . ليست هناك احداث من صنع الصدفة ، ولا وجود يصنعه الهباء . ولن نستطيع ان ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا

٣٠- روبرت ستيفنز ، **ناصر** ، مرجع مشار اليه سابقا ، ص ٩

بحكم هذا المكان . ايمكن ان نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنابمصالحهاحقيقة وفعلاً ، وليس مجرد كلام .. ؟ ايمكن ان نتجاهل ان هناك قارة افريقية شاء لنا القدر ان تكون فيها ، وشاء ايضا ان يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء اردنا او لم نرد ... ؟ ايمكن ان نتجاهل ان هناك عالما اسلاميا تجمعنا واياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشهدها حقائق التاريخ .. ؟ »[٣١]

ان مركزية مصر ، ووعى عبد الناصر بذلك ، وفر له أحد الشروط الضرورية للقيادة على المستوى العربى بأسره . وقد أدرك عبد الناصر هذه الميزة فى وقت مبكر للغاية ، فكتب يقول : « ... يخيل الى دائما ان فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به . ثم لست ادرى لماذا يخيل الى أن هذا الدور الذى ارهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير الينا ان تتحرك ، وان ننهض بالدور ونرتدى ملابسه فإن احدا غيرنا لا يستطيع القيام به »[٣٢] .

ميزة مصر كقاعدة للقيادة العربية قد يكون شرطا ضروريا ، ولكنه مع ذلك ليس شرطا كافيا . لكى يتحقق هذا الأخير فلابد من ادراك ابعاد الأزمة الحضارية للعرب ، ولابد من صياغة استجابة مقنعة لهذه الأزمة ، ولابد من توصيل هذه الاستجابة لملايين العرب ، والايحاء لهم بأنها استجابة فاعلة وقابلة للتنفيذ .

وفى اعتقادنا أن عبد الناصر قد نجح فى استيفاء كل هذه الشروط . لقد كان فى ادراكه لابعاد الأزمة ، وفى صياغته لنوع « الاستجابة » ، بمثابة الموفق التأليفى الأعظم لنماذج الاستجابات الاربع ، التى حاولها العرب كل على حدة طوال القرن السابق ، فى المواجهة مع الغرب . لقد أخذ من نموذج محاكاة الغرب مفهوم وممارسة التنمية الاقتصادية الصناعية ، وترك جانبا محاكاة الغرب فى المظاهر التحديثية السطحية . وأخذ من نموذج الأصالة عنصر الاعتزاز

٣١- جمال عبد الناصر ، **فلسفة الثورة** ، مرجع مشار اليه سابقا ، ص ص ٥٢ - ٥٣ .

٣٢- نفس المرجع ، ص ٥٤ .

بالوطن والأمة والحضارة العربية الاسلامية ، وترك جانبا القوالب التقليدية الجامدة من التراث . وحرص فى اسلوب حياته الخاص أن يجسد اعتزازه بكرامته وقوميته ودينه ، وأن يجسد بساطة العيش ، دون اسراف يحول هذا الاعتزاز الى شوفينية عنصرية أو دينية أو قومية .

نشأ عبد الناصر فى طبقة متوسطة صغيرة . وكان بالتالى تجسيما امينا لا فقط لاحباطات وآمال تلك الطبقة ، وانما أيضا لبعض مثالبها . لقد خدم مصالح طبقته باخلاص ، ولكنه تجاوز حدودها ، وانطلق بالقول والفعل ليخدم مصالح طبقات اعرض هى جماهير الفلاحين والعمال . وكانت « اشتراكيته العربية » ، أو « تطبيقه العربى للاشتراكية » هو السبيل لترجمة هذا الالتزام الاجتماعى الأوسع . وكان العمودان الرئيسيان لهذا النوع من الاشتراكية هما النمو الاقتصادى من ناحية ، والعدالة الاجتماعية التوزيعية من ناحية اخرى (الكفاية والعدل) . وربما كان الثقل الرمزى لا شتراكية عبد الناصر اهم بكثير من المنجزات الحقيقية التى احرزتها على ارض الواقع — وهى ايضا عديدة .

أن حجم وسرعة التغير الاجتماعى الذى احدثته ثورة يوليو بقيادة عبد الناصر فى مصر لم يكن له مثيل فى التاريخ الحديث منذ محمد على فى اوائل القرن التاسع عشر . لقد أزيحت الطبقة الحاكمة بأكملها ، وفقدت مواقع السلطة والثروة التى كانت متربعة عليها قبل الثورة . وانتهى الاحتكار الاجنبى للانشطة المالية والاقتصادية الرئيسية فى مصر . واجبر الانجليز على الجلاء من مصر . وتم التوسع فى التعليم المجانى على كل المستويات ، من الحضانة الى الجامعة . ونفذت الثورة ثلاثة قوانين متتالية للاصلاح الزراعى فى الريف المصرى ، وهو الأمر الذى حقق مكاسب هائلة لصغار الفلاحين والمعدمين . وأممت الثورة كل الصناعات الرئيسية والبنوك وشركات التأمين .

ربما لم يكن عبد الناصر هو أول من قدم كلمة « الاشتراكية » فى مصر والوطن العربى . ولكنه كان بالتأكيد أول من استطاع ان يضفى على هذه الكلمة احتراما وقبولاً جماهيريا واسعا ، واول من استطاع ان يملأها بمضمون عملى ملموس تحسه قطاعات شعبية واسعة فى الريف والحضر . وكان عبد الناصر بالتأكيد هو أول من اعتمد اسلوب التخطيط المركزى للتنمية الاقتصادية — الاجتماعية فى مصر والوطن العربى وافريقيا . هذه الانجازات وغيرها ، كان لها أبعد الأثار واعمقها فى التحول الهائل الذى طرأ على المجتمع المصرى . والذى يجعل من هذا التحول الهائل شيئا جليلا هو أنه تم بأقل قدر من العنف . ويقول أحد القريبين من عبد الناصر ، محمد حسنين هيكل ، حول هذه النقطة :

« لقد قامت الثورة اثناء العصر الجليدى للحرب الباردة . ودهمت مسيرتها ثلاثة حروب : العدوان الثلاثى ، واليمن ، وحرب ١٩٦٧ . ومع ذلك فقد حققت انجازاتها بلا عنف أو ارهاب . انه لأمر فريد ان يشهد مجتمع كل هذه التغيرات الثورية اجتماعيا واقتصاديا ، ومع ذلك يحتفظ بوحدته بلا عنف . ولكى يحقق ذلك كان على عبد الناصر ان يحد من النشاط السياسى المعتاد للاحزاب . وفى ضوء ما تحقق من نتائج فإن ذلك كان تضحية لها مايبررها »[٣٣]

ان ماحققه عبد الناصر من تحولات اجتماعية – اقتصادية جعل من مصر نموذجا تحتذيه عدة اقطار عربية . ولم يمنع ذلك انه فى بعض الحالات تم تقليد النموذج بشكل ميكانيكى جامد .

هذه الانجازات كلها دعمت من موقف القيادة الناصرية . ولكن الذى فجر مشاعر الحب والولاء فى الوطن العربى حيال عبد الناصر كان فى الاساس أمر غير محسوس ماديا ، وهو اصراره العنيد على التمسك « بالكرامة القومية » . هذا الشعار الغامض ، الذى يأبى التصنيف العلمى أو التحليل الكمى ، من الصعب قياسة أو ملاحظته ملاحظة مقننة بواسطة العلماء الاجتماعيين الغربيين . ولكن ربما كان غموض وابهام الشعار نفسه هو السبب فى قوته الوجدانية لدى الجماهير العربية من الخليج الى المحيط . فشعار « الكرامة القومية » يعبر عن الخليط الهائل من المشاعر والذكريات والأمال التى اعتملت فى افئدة ملايين العرب الذين عاصروا عبد الناصر . لقد كانت الدعوة الى « الكرامة » هى تعبير عن مشاعر الكراهية والعداء نحو الاستعمار المتسلط عليهم من الخارج ، ونحو البطش والاستبداد المتسلط عليهم من الداخل . وكانت الدعوة الى الكرامة هى تعبير عن الاشتياق التاريخى لبعث مجد تليد ، وعن الآمال فى مستقبل مشرق . وقد حملت آلاف الملصقات واللافتات تنويعات لهذا النداء بالكرامة فى كل مدن مصر فى الخمسينات : « ارفع رأسك يا أخى فقد انتهى عهد الأستعمار .. ارفع رأسك ياأخى فقد انتهى عهد الأستبداد » . وتردد هذا النداء من مصر الى كل جنبات الوطن العربى من المغرب الى العراق ، من خلال إذاعة صوت العرب ــ وهى الأذاعة ، التى يقول عنها لاكوتير ، « سببت الذعر والغضب للاسرائليين وللقوى الاستعمارية من الدار البيضاء الى عدن » .[٣٤]

٣٣- London : Nasser : The Cairo Document, New English Library, 1972, P. 10 :محمد حسنين هيكل ، ناصر : وثائق القاهرة ، ١٩٧٢ ص ١٠ .

٣٤ - Nasser : Abiography, (transtated from French) London : Secker and Warbuurg, 1973, P. 270 .u Sb = 7X ، ناصر : سيرة شخصية ، ١٩٧٣ ، ص ٢٧٠ .

ولكن شعار « العزة الوطنية » أو « الكرامة القومية » كان يمكن أن يظل شعاراً لفظيا فارغاً ، وغير قادر على استثارة جماهير الأمة العربية . فقد أطلق زعماء أخرين شعارات مماثلة ، ولم يكن لها نفس التأثير . ولكن الفريد هنا هو ان عبد الناصر قد ملأ هذا الشعار بأفعال الاباء والتحدى . فقد كسر احتكار الغرب لامدادات السلاح ، وقاوم الأحلاف العسكرية الغربية ، واعترف بالصين الشعبية ، وأمم قناة السويس ، وقدم لحركات التحرير فى العالم الثالث المال والعتاد . أى أن الشعار قد تحول فى أيدى عبد الناصر الى برنامج عمل فعلى ، واصبح جزءاً من مشروعه القومى .[٣٥]

ولا يمكن التقليل من أهمية وحيوية أفعال الاباء والتحدى هذه فى منطقة طال احساس شعوبها بالاذلال والمهانة على أيدى الغرب . لذلك نقدم هذه المقولة — أفعال الاباء والتحدى المقنعة — هنا كأحد شروط القيادة على المستوى العربى والقومى .

لقد كان عبد الناصر عملاقاً فى هندسة واخراج أفعال الاباء والتحدى للغرب خصوصاً وللقوى العظمى عموماً . وقد تعقب عبد الناصر البذور الجنينية لمشاعر الكراهية الدفينة لديه ضد السيطرة الغربية الى سنوات دراسته فى المدرسة الثانوية . فبدايات وعيه القومى العربى تختلط إختلاطاً كيميائياً بتلك البذور الجنينية لكراهية الغرب ، منذ كان يخرج مع زملائه المتظاهرين فى الشوارع فى الرابع من نوفمبر كل عام احتجاجاً على « وعد بلفور » الذى اعطاه الانجليز للصهاينة على حساب الشعب الفلسطينى .[٣٥] وقد نمت هذه البذور الجنينية على مر السنين ، بتغذية مستمرة من مظاهر إهدار الغرب لكرامة مصر والأمة العربية .

ولا يمكن هنا أن نتعرض بالتفصيل لكل أفعال الاباء والتحدى التى قام بها عبد الناصر فى مواجهة الغرب ، والتى جعلت ملايين العرب تحس بنوع من رد الاعتبار التاريخى بعد سنوات الذل والمهانة . ويكفى فى هذا الصدد أن نذكر مثالين . الأول هو مقاومة عبد الناصر لحلف بغداد متحديا بذلك كل دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة ووزير خارجيتها جون فوستر دلاس . ويقول فى ذلك أحد علماء السياسة الامريكيين :

« برفضه أن يدفعه أحد الى الدخول فى معاهدة مع قوتين استعماريتين سابقتين — بريطانيا وتركيا — وضع عبد الناصر نفسه فى صميم المجرى الرئيسى للمشاعر العربية ، التى كانت تريد

٣٥- جمال عبد الناصر ، **فلسفة الثورة** ، مرجع مشار اليه سابقا ، ص ص ١١ – ١٧ .

عقد معاهدة دفاع عربى مشترك ضد اسرائيل وليس ضد الأتحاد السوفيتى . لقد كان فعل الرفض والتحدى هذا أول تحرك ناجح للزعيم المصرى نحو قيادة العرب . ومن خلال استخدامه لوسائل الأعلام التى يسيطر عليها مركزيا ، استطاع عبد الناصر أن يحول المسألة الى معركة محمومة لكل المصريين والعرب .. وفى ضوء الكراهية شبه الكاملة التى يكنها كثير من العرب للغرب ، فإن أهم قضية يمكن أن يتبناها زعيم مرهف هو سياسة عامة معادية للغرب . لقد تحول اختيار هذا الموضوع فى وقت يتعاظم فيه شعور الاحباط لدى العرب فى أوائل الخمسينات ، دليلا على مقدرة عبد الناصر الفذة على توقيت المعارك » .[٣٦]

لقد دام تأثير هذا الفعل الأول فى تحدى الغرب لعدة سنوات تالية ، وفجر بدوره سلسلة طويلة من أفعال التحدى الأخرى . فقد حاول الغرب أن يعاقب عبد الناصر ، فسحب عرضا سابقا كان قد قدمه لتمويل بناء سد أسوان العالى . وشن عبد الناصر هجوما مضادا بتأميم شركة قناة السويس ـــ التى كانت الى ذلك الوقت شركة فرنسية ـــ انجليزية ، وكانت تمثل أهم شريان ملاحى للتجارة الدولية . وأعتبر الغرب هذا التأميم بمثابة تطاول على نفوذه وهيبته ومصالحه ، فاق كل الحدود . وأهم من ذلك أعتبر الغرب سلوك عبد الناصر تهديداً للنظام الاقليمى والدولى الذى ارسيت دعائمه فى مؤتمر يالتا أثناء الحرب العالمية الثانية . ومن هنا صمم الغرب على أن يصعد اساليب الردع والعقاب ، لا فقط لتأديب عبد الناصر ، ولكن للحفاظ على دعائم النظام الدولى الذى كان يهيمن عليه . وكان العدوان الثلاثى بواسطة جيوش بريطانيا وفرنسا واسرائيل فى اكتوبر ١٩٥٦ .

حينما وقع العدوان على مصر تأججت مشاعر الأمة العربية بأسرها ، وسرى فيها الغضب سريان النار فى الهشيم . ولم تحسب الجماهير حساب من ينتصر ومن ينهزم فى المعركة . لم تكن تلك هى القضية المحورية . الذى أحست به الجماهير هو روح التحدى والاباء الذى جسمه عبد الناصر فى المعركة . ويبدو أن ماكان يهم تلك الجماهير هو فقط فرصة للقتال والمواجهة ـــ بصرف النظر عن النتيجة . ما كان يهم الجماهير هو الفرصة لتطهير الامة من عار قرن كامل من الذل المهانة . بتعبير أخر ، كانت معركة السويس فى ١٩٥٦ فرصة لتحدى « معادلة التفوق والنقص » ـــ إن لم يكن لالغائها ، فعلى الأقل لهزها .

٣٦- د. ديكمجيان ، مصر فى ظل عبد الناصر ، مرجع مشار اليه سابقا ، ص ص ٤٢ - ٤٣ .

لقد كان السبب المعلن لتأميم قناة السويس هو استخدام ايراداتها تمويل السد العالى . وقد كان ذلك سببا منطقيا وجيها بعد سحب العروض الغربية تمويل المشروع . ولكن ذلك لم يكن السبب الوحيد أو حتى أهم الأسباب . فايرادات القناة لم تستخدم بعد ذلك تمويل المشروع ، بل جاء التمويل من الأتحاد السوفيتى . أهم الأسباب لتأميم القناة — فى نظرنا — كان هو ذلك الالحاح الدفين بالحاجة النفسية الى التعبير عن « الكرامة » ، والى رد الصاع صاعين الى الغرب ، والى إيلامه ، والى اهدار كرامته حتى يشعر ببعض ما شعرنا نحن به طوال قرن من الزمان .

ذلكم كان هو جوهر المواجهة الدرامية بين العرب والغرب فى معركة السويس . ربما لم يكن ما نستنتجه نحن هنا فى ذهن عبد الناصر وقت الفعل وفى غمار المواجهة . ولكنه بعد ست سنوات من معركة السويس ، عاد بذاكرته الى تلك الأيام متأملاً ، وكتب يقول :

« إن معركة السويس التى كانت أحد الادوار البارزة فى التجربة الثورية المصرية لم تكن لحظة اكتشف فيها الشعب المصرى نفسه ، أو أكتشفت فيها الامة العربية امكانياتها فقط ، وأنما كانت هذه اللحظة عالمية الأثر ، رأت فيها كل الشعوب المغلوبة على أمرها أن فى نفسها طاقة كامنة لا حدود لها ، وأنها تقدر على الثورة . بل أن الثورة هى طريقها الوحيد »[٣٧]

لقد كانت معركة السويس نصرا سياسيا ونفسيا وحضاريا . وابرزت المعركة الرباط العضوى بين الوطنية المصرية والقومية العربية . وعمدت المعركة عبد الناصر زعيما للعرب بلا منازع . من ذلك الوقت أصبحت الامة العربية لا تصغى الا لقائد واحد ، حتى لو استمعت لعشرات من منافسيه .

لم يسع عبد الناصر بعقله الواعى فى البداية نحو هذه الزعامة القومية . ولكن كما قال أحد خصومه ، ان الجماهير العربية هى التى بايعته زعيما لها . بل فعلت الجماهير أكثر من ذلك . لقد أضفت عليه فى خيالها صفات بطولية خارقة . واطلقت الجماهير لخيالها ولأحلامها العنان. لقد صبت مخزون آمالها المتراكمة طيلة التسعة قرون السابقة فى شخص زعيمها « البطل الذى لا يقهر » . وهتفت له الجماهير فى دمشق عام ١٩٥٨ « عبد الناصر يا جبار .. بدنا وحدة ولو بالنار » . وأضفى عليه الفلكلور الشعبى كل ماكانت تتوق له الجماهير ولا تجده فى زعمائها

٣٧- الميثاق ، قدمه الرئيس جمال عبد الناصر للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ، ٢١ مايو ١٩٦٢ .

الاخرين : فهو بطلها ، وهو مخلصها ، وهو المعتد بنفسه فى تواضع ، وهو التقى الورع ، وهو المنصف العادل . وبأختصار أصبح عبد الناصر فى نظر الجماهير كتلة من الفضائل الخالصة التى لا تشوبها أيه عيوب . إليه يحتكمون ، ومن خلفه يمشون ، وله يصغون . حتى الصوت الآخر الذى كان كل العرب يصغون اليه ، وهو صوت أم كلثوم ، التحق بهذا السيل من العواطف ، وبدأ يردد بأغانيه ماكان يعتمل فى القلوب ، وهو التبشير بظهور صلاح الدين الأيوبى من جديد .

لم يفعل عبد الناصر شيئا ليوقف هذا الطوفان من المشاعر والتوقعات . ووقف فى البداية يرقب ـــ ربما فى ذهول ـــ هذه الأسطورة ، والجماهير تنسج خيوطها يوماً بعد يوم منذ ملحمة السويس . وربما قام ـــ بعد ذلك ـــ بتشجيع الجماهير فى استكمال بناء الأسطورة حول شخصه . وفى ذلك كانت مأساة عبد الناصر فى سنواته الأخيرة . ولكن مأساوية النهاية ليست شغلنا الآن ، وسنعود اليها فيما بعد . ما يهمنا هنا هو عملية الصعود القيادى للزعامة الناصرية .

لقد كانت الروح المحركة لعبد الناصر وأبناء جيله هى « العزة الوطنية » و « والكرامة القومية » . وقد ادرك الرجل ان ترجمة هذه الروح الى برنامج عمل فاعل وفعال يحتاج الى اكثر من مظاهر « التحدى والاباء » . لقد أدرك أن الرفض ومواجهة الغرب قد يساعد على تخليص أبناء أمته من عقدة النقص التاريخية حيال الغرب . ولكن الرفض وحده لن يؤدى الى بناء مشروع قومى . لقد أدرك أنه يحتاج الى لبنات من الطوب والصخر والحجر لكى يشيد هذا المشروع .

كان تقليص التبعية الاقتصادية للغرب وأنجاز التنمية الشاملة هما الاساس الصلب لمشروع عبد الناصر القومى . وكانت الوحدة العربية ، وتحرير الأراضى العربية والثروة العربية ، والأستمرار فى التمسك بسياسة عدم الانحياز هى الكتل الرئيسية ، فى هيكل هذا المشروع القومى . ومع نهاية الخمسينات وأوائل الستينات كانت رؤيته لهذا المشروع قد اكتملت وتناغمت . وبدى المشروع بخطوطه الرئيسية مبهرا لاتباع عبد الناصر . ولكن تنظيف الموقع الذى سيقام عليه المشروع من الموانع والعقبات لم يكن قد انتهى . كانت الموانع والعقبات واضحة معروفة : الامبريالية ، واسرائيل ، والرجعية العربية . خطوط المعارك لتنظيف الموقع كانت صارمة ـــ أو هكذا بدت وقتها . وقد وافقت الجماهير على صورة المشروع كما رسمها عبد الناصر ، ووافقت على ضرورة إخلاء موقع المشروع من الموانع والعقبات .

لقد لخص عبد الناصر ما قلناه أعلاه في الميثاق بالكلمات التالية :

« إن عهودا طويلة من العذاب والأمل بلورت في نهاية المطاف أهداف النضال العربي ظاهرة واضحة صادقة في تعبيرها عن الضمير الوطني للأمة وهي : الحرية والاشتراكية والوحدة . بل ان طول المعاناة من أجل هذه الأهداف كاد ان يفصل مضمونها ويرسم حدودها .

لقد أصبحت الحرية الآن تعني حرية الوطن وحرية المواطن . وأصبحت الاشتراكية وسيلة وغاية ، وهي الكفاية والعدل . وأصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الأمر الطبيعي لأمة واحدة فرقها اعداؤها ضد إرادتها وضد مصالحها ، والعمل السلمي من أجل تقريب يوم هذه الوحدة ثم الاجماع على قبولها تتويجاً للدعوة والعمل معاً .

لقد كانت هذه الأهداف نداءات مستمرة للنضال العربي . ولكن الثورة العربية الآن تواجه مسئولية شق طريق جديد أمام هذه الأهداف . والحاجة الى طريق جديد لا تصدر عن رغبة في التجديد لذاته ، ولا تصدر بدافع الكرامة الوطنية ، وانما لأن الثورة العربية تواجه ظروفا جديدة ، ولابد لها في مواجهة هذه الظروف الجديدة أن تجد الحلول الملائمة لها »[٣٨]

كان عبد الناصر ينظر الى دور مصر في هذا المشروع القومي كنموذج وكرائد في طليعة المسيرة . وكلماته في هذا الصدد صريحة ، حيث يقول الميثاق :

« وإذا كانت التجربة الثورية الشاملة قد القت مسئوليتها الأولى على الشعب العربي في مصر ، فإن تجاوب بقية شعوب الأمة العربية مع التجربة كان من الأسباب القوية التي مكنت الشعب المصري أن ينتصر . وليس من شك أن الشعب المصري مطالب اليوم بأن يجعل إنتصاره في خدمة قضية الثورة الشاملة في بقية شعوب أمته العربية » .[٣٩]

وفي كل هذا المشروع الحضاري الطموح ، لم يكن هناك غموض في الرؤية أو في التصميم ، ولم يكن هناك نقص في العمال أو في الحماس .

ولكن المعماري الأعظم للمشروع ــ عبد الناصر ــ لم يكن لديه الكوادر السياسية الكافية

٣٨- نفس المرجع ، ص ص ٧ - ١٨ .

٣٩- نفس المرجع ، ص ١٤ .

لتنفيذ المشروع كما صممه . لم يكن لديه حزب سياسى حقيقى منظم . كان لديه ملايين العمال . ولم يكن لديه « أسطوات » من البنائين والحدادين والسباكين والكهربائيين المهرة لكى يوظفوا طاقات هذه الملايين من العمال . وتصور هو ، وتصورت الجماهير العربية ، أن عبد الناصر قادر على تنفيذ المشروع القومى بمفرده . ووقفت الملايين تصفق ، وتهتف ، وتنتظر من بطلها أن ينجز المشروع .

وتدافعت الأحداث الاقليمية والدولية فى منتصف الستينات . وتصاعدت الضغوط من الداخل والخارج . وهب إعصار هائل فى يونيو ١٩٦٧ ، ليقوض دعائم ما كان قد أنجزه عبد الناصر من مشروعه القومى . اجتاحت اسرائيل أراضى ثلاث دول عربية ، واوقعت بجيوش مصر وسوريا والأردن هزيمة نكراء . وفى ذلك يقول إيجال آلون ، أحد قادة اسرائيل ، « إن مشروع عبد الناصر كان يفزعنا . لقد كان عبد الناصر يعرف كيف يجمع ، وكيف يطرح ، وكيف يضرب ، وكيف يقسم . ولكن من حسن حظنا ، لم يكن عبد الناصر يعرف كيف يقوم بعملية العد الحسابى » .[٤٠]

إن هزيمة ١٩٦٧ كشفت كل مواطن الضعف الانسانى والتنظيمى فى القيادة الناصرية . لقد أندفع عبد الناصر الى حافة الحرب مع اسرائيل تحسبا لهجوم اسرائيلى متوقع على سوريا ، دون ان يعد لحرب حقيقية . وقد استدرجته اسرائيل من الحافة الى قاع الهاوية . ولكن الهزيمة أيضاً كشفت عن كل مواطن القوة الأنسانية والتعبوية فى القيادة الناصرية.فقد كان لدى عبد الناصر من الشجاعة ما يجعله يعلن مسئوليته الكاملة عن الهزيمة ، ويقدم استقالته ، ويطلب من جماهير الأمة العربية أن تنهض من كبوتها وتستأنف نضالها فى ظل قيادة جديدة . ولكن الجماهير التى كانت ماتزال تلعق جراح النكبة أنفجرت أنفجاراً هستيرياً فى كل أرجاء الوطن العربى متوسلة إليه أن يظل فى مقعد القيادة .

لقد كانت ردود الفعل الجماهيرية فى الوطن العربى لاستقالة عبد الناصر بركانية فى وقعها على عبد الناصر نفسه أما المراقبون الغربيون فقد أصابتهم الدهشة ، وعجزت قدراتهم التحليلية عن إستيعاب ما حدث يقول أحد هؤلاء المراقبين :

« هذا الصياح والعويل والنحيب لمغادرة قائد مهزوم ، لا غموض ولا لبث حول مسئوليته عن

٤٠- من خطاب لايجال الون ، فى جامعة ميتشيجان ، عام ١٩٦٨ .

النكبة أكثر من أى قائد أخر ، رجل أخطأ خطأ فادحاً فى حساب المخاطر ، وأساء فى إعداد بلده وجيشه ، وأصدر تحديا لم يكن مهيئا لعواقبه .. ومع ذلك هذا الطوفان من الحزن .. هذا الحزن هو لاشك نتاج كيمياء التواصل الفريد بين القائد والجماهير ، تواصل يجسم ذوبان الجماهير فى شخص القائد وتوحد شخص القائد مع الجماهير » .(٤١)

لا يوجد هناك أدنى شك فى أن الجماهير العربية كانت جريحة القلب بسبب الهزيمة . ولكن يبدو أن هذه الجماهير ، مرة أخرى ، كانت فى أعماقها أكثر أهتماماً فى تلك الدراما القومية بأستمرار روح عبد الناصر فى التحدى والاباء ، واستمرار إرادة القتال والمقاومة ، بصرف النظر عن النتيجة .

لقد أنهار تقريبا معظم ما كان عبد الناصر قد أنجزه من مشروعه القومى . ولكن كتل البناء لم تندثر ، وإنما تناثرت فى اتجاهات مختلفة . الذين آمنوا بعبد الناصر كان لديهم إعتقاد راسخ بأنة قادر على تجميع هذه الكتل المتناثرة مرة أخرى ، لا فقط لاعادة بناء ماتحطم ، ولكن أيضا لاستكمال المشروع كله . وقد حاول عبد الناصر أن يفعل ذلك بالتحديد ، وبلا هوادة ، فى السنوات الثلاث التالية . ولكن الرجل رحل من دنيانا فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، قبل أن ينجز المهمة . وحزنت الجماهير مرة أخرى كما لم تحزن فى تاريخها الحديث لموت انسان . ومع ذلك ظل المؤمنون بعد الناصر يعتقدون أن منهجه ومشروعه وذكراه كفيلة بأستكمال المهمة ، وبتحقيق النصر فى النهاية . وبالفعل لاح لهم أمل الأنتصار ، وبأن حلمهم لم يكن خيالاً ، وذلك فى اكتوبر ١٩٧٣ .

ولكن الجماهير العربية لم تهنأ بهذا الحلم طويلاً . فسرعان ما أعقب الحلم القصير كابوس طويل فى السنوات العشر التالية . فقد أشتعلت حرب أهلية فى لبنان ، وبدأت مصر « **سفر الخروج** » النفسى والسياسى من دائرة الوطن العربى الكبير ، وحاربت ليبيا ، واستعدت مصر الرسمية الرأى العام المصرى ضد الأشقاء العرب . بل أن مصر الرسمية تمادت فى « سفر خروجها » عن الاجماع العربى ، ودخلت فى مصالحة متعددة الجوانب مع أعداء عبد الناصر — وقعت معاهدة صلح مع اسرائيل ، وتحالفت مع الغرب وبخروج مصر الرسمية من الحلبة العربية ، بدأت تدهم الأمة أمراض التحلل والضعف وترهل الجسم العربى بلا عموده الفقرى ، وإزداد لحماً وشحماً وشللاً بغياب جهازه العصبى القادر على تحريك الجسم وتقنين حركته . وبخروج مصر الرسمية ، بدأت اسرائيل تعيث فساداً فى المنطقة ، وتعيد ترتيبها من خلال مشروعها الصهيونى

---

٤١ – لاكوتير ، ناصر : سيرة شخصية ، مرجع مشار اليه سابقا ، ص ٣١٢ .

الكبير . وكان ضربها للمفاعل الذرى العراقى فى يونيو ١٩٨١ ، وغزوها للبنان فى يونيو ١٩٨٢ ، خطوات عملاقة فى تنفيذ هذا المشروع الصهيونى على انقاض المشروع القومى العربى لعبد الناصر .

وفى ظل الفوضى والضعف والمهانة التى يعيشها الوطن العربى اليوم ، تستعيد الجماهير العربية ذكرى سنوات المجد الناصرى . فقد كانت سنوات كرامة . كانت سنوات مليئة بالانتصارات والهزائم . ولكنها كانت سنوات نضال ، لم تغب فيها أبداً روح الاباء والتحدى ، ولم تتوار فيها أبداً ارادة القتال . كان وطن عبد الناصر العربى متحداً فى عواطفه ومشاعره . وكانت الجماهير تصغى الى صوت واحد ، وتستعين ببوصلة واحدة ، ولديها جهاز استقبال رادارى واحد يلتقط اشارات منسقة من المركز فى القاهرة . كان عبد الناصر مثيراً ومحركاً للموحدات الحضارية الكبرى » فى الوطن العربى . وفترات المد والصعود فى هذا الوطن محكومة بظهور القائد القادر على استثارة وتحريك هذه « الموحدات الكبرى » : أمجاد الماضى وأصالته ، إمكانيات الحاضر المادية والروحية ، ورؤية لمشروع قومى واحد بمستقبل زاهر . تلكم هى العناصر التى أضفت على الوطن العربى ، فى ظل القيادة الناصرية ، وحدة عضوية فى المشاعر وفى الاتجاه ، حتى فى معمعة الصراع وفى أحلك ساعات الهزيمة .

إن جزءاً كبيرا من الفوضى والضعف والمهانة التى يعيشها الوطن العربى اليوم هو نتاج لتعدد الأصوات والبوصلات ، ولتعدد أجهزة الارسال والاستقبال الرادارية . لذلك تقاطعت الاشارات ، وتداخلت خطوط المعارك ، واختلط الأعداء بالاصدقاء . وفى ظل هذه الفوضى ، أو كسبب ونتيجة لها ، توارت « الموحدات الحضارية الكبرى » ، وأثيرت « الخصوصيات القاسمة الصغرى » ، واستثيرت العصبيات المحلية ، من دينية وعرفية ولغوية وقبلية وقطرية . وانصرفت كل خصوصية قاسمة تغذى عصبيتها المحلية ، وأنصرف الحكام والأقطار الى مشروعاتهم الخاصة .

وفى الذكرى الثلاثين لثورة يوليو بات واضحاً للجماهير فى مصر والوطن العربى أن المشاريع الخاصة التى طرحها بعض الحكام العرب بديلاً للمشروع القومى الناصرى ، لم تؤد فى النهاية الا الى تكريس المشروع الصهيونى . فبعد اثنى عشر عاماً من رحيل عبد الناصر ، وبعد تجربة عدد من هذه المشروعات الخصوصية البديلة ، لم تجن الأمة العربية الا حصاداً مراً : الضعف والهوان والتبعية ، وخنوع الحكام فى وجه اسرائيل ، واحياء« عقدة النقص » . لقد اغتصبت هذه المشروعات الخصوصية البديلة روح نصر أكتوبر ، وبددت ثروات وطاقات الأمة . وأهم من ذلك أوشكت على قتل إرادتها فى المقاومة والتصدى لأعداء الأمة .

لقد كان أكتوبر ١٩٨١ فى مصر ، وصيف ١٩٨٢ فى لبنان هما الاشهار العلنى لافلاس المشروعات الخاصة للأنظمة والحكام العرب . والأمة العربية الآن تمر بفصل آخر من فصول أزمتها الحضارية الكبرى فى مواجهة الغرب والصهيونية . وشعوب الأمة فى أنتظار مشروع قومى عربى جديد .

ولابد للشمس أن تشرق ثانية .

ثورة يوليو وإعادة تفسير التاريخ*

فى معنى الثورة

الثورة ـــ أى ثورة ـــ تقاس بمدى ما تحدثه من تغير كمى وكيفى فى لحظة تاريخية قصيرة .

كان المؤرخون فى الماضى ، ولا يزال الكثيرون حتى وقتنا هذا ، يعتقدون أن الثورة تقاس بمستوى العنف الذى يصاحبها وبغزارة الدم الذى تسفكه . وقد كانوا ، ولا يزالون ، معذورين فى هذا الفهم المحدود لمعنى الثورة . ففى معظم الحالات لم تكن الشعوب تستطيع أن تحدث ما ترنو اليه من تغيير جذرى فى حياتها وفى مؤسساتها إلا بالعنف وسفك الدماء . ولكن المعنى الحقيقى للثورة يظل كامناً فى عمق ونطاق ما تحدثه من تغيير ، أياً كانت الوسائل المستخدمة .

وعمق التغيير يعنى أن الثورة تخترق أكبر عدد ممكن من مستويات الواقع الانسانى . فمستويات الواقع البشرى متراكمة ، مثلها فى ذلك مثل الطبقات الجيولوجية للأرض . وكما تهز الزلازل والبراكين تلك الطبقات الجيولوجية . فكذلك تفعل الثورة بالواقع المجتمعى .

ونطاق التغيير يعنى أن الثورة الحقيقية ، أو الظاهرة التى تستحق اسم الثورة ، تشمل كل مؤسسات المجتمع ، وقيمة ، وأنماطه السلوكية . بل إن الثورة الحقيقية فى نطاق تأثيرها لا تتوقف عند حدود مجتمعها الوطنى المباشر ، وإنما تحدث حول مركزها تغيرات وتداعيات متتالية الدوائر . فإذا كان مركز الزلزال فى الواقع الجيولوجى هو الأعنف حركة والاكثف تحركاً ، فإن محيطات أكبر ، متتالية ، تتأثر بحركة وتحرك مركز الزلزال بدرجات متفاوتة . ويصدق الشيء نفسه بالنسبه للثورة .

علم اجتماع الثورات يقول لنا أن ظاهرة الثورة من اهم ظواهر التاريخ البشرى والوجود

---

* مجلة المستقبل العربى ، ابريل ، ١٩٨٢ .

الانسانى . فنقاط التحول الفاصلة في التاريخ كانت بسبب الثورات . وكل الاديان الكبرى ، مثلًا ، حينما ظهرت كانت ثورات بهذا المعنى . وبالتالى مثلت فواصل تاريخية قاطعة في التحول البشري .. وبالمعنى نفسه ، وإن لم يكن بالدرجة نفسها ، كانت الثورة الانجليزية ، والثورة الفرنسية ، والثورة البلشفية ، والثورة الصينية ، وغيرها . كل من هذه الثورات كانت بما فعلته تمثل فاصلًا تاريخياً لا فى حياة مجتمعها الوطنى المباشر فقط ، وانما ايضاً فى دوائر اوسع من حوله . وعلى الرغم من ان كلا منها قد احدث كثيراً من التغييرات ، ورغم أن المحللين قد يختلفون حول اهمية أو مغزى كل تغيير احدثته كل من هذه أو غيرها من الثورات ، الا أننا نغامر هنا بأحد تغيير واحد ، وربمابشكل تعسفى فى الاختيار ، لكى ندلل به على احدى النقلات الكيفية ، التى احدثتها بعض هذه الثورات .

الثورة الانجليزية (١٦٤٠ — ١٦٦٠) انطوت لاول مرة على حدث فريد ، وهو محاكمة الملوك واعدامهم بواسطة عامة الشعب . فقد اعدم الملك شارلز الاول عام ١٦٤٩ على ايدى العامة . فى السابق كان التخلص من ملك أو حاكم يتم على يد منافس له من الاسرة الحاكمة نفسها ، أو من اسرة حاكمة اخرى ، او يموت فى المعارك . اما أن يقتل بواسطة سلطة شعبية بعد « محاكمة شعبية » فقد كان ذلك حدثاً تاريخياً فريداً فى وقته .

الثورة الامريكية (١٧٧٥) **والثورة الفرنسية** من بعدها (١٧٨٩) استنت قاعدة جديدو فى العلاقة بين الحكام والشعوب . وهو أنه « لاضرائب بلا تمثيل ».والمعنى الاوسع لهذا المبدأ هو أنه لا واجبات على المواطن حيال الدولة بلا حقوق . وفى مقدمة هذه الحقوق حق المشاركة السياسيه . فالتوازن بين الحقوق والواجبات هو الذى يجعل من البشر « مواطنين لا رعايا » . وتطور معنى المواطنة ليعنى المساواة بين الناس فى حقوقهم السياسية وأمام القانون ، كأحد حقوق الانسان .

الثورة البلشفية ، (١٩١٧) ، انطوت على استحداث مبدأ جديد فى علاقات البشر . فبعد اكثر من قرن على قيام الثورة الفرنسية ، بدأ يتضح ان المساواة السياسية بمعزل عن المساواة فى فرص الحياة ، يعنى انه حق مجرد ، قد ينص عليه فى الوثائق والدساتير والقوانين ، ولكنه لا يمارس . بتعبير آخر جاءت الثورةالبلشفيةلتقول للعالم أن هناك نوعاً من المساواة ، هو المساواة الاجتماعية ، لابد من أن يتحقق كشرط لممارسة المساواة السياسية . وان المساواة الاجتماعية لاتتحقق فى ظل الاستغلال الطبقى . وأن العبرة اذن فى التحرر الانسانى الحقيقى هى فى تحطيم كل علاقات الاستغلال . وأن الطبقة الصناعية العاملة هى اوسع الطبقات واكثرها تعرضاً للاستغلال،وبالتالى فهى صاحبة المصلحة الحقيقية فى محاربة الاستغلال الرأسمالى الذى يجردها من كل حقوقها السياسية والاجتماعية . لذلك فهى القوة

الحقيقية التى ينبغى أن تقود الثورة ، وتدير المجتمع لحسابها بعد نجاح الثوره .

الثورة الصينية (١٩٣٠ - ١٩٤٩) دفعت لأول مرة فى التاريخ بطبقة جديدة لكى تقود الثورة ، وهى طبقة الفلاحين المعدمين . فى السابق كان الفلاحون يتمردون ويعصون بين الحين والآخر ، فى مجتمع هنا أو مجتمع هناك . أما أن يديروا عملية مجتمعية تتجاوز رد الفعل الى الفعل ، وتتجاوز التمرد المؤقت الى نضال مستمر طويل ، فقد كان ذلك حدثاً فريداً . وأن يستحدث الفلاحين وسائل جديدة فى النضال ضد الحكام ، وأن تتكامل هذه الوسائل وتتبلور فى مذهب قتالى جديد - هو الحروب الشعبية - فقد كان ذلك ابتكاراً فى « تكنولوجيا الثورات » . وقد تطورت هذه التكنولوجيا الثورية على ايدى شعوب فلاحية اخرى فى الجزائر وفيتنام فى العقدين التاليين .

هذه وامثلة غيرها تشهد بأن كل ثورة تنطوى على عملية خلق مجتمعية كبرى فى مجال المبادىء او الممارسات أو الوسائل . ولكن الثورة - كما قدمنا - تنطوى على ماهو أكثر من ذلك بكثير . فمبقدار ماهى تغيير جذرى للنظام الاجتماعى بكل جوانبه ومستوياته ، فإنها تنطوى على تغيير كيفى لنسق الشخصية بين الافراد ، وللنسق الاقليمى بين البلدان المحيطة ، وللنسق الدولى فى النظام العالمى بأسره .

إن الذى تركز عليه الدراسات التحليليه لأى ثورة - عادة - هو ماتحدثه من تغيير جذرى فى صلب النظام الاجتماعى . ونادراً ماتتعرض هذه الدراسات لما يحدث فى داخل الافراد (اى النسق النفسى) ، أو فى داخل البلدان المحيطة بالمجتمع الذى تقع فيه الثورة (أى النسق الاقليمى) ، او ما تحدثه الثورة على التوازنات الدولية (اى النسق العالمى) . بتعبير آخر ، من الانساق الاربعة التى تهزها وتغيرها اى ثورة حقيقية - وهى الفرد ، والمجتمع ، والاقليم ، والعالم - يحظى التغيير فى النسق المجتمعى فقط . بمعظم الاهتمام والتحليل . أما النسق الفردى ومايتعرض له من هزات فقلما يحظى بالدراسة الموضوعية . وقد يتناوله الادباء فقط فى اعمالهم الفنية والروائية - على غرار مافعل الروائى **تشارلز ديكنز** فى روايته الشهيرة **قصة مدينتين** التى تحكى المأساة الشخصية لافراد عايشوا النظام القديم فى فرنسا ثم شهدوا او شاركوا او انفعلوا او تأثروا باحداث الثورة الفرنسية ، وعلى غرار مافعل الروائى **باسترناك** فى رائعته الشهيرة **الدكتور زيفاجو** بالنسبة للثورة البلشفية .

وما تحدثه ثورة معينة فى النسقين الاقليمى والعالمى - اذا درسناعلى الاطلاق - فإن الذى يتعرض له فهبم اساتذة العلاقات الدولية . وهم غالباً مايهملون فى تحليلاتهم أهمية مايحدث فى النسقين الفردى والمجتمعى من تحول ، ويكتفون بأخذ ، ماحدث ، أيا كان ، كمعطيات

لاتناقش ويكون الهم الاكبر هو معادلة توازن القوى بين الوحدات الفاعلة فى النظامين الاقليمى والدولى . ولأن لكل ثورة منطقها الخاص غير المعتاد ، فإن سلوكها الخارجى يبدو للمتخصص بالعلاقات الدولية كما لو كان شيئاً شاذاً ، يعكر من صفو وانسجام النظام الاقليمى أو الدولى السائد . تلكم مثلاًكانت نظرة ميترنيخ كاستاذ وممارس للعلاقات الدولية . وكانت أيضاً نظرة هنرى كيسنجر كاستاذ جامعى للعلاقات الدولية ، وكصانع قرارات فى حقل السياسة الخارجية . ميترنيخ كان يضيق ذرعاً بالثورة الفرنسية لما تنطوى عليه من محتوى ايديولوجى قابل للانتشار من ناحية ، ولأن هذا المحتوى الايديولوجى يؤدى الى تمييع الحسابات الباردة القائمة على المصلحة البحتة لكل دولة قومية من ناحية أخرى. لذلك عمل جاهداً قبيل واثناء مؤتمر فينا (١٨١٥) أن يعيد النموذج الكلاسيكى فى التعامل الدولى على أساس المصالح القومية البحتة الى سيرته الاولىَ التى عطلتها ، الى حين ، الثورة الفرنسية . وكان كيسنجر يرى ، بدوره ، ان الثورتين البلشفية والصينية قد ادتا الى اقحام الايديولوجية الثورية فى العلاقات الدولية ، وبالتالى نتج خلل جديد فى النظام العالمى فى الفترة من ١٩٤٥ الى ١٩٧٠ . وهو خلل مماثل لما احدثته الثورة الفرنسية فى اوائل القرن الماضى . لذلك عمل كيسنجر — مثلما فعل ميترنيخ من قبله — على أن يقلص من العامل الايديولوجى الثورى،إن لم يقتلعه تماماً ، من العلاقات الدولية .

إن قابلية انتشار الافكار والممارسات الجديدة التى تبنتها كل ثورة يفسر لماذا تحاول حكومات الاقطار المحيطة ، او الدول الكبرى المهيمنة على النظام الدولى ، ان تحاصر الثورة « وتحجر عليها صحياً » درءاً « للعدوى » فإذا لم ينجح ذلك الحصار فى خنقها او تحجيمها ، فإن محاولات تجرى للمساومة معها وتدجينها . فإذا لم تنجح تلك المحاولات فقد تقبلها القوى المهيمنة اقليمياً وعالمياً على مضض شديد . هذا ماحدث مع الثورات الفرنسية والبلشفية والصينية .

محاولات الانقضاض و الالتفاف نفسها حول الثورة او تدجينها قد تحدث من الداخل ، وليس من القوى الاقليمية والدولية المحيطة بها من الخارج فقط . وكثيراً ماتحدث ظواهر الارتداد أو الثورات المضادة . فالثورة الانجليزية بقيادة كرومويل والبرلمان الطويل اعلنت الجمهورية ، ولكن بعد عدة سنوات عاد النظام الملكى مرة اخرى الى بريطانيا ، ونصبت اسرة ستيوارت من جديد على العرش (١٦٦٠) . كذلك عادت اسرة البربون فترة قصيرة الى حكم فرنسا (١٨١٤) . ولكن اياً كانت درجة الارتداد فهى نادراً ماتعيد الأوضاع الهيكلية فى المجتمع الى سابق عهدها تماما (أى مثلما كانت قبل الثورة) . فالثورات تحدث تغييرات جذرية من الصعب — إن لم يكن من المستحيل — محوها تماماً . وتظل آثار تلك التغييرات غائرة فى او عالقة بكل مستوى من المستويات النسقية الاربعة التى ذكرناها (المستوى النفسى الفردى ، والمستوى المجتمعى ، والاقليمى ، والدولى) .

والثورة – أياً كانت درجة نجاحها وبصرف النظر عما قد يحدث من ردة او ارتداد – تعني فى المقام الاول اعادة توزيع فى الثروة والسلطة بين فئات وافراد المجتمع . لذلك فهناك دائماً خاسرون وفائزون ؛ وهناك منتفعون ومتضررون . ولأن الفوز والخسارة ، النفع والضرر ، يحدث بشكل حاد الاستقطاب ، وفى فترة زمنية قصيرة ؛ فإن « الثورة » تصبح ظاهرة اجتماعية غير حيادية . لذلك لا يستطيع الناس ، او حتى الدارسين ، ان يقفوا منها موقفاً موضوعياً متجرداً . ومن الطريف أن يصادف الزائر الى فرنسا – بعد مضى قرنين على الثورة – فرنسيين يضمرون الحقد والغيظ والعداء للثورة فى بلادهم الى يومنا هذا . كذلك نصادف فى أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة اللاجئين من روسيا البيضاء ، او ابنائهم واحفادهم ، ونسمع منهم تعبيرات الغضب والمرارة على ماحدث فى بلادهم عام ١٩١٧ (اى منذ اكثر من ستين سنة) . ولا يعدم المراقب أن يجد من بينهم من لايزال يحلم بإعادة عجلة التاريخ الى الوراء والتخلص من الثورة البلشفية . الشيء نفسه يصدق على الصينيين فى تايوان تجاه الثورة الصينية ، وعلى اللاجئين الكوبيين فى فلوريدا نحو الثورة الكوبية . ويصدق على ثورة يوليو كما سنرى .

هذه الملاحظات العامة عن معنى وديناميكية الثورة ليس القصد منها تقديم دراسة تحليلية متعمقة حول الموضوع . فهناك مئات الكتب والمراجع عن موضوع الثورة بصفة عامة ، وعن كل ثورة من الثورات الكبرى التى اشرنا اليها بصفة خاصة . لقد أوردنا الملاحظات السابقة فقط كعلامات متناثرة على الطريق ونحن بصدد الحديث عن ثورة يوليو فى مصر العربية .

ثورة يوليو بعد ثلاثين عاماً

ليس من الاجحاف بثورة يوليو أن نقول ان الذين فجروا شراراتها فى تلك الليلة من الشهر السابع لعام ١٩٥٢ لم يكونوا يدركون تماماً عظمة الحدث الذى اقدموا على صنعه فى تلك اللحظة التاريخية . لقد كانت مغامرة تفاعل فيها **السخط مع اليأس مع الأمل** فى آن واحد .

فالضباط الاحرار (حوالى المائة) الذين انتفضوا فى تلك الليلة كانوا فى المقام الاول افراداً يعبرون عن سخطهم على النظام القائم ، ويأسهم من اصلاحه ، واملهم فى أن يقتلعوه ويقيموا مكانه نظاماً جديداً . وباعترافهم هم كانت مشاعر السخط حارة ، ومشاعر اليأس مرة ، ومشاعر الامل قوية . ولكن كل هذه المشاعر – وبخاصة مشاعل الامل – كانت مبهمة وهلامية ، بلا قسمات أيديولوجية واضحة المعالم وكان لديهم ادراك لايقل ابهاماً وهلامية ، فى انهم فى سخطهم ويأسهم وأملهم يمثلون آخرين غيرهم فى الجيش وفى المجتمع . ولكنهم لم يدركوا فى تلك اللحظة التى انتفضوا فيها أن معادلة السخط واليأس والامل بكل مفعولها الانفجارى الكامن هى معادلة الثورة فالأغلبية الساحقة للشعب المصرى كانت تشترك معهم فى كل هذه الانواع الثلاثة

من المشاعر . بل ولم يدرك هؤلاء الضباط المائة فى تلك الليلة من صيف يوليو ١٩٥٢ ان معادلة الثورة هذه بمكوناتها الثلاثة (السخط واليأس والأمل) هى معادلة ثورة قومية تتخطى الحدود القطرية للدولة المصرية . فالأغلبية الساحقة لشعوب الامة العربية كانت تشترك معهم فى تراكم هذه الانواع الثلاثة من المشاعر .

لقد كانت ثورة تموز / يوليو هى استجابة طبيعية حادة لوجود أزمة اجتماعية سياسية حادة فى داخل مصر . فقد تعثر النظام الملكى الحاكم فى مواجهة المشكلتين الرئيسيتين اللتين شغلتا عدة اجيال مصرية متعاقبة منذ منتصف القرن التاسع عشر – وهما المشكلة الوطنية والمسألة الاجتماعية ؛ أو الاستقلال والعدالة . وكانت اخفاقات النظام المتتالية فى مواجهة المسألتين فى الفترة من ١٩٢٣ الى ١٩٥٢ مروراً بتعطيل الدستور ، ومهادنة الانجليز ، واطلاق يد كبار الملاك فى النهب والاستغلال ،وهزيمة حرب فلسطين ، والفشل فى إجلاء قوات الاحتلال من منطقة قناة السويس ، والعبث بالحريات العامة ، وازدياد حدة البطالة والتضخم ، وانتشار الفساد – هى اسباب السخط واليأس والامل الذى اعتمل فى صدور الضباط الاحرار . لقد كانت هذه الاخفاقات فى مجملها هى التى وضعت النظام الملكى فى مأزق ازمته التاريخيه الحادة فى اوائل الخمسينات ؛ وجعلت من الثورة حتمية تاريخية كاستجابة ضرورة لتلك الأزمة .

ولكن ازمة النظام الملكى المصرى كانت جزءاً لايتجزأ من ازمة حضارية اوسع ، تشمل كل الانظمة الحاكمة من حوله فى المنطقة العربيه – سواء أكانت هذه الانظمة هى حكم استعمارى مباشر وسافر ؛ ام حكم صفوات محلية تمارس السلطة فى كنف هيمنة استعمارية غير مباشرة ، أو من خلال اسر حاكمة ذات هيكلية قبلية عشائرية متخلفة فى فكرها وممارساتها . ازمة النظام المصرى كانت الاكثر حدة ، لان مجتمعها هو الاكثر تعقيداً ، والاكبر حجماً . لذلك بدأت فيه الثورة . ولكن لأن الأزمة كانت عامة من المحيط الى الخليج ، فإن الثورة التى بدأت فى قلب الدائرة العربية كان لابد من ان تتداعى مضاعفاتها الى كل الاجزاء حتى الاطراف .

شبت ثورة الجزائر فى ١٩٥٤ ، وثورة العراق فى ١٩٥٨ ، وثورة اليمن فى ١٩٦٢ ، وثورات أو انتفاضات ثورية اخرى فى البحرين ، وجنوب الجزيرة العربية ، وتونس ، والمغرب ، والسودان ، وليبيا ، والصومال ، ولبنان ، وسوريه ، والاردن ، والسعودية ، وموريتانيا ، واريتريا . ثورة يوليو لم تخلق هذه الثورات أو تلك الانتفاضات . الذى خلقها هو تراكم ازمات الانظمة الحاكمة فى كل من بلدانها . ثورة يوليو كانت البداية فقط والملهم ، والمؤازر لهذه الحركات الانتفاضية ، التى قام بها عرب آخرون تعتمل فى صدورهم مشاعر السخط نفسها واليأس والامل ، التى حركت ثوار مصر فى الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ .

ثورة يوليو ــ مثل كل الثورات من قبلها ومن بعدها ــ ليست ظاهرة حيادية .

فمعها أو ضدها تستقطب المشاعر والمصالح فى داخل مصر . ولأنها وقعت فى مركز الدائرة العربية ، وفاضت على ماحول هذا المركز ، فإن الوطن العربى كله استقطبت مشاعره ومصالحه معها او ضدها . ولأن الوطن العربى نفسه يقع فى القلب الاستراتيجى والنفطى للعالم كله ، فإن هذا العالم شهد استقطاباً فى المشاعر والمصالح مع او ضد ثورة يوليو . ولايعنى الاستقطاب داخل مصر او الوطن العربى أو العالم ان كفتيه متساويتان فى عدد البشر أو فيما يتوافر لكل منهما من قوة عسكرية أو مالية او اقتصادية . لقد كانت ولاتزال اغلبية البشر فى مصر ، وفى الوطن العربى ، وفى العالم ، مع ثورة يوليو ــ خاصة بعدما تبلورت ملامحها وتحددت قسماتها . ولكن هذه الاغلبية المؤيدة لثورة يوليو لم تكن دائما فى المستوى التنظيمى ، او القوة العسكرية ، او الثراء الاقتصادى لاعدائها . لذلك انتصرت ثورة يوليو فى كل المعارك التى كان فيها حجم البشر وحجم المشاعر هو السلاح الحاسم فى المعركة . **انتصرت فى معركة الاحلاف ، وفى تأميم قناة السويس ، وفى تحقيق اول وحدة عربية ، وفى بناء السد العالى ، وفى اقامة صرح التصنيع المصرى ، وفى نشر افكار التحرر الوطنى والعدالة الاجتماعية ، وفى تطبيق الاشتراكية ، وفى اقامة حركة عدم الانحياز ... وفى عديد من المعارك الاخرى .**

ولكن ثورة تموز / يوليو ، كما كانت عملاقة فى انتصاراتها ، فإنها منيت بهزائم عملاقة من اعدائها . لقد تكالبوا عليها فى تلك المعارك التى كان سلاحها الحاسم هو قوة التنظيم والسلاح والمال ، وليس عدد البشر او حجم المشاعر . كانت اكبر هزائمها على الاطلاق فى تفسخ **الجمهورية العربية المتحدة** (الوحدة المصرية – السورية) ، **وفى حرب ١٩٦٧** ، واخيراً على يد **الثورة المضادة** التى حدثت وكادت تنجح فى مصر بعد رحيل زعيم ثورتها جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠ .

من الطبيعى أن يختلف المحللون حول اسباب الهزائم . ومن الطبيعى أن يكون لما ارتكبته الثورة نفسها من اخطاء دور مهم فى تفسير هذه الهزائم . المؤيدون لثورة يوليو فى داخل مصر والوطن العربى والعالم ربما أجمعوا على أن احد هذه الاخطاء العملاقة هو فشل الثورة فى تحويل الاعداد الهائلة من البشر ، والكتل الضخمة من المشاعر المناصرة ، الى تنظيم سياسى حقيقى ، قادر على التعبئة والحشد والقتال دفاعاً عن الثورة وقد يذهب البعض الى ان احد اخطاء الثورة هو تقاعسها عن ارساء نظام ديموقراطى حقيقى يسمح للقوى الاجتماعية الضخمة التى استفادت من الثورة بالمشاركة فى صنع القرار . ويذهب آخرون الى أن الثورة لم تعمق او توسع التطبيق الاشتراكى بدرجة كافية ، تسمح للاشتراكية بالانطلاق الذاتى دونما الاعتماد على قوة الزعيم او سلطة الدولة ويقول البعض ان قائد ثورة تموز / يوليو – **جمال عبد الناصر** – لم يع حقيقة أن قوته الفعليه كانت مستمدة من الجماهير العريضة للشعب المصرى والامة العربية ؛ أو ربما وعاها ولكنه لم يترجم هذ الوعى الى اسلوب حكم متسق مع هذه الحقيقة . لذلك يأخذون عليه أنه

حكم مصر من خلال **أجهزة الامن** التى لايلجأ اليها الى حاكم مكروه من شعبه . ومن الاخطاء التى تؤخذ على ثورة يوليو انها وقعت فريسة لممارسات مصلحية ذاتية لبعض قياداتها او الدخلاء عليها ، دون وجود آليات فعالة للكشف عن هذه الممارسات والقضاء عليها فى مرحلة مبكرة قبل ان يستشرى فسادها . ومنها أن الثورة قد سمحت لنفسها بأن تستدرج بسهولة الى معارك خارجية ، دون حساب دقيق لمواردها الذاتية ولموارد الاعداء . وهو الأمر الذى ادى اما الى استنزاف طاقاتها او ايقاع الهزيمة بها فى معظم هذه المعارك . **وهذه الاخطاء وغيرها يذكرها المتعاطفون مع ثورة يوليو من موقع صدق ، تحيط به مشاعر الحسرة والألم ، مع الحض على الاستفادة منها كدروس للحاضر والمستقبل .**

ولكن الهزائم والاخطاء نفسها يذكرها اعداء ثورة يوليو داخل مصر ، والوطن العربى ، والعالم ، للتشكيك فى فكرة الثورة اساساً ؛ ولاثبات خطر القيام بها ، وللتدليل على هول الكوارث التى نتجت عنها . وفى هذا السياق لاتنفصل الفكرة ، عن الممارسة ، عن الاشخاص ، عن النتائج ، وتسقط بالنسبة لهم كل الانجازات ولا يطفو على السطح ويبرز الا الاخطاء والهزائم .

وعبد الناصر بالنسبة للمؤيدين والمعادين هو الرمز البشرى لثورة يوليو — كما كان كروميل هو رمز الثورة الانجليزية ، وروبسبيير او نابليون هما رمز الثورة الفرنسية ، وجورج واشنطون هو رمز الثورة الأمريكية ، ولينين رمز الثورة البلشفية ، وماوتسى تونغ رمز الثورة الصينية . والناس معذورون فى الخلط بين الثورة وقائدها . فهو الذى يجسم الاحداث والافكار المجردة ويضفى عليها بلحمه ودمه وممارساته واسلوبه وصوته وشكله بعداً بشرياً يمكن التواصل معه بمشاعر الحب او العداء لذلك كان ولايزال عبد الناصر جزءاً لايتجزأ من الحوار حول ثورة تموز / يوليو . والذين لا يستطيعون الهجوم المباشر على ثورة يوليو — نظراً للفساد وتهرؤ النظام الذى كان قائماً فى مصر قبلها ، او لعدم القدرة على انكار منجزات الثورة البارزة – فإنهم يهاجمون عبد الناصر . والايحاء هنا هو انهم « لايعارضون الثورة من حيث المبدأ » ، ولكنهم يبغضون عبد الناصر فقط ، اما لأنه « سرق الثورة » ، أو « افسدها » ، او كان « ديكتاتوراً ظالماً » ، أو « جلب الى مصر الفقر والشقاء » ، او « جلب الى العرب الخزى والهزيمة والاحتلال » ... وهناك بعض من لا يلجأون الى هذا الاسلوب غير المباشر . فهم يهاجمون ماحدث فى يوليو ١٩٥٢ دون مواربة . ويعتبرونه « انقلاباً عسكرياً » لاشباع نهم القائمين به فى السلطة والثروة . بل إن هناك من اعتبره « مؤامرة امريكية » ، طبخها واخرجها جهاز وكالة المخابرات المركزية .

هذا التداخل بين الثورة وزعيمها فى الواقع ، وفى عقول وقلوب المؤيدين والمعادين على السواء هو الذى ادى الى شيوع اصطلاح **الناصرية** . وهى تسمية لم يحبها عبد الناصر ، ولم

تستخدم فى مصر اثناء حياته . ولكن اللفظ شاع بعد رحيله . واصبحت « الناصرية » تعنى ثورة يوليو بمبادئها وممارساتها وانتصاراتها واخطائها فى الفترة من ١٩٥٢ الى ١٩٧٠ . اى منذ صعود عبد الناصر الى السلطة مع الثورة التى قادها هو وزملاؤه من الضباط الاحرار ، الى يوم رحيله عن عالمنا فى سبتمبر ١٩٧٠ .

والناصرية بهذا المعنى العام هى الجسم الزمنى الرئيسى لثورة يوليو . ولكنها ليست ثورة يوليو كاملة . ففى السنوات الاحدى عشرة التالية لوفاة عبد الناصر ، اعتلى السلطة فيها الرئيس **انور السادات** ، كخليفة لعبد الناصر ، وكاستمرار شرعى لثورة يوليو . هكذا اعتقد معظم الناس فى مصر وفى الوطن العربى وفى العالم . وهكذا أكد الرئيس السادات نفسه فى السنوات الثلاث الاولى من حكمه . وما بدا من اختلاف فى تلك السنوات فى اداء وظائف الحكم فى مصر عنه فى سنوات عبد الناصر كان يعزوه المراقبون الى مجرد الاختلاف فى شخصية الزعيمين ، وليس فى التزاماتهما الايديولوجية وتوجهاتهما الاجتماعية والقومية والعالمية كما كان بعض الاختلاف يعزى الى عدم تمكن الرئيس السادات من مقاليد السلطة ، وخوفه من المنافسين ، وحرصه على الاعداد لمعركة التحرير مع اسرائيل الجاثمة على الارض العربية منذ ١٩٦٧ .

ولكن الاكثر علماً وعمقاً بمجريات الامور فى داخل مصر ، وديناميات الحركة فى مجتمعها ، ساورتهم الشكوك ، لا حول الاسلوب المختلف للرئيس السادات ولكن حول اتجاهاته ، وحول القوى الاجتماعية والاقليمية والدولية التى يحاول التقرب منها او التحالف معها . وقد بدأت هذه الشكوك بعد المواجهة بين الرئيس السادات ومنافسيه على السلطة فى ايار / مايو ١٩٧١ (على صبرى – شعراوى جمعة – سامى شرف) ثم زادت الشكوك حينما طرد الخبراء السوفيات سنة ١٩٧٢ ثم تضاعفت حينما بدأ يرسل « اشارات رادارية » متعاقبة الى الغرب والولايات المتحدة ، طلباً للصداقة والمعونة عقب حرب اكتوبر ١٩٧٣ . ومع إعلان سياسية **الانفتاح الاقتصادى** عام ١٩٧٤ ، كانت الخطوط والملامح والقسمات للحقبة « الساداتية » قد اكتملت . وظهر انها تختلف اختلافاً كيفياً واضحاً عن الناصرية ، وأكدت مسيرة الرئيس السادات فى السنوات التالية عمق هذا التحول الكيفى عن المسار الناصرى . واصبحت **الساداتيه** تجسم نفسها فى اربعة توجهات رئيسية هى :

١ – الانفتاح الاقتصادى ، او عودة الرأسمالية والقطاع الخاص الى حلبة الاقتصاد المصرى .
٢ – الممارسة الديمقراطية المحكومة مع عودة الاحزاب التى يقرها النظام ويوافق عليها .
٣ – التحالف مع الغرب ، وخصوصاً الولايات المتحدة ، ومعاداة الاتحاد السوفيتى ، والتخلى عن سياسية عدم الانحياز .
٤ – التصالح مع اسرائيل ، وتطبيع العلاقات معها ، والقطيعة بين مصر والحكومات العربية .

هذه السياسات الاربع تمثل توجهات مضادة تماماً « للناصرية » كما عرفتها مصر والامة العربية فى الفترة من ١٩٥٢ الى ١٩٧٠ . فقد كانت اعمدة الناصرية هى :

١ – الاشتراكية والقطاع العام .

٢ – حكم الحزب الواحد او ماكان يسمى بتحالف قوى الشعب العاملة (الاتحاد الاشتراكى العربى) .

٣ – معاداة الصهيونية والامبريالية الغربية كوجهين للظاهرة العدوانية نفسها .

٤ – الالتزام القومى العربى بهموم الامة وعلى رأسها المسألة الفلسطينية ، وآمالها وعلى رأسها العمل من اجل التحرر والوحدة العربية .

٥ – عدم الانحياز ، والصداقة مع الدول الاشتراكية ، والعالم الثالث .

وليس هنا مجال المفاضلة بين التوجهات « الناصرية » ، والتوجهات « الساداتية » . مانهدف الى تأكيده هو أن عبد الناصر والسادات هما نبتتان لثورة تموز / يوليو ، كلاهما ساهم فى الاعداد لها ، وشارك فى قيامها ، واشترك فى ادارة مجتمعها وفى رسم سياساتها . طبعاً الموقع والدور النسبى وعمق ومجال التأثير لكل منهما يتفاوت بدرجات كبيرة . ولكن كلاهما يمثل وجها من وجوه تلك الثورة – على مابينهما من اختلاف قد يصل الى حد التناقض . الاول عبد الناصر ، قاد الثورة فى مرحلة صعودها ، وانتصر وانهزم ، ولكنه ظل ملتزما بآمال الجماهير التى أيدته فى ساعات النصر ، ولم تتخل عنه فى ساعات الهزيمة لذلك بكته هذه الجماهير من المحيط الى الخليج وهى تشيعه الى مثواه الاخير . والثانى تكلم باسم الثورة ، وقاد مصر فى حرب اكتوبر المجيدة ، والتفت حوله الجماهير فى ساعات المعركة ، ولكنه رويداً بدأ يتحدث لغة لم تفهمها الجماهير ، وبالتالى لم تستجب لها ، لو غضبت منه فى يناير ١٩٧٧ ، ولم يدرك سر غضبها عليه ، لذلك بدأت تنصرف عنه ، ولاتلقى بالاً لاحلامه . واتسعت الهوة والجفوة بينه وبين هذه الجماهير ، حتى طالته بعض ايديها بالاغتيال فى ٦ اكتوبر ١٩٨١ . ورحل الرجل عن دنيانا ، وشيع جثمانه الى مثواه الاخير فى موكب مأساوى حزين ، لم يمش فيه الا قلة من بنى قومه واغلبية من اصدقائه الاجانب .

العقد الرابع لثورة يوليو

مع الرحيل المأساوى للرئيس السادات يسدل الستار على العقد الثالث لثورة يوليو . ويفتح الستار على العقد الرابع باعتلاء الرئيس حسنى مبارك قمة السلطة فى وادى النيل . القوى المختلفة فى الساحة الوطنية فى مصر ، والساحة القومية من المحيط الى الخليج ،

والساحة العالمية من موسكو الى واشنطن ، كلها تتأهب وتتحفز للدخول فى تنافس صراعى على روح ثورة يوليو .

على الساحة الوطنية ، لم تمر ايام على رحيل الرئيس السادات ، الا وكانت القوى الاجتماعية المختلفة تحفر خنادقها ، وتحشد قواها ، وتشحذ اقلامها واذهانها ، استعداداً لمعركة الفوز بالرئاسة الجديدة . ربان السفينة الجديد - حسنى مبارك - ارسل صفارات متعددة استعداداً للابحار وقد ترجمت كل قوة اجتماعية هذه الصفارة او تلك لتناسب ماترغبه وترجوه فتأكيد الرجل على **العدالة الاجتماعية ، ومطالب القاعدة العريضة من الجماهير ، واعلانه الحرب على الفساد والمفسدين** ، ... كلها صفارات أوحت للمسحوقين والفقراء والشرفاء ان السفينة ستبحر فى الاتجاه نفسه الذى كان يدير نحوه عبد الناصر دفة السفينة . وقد أدخل ذلك على قلوبهم الفرحة والابتهاج ، وهبوا يؤيدون الرجل ويعرضون عليه عقولهم وسواعدهم . ولكن حسنى مبارك اطلق صفارات اخرى ، مثل شعار **الاستمرار والاستقرار ، وعدم نبش الماضى القريب** ، والابقاء على **سياسة الانفتاح** (مع جعله انتاجياً) ... الخ . وهى صفارات توحى للذين استفادوا من الحقبة الساداتية وتربعوا اثناءها على قمة الثروة والسلطة ، بأن هناك املًا فى أن تستمر السفينة مع ربانها الجديد على ماكانت عليه ، وأن تبحر فى الاتجاه نفسه الذى كان يسير فيه السادات . والمتحدثون باسم القوى الاجتماعية المتناقضة المصالح فى مصر يصيحون علناً فى وسائل الاعلام بتفسيراتهم المختلفة لما يسمعونه (او يتمنونه) من صفارات ومن الأفلام المعروفة على الساحة بدأ المصريون يقرأون من جديد **محمد حسنين هيكل ، واحمد بهاء الدين ، وكامل زهيرى ، ويوسف ادريس ، ومحمد عودة ، وصلاح حافظ** . وهى اسماء لمعت اثناء الحقبة الناصرية ، واقترنت فى أذهان الناس بامجاد ونكسات تلك الحقبة . وكانت عودة هذه الاقلام الى الصحافة ، واعادة طرحها للافكار الناصرية فى رداء « مباركى » مدعاة لفرحة البعض وهلع البعض الآخر . والأشد هلعاً لم يضيعوا الوقت ، وانبروا على التو يذكرون الناس بنكسات الناصرية، ويدخلون الرعب فى القلوب من عودة انصارها الى الساحة . وهم يفعلون ذلك من مواقع وهضاب حاكمة فى وسائل الاعلام المصرية ، كانوا قد شغلوها فى الحقبة الساداتية . وهم يدافعون دفاع المستميت عن تلك المواقع وما تمثله من مصالح فئوية وطبقية . ومن الاصوات العالية فى هذا المعسكر رؤساء تحرير الصحف والمجلات الكبرى وغيرهم من الكتاب ورجال الاعمال وقادة الحزب الوطنى الحاكم .

ولكن الساحة الوطنية ليست مقصورة على هذين المعسكرين المتضاربين - « الناصريين » و « الساداتيين » . هناك قوى أخرى بينهما وعن يمينهما وعن يسارهما ، انبرت بدورها تعبر عن الرغبة فى تسوية حسابات قديمة ، او هموم حاضرة ، او آمال مستقبلة . هناك مثلًا ، **الليبراليون القدامى** والذين يتحدث باسمهم مصطفى امين ، وجلال الدين

الحمامصى ، واحمد أبو الفتح ، ود . وحيد رأفت . ومعظمهم من بقايا احزاب ماقبل الثورة ، ويعبرون عن حنين للعصر الليبرالى فى مصر (١٩٢٢ - ١٩٥٢) . وماساده من تعدد للاحزاب ورأسمالية وطنية . وهم يضمرون درجات متفاوته من العداوة لكل من الناصرية والساداتية على حد سواء . عداواتهم لعبد الناصر مرجعها مشروعه الاجتماعى الذى حطم الرأسمالية القديمة واحل مكانها القطاع العام . اما موقفهم من السادات فهو اكثر تعقيداً . فهم مؤيدون لذلك الجزء من سياساته الذى فتح الابواب على مصراعيها للنشاط الاقتصادى الخاص . ولكن لهم مآخذ عليه وبخاصة فى سنواته الاخيرة التى تراجع فيها عن الممارسة الديموقراطية التى كانت لاتزال وليدة تحبو . **وهناك اليساريون القدامى** وهم خليط من الماركسيين والاشتراكيين الذين يعود تاريخ عملهم السياسى الى الاربعينات او ماقبلها . وينتظم **معظمهم حالياً فى حزب التجمع مثل خالد محيى الدين . ود . اسماعيل صبرى عبد الله ، ود . ابراهيم سعد الدين** ؛ وفى حزب **العمل** مثل **ابراهيم شكرى ، د. حلمى مراد ، ود. محمد عصفور ، وفتحى رضوان** . وهؤلاء اليساريون القدامى لايعادون الناصرية ، وبعضهم تعاون وإياها ، ولكن مأخذهم عليها هى انها اما لم تتجه الى الطريق الاشتراكى بسرعة اكبر ، او انها لم تسمح بالممارسات الديموقراطية والمشاركة الشعبية الحقيقية . وهناك قوة اجتماعية خامسة يمكن ان نطلق عليها اسم « **الاشتراكيون الديموقراطيون الجدد** » ، وهى تضم جيلًا جديداً فى الثلاثينات او الاربعينات من عمره ، ولم يشارك معظمهم فى السلطة لاقبل الثورة ، ولا فى الحقبة الناصرية ، ولا الحقبة الساداتية . لقد عايشوا الحقبة الملكية اطفالاً ، والحقبة الناصرية شبابا ، والحقبة الساداتية رجالاً . **وهم لم يتشرفوا او يتدنسوا** بتولى مناصب تنفيذية او سياسية فى الحياة المصرية العامة،ومعظمهم من اساتذة الجامعات . وقد هبوا للمشاركة بالرأى والتعبير عن انفسهم بشكل مكثف فى الشهور التى تلت اغتيال الرئيس السادات مباشرة . ووجدوا فى صفحات جريدتى **الاهرام والجمهورية ومجلتى الاهرام الاقتصادى وروزاليوسف** متنفسا لآرائهم . وهم فى مجمل مايعبرون عنه « ليبراليون » من حيث الالتزام بالديموقراطية ، و « ناصريون » من حيث الالتزام بالعدالة الاجتماعية والتوجه العربى القومى وعدم الانحياز . لذلك نطلق عليهم اسم « الديموقراطيون الاشتراكيون » . ويعبرو عن هذا التيار فى الحوار الدائر فى مصر هذه الايام د . يحيى الجمل ، والسيد يسين ، ود . جلال امين ، ود . رمزى زكى ، ود . على الدين هلال ود . محمود عبد الفضيل ، وعادل حسين ، ود . عبد العظيم رمضان ... وغيرهم كثيرون . هذا التيار الديموقراطى الاشتراكى هو اكثر التيارات المتبارزة على الساحة احساساً بأن حسنى مبارك هو الفرصة التاريخية لنسج منظومة توفيقية لمشروع اجتماعى سياسى اقتصادى عظيم ، يستفيد من كل دروس النجاح ، وكل دروس الفشل فى السنوات الثلاثين السابقة .

هناك قوة سادسة هى فى الواقع المسؤولة عن الاسراع بنهاية الحقبة الساداتية . ونقصد

بها التيار الاسلامى الاحتجاجى . وقد نما هذا التيار نموًا سريعاً منذ أواخر الستينات ، وبخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ . وهو يدعو الى العودة الى الاسلام كدين ودولة ، وتطبيق الشريعة ، ويعادى كل الايديولوجيات العلمانية ، ويمقت كل تجارب مصر السياسية فى العصر الحديث (ملكية ما قبل الثورة ، والناصرية ، والساداتية) . بعض جماعات هذا التيار هى التى دخلت مع الدولة المصرية فى مصادمات دموية عنيفة فى أعوام ١٩٧٤ (منظمة التحرير الاسلامية أو ما يسمى بجماعة الفنية العسكرية) . و ١٩٧٧ (جماعات التكفير والهجرة) ، و ١٩٨١ (تنظيم الجهاد) . وأفراد التنظيم الاخير هم الذين اغتالوا الرئيس أنور السادات يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، وهاجموا وقتلوا حوالى ثمانين من رجال الشرطة فى أسيوط بعد ذلك بيومين . التيار الاسلامى الاحتجاجى بكل جماعاته الغاضبة الساخطة ليس جزءاً من الحوار الدائر علناً على الساحة المصرية هذه الايام . فهو يعادى النظام القائم ، ويبادله هذا الأخير عداوة ويحاصره ويضربه . لذلك فرغم أهميته العددية والايديولوجية والتنظيمية إلا أنه ليس جزءاً من مباراة التسابق على قلب وعقل الرئاسة « المباركية » الجديدة .

الساحة الوطنية المصرية — اذن — تشهد فى عقد الثورة الرابع خمس قوى متنافسة فى أرض الملعب . الناصريون ، والساداتيون ، والليبراليون القدامى ، واليساريون القدامى ، والاشتراكيون الديمقراطيون الجدد . وخارج الملعب قوة سادسة هى التيار الاسلامى الاحتجاجى الرافض .

كل من القوى الخمس المتنافسة تشترك مع اثنين غيرها على الأقل فى أحد التوجهات الرئيسية . فالناصريون يشتركون مع اليساريين القدامى ومع الاشتراكيين الديمقراطيين فى التوجه الاشتراكى ومسألة العدالة الاجتماعية . والليبراليون القدامى يشتركون مع الاشتراكيين الديمقراطيين فى مسألة الديمقراطية . والساداتيون والليبراليون القدامى يشتركون معاً فى عدائهم للناصرية والدفاع عن القطاع الخاص وسياسة الانفتاح الاقتصادى .

وكما قلنا فى البدء الصفارات التى يطلقها الرئيس حسنى مبارك يسمعها كل فريق فى الملعب ، ويفهمها ويفسرها أو يحاول تفسيرها بطريقته الخاصة ، وعلى هواه أو حسب ما يتمناه . وخلال الشهور الأولى من حكمه يبدو حسنى مبارك قانعاً بهذه اللعبة مادامت كل الفرق الخمس المتنافسة تقبل جميعا قاعدة واحدة أثناء المباراة — وهى عدم تحدى سلطته وهيبة الدولة المصرية .

على الساحة العربية والشرق — أوسطية هناك أيضاً حفر خنادق ، واستعداد ، وتحفز للتنافس الصراعى على قلب وعقل الرئيس الجديد . وهنا أيضاً أطلق الرجل عدة صفارات ، تلقفتها آذان التيارات المتنافسة ، وفسرتها تفسيرات متفاوتة . لقد أعلن مبارك أن عروبة مصر هى قدرها وشرف لها ، وأن علاقتها بأمتها العربية هى علاقة الجزء بالكل الذى تفرضه عضوية الجغرافية والتاريخ والحضارة والهموم والآمال . وأمر أجهزة الاعلام المصرية بألا

تهاجم أى نظام عربى حتى لو هاجمته أجهزة هذا النظام . وصرح مراراً منذ توليه الرئاسة بأن مصر تفتح قلبها وذراعيها لأى بلد عربى يريد التعامل مع مصر الدولة ؛ وسحب الحشود العسكرية التى كانت متمركزة على الحدود الليبية ، مؤكداً أن مصر لن تستخدم العنف ضد أى قطر عربى . وإستخدم مبارك رموزاً عديدة تؤكد كل هذه المعانى العروبية الايجابية . فهو يدير شئون الرئاسة من قصر يسمى « قصر العروبة » ، وأعاد الى الأذهان كلمات وعبارات كان يستخدمها الرئيس عبد الناصر فى مناسبات قومية . هذه الاشارات وغيرها أعطت للكثيرين من العرب داخل وخارج مصر آمالًا كبيرة فى عودة مصر الدولة الى تبؤ مركزها القيادى فى الوطن العربى ، وممارسة دورها فى وضع حد للفوضى والتشرذم الذى يمزق أوصال المنطقة .

فى الوقت نفسه أرسل الرئيس حسنى مبارك صفارات عديدة الى اسرائيل ، تؤكد التزام مصر المبدئى بمسيرة « السلام » وإحترام كل التعهدات التعاقدية المترتبة على اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل ، والتى كان قد وقعها الرئيس أنور السادات مع مناحيم بيجين عام ١٩٧٩ . وبعض الاسرائيليين يثقون بهذه الوعود ؛ ولكن أكثرهم يساورهم الشك حول نيات الرجل ، خصوصاً وهم يسمعون الصفارات التى يطلقها نحو الوطن العربى . ويضاعف من هذه الشكوك اصرار الرئيس مبارك على **عدم الذهاب إلى القدس** فى أى زيارة مرتقبة الى اسرائيل ؛ ورفضه لتوقيع أى وثيقة لا تنص على **حق تقرير المصير للفلسطينيين** .

التيارات المتصارعة على قلب وعقل الرئيس حسنى مبارك فى المنطقة يمكن تلخيصها فى ثلاثة . الأول ، هو اسرائيل التى تريد استمرار القطيعة بين مصر وشقيقاتها العربيات . فذلكم هو هدفها الاستراتيجى الكبير منذ سنوات ، وتحقيقه يتيح لها فرصة تحييد مصر من ناحية ، واطلاق يدها كاملة فى الهيمنة والسيطرة على مقدرات بلدان الهلال الخصيب من ناحية أخرى . **التيار الثانى** تمثله الانظمة العربية التى تصنف عادة بـ « المعتدلة » أو « المحافظة » بزعامة السعودية ، ويضم بلدان الخليج والسودان والصومال والمغرب ، ويريد عودة مصر الى الساحة العربية ، دون إصرار على كسر التزاماتها التعاهدية مع اسرائيل صراحة ، ولكن دون المضى فى خطوات تعاونية مع اسرائيل يكون من شأنها استفزاز المشاعر الشعبية العربية عامة والفلسطينية على وجه الخصوص . وهذا التيار يرى فى عودة **مصر المباركية** سبيلًا لتدعيم قوى الاعتدال والاستقرار فى المنطقة من ناحية ، والمساعدة فى درء الأخطار الخارجية (الايرانية والسوفياتية) من ناحية ثانية ، وكبح جماح من يسمون « بالمتطرفين العرب » من ناحية ثالثة . **التيار الثالث** تمثله الأنظمة العربية التى تصنف عادة بـ « التقدمية » ، والتى تنظر لذاتها على أنها امتداد للثورة العربية نفسها التى قادها عبد الناصر فى الخمسينات . والستينات — وهى الأنظمة الحاكمة فى العراق وسورية وليبيا والجزائر واليمن الديمقراطية . وعلى ما بين هذه الأنظمة نفسها من خلاف . إلا أنها تريد ،

ولأسباب وأغراض مختلفة ، **مصراً ثورية** ، معادية للصهيونية والامبريالية الامريكية . وهي تعارض من حيث المبدأ أي تقارب مع نظام الرئيس مبارك على غير هذه الشروط .

وعلى الساحة العالمية ، أطلق الرئيس حسني مبارك أيضاً عدة صفارات ، تم سماع وتفسير كل منها بشكل مختلف . لقد أكد الرجل في أول خطاب له بعد انتخابه رئيساً لجمهورية مصر العربية أن **مصر دولة عربية اسلامية أفريقية غير منحازة** . وأعادت هذه العبارة إلى الأذهان الدوائر الثلاث التي تحدث عنها عبد الناصر في كتاب **فلسفة الثورة** ، والتي أكد فيها أن موقع مصر وتاريخها وحضارتها ومصالحها يحدد مجال حركتها في العالم ، ويفرض عليها دوراً قيادياً في أمتها العربية ، وعالمها الاسلامي ، وقارتها الافريقية . وتبلورت هذه النظرة في مؤتمر باندونج وإنشاء حركة الحياد الايجابي بزعامته وزعامة نهرو وتيتو ، وهي الحركة التي عرفت فيما بعد باسم حركة **عدم الانحياز** .

تلقفت الاسماع هذه الكلمات في عواصم عديدة من موسكو الى واشنطن ، ومن نيودلهي الى بلغراد . واستبشر المحايدون في العالم بها خيراً ، وتمنوا معها أن تعود مصر الى قيادة كتلة عدم الانحياز بعدما أفل نجمها في تلك الحركة في أثناء السبعينات في ظل الحقبة الساداتية . ودعم هذا الأمل تحركات وتصريحات لمسؤولين مصريين . فالرئيس مبارك نفسه صرح أن مصر لن تمنح **قواعد عسكرية** لأي دولة أجنبية على أرضها . وأرسل وزير الدولة للشئون الخارجية (د . بطرس غالي) في رحلات متتالية الى عواصم عدم الانحياز . وإمعاناً في تأكيد هذا الخط دعت مصر عدداً من **الخبراء السوفيات** يناير ١٩٨٢ ، وقبل رحلة الرئيس مبارك الى واشنطن بعدة أيام . وكأن المقصود هو ارسال « إشارات رادارية » قوية على أنه ينوى التعامل مع الجميع ـــ ربما ليس بالدرجة نفسها ، وإنما طبقاً لقواعد الاحترام المتبادل والمصلحة الوطنية لمصر . وبالمعنى نفسه كان توقيع مصر على عقد **صفقة لطائرات الميراج** مع فرنسا ، دون استشارة أمريكا أو إنتظاراً لرحلته المزمعة اليها .

بالنسبة للاتحاد السوفيتي لابد من أن هذه الاشارات قد فسرت بنوع من الرضا المشوب بالحذر . فهذا الموقف يعتبر تحسناً ملحوظاً في مستوى العلاقات المصرية ـــ السوفياتية التي طبعتها البرودة ، ثم العداوة ، ثم الاستعداء في أثناء الحقبة الساداتية . والسوفيات لابد من أنهم يشعرون ببعض الارتياح لوقف حملات الهجوم الاعلامية التي كانت تشنها عليهم الأجهزة المصرية .

الارتياح السوفياتي ـــ كالعادة ـــ لابد من أن يقابله بعض القلق الأمريكي . فقد كانت لهم (الأمريكيون) حسابات ومخططات طامحة في السنوات الأخيرة من الحقبة الساداتية . وكانت إدارة الرئيس الامريكي رونالد ريجان تأمل في ترويج وبيع سياسة جديدة

للمنطقة يطلق عليها إسم الاجماع الاستراتيجي . وفحواها تكتيل الدول الرئيسية فى الشرق الأوسط فى حلف دفاعى بالاشتراك معها ومع أوروبا الغربية لمقاومة « الخطر السوفياتى » الذى تراه زاحفاً على المنطقة من خلال أفغانستان وايران . وكان التخطيط لهذا الاجماع الاستراتيجي يرتكز على مصر والسعودية واسرائيل وتركيا ، بشكل أساسى ، وعلى عمان ودول الخليج والاردن والصومال والسودان بصفة فرعية . وكان الرئيس السادات أشد حماسة للفكرة . ولكن رصاصات خالد الاسلامبولى ورفاقه مزقت الرجل ، ومزقت معه آمال هذا الاجماع الاستراتيجي الموعود . وتحاول ادارة الرئيس ريجان مع حسنى مبارك طرح الصيغة الاصلية نفسها . ولكن وزير دفاعه ، وينبرجر ، يحاول طرح صيغة بديلة تخرج منها اسرائيل ، ليكون الاجماع الاستراتيجي إجماعاً عربياً تحت مظلة أمريكية . أمريكا مازالت تأمل فى تنفيذ هذه الصيغة أو تلك . وهى تسمع من صفارات حسنى مبارك ما يقلقها أحياناً ، وما يشجعها أحيانا أخرى . ولكنها حتى مع ما قد يساورها من قلق فهى حريصة كل الحرص ـــ على الاقل فى الوقت الحاضر ـــ أن لا ترتكب الحماقات نفسها التى ارتكبها مع عبد الناصر . ونقصد بذلك مراعاة الحد الأدنى من مشاعر الوطنية المصرية والقومية العربية ، ومراعاة الرغبة العارمة لدى أبناء المنطقة فى المحافظة على « مظاهر الاستقلال » إن لم يكن على جوهره أيضاً .

هذا التنافس على عقل وقلب الرئيس حسنى مبارك فى الساحة الوطنية ، والساحة الشرق الأوسطية ، والساحة العالمية هو فى الواقع تنافس على روح ثورة يوليو .

بعض المتنافسين فى الساحات الثلاث يتمنى ويحاول خنق هذه الروح . وبعضهم يحاول الاحتفاظ بها كما كانت منذ عشرين عاماً ـــ أى فى الواقع تحنيطها . وبعضهم يحاول بعثها ودفعها الى الامام والى أعلى .

وإذا كان القدر قد وضع حسنى مبارك على قمة السلطة المصرية ليدخل بثورة يوليو عقدها الرابع ؛ فإن هذا القدر نفسه ليس قوة تاريخية محايدة ؛ وكل المتنافسين يدركون أن هذا الرجل الذى أطلق صفارات مختلفة ، وإشارات رادارية عديدة ، لابد من أنه سيفصح عن نفسه قريباً . وقد حدد البعض نقطة كشفه عن وجهه الحقيقى بعد يوم ٢٥ نسيان / أبريل ١٩٨٢ ، الذى يصادف انسحاب آخر جندى اسرائيلى من سيناء . والبعض يحدد ساعة الصفر بعدة شهور بعد ذلك ـــ ربما فى يوليو بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على الثورة ، وربما فى أكتوبر بمناسبة مرور عام على توليه الرئاسة ومرور تسعة أعوام على الحرب التى إشترك فى صوغ نصرها . وآخرون يزهدون فى لعبة « ساعة الصفر » هذه ، لادراكهم أن المسألة ليست اختيار فرد الحاكم لهذا الاتجاه أو ذاك فقط ، وإنما تحدد هذه الاختيارات قوى عديدة لكل منها وزنه النسبى حجماً وتنظيماً وموارد . وإنه أيا كانت رغبة الحاكم نفسه فإنه محكوم بهذه المعايير والتوازنات الداخلية والاقليمية والعالمية .

على أنه أيا كان الاختيار ، فإن مضاعفاته ستكون هائلة لأنه صادر من مصر ثورة يوليو . فمصر الفقيرة ، المثقلة بالديون ، المكتظة بالسكان ، المثخنة بجراح وخراب عدة حروب ، ما كان أن يكون لها هذا الوزن الكبير الذى يتجاوز حجمها على الساحتين الاقليمية والدولية إلا بحكم تاريخها ، وإلا بحقيقة إنها شهدت ثورة على ضفاف النيل منذ ثلاثين عاماً . ولأن هذه الاخيرة كانت ثورة عربية حقيقية ، فإنها ككل الثورات العظمى فى التاريخ البشرى لا تزال تؤثر فى مجرى وصياغة هذا التاريخ ؛ حتى وهى تدخل عقدها الرابع .

هناك قناعات وحقائق خلقتها الثورة على أرض الواقع الوطنى والقومى والعالمى ، ترسخت ويصعب إقتلاعها مهما حاولت القوى المضادة للثورة الى ذلك سبيلًا . فما حدث من تغيير للبناء الطبقى داخل سياسات الاصلاح الزراعى ، والقوانين الاشتراكية التى خلقت قطاعاً عاماً يقود الاقتصاد المصرى ، ومجانية التعليم والصحة والخدمات العامة ، وتمثيل العمال والفلاحين فى المجالس الشعبية المنتخبة ، وغيرها كثير — كل هذا قد يمكن تجميده وعدم التوسع فيه . ولكن لايمكن الغاؤه أو التراجع فيه . والتزام مصر المبدئى بمناصرة كل قضايا التحرير العربى ، **ودورها القيادى على الساحة القومية ، وسياسة تخليص الثروات العربية من قبضة الاحتكارات الاجنبية** ، والعمل من أجل الوحدة العربية .. وغيرها كثير ، قد يمكن تجميده أو عدم الاندفاع النشط لخدمته ، أو حتى تشويهه . ولكن لايمكن الغاؤه أو التراجع فيه ، حتى لو أرادات قيادة حاكمة ، أو قوة داخلية مهيمنة لفترة تالية للحقبة الناصرية التى رسخت هذه المبادىء والممارسات . ومبادىء عدم الانحياز ، ومعاداة الامبرالية ، ونصرة نضال شعوب العالم الثالث ، ونبذ الاحلاف والقواعد العسكرية الأجنبية ، وغيرها كثير مما بدأته ورسخته الثورة فى صلب العقل الجمعى المصرى والعربى ، قد يمكن تشويهه أو الانحراف عنه لحظة قصيرة ، ولكن لايمكن الغاؤه أو التراجع فيه .

تلك القناعات المبدئية والممارسات الفعلية على أرض الواقع الوطنى والعربى والعالمى قد رسخت وتغلغلت لدرجة أن الحاكم الذى تسول له نفسه أو مصالحه أن يتمادى فى تحديها ، فإن الشعب ينفض من حوله ، ثم يتظاهر ضده ويتمرد عليه . وإذا تمادى أكثر فى تحدى مبادىء الثورة وممارساتها فقد تطوله يد بعض أبناء الشعب بالفتك والاغتيال .

الفصل الثامن

مصر تراجع نفسها
الديموقراطية طريق المستقبل

- ☐ الفريضة الغائبة فى ثورة يوليو
- ☐ مغامرة الديموقراطية
- ☐ الديموقراطية بين الشكل والجوهر
- ☐ نحو التمثيل النسبى فى مجلس الشعب
- ☐ الأعصاب الحساسة للديموقراطية : الجماعات الوسيطة

الفريضة الغائبة فى ثورة يوليو*

الذى كتب وسيكتب عن ثورة يوليو لايمكن أن يوفى هذا الحدث العملاق حقه . فثورة يوليو هى بحق أهم حدث فى تاريخ مصر والعرب خلال هذا القرن . ويزداد تقديرنا للثورة خاصة فى هذه السنوات الكئيبة ، التى تخيم فيها على سماء المنطقة سحابة قاتمة لاتريد أن تنقشع .

وربما كان التكريم الحقيقى لثورة يوليو فى عيدها الثلاثين ، هو أن نستذكر ، لافقط دروس النجاح ، ولكن أيضاً دروس الفشل . واستذكارنا لدروس الاخفاق لايقلل أبداً من أمجاد ثورة يوليو ، وأفضالها علينا كأمة عربية ، وكشعب مصرى ، وكمواطنين أفراد . كما أن استذكار هذه الدروس ربما يمثل لنا خير عتاد نتسلح به ونحن ندخل العقد الرابع للثورة ، ونواجه أشد المخاطر فى الداخل والخارج .

دروس النجاح

أهم دروس النجاح هو أن ثورة يوليو حددت ساحة المواجهة وخطوط المعارك بينها وبين أعدائها بوضوح وصرامة . وفى ذلك كانت الثورة تستوحى خلاصة التاريخ الوطنى المصرى منذ عصر النهضة وماقبلها ، وخلاصة التاريخ القومى العربى فى عصور الأزهار والانحطاط على حد سواء . كما أستوحت حقائق الجغرافيا والتراث ، ومتغيرات القرن العشرين ، وطبائع مصر والمصريين . خلصت الثورة الى أن الاستغلال والمستغلين هم الذين يبددون طاقات الشعب والأمة ، ويفرضون عليها التخلف والمذلة . واكتشفت أن سلسلة الاستغلال متصلة الحلقات . قد تبدأ أولى حلقات السلسلة فى لندن أو باريس أو تل أبيب أو واشنطن ، ولكنها تنتهى بحلقة استغلال اقطاعية فى بطن الريف المصرى ، أو عند أى بئر بترول فى قلب الصحراء العربية . أى أن المستغلين فى الداخل هم بالضرورة – سواء أيقنوا أو لم يوقنوا – هم شركاء ثانويين للمستغلين فى الخارج . لذلك كانت معركتها ضد الاقطاع والاستغلال الداخلى هى الوجه الاخر لمعركتها مع الامبريالية والصهيونية . لقد كانت خطوط المعارك هنا واضحة صارمة . كذلك أيقنت ثورة يوليو

* الجمهورية ، ٢٩ / ٧ / ١٩٨٢

أن التحرر الحقيقى يعنى التنمية المستقلة . وأصبحت المعركة هنا حربا على التخلف والتبعية . فتأميم قناة السويس لم يكن مجرد تحرير مرفق قومى من الهيمنة الأجنبية ، ولكنه كان يعنى أيضاً بناء السد العالى كخطوة على طريق التنمية . وتحددت هنا أيضاً خطوط المعارك ، وأيقن الأعداء كما أيقنت الثورة نفسها أن تحرير الارادة الوطنية المصرية هو الوجه الآخر لتنمية مصر ، وكسر أطواق التخلف والتبعية . لذلك لم يكن مستغربا أن تتحالف الصهيونية والامبريالية الغربية لضرب ثورة يوليو عام ١٩٥٦ .

أحد دروس النجاح الأخرى هو أمكانية الانجاز على جبهات متعددة فى نفس الوقت . فالثورة السياسية لم تتقدم بمعزل عن التغيير الاجتماعى فى الداخل . وكلاهما لم يعرقل مسيرة مصر القومية فى قيادة عالمها العربى ومحاربة الاحلاف ، ودعم حركات التحرر العربية ، وتحقيق أول وحدة عربية فى تاريخ العرب الحديث . أثبتت الثورة إمكانية التخطيط المركزى ، وإمكانية التصنيع ، وتشييد قطاع عام رائد يقود الاقتصاد الوطنى – فى نفس الوقت التى كانت تخوض فيه معارك اقليمية وخارجية طوال الخمسينات والستينات . وكان الانتصار على إحدى هذه الجبهات يعزز من ادائها على الجبهات الأخرى . كانت العلاقة الجدلية واضحة . وأيقنت الثورة أن التاريخ ليس معملاً محايداً ، ينتظرنا فى مسألة معينة الى أن ننتهى من مسألة أخرى . وهذا هو سر التبلور مشروعها الحضارى الشامل فى خلال سنوات قليلة من بدء الممارسة .

أحد دروس النجاح الأخرى هو أن ثورة يوليو أحدثت ما أحدثت من تغيرات عميقة ، كما وكيفا ، فى بنية المجتمع المصرى وفى مسيرة الأمة العربية ، بأقل قدر من العنف . فالثورات الأخرى فى المنطقة – مثل الثورة العراقية فى ١٩٥٨ أو الثورة الايرانية فى ١٩٧٨ – لم تحدث من تغيرات مثلما أحدثت ثورة يوليو فى داخل مجتمعها الوطنى . ولكن كمية الدماء سالت أنهاراً فى ثورتى العراق وايران ، وقتل الآلاف من البشر ، سواء من أفراد الطبقة الحاكمة القديمة ، أو أثناء الصراع على السلطة بين الثوار أنفسهم بعد اسقاط العهد القديم ان الذين قتلوا أو أعدموا لأسباب سياسية خلال العقد الأول لثورة يوليو لم يتجاوزوا العشرات ، وخلال ثلاثة عقود لم يتجاوزوا المائة . فاذا قارنا ثورة يوليو بالثورات العالمية الأخرى – مثل الثورة الفرنسية أو الثورة البلشفية – لأتضح بشكل أكبر كم كانت عظمة ثورة يوليو فى قدرتها على « التغيير بلا تقتيل » .

دروس الفشل

كما كانت ثورة يوليو عملاقة فى انجازاتها وانتصاراتها ، فقد نكبت أيضاً بانتكاسات

عملاقة ، وبهزائم مروعة . فقد منيت بهزيمة عسكرية فى عام ١٩٥٦ - رغم أن الحصاد النهائى فى تلك المعركة كان إنتصاراً سياسيا وإستراتيجيا باهرا . ومنيت الثورة بأول هزيمة سياسية على الساحة القومية بتفسخ الجمهورية العربية المتحدة ، وانفصال الاقليم السورى عام ١٩٦٢ . واستدرجت الثورة الى حرب استنزاف طويلة فى اليمن . وكانت اكبر وأعنف هزائمها على الاطلاق على يد اسرائيل فى حرب ١٩٦٧ .

والمتأمل فى قائمة الانتصارات وقائمة الهزائم ، يلاحظ أن معظم الانتصارات كانت فى العقد الأول للثورة (١٩٥٢ - ١٩٦٢) ؛ بينما كانت معظم الهزائم فى عقدها الثانى (أى منذ عام ١٩٦٢) . ولذلك تفسيران :

الأول : هو أن انتصارات العقد الأول قد أدت بقادة ثورة يوليو الى المبالغة فى تقدير القوة الذاتية ، والاخفاق فى تقدير قوة الاعداء .

التفسير الثانى : هو أن أعداء الثورة داخل الوطن العربى وخارجة ، قد راعهم انتصاراتها فى العقد الأول ، وهالهم مايمكن ان يترتب على نجاح النموذج التنموى المستقل فى مصر من نتائج . لذلك خططوا ودبروا ، واستفادوا فى دروس فشلهم فى العقد الأول ، ونفذوا مخططاتهم بمهارة واقتدار لضرب مصر ، والاجهاز على مشروعها الحضارى الشامل . فكان « الانفصال السورى » ، وكانت حرب الاستنزاف فى اليمن ، وكانت هزيمة ١٩٦٧ . وقد ترتب على هذه الهزائم الكبرى ، مزيد من الهزائم الأخرى فى الداخل ، أهمها عدم تنفيذ الخطة الخمسية الثانية (١٩٦٥ - ١٩٧٠) ، وتجميد برامج التنمية ، وتدهور مرافق البنية الأساسية،وضرب حلم الوحدة العربية ، واضعاف الدور القيادى لمصر فى الساحة العربية .

الفريضة الغائبة فى ثورة يوليو

هل كان يمكن لثورة يوليو أن تتجنب الهزائم التى منيت بها فى عقدها الثانى ؟

لا أحد يستطيع أن يجزم بالاجابة على هذا السؤال باليقين . لذلك فكلمة « ربما » هى التى تسبق الاجابة - ربما كان يمكن تجنب هذه الهزائم ؛ أو ربما كان لايمكن تجنبها . ولكن الذى يمكن أن نقوله يقينا هو أن مشاركة سياسية شعبية حقيقية كان من شأنها ان تقلل من حجم هذه الهزائم على أسوأ تقدير ؛ وكان من شأنها أن تمنع هذه الهزائم على أحسن تقدير .

والمشاركة السياسية الشعبية لاتعنى بالضرورة الصيغة « الديمقراطية الليبرالية » ، القائمة

على تعدد الاحزاب . فإلى جانب تلك الصيغة هناك صيغة الحزب الواحد الذى تمارس فيه مايسمى « بالديموقراطية المركزية » . كلتا الصيغتين يؤدى إلى المشاركة الشعبية – شريطة تطبيق أى منهما تطبيقاً حقيقا أمينا .

لم تأخذ ثورة يوليو بأى من الصيغتين . وان كانت قد أتبعت الصيغة الأقرب إلى الحزب الواحد ، وهو « الاتحاد القومى » ، ومن بعده « الاتحاد الاشتراكى العربى » ، الا أن ذلك فى الممارسة لم يتمخض عن مشاركة شعبية حقيقية . وظل التنظيم الواحد شكلًا بلا مضمون . وتحول فى معظمه إلى جهاز بيروقراطى متضخم شأنه شأن بقية أجهزة الدولة المصرية .

غياب المشاركة الشعبية فى اتخاذ القرار السياسى ، أو فى الرقابة والنقد والمحاسبة ، هو الذى أدى الى معظم نكسات ثورة يوليو فى عقدها الثانى . ولنضرب لذلك مثلًا بتجربة الوحدة المصرية السورية . لقد تمت الوحدة بين القطرين تلبية لمطلب جماهيرى عربى ، وبمبادرة شعبية وحزبية فى القطر السورى . ولكن ماأن وقعت اتفاقية الوحدة ، وولدت الجمهورية العربية المتحدة ، وسط فرحة جماهيرية عارمة ، حتى بدأت خطوات تغييب المشاركة الشعبية التى أدت الى ولادتها فى المقام الأول . قيل للناس مامعناه « حسناً فعلتم .. أنصرفوا الآن إلى أعمالكم ودعونا نحن نحكم وندبر الأمور فى هدوء » وقيل للاحزاب التى ناضلت من أجل الوحدة « حسناً فعلتم .. الآن عليكم أن تحلوا أحزابكم ، وأنصرفوا عن السياسة ، وأتركوها لنا » . ولأن الناس والاحزاب كانت تحب قائد الثورة – جمال عبد الناصر – وتثق فيه ، ولأنها كانت حريصة على أول وحدة عربية ، فقد أمتثلت لما طلبه منها ، وأنصرفت عن السياسة ، وعن المشاركة . وحدثت أخطاء فى الممارسة ، وفى إدارة شئون الجمهورية العربية المتحدة . ولغياب النقد والمراقبة والمحاسبة ، تراكمت الأخطاء ، وتكرست ممارسات سوء الادارة . ووجد الاعداء فى ذلك فرصة للانقضاض على التجربة الوليدة . وحينما حدث الانقضاض لم تكن الجماهير العربية موجودة أو فاعلة فى الساحة ، لتتصدى ولتحمى التجربة . وحينما نجحت محاولة الانقضاض وحدث الانفصال ، لم يكن أمام الجماهير العربية هنا وهناك إلا أن تبكى فى حرقة وكمد . وظل هذا هو حال الجماهير مع كل نكسته ، وفى كل هزيمة ، طوال العشرين عاماً التالية – لاتملك الا الدموع والكمد ، بعد أن جردت من كل أسلحتها الفعالة . لم يختلف الوضع كثيرا حينما وقع الانفصال فى سبتمبر ١٩٦٢ ، أو حينما وقعت الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ ، أو حينما غزت اسرائيل لبنان فى يونيو ١٩٨٢ .

لم تتوفر الثورة على تحليل عوامل هزيمة الانفصال . ولم تخرج منها بالدرس الموضوعى الضرورى . لو فعلت ، لربما كان من الممكن تجنب الهزائم التالية . لقد ظل المشير عبد الحكيم عامر فى مركزه القوى – رغم انه كان المسئول الأول عن تراكم الأخطاء فى تجربة الوحدة المصرية

السورية . لم تتم محاسبة الرجل ، أو تقليص نفوذه ، لغياب المشاركة الشعبية الحقيقية . لذلك ارتكبت فى ظل قيادته للجيش أخطاء مماثلة فى اليمن ، ثم أخطاء قاتلة فى يونيو ١٩٦٧ وذكرنا للمشير عامر لايعنى أن فرداً واحداً هو المسئول . ولكنه مجرد نموذج لعطب هيكلى فى مسيرة وممارسات الثورة فى عقدها الثانى . هذا العطب هو غياب المشاركة السياسية الشعبية الحقيقية .

وكان الظن بعد الهزيمة المروعة فى ١٩٦٧ ، أن علاجاً جذريا لذلك العطب الهيكلى سيتم . خاصة وأن الجماهير الشعبية هى التى خرجت فى ٩ و ١٠ يونية وطالبت باستمرار الثورة وقائدها . وهى التى تظاهرت بعد ذلك بشهور حينما أدركت أن آليات الرقابة والمحاسبة على من تسببوا فى الهزيمة لم تكن بالصرامة المطلوبة (محاكمة قادة الطيران) . وجاء بيان مارس ١٩٦٨ يبشر باحتمال أن مثل هذه المشاركة الشعبية سيتحقق . ثم بشر الرئيس السادات بعد ذلك بعدة سنوات بتحقيق هذه المشاركة فعلًا . وأعلن « ميلاد الديموقراطية » وتكوين الاحزاب السياسية عام ١٩٧٦ . ولكن السنوات التالية أثبتت أنها « ولادة متعثرة » ، بل وكادت تجهض تماماً ، بعد أحداث يناير ١٩٧٧ ، ثم فى سبتمبر ١٩٨١ .

العقد الرابع للثورة

إن الدرس الأكبر من استعراض هذه المسيرة الطويلة لثورة يوليو ، هو أن غياب المشاركة الشعبية الحقيقية فى العقد الثانى للثورة ، وتأرجحها فى العقد الثالث ، هو أحد العوامل الرئيسية لانتكاساتها الكبرى . ولا أمل فى خروج مصر من مآزقها الداخلية والاقليمية إلا بتحقيق هذه المشاركة . الشعب مستعد للمشاركة ، وقادر عليها ، وراغب فيها . والسؤال هو : هل حكام مصر مستعدون ، وقادرون ، وراغبون فى هذه المشاركة الشعبية أم لا ؟ أن الاجابة على هذا السؤال هى التى ستحدد مسيرة ثورة يوليو فى عقدها الرابع الذى بدأ منذ أيام . وهى التى ستحدد ماإذا كانت مصر ستعود عملاقة قائدة لأمتها العربية فى مواجهة الاخطار المحدقة بها وبأمتها ؛ أم ستتكفىء على نفسها ، تاركة للقوى المعادية مهمة تحديد مصيرنا ومصير أمتنا فى العقد الرابع .

مغامرة الديموقراطية*

الذين يتصورون أن انتهاء الاحتلال الاسرائيلى للتراب الوطنى هو بداية الرخاء والعدالة ، سيكتشفون سريعاً أنهم كانوا واهمين . والذين يتصورون أن الرئيس حسنى مبارك سيقدم الحلول السريعة لكل أوجاعنا الاقتصادية والاجتماعية فى الشهور القليلة القادمة سيكتشفون أيضاً أنهم كانوا مسرفين فى تحميل الرجل فوق مايستطيع أى بشر من أثقال .

ولكن الذى لايدخل فى باب التوهم أو التمنى أو الاسراف هو أن يتوقع الجميع مزيداً من الديموقراطية . وإذا لم يستطع عهد حسنى مبارك أن يقدم الا مزيداً من الديموقراطية – تاركا مواجهة المشكلات الكبرى لحركة المجتمع وللقوى الفاعلة فيه – فإنه يكون قد حقق إنجازا تاريخيا هائلا ، لايقل عن ثورة يوليو نفسها ، ولاعن نصر اكتوبر المجيد .

ونقول منذ البداية أن الديموقراطية فى حد ذاتها لا ولن تحل كل مشكلات المجتمع . ولكنها بالقطع تقدم إطاراً صحيا جاداً للتعامل مع هذه المشكلات ، وتمنعها من الانفجار . والتحول الديموقراطى الحقيقى هو مغامرة تاريخية يخوضها الحاكم والمحكومون على حد سواء . وهى مغامرة يبدأها الحكام دائماً بتردد شديد . وتحتاج منهم الى جهاد مع النفس ، التى كثيرا ماتسول لهم بالتراجع عن الديموقراطية ، وهم فى بداية المسيرة أو فى وسطها . وقصة الديموقراطية فى مصر هى قصة ضعف الحكام عن مقاومة هذه الاغراءات بالتراجع .

● اليمين ، واليسار ، والمعارضة

أول تجربة ديموقراطية فى تاريخ مصر الحديث كانت مجلس شورى النواب . وقد أستحدث الخديوى إسماعيل هذا الشكل الديموقراطى المحدود لولعه الشديد بأن « يجعل مصر قطعة من أوربا » . وبما أن الدول الأوربية كانت تتمتع بأنظمة حكم ديموقراطية تنطوى على مشاركة الشعب سياسيا من خلال مجالس منتخبة ، تصدر القوانين وتراقب السلطة التنفيذية ،

* الجمهورية ، ٣ / ٦ / ١٩٨٢

فقد حاول إسماعيل أن يقلد الشكل دون أن يلتزم بالمضمون . لذلك جعل الانتخابات غير مباشرة ، ومقصورة على الأعيان فى الريف والوجهاء فى المدن . كما أنه جعل صلاحيات هذا المجلس استشارية بحته . أى أنه أخذ الشكل الديموقراطى ليباهى به أوربا ، وليثبت أن مصر قد لحقت « بركب المدنيه » . ولكن دأب من البداية على تفريغه من المضمون .

وفى يوم إفتتاح الدورة الأولى لمجلس شورى النواب ، توجه الخديو ليلقى خطاباً – على عادة ملوك أوربا الدستوريين . كان ذلك فى يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٨٦٦ . ولايهمنا كثيرا لأغراض هذا المقال غير واقعة طريفة لأنها ذات مغزى تكرر عدة مرات فى حقبات لاحقة من تاريخنا الحديث . يقال أن الخديو اسماعيل (وفى رواية أخرى شريف باشا رئيس الوزراء انذاك) ذكر فى بداية حديثه أن العادة قد جرت فى الديموقراطيات العريقة أن يجلس النواب المؤيدين للحكومة على « **اليمين** » ، وأن يجلس الذين يعارضون الحكومة على « **اليسار** » .

يقال – والعهدة على الرواة – أن من تصادف جلوسهم على اليسار فى قاعة مجلس شورى النواب أندفعوا من مقاعدهم مهرولين الى الجانب الايمن من القاعة . وهم جميعاً يرددون « **نحن عبيد أفندينا** » . فلم يكن أيا من هؤلاء النواب المنتخبين يرغب فى أن تلحق به «**شبهه المعارضة** » للحكومة من قريب أو بعيد . الكل وقتها كان يريد أن يكون مع السلطة والسلطان . ولابد أن الخديوى إسماعيل فى تلك اللحظة قد أحس بالرضا فى قرارة نفسه .

الحت على ذكرى هذه الواقعة الطريفة عدة مرات فى السنوات الأخيرة . فبعد اكثر من مائة عام ، وبالتحديد فى سنة ١٩٧٨ ، حينما أعلن الرئيس الراحل أنور السادات تأسيس حزب جديد برئاسته هو **الحزب الوطنى** ، هرول أعضاء **حزب مصر العربى الاشتراكى** ، وهو صاحب الأغلبية فى مجلس الشعب فى ذلك الوقت ، لكى ينضموا إلى الحزب الجديد ، أى حزب السلطة التنفيذية . وكانوا يرددون « **نحن رجالك ياريس** » . ولابد أن الرئيس قد أحس بالرضا فى قرارة نفسه .

هناك قول متواتر هو « **أن التاريخ يعيد نفسه** » . وهناك قول مضاد بأن « **التاريخ لايعيد نفسه ؛ وإن حدث ذلك فأنه فى المرة الأولى يكون حقيقة ، وفى المرة الثانية يصبح مسخة** » . فإذا كانت واقعة مجلس شورى النواب تبدو طريفة ، فإن واقعة نواب حزب مصر يسارعون الى الانضمام الى حزب أخر لم يعلن برنامجه بعد ، وفقط أعلن إسم رئيسه ، تبدو مأساوية .

- **من عبيد أفندينا الى متمردين على الاستبداد**

ومع طرافة واقعة مجلس شورى النواب فى البداية ، إلا أن السنوت التالية أثبتت أن ماأراده

الخديوى شكلًا بلا مضمون ، قد تحول رغم ارادته الى مجلس نيابى حقيقى . ففى غضون عشر سنوات إنتقل معظم النواب الذين كانوا يفزعون من مجرد خاطر معارضة الحكومة الى معارضين حقيقيين . لقد أصبحوا بالفعل نواباً عن الأمة ، يعبرون عن همومها ويتحدثون بأوجاعها . ولم نكن معارضتهم هذه لمجرد الولع بالمعارضة . ولكن تراكم مشكلات مصر المالية ، وترف الخديوى وسفاهته فى الاستدانه والانفاق ، وازدياد النفوذ الاجنبى كانت هى الأسباب الحقيقية لمطالبة مجلس شورى النواب بحق الرقابة على الحكومة لوقف هذا الخراب . لقد أصبح المجلس بحق شوكة متضخمة فى جنب الحكومة . وأضطر الخديو الى إصدار أمر بفض المجلس فى ٢٦ مارس ١٨٧٩ . وذهب **رياض باشا** ، **وكان وزيرا للداخلية** ، على رأس قوة من الشرطة لابلاغ النواب بحل المجلس وفضهم من القاعة . ولكن النواب بقيادة **عبد السلام بك المويلحى ومحمود بك العطار** ، وقفوا محتجين بعد أن قرأ رياض باشا الأمر الخديوى . ورفضوا قرار الحل . ولما حاولت الشرطة اخراجهم بالقوة ، تصدوا لها ، وأعتصموا فى قاعة المجلس ، حتى تراجعت الحكومة . وتلاحقت الأحداث ، وعزل الخديوى إسماعيل ، وتولى ابنه توفيق ، وحاول هو الآخر أن يجمد مجلس شورى النواب . ولكن عدداً من النواب تضافروا هذه المرة مع بعض الضباط المصريين بقيادة عرابى ، ومع عدد من المشايخ والأعيان ، وتمردوا على سلطة الخديوى توفيق التى بلغت ذروتها فى حادثة قصر النيل الشهيرة . وأذعن الخديوى لمطالب الجيش والشعب مؤقتا ، حالما أتيحت له الفرصة لدعوة بريطانيا بالتدخل العسكرى حماية له ولعرشه الذى أهتز . وكان الاحتلال ، وماتلاه من فصول نعرفها جميعاً .

- **هل الحكام مستعدون للديموقراطية ؟**

كثيرا مايتردد من أعداء الديموقراطية أن الشعب غير مهيىء للممارسة الديموقراطية ويدللون على هذه المقولة بالعديد من الحجج . فمن قائل ان الديموقراطية مستحيلة فى شعب تصل فيه الأمية إلى أكثر من ٦٠ فى المائة ؛ ومن قائل أن الديموقراطية السياسية لاتتحقق فى مجتمع ينتشر فيه الفقر والحرمان ، وما الى ذلك . ولكن الشاهد منذ أول تجربة ديموقراطية فى مصر فى أواخر القرن الماضى ، ومروراً بالحقبة الليبرالية بين ١٩٢٣ و ١٩٥٢ أن الشعب المصرى كا قادراً على الممارسة الديموقراطية فى كل فرصة أتيحت له . والدليل على ذلك هو أن **حزب الوفد** الذى تبنى المطالب الوطنية كان يفوز فى كل انتخابات نزيهه تعقد فى تلك الفترة . كذلك حدث نفس الشيىء فى إنتخابات ١٩٧٦ بعد عودة نظام التعدد السياسى ، وهى الانتخابات التى تمت بنزاهة نسبية لأول مرة منذ قيام الثورة ، تحت إشراف رئيس الوزراء وقتها السيد / ممدوح سالم .

لذلك فإن صياغة السؤال حول إستعداد الشعب للديموقراطية هو صياغة خاطئة ومغلوطة . السؤال الحقيقى هو : **هل الحكام مستعدون للديموقراطية ؟** الشاهد هو أنه فى كل

مرة أجهضت فيها التجربة الديموقراطية ، لم يكن ذلك نتيجة عدم قدرة الشعب على الممارسة ، وإنما كان نتيجة عجز الحكام عن التعايش مع هذه الممارسة . ولم تفشل الديموقراطية فى مصر أبدا نتيجة سوء إستخدام الشعب لها ، بل أخمدت على وجه التحديد لأن الشعب أحسن استخدامها . لذلك لانستغرب ضيق الحكام المستبدين بها حينما تتحول الى ممارسة حقيقية — ابتداء من الخديوى إسماعيل ، وتوفيق ، ونوبار باشا ، ثم الملك فؤاد والملك فاروق وبينهما صدقى باشا ، وأخيراً الرئيس أنور السادات . كذلك لانستغرب أن حزباً مثل حزب الوفد الذى فاز فى كل الانتخابات الحرة التى عقدت بين ١٩٢٣ و ١٩٥٢ ، لم يتول السلطة فى الواقع إلا لمدة ست سنوات متقطعة . لقد كان الملك فؤاد ثم فاروق — بايعاز من الأنجليز وأحزاب الأقلية — يضيقان ذرعاً بأى حكومة تستند الى قاعدة شعبية حقيقية وتمارس صلاحيتها التى ينص عليها الدستور . لذلك فقد كان كل من الملكين يسارع فى أقرب فرصة إلى تعطيل البرلمان ، أو اقالة الحكومة ، أو استبدال الدستور . ووصل الأمر فى أحد المرات أن البرلمان المنتخب وحكومة الأغلبية التى جاءت معه لم يهنئا بالسلطتين التشريعية والتنفيذية سوى يوم واحد ، بعده تم حل البرلمان وإقالة الحكومة .

لذلك نقول أن المشكلة هى دائماً فى حكام مصر وليس فى شعبها . لقد أثبت الشعب فى كل مرة تعرض فيها الوطن لمحنة أو تحدى أنه فى مستوى المسئولية . وأثبت فى كل مرة أتيحت له فرصة ممارسة الديموقراطية أنه يحسن استخدامها ، وعوقب على هذا الاستخدام الطيب بواسطة حكامه المستبدين . لذلك نقول أن الديموقراطية مغامرة بالنسبة للحكام قبل أن تكون مغامرة بالنسبة للشعب . هى مغامرة تتطلب منهم الجهاد الأكبر والأفضل : جهاد النفس وتقبل نتائج ممارسه الشعب لحقوقه .

ولكن أى ديموقراطية ؟

للديموقراطية تعريف مثالى وهو « **حكم الشعب بنفسه لنفسه** » . ولكن لم يحدث هذا فى أى مكان فى العالم فى أى فترة من التاريخ — أن « حكم الشعب نفسه بنفسه » بهذا الشكل أو المعنى الحرفيين . حتى **أثينا القديمة** التى أخترعت الكلمة وأبتكرت الممارسة ، كان مايسمى فيها بالشعب لايتجاوز ربع سكان المدينة من الذكور ؛ والبقية « رعاع » و « وعبيد » و « نساء » ، وأطفال لاحقوق سياسية لهم . وفى أعرق الديموقراطيات المعاصرة فى الغرب فإن الذى حكم دائماً هم نخبة أو **صفوة سياسية صغيرة العدد** . لذلك أصبح علماء الاجتماع والسياسة يعزفون عن تعريف الديموقراطية بهذا المعنى المثالى . وبدلًا من ذلك **أصبحت الديموقراطية تعنى إزدياد المشاركة السياسية لاكبر عدد ممكن من المواطنين فى التأثير على القرارات الكبرى التى تؤثر فى حياتهم ؛ واتاحة الفرصة بشكل دورى لهؤلاء المواطنين لكى يغيروا حكامهم أن أرادوا .**

هذا الفهم الواقعى للديموقراطية يجعل منها عملية مجتمعية تطورية ومن هنا لايصح أن نتوقع مستوى من ممارسة الديموقراطية شبيها بذلك الذى يوجد فى الغرب . فالمجتمعات الغربية مرت بتجارب طويلة إلى أن وصلت إلى مستوى الممارسة الحالية . فرغم وجود نظام ديموقراطى فى انجلترا – مثلاً – منذ منتصف القرن السابع عشر إلا أن أفراد الطبقة العاملة لم يشاركوا سياسيا ولم يحصلوا على حق التصويت إلا فى أواخر القرن التاسع عشر . ولم تحصل المرأة الانجليزية على هذا الحق إلا فى عشرينات هذا القرن . نفس العملية التطورية نجدها فى سويسرا والولايات المتحدة – وهما بلدين عريقين فى الديموقراطية فمسيرة الديموقراطية لابد أن تتواكب مع مسيرة التطور الاجتماعى الاقتصادى العام فى المجتمع . المهم أن تكون مؤشرات هذه المسيرة الديموقراطية دائماً فى تقدم إلى أعلى وإلى الأمام .والمهم أن يكون النظام السياسى من المرونة بحيث يسمح لمزيد من القطاعات أن تشارك سياسيا بإطراد ، كلما أصبح كل منها قادراً وراغبا فى المشاركة .

● **مصر لايمكن أن تحكم فى الثمانينات مثلما حكمت فى السبعينات**

عدم المواكبة بين النظام السياسى وبين حركة المجتمع هو الذى يؤدى إلى الاختناقات الاجتماعية والانفجارات السياسية – مثلما شهدنا فى خريف ١٩٨١ . ولا يكفى أن يفاخر أى حاكم بأنه سمح بمزيد من الديموقراطية عن الحاكم الذى سبقه . العبرة هى أن يستمر مؤشر الزيادة فى صعود . وإذا لم يحدث ذلك فإن النظام يدخل فى أزمة شرعية . وإذا تقهقر أو تراجع – من خلال قوانين مقيدة للحريات – مثلًا – فإن الأزمة تتحول إلى نكبة أو الى محنة قومية .

لقد تغير هيكل المجتمع المصرى عما كان عليه فى الستينات والسبعينات . لقد أصبح هناك حوالى عشرة ملايين مصرى متعلم ، منهم حوالى أربعة ملايين جامعى . وأصبح نصف سكان مصر يعيشون فى المدن . وأصبح هناك طبقة عمالية فى القطاع الصناعى والخدمى . ونمت الطبقة المتوسطة الصغيرة نموا هائلًا فى العقدين الأخيرين . وهناك حوالى ثلاثة ملايين مصرى يسافرون للعمل أو السياحة إلى خارج البلاد سنويا . وهناك ثورة صامته فى الريف نتيجة دخول الكهرباء وإزدياد الهجرة المؤقته إلى البلاد النفطية . وباختصار هناك الف تغير وتغير ، وهناك الف مشكلة ومشكلة تصاحب أو تنتج عن كل هذه التغيرات . ولاسبيل لحكم مصر بنفس الطريقة التى حكمت بها فى السبعينات أو فى الستينات .

أن الوعى بهذه الحقيقة ، والتعامل معها عقلانيا ، هو الذى يميز فى النهاية بين السياسى « رجل الدولة » وبين السياسى « الغوغائى » . الأخير يتجاهل الحقائق ، أو يقدم الأعذار والدعاوى « الوجيهة » للهرب من التعامل معها . أما السياسى رجل الدولة فهو يتعامل

معها بشجاعة – حتى إذا كان هذا التعامل ينطوى على بعض المخاطرة . ولاشك أن ولوج طريق الديموقراطية ، والمضى فيه ينطوى بالنسبة لحكام مصر فى الثمانينات على مغامرة . ولكنها مغامرة مع ركب التاريخ ،

الديمقراطية بين الشكل والجوهر*

هناك من يعتقدون أن الديموقراطية هى مجرد احزاب وبرلمان ودستور وانتخابات دورية . لذلك فمعظم من يطالبون بالتغير يركزون حديثهم على ضرورة تعديل الدستور ، واباحة تكوين الاحزاب بلا قيود ، وحل مجلس الشعب الحالى ، وأجراء انتخابات جديدة .

الدستور والاحزاب والبرلمان والانتخابات هى آليات ووسائل الديموقراطية . وليست روح الديموقراطية .

هذه الآليات هى مثل اجزاء أى ماكينة أو سيارة ، لاتعمل أو تتحرك من تلقاء نفسها . فهى فى حاجة الى وقود أو مصدر للطاقة لتدب فيها الحياة ولكى تعمل . وهذا شأن الديموقراطية . اجزاؤها مهمة لكنها لاتعمل من تلقاء نفسها ، بلا طاقة تحرك هذه الأجزاء ، وتضبط حركتها . هذه الطاقة هى مانقصده بروح الديموقراطية .

- **روح الديموقراطية .**

وروح الديموقراطية هى الالتزام المخلص بمجموعة من القيم على رأسها قيمة المساواة ، وقيمة الانصاف وتقبل الرأى الاخر ، والاستعداد للمشاركة ، والتهيؤ لقبول الهزيمة دون الاحساس بأن فى ذلك اهانة أو اهدارا للكرامة . هذه القيم هى مايطلق عليه علماء السياسة والاجتماع « **الثقافة المدنية** » .

والثقافة المدنية لا يمكن تشريعها أو صياغتها فى قوانين . لكنها تتراكم وتترسخ تدريجيا من خلال القدوة من جانب القادة ، والممارسة من جانب المحكومين. بل هناك من يذهب الى ضرورة تنميتها فى كل المؤسسات الاجتماعية ، وخاصة فى الاسرة وفى المدرسة .

فلا يعقل أن تكون الاسرة تسلطية ، وان تكون المدرسة سلطوية ، ثم نتوقع من الافراد ان

* الجمهورية ، ٢٧ / ٥ / ١٩٨٢

يشبوا وهم مشبعون بروح الثقافة المدنيه ، التى هى روح الديموقراطية .

● **القيادة الملهمه .**

القيادات التاريخية العملاقة فى حياة الشعوب هى ظاهرة نادرة لاتتكرر كثيرا . ويطلق على هذه القيادات اصطلاح « الكاريزما » ، وهى كلمة من أصل يونانى . واقرب ترجمة عربية لها هى « القيادة الملهمة » .

وهذا النوع من القيادات يتمتع بجاذبية جماهيرية هائلة ، وبسطوة عاطفية لا حدود لها على اتباعه ومريديه .

والقيادة الملهمة عادة ماتستند فى شرعيتها على هذا الحب المتدفق من الاتباع والمريدين . ولاترى – والامر كذلك – ضرورة مشاركة اخرين لها فى اتخاذ القرارات .. وهى من حيث المبدأ لاتقبل أن يحاسبها أحد ، لانها تجسم روح الشعب،وتنطق باسمه،وتعبر عن أماله وطموحه .

والشاهد أن الاغلبية الساحقة من الشعب توافق القيادة الملهمة على فهمها هذا ، صراحة أو ضمنا.لذلك لا تترعرع الديموقراطية فى ظل هذا النوع من الحكام . والذى يطالب بالديمقراطية يبدو وكأنه يتحدى القيادة الملهمة ، وبالتالى يبدو كأنه يتحدى الاغلبية الشعبية التى فوضت هذه القيادة زمام أمورها .

الرئيس السورى شكرى القوتلى ، أطلق على جمال عبد الناصر صفة « الزعيم الملهم » فى منتصف الخمسينات .

وكان يعنى بهذا الوصف كل ماقلناه عن القيادة الملهمة . حتى اعداء عبد الناصر ، والذين اضمروا له عداوة شديدة ، فى حياته وبعد مماته كانوا يسلمون بحقيقة جاذبيته الشعبية ، وسطوته العاطفية على الاغلبية الساحقة من المحيط الى الخليج . لذلك لم يكن ممكنا ان تترعرع روح الديموقراطية اثناء الحقبة الناصرية .

والقلة القليلة داخل مصر التى جرأت على المطالبة بالديموقراطية تصريحا ، أو تلميحا ، أو همسا ، كان ينظر اليها بالريبة والشكوك . وكانت تلصق بها كل الظنون . وكثيرا مااتهمت بانها « رجعية » ، أو « غربية » المشارب والانتماء . وكثيرا مافسرت مطالبتها بالديموقراطية على انها دعوة مستترة للعودة الى « الاستغلال » و « والاقطاع » و « والرأسمالية » .. وكان من السهل عزل هذه القلة واحتوائها دعوتها – لا فقط بالاجراءات الامنية ، وانما ايضا على الصعيد الشعبى . فحتى أولئك الذين كانت الديموقراطية يمكن ان تخدمهم – وهم الاغلبية – شاركوا عبد الناصر نظرته

المتشككة حيال الداعين اليها .

ونكاد نجزم هنا أنه حتى لو أُبيح تعدد الاحزاب ، والانتخابات الحرة ، وما الى ذلك من آليات الديموقراطية أثناء الحقبة الناصرية فان ذلك كله ما كان يغير كثيرا فى طبيعة ومجرى الامور .

لقد كانت الحقبة حقبة قيادة كارزمية . ولم تكن روح الديموقراطية قابلة للنمو والترسخ لا عند الحاكم ولا عند المحكومين . وهذه طبيعة الامور فى كل المجتمعات - حتى العريقة منها فى الديموقراطية فظهور فرانكلين روزفلت على مسرح السياسة الامريكية فى الثلاثينات ، مثلا ، كان مؤشرا لحقبة من القيادة الكارزمية الساحقة بجاذبيتها وسطوتها العاطفية . وقد انتخب بأغلبية هائلة لثلاث فترات متتالية .

ولولا وفاته لكان قد انتخب لفترة رابعة - وهو الأمر الذى لم يحدث قط فى التاريخ الامريكى كل هذا وآليات الديموقراطية موجودة - من دستور ، الى كونجرس ، الى أحزاب ، الى محكمة عليا ، الى صحافة حرة ، وما الى ذلك . أى أن الشكل الديموقراطى ظل موجودا ، ولكن الروح الديموقراطية تجمدت الى حد كبير ، لافقط فى حزب المعارضة (الحزب الجمهورى) ولكن ايضا داخل حزب روزفلت (الحزب الديموقراطى) .

لذلك حينما توفى روزفلت ، وعاد (الوعى الى الشعب الأمريكى)،كان أول مافعلته القوى السياسية هو تعديل الدستور الامريكى لكى ينص على عدم انتخاب أى رئيس لاكثر من فترتين متتاليتين (أى بحد أقصى ثمانى سنوات)

● **الثقافة المدنية والثقافة التقليدية .**

الثقافة المدينة التى هى روح الديموقراطية تتنافى مع « **الثقافة التقليدية** ».فالاخيرة تمجد كل ماهو قديم متوارث من العادات والاعراف ، وتمجد سلطة كبار السن من الاباء والاجداد ، بلا نقد أو مساءلة .

الثقافة التقليدية هى ثقافة « لا ديموقراطية » ، تعتمد على السلطة الابوية .. فكبير العائلة ، و « سيدنا » فى الكتاب ، و « مولانا » فى الازهر ، و « الناظر » فى المدرسة ، و « المدير » فى المصلحة الحكومية ،و« العمدة » فى القرية هم جميعا نماذج لهذه السلطة الابوية فى الثقافة التقليدية .

وكل من هؤلاء لاينقد ولايسأل بواسطة من هم تحت يده أو فى ظل رعايته .

والاساس فى هذا الوضع قيمة الاحترام والتبجيل والرهبة والخوف ممن هو « كبير » .

والمساءلة فى هذه الحالة تصبح « تطاولا » ، والنقد يصبح « عيبا » و « قلة أدب » .

ويصبح حظ من هم فى رعاية هذه السلطة الابوية متوقفا على خط مالك السلطة نفسه من الحكمة والعدالة والرحمة . فاذا كان حظه من تلك الصفات كبيرا صلحت أحوال الرعية ، واذا كان حظه من تلك الصفات ضئيلا ساءت احوال الرعية وخرب العمران ، كما يقول ابن خلدون .

وقد حرص الرئيس الراحل أنور السادات على استعادة كل آليات الديموقراطية — من احزاب ، ودستور دائم ، وبرلمان ، وانتخابات ، واستفتاءات ، و « صحافة حرة » .

وكانت كل هذه الاجراءات خطوة عملاقة فى تشييد هيكل نظام ديموقراطى . لكن الرئيس الراحل كان متأثرا فى نشأته الاولى ببقايا الثقافة التقليدية التى سادت فى القرية المصرية .

ومن يقرأ كتابه « البحث عن الذات » بتمعن ، وخاصة فى الفصول الاولى ، يلمس الحنين العميق لدى الرئيس السادات لهذه الثقافة التقليدية . بل ان ولعه بقضاء فترات طويلة فى قريته « ميت أبو الكوم » ، وعزوفه عن حياة وصخب المدن الكبرى ، وارتدائه للملابس التقليدية ، كانت تعبيرا عن هذا الانجذاب الشديد لتلك الثقافة .

والامر هنا لايحتاج الى تدليل أو تخمين . فكثيرا ماتكلم الرئيس صراحة عن « اخلاق القرية » ، وعن « روح العائلة الواحدة » ، وعن « كبير العائلة » . وكثيرا ماكان يفضل هذه الصفة الأخيرة على صفته السياسية كرئيس للدولة المصرية .

ولسنا هنا بصدد عقد مقارنة أو مفاضلة بين ايهما أحسن « الثقافة المدنيه » أو « الثقافة التقليدية » . ولكن مانريد أن نخلص اليه هو أن لكل من الثقافتين منطقها الداخلى المتسق ، وقيمها المهيمنة .

● **مأساة الحقبة الساداتية .**

وربما كانت احد اشكاليات الحقبة الساداتية هى محاولة المزج بين الثقافتين على مابينهما من تناقض . فالشكل الديموقراطى كان تعبيرا عن الثقافة المدنية

لكن جوهر الممارسة كان تعبيرا عن الثقافة التقليدية . لذلك كان الرجل فى بعض سلوكه

يريد أحزابا معارضة ، وفى سلوكه الاخر يغضب اذا انتقدته هذه الاحزاب ، ويعتبر ذلك تطاولا على سلطته الابوية ، وهو « عيب » لاتغفره الثقافة التقليدية . ورحل الرجل عن عالمنا وهو غاضب على المعارضة والمعارضة غاضبة منه .

كان فى شهوره الاخيرة يعتبر المعارضة بمثابة « **الابناء العاقين** » بعد كل ماقدمه لهم من تضحيات .. وكانت المعارضة تعتبره « **أبا متزمتا** » لايريد أن يقبل انهم شبوا عن الطوق . والحقيقة انه ، وهم ، لم يدركوا جدلية الصراع بين الثقافتين ، وان التاليف بينهما أمر بالغ الصعوبة

● التحدى فى عهد حسنى مبارك

ان التحدى الحقيقى الذى يواجهنا فى عهد الرئيس حسنى مبارك هو نوائم بين آليات الديمقراطية وروحها . هذه الماءمة تتطلب تكريسا « للثقافة المدنية » بكل قيمها

ولااعتقد أن الاولوية هى لتعديل الدستور بالضرورة – وان كان ذلك مطلوبا فى فترة لاحقة .

أهم من ذلك أن يمارس الحزب الحاكم على نفسه رقابة ذاتية صارمة فى تحاشى مايسمى « بديكتاتورية الاغلبية » فى مجلس الشعب ، وان يستمر الرئيس فى تعميق التقليد الذى بدأه بالفعل ، وهو التشاور الدائم مع احزاب المعارضة والقوى السياسية المستقلة غير المنتظمة فى احزاب .

كذلك من مظاهر المواءمة بين الشكل والجوهر الديموقراطى الغاء القوانين الاستثنائية المقيدة للحريات

ومن جانب آخر على احزاب المعارضة أن تتذكر ان بقايا « الثقافة التقليدية » لن تختفى بين يوم وليلة .

لذلك عليها بدورها ان تمارس رياضة الصبر والمثابرة حيال مفهوم « كبير العائلة » ، الذى سيطل عليهم بين حين واخر . ومع كل اطلالة لابد أنه يثبتوا له انهم بالفعل – لا بالقول – قد شبوا عن الطوق .

نحو التمثيل النسبى فى مجلس الشعب*

جوهر الديموقراطية هو المشاركة السياسة لاكبر عدد من المواطنين فى صناعة القرارات التى تؤثر على مصيرهم حاضرا ومستقبلا .. وهذه المشاركة وحدها هى التى تجعل الاغلبية راضية عن القرار السياسى ومستعدة لتحمل نتائجه سلبا أو ايجابا ..

لذلك يصبح النضال من اجل الديموقراطية فى مصر هو العمل على اشراك أكبر عدد ممكن من المواطنين فى العملية السياسية .. ويتأتى ذلك من خلال انضمام الناس الى الاحزاب السياسية القائمة ، او انشاء احزاب جديدة تعبر عن همومهم وامالهم .

كما يتأتى من خلال مشاركتهم الجادة فى العملية الانتخابية لاختيار ممثليهم فى المجالس النيابية والمحلية وكذلك الانخراط فى التنظيمات الوسيطة والتطوعية ذات التأثير فى الرأى العام وعلى صانع القرار مثل النقابات والاتحادات والجمعيات والاندية .

● لماذا يعزف الناس عن المشاركة ؟

تعزف شرائح عديدة فى المجتمع المصرى عن المشاركة فى العملية السياسية لاسباب متعددة .

أول هذه الاسباب اهو احساسها بأن الاحزاب القائمة لاتعبر عن همومها وآمالها الحقيقية . وليس هنا مجال التقييم الموضوعى عما اذا كان لذلك الاحساس مايبرره حقيقة ولكنه احساس موجود ، وينبغى التعامل معه كحقيقة واقعة ..

---

* الجمهورية ، ٢٥ / ١١ / ١٩٨٢

وربما كانت الظروف التى احاطت بنشأة الاحزاب الاربعة القائمة فى الوقت الحاضر هى المسئولة عن هذا الاحساس .. فقد نشأت هذه الاحزاب بقرارات فوقية من الرئيس الراحل أنور السادات .. أى أنها لم تنبت نبتا تلقائيا طبيعيا من أصحاب المصالح والتكوينات الاجتماعية المختلفة .

فالقاعدة فى الديموقراطية هى أن الاحزاب تنظيمات شعبية تطوعية ذات هموم ومصالح محددة لاعضائها،وتنشأ بقصد الوصول الى السلطة أو التأثير فى قراراتها من خلال قنوات وقواعد معروفة ومتفق عليها من الجميع .

أما ان يأتى الحاكم ويقرر هو انه سيكون هناك احزاب ثلاثة (يمين ووسط ويسار) ويحدد هو أى مجموعة ستكون الوسط ، وايهما سيكون اليسار أو اليمين ، فهو أمر لايستقيم مع طبيعة الامور – مهما حسنت نية الحاكم ..

الناس تنضم الى الاحزاب التى تتكون تتطوعيا وتلقائيا . واذا لم توجد الاحزاب التى تتفق مع مايريده بعض الناس ، فينبغى أن يكون لهؤلاء حق تكوين احزاب جديدة ..

فمن غير المعقول ومن غير المقبول أن يتم حشر المجتمع (بكل تنوعاته وتعقيداته) فى صيغة سياسية تعسفية وليست من خلقه . والذى حدث نتيجة ذلك هو ان قطاعات كبيرة من المجتمع ظلت خارج هذا القالب أو هذا « الجلباب الضيق »

وجود هذه القطاعات خارج الحلبة السياسية هو خسارة كبيرة لقضية الديموقراطية ، وهو خطر من يهدد سلامة الجسم الاجتماعى السياسى المصرى ..

والقوى الاجتماعية الموجودة خارج الساحة السياسية حاليا تشمل اساسا كلا من الليبراليين القدامى والجدد ، والجزء الاكبر من التحالف الاجتماعى الناصرى ، والاخوان المسلمين والجماعات الدينية الاخرى ذات الاهتمام السياسى العام ..

كما أن هناك قوة اجتماعية متنامية تحرص على التوفيق بين الديموقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية . هذه القوى وغيرها لاتجد فى الاحزاب القائمة رئة طبيعية للتنفس السياسى .. لذلك فهى تعزف عن المشاركة السياسية الجادة ..

- **عدم الجدوى وعدم الجدية**

من الاسباب الاخرى لعدم المشاركة الشعبية فى حياة مصر السياسية احساس قطاعات كبيرة من الناس بعدم امانة ونزاهة العملية الانتخابية .

وربما كان هذا الاحساس قائما على غير اساس . أو ربما كان مبالغا فيه ، ومرة أخرى ليس القصد هنا هو اصدار حكم على صحة أو خطأ هذا التقييم الشعبي لدرجة الامانة فى العملية الانتخابية ولكن الاحساس قائم ولابد من التعامل معه كواقع ، قابل للعلاج أو التغيير .

وعلاج هذه الظاهرة تقع مسئوليته على الحكومة فى المقام الاول .. فلا يكفى أن تكون الحكومة أمينة ونزيهة فى اجراء العملية الانتخابية ، وانما عليهاان تعطى الانطباع بالامانة والنزاهة بكل قوة .. وعليها أن تتخذ من الاحتياطيات والترتيبات مالا يترك عند المواطنين أو عند الاحزاب المعارضة اية شبهة من قريب أو بعيد .

قد لاتكون انتخابات ١٩٧٦ اكثر امانة من انتخابات ١٩٧٩ . لكن الشاهد هو أن اغلبية المواطنين يعتقدون ذلك . ولايقف دليلهم على هذا الاعتقاد ان انتخابات ١٩٧٦ قد أتت الى مجلس الشعب بعدد من المعارضين والمستقلين . من خارج حزب الحكومة ، ولكن لان السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء وقتها – اعطى انطباعا قويا للمواطنين وللاحزاب المتنافسة بالامانة والنزاهة . وعفة اليد واللسان ولم يتوفر هذا الانطباع لدى الناس عن انتخابات ١٩٧٩ .

الناس – اذن – تقبل على المشاركة السياسية من خلال العملية الانتخابية متى توفرت لديها قناعة بأن العملية جادة وأمينة . فهنا يشعرون بجدوى المشاركة ..

- **الاقلية السياسية والاغلبية الاجتماعية**

قلة مشاركة الناس فى الحياة السياسية ، لعدم وجود احزاب ممثلة أو كافية، أو لعدم احساسهم بجدية وجودى المشاركة ، نتج عنه وضع غريب وعجيب على الساحة الوطنية . وهو أن أغلبية المجتمع لاتشارك فى العملية السياسية ..

ان الاحزاب الاربعة المسموح لها بالنشاط العلنى القانونى هى : الوطنى الديموقراطى ، والعمل ، والتجمع ، والاحرار وعضويتها معا وجميعا لاتتجاوز المليونين ، معظمهم فى الحزب الوطنى الحاكم . ونكاد نجزم – بناء على معرفتنا المباشرة – ان العضوية النشطة فى هذه الاحزاب الاربعة جيمعا لاتتجاوز نصف مليون على أحسن تقدير ..

مامعنى ذلك !

معناه ان المجتمع المصرى الذى يصل عدد سكانه الى ٤٥ مليونا ، منهم ٢٠ مليون شخص بالغ لهم حق الانتخاب ، ومنهم حوالى ١٢ مليون شخص مقيدون بجداول الانتخابات ، لايشارك

منهم مشاركة حقيقية ومستمرة فى الحياة السياسية سوى نصف مليون شخص ..

هذا الرقم يمثل اقل من ٢ فى المائة من مجموع السكان ، واقل من ٣ فى المائة من مجموع البالغين الذين لهم حق المشاركة ، واقل من ٥ فى المائة من المقيدين فى الجداول الانتخابية ..

هذا معناه ، بتعبير آخر ، ان المشاركين الحقيقيين فى الحياة السياسية المصرية هم اقلية ضئيلة . وبما أن حزب الحكومة هو جزء وليس كل المشاركين ، فان ذلك يعنى ان من يحكمون يمثلون اقلية ضئيلة ، بينما الأغلبية الساحقة (أكثر من ٩٥ فى المائة) لاتشارك مشاركة فعلية مستمرة ،

● **التمثيل النسبى للاحزاب**

لاسبيل – اذن – الى تعظيم المشاركة السياسية الا بإباحة حق تكوين احزاب جديدة ، تجعل الهيكل السياسى متوائما ومتسقا مع البناء الاجتماعى ، والحرص لافقط على امانة ونزاهة العملية الانتخابية ولكن الحرص ايضا على اعطاء المواطنين انطباعا قويا بهذه النزاهة والامانة .

هنا فقط يمكن لاغلبية الناس أن تشعر بجدية وبجدوى المشاركة السياسية ، وبالتالى تقبل عليها باخلاص وحماس .. وبذلك ينتهى وضع الاقلية السياسية التى تحكم الاغلبية الاجتماعية .

وربما من أكثر الآليات فعالية فى تحقيق المشاركة الواسعة ، وتصحيح الخلل فى علاقة الهيكل السياسى بالبناء الاجتماعى ، هو التمثيل النسبى للاحزاب المتنافسة فى المجالس النيابية المنتخبة ..وهو نظام تأخذ به كثير من البلدان لتصحيح هذا الخلل ، وهو يضمن لكل القوى الاجتماعية تمثيلا سياسيا يتناسب مع ثقلها النسبى فى المجتمع ..

وفحوى هذا النظام هو أن يحصل كل حزب على عدد من مقاعد مجلس الشعب يتناسب مع نسبة الاصوات التى يحصل عليها فى عموم القطر ..

ان التمثيل النسبى يعنى أن تعتبر مصر كلها بمثابة دائرة انتخابية واحدة .. ويخوضها كل حزب بقائمة من مرشحيه . فاذا حصل حزب معين على عشرة او عشرين فى المائة من مجموع الاصوات فى عموم القطر فانه يحصل على عدد متناسب (١٠ أو ٢٠ فى المائة) من مقاعد مجلس الشعب .. ويكون من المتفق عليه مسبقا أن يشغل العشرون الاوائل من قائمة الحزب الانتخابية هذه المقاعد .

وفى تنويعة أخرى توزع المقاعد التى تخص كل حزب طبقا لانتخابات داخلية فى الحزب (بعد الانتخابات العامة) ، أو طبقا لما حصل عليه الحزب من أصوات فى كل محافظة أو مركز ، وتوزع على أعضائه من تلك المحافظة أو المركز . وهناك تنويعات اخرى عديدة لنظام التمثيل النسبى ، يمكن الحديث عنها اذا تقرر الاخذ به ...

المهم فى التمثيل النسبى انه لايترك أى قوة اجتماعية ذات وزن خارج الحلبة السياسية . وفى الوقت نفسه لايعطى هذه القوى الاجتماعية اصواتا متكافئة أو متساوية لكن طبقا للوزن النسبى لكل منها فى الساحة .. وهو بذلك يخلق لكل القوى الاجتماعية مصلحة فى المحافظة على النظام الاجتماعى والسياسى القائم .. وهو بذلك يجنب المجتمع والدولة أى هزات أو انفجارات من خارج الحلبة السياسية :

التمثيل النسبى يلقى معارضة عادة من حزب الاغلبية – وفى حالتنا هو الحزب الوطنى الديموقراطى – لانه عادة يقلل من حجم اغلبيته البرلمانية من ٩٠ فى المائة مثلا إلى ٦٥ أو ٥٥ فى المائة .. لكن العبرة فى شعبنا هو ألا يحجب كسب معركة واحدة بالضربة القاضية هدفاً أهم ، وهو كسب الحرب ، ونعنى بكسب الحرب هنا ترسيخ الديموقراطية وتعظيم المشاركة الشعبية ..

الأعصاب الحساسة للديموقراطية :
الجماعات الوسيطة*

إذا فهمنا الديموقراطية على أنها المشاركة السياسية فى صنع القرارات والقوانين التى تؤثر فى حياة الناس حاضرا ومستقبلًا ، فإن كثيرا من الخلط بين الوسائل والأهداف يمكن أن يزول من النقاش الدائر حولها فى مصر الثمانينات . ويمكن بالتالى أن نتحدث عن عملية تطورية ، تؤدى الى توسيع دائرة المشاركة السياسية الفعلية ، حديثا ينزل من علياء التجريد الى واقع الممارسة والتطبيق ، حديثا يتجاوز الأشكال والصياغات الليبرالية الغربية ويتعامل مع الواقع المصرى المعاش فى الوقت الحاضر وفى الأمد المنظور .

من هذا المنطلق الواقعى أرى أن تنصرف الجهود الى تقوية الشرايين التى يمكن أن تدفع من خلالها مشاركة أكبر عدد من المواطنين الى مركز الجهاز العصبى الذى يصنع القرار ، ويوجه حركةالجسم الاجتماعى السياسى المصرى .

الحديث عن مشاركة اكبر عدد من المواطنين فى صناعة القرار لابد أن ينفذ الى جوهر الأمور ولايتعثر عند شكلياتها الخارجية . والانتخابات النيابية والاستفتاءات الشعبية كما عهدناها فى مصر فى السنوات الأخيرة هى شكليات للمشاركه ؛ نعرف جميعاً أنها تقصر تماما عن تجسيد المشاركة الحقيقية . ذلك لانها لاتتم فى الغالب بأمانة من جانب الحكومة . وحتى اذا تم بعضها بأمانة – وهو الاستثناء النادر – فان معظم المواطنين يتعثرون فى تنظيم رغباتهم وارادتهم الفردية بشكل جماعى ، فاعل وفعال ، للتأثير فى صناعة القرار . وحتى اذا نجح بعضهم فى تنظيم هذه الرغبات والارادات الفردية جماعيا ، فان ذلك غالبا مايفتقد الى عنصر الاستمرارية والدوام .

هذا كله لا يعنى التخلى عن الأشكال القائمة بالفعل ولكنه يعنى ألا نركن الى فعاليتها فى توسيع وتكثيف المشاركة السياسية الحقيقية . ويعنى أن نبحث عن قنوات أخرى مكملة ، وربما أكثر تنظيماً واكثر استمرارية ،

* الاهرام الاقتصادى ، ٣١ / ١ / ١٩٨٣

وتسيير هذه القنوات ، بحيث يستطيع أكبر عدد من المواطنين من خلالها ممارسة حق المشاركة السياسية .

● الجماعات الوسيطة والتطوعية

من المعروف والمألوف أن علاقة المواطن بالدولة تتم اما مباشرة واما من خلال تنظيمات جماعية وسيطة . العلاقة المباشرة هي علاقة فردية تكون فيها قدرة المواطن على التأثير في قرارات الدولة محدودة الى درجة تقرب من الصفر . وتكون فيها قدرة الدولة على التأثير في حياة ومصير المواطن هائلة تكاد تصل الى التحكم الكامل . ولكن العلاقة من خلال تنظيمات جماعية وسيطة تحقق للمواطن درجة اكبر ، وان لم تصل أبدا الى حد المساواة ، من التأثير على الدولة ، أو تقليل درجة تحكم الدولة في حياته ومصيره .

إذا كان هذا التوصيف معقولًا ومقبولًا ، فإن إحدى الخلاصات المنطقية هي تعظيم عدد التنظيمات الوسيطة التي يمكن أن يندرج فيها أكبر عدد من المواطنين .وإحدى الخلاصات الأخرى هي تقوية هذه التنظيمات الى أكبر درجة ممكنة بحيث تجسد رغبات وإرادات أعضائها من ناحية ، وبحيث تمارس أعظم قدر من التأثير على مركز صناعة القرارات من ناحية أخرى .

١ – الأحزاب السياسية القائمة هي نموذج للتنظيمات الوسيطة التي نقصدها . وبالتالي فإن تقويتها من حيث حجم العضوية والانتشار ، ومن حيث قدرتها على الحركة والتعبير ، ومن حيث ممارسة الديموقراطية في داخلها ، كله يندرج تحت بند توسيع وتقوية أحد شرايين المشاركة السياسية الحقيقية . ولكن من المهم أن نقر بأن أحزاب المعارضة خصوصاًلن تصل الى الحكم في الأجل المنظور . وأن نقر أيضاً بأن الاحزاب جميعاً ، بما في ذلك حزب الحكومة ، ستظل تحتوى على اقلية عددية من مواطني مصر . ولكن اذا نجحت الجهود على الأقل في تقوية الأحزاب بحيث تقوم بممارسة التعبير الحر عن وجهة نظر أعضائها ، وبممارسة النقد والمحاسبة لسياسات الحكومة (سواء داخل المجالس التشريعية أو من خارجها) فأننا نكون قد حققنا عدة خطوات على طريق الديموقراطية .

٢ – النقابات المهنية تمثل شرياناًاخر من الشرايين المهيئة لتعظيم المشاركة السياسية الحقيقية . وفي رأينا أنه في الوقت الحاضر ، ولعدة سنوات قادمة ، يمثل هذا الشريان أهم القنوات القادرة على التأثير في المركز العصبي لصناعة القرارات في مصر . فهذه النقابات المهنية تضم فيما بينها حوالي خمسة ملايين مواطن يمثلون قلب القوى العاملة المنظمة في مصر ، ويتركزون في أهم تجمعاتها السكنية وهي المدن الكبرى . وعضوية معظم هذه النقابات اجبارية كشرط من شروط ممارسة المهنة . ولكن الشاهد هو أن العدد الأكبر من هذه النقابات يركز في نشاطه على

المطالب والمكاسب الفئوية المباشرة ، ولايتجاوزها الى محاولة الاسهام فى صياغة القرارات المجتمعية العامة . والمطلوب طبعاً هو « تسييس » هذه النقابات جميعاً بحيث تشارك مشاركة حقيقية ، لا فقط فيما يمس أعضاءها مباشرة ولكن فى كل مايؤثر على المجتمع الأكبر .

خبرة السنوات العشر الماضية تؤكد مانذهب اليه من أن هذا الشريان هو أهم شرايين المشاركة السياسية – على الأقل من حيث الرصد والنقد والضبط والمحاسبة . فالعدد القليل من هذه النقابات الذى لم يقف عند حدود المطالب الفئوية ، وفى مقدمتها نقابات المحامين والصحفيين والأطباء والمهندسين ، قد أدت دوراً سياسيا يفوق فى فعاليته دور المجلس النيابى المنتخب . وقد وعت الحكومة ذلك فى السنوات الأخيرة . وأصبحت هذه النقابات بالنسبة لها تمثل « خطرا » يفوق ماتمثله حتى أحزاب المعارضة . لذلك حاول نظام الرئيس السادات ان يسيطر عليها ، وفى الحالات التى لم يستطع فيها إحكام هذه السيطرة فقد اضطر بالتدخل السافر الى تجميدها .

ان تقوية النقابات المهنية فى رأينا يفوق من حيث الأهمية فى الثمانينات تقوية الاحزاب السياسية . وتقوية النقابات يبدأ بالمطالبه بتحريرها من وصاية الدولة . فإن أكبر ثلاثة تنظيمات نقابية – وهى اتحاد نقابات العمال ، ونقابة المعلمين ، ونقابة الزراعيين – تم تحييدها سياسيا بشكل يكاد يكون كاملًا فى السنوات العشر الأخيرة ، وذلك من خلال « انتخاب » وزير أو وكيل وزارة كرئيس لكل منها . وكذلك تم نوع من التحييد الجزئى لنقابات المهندسين والأطباء والتجاريين من خلال « انتخاب » رؤساء لها من أركان المؤسسة الحاكمة ، أو الموالين لها ، أو المؤتمرين بتعليماتها . وتحرير هذه النقابات من الوصاية الحكومية هو أمر ممكن فى الواقع السياسى الحالى فى مصر .

٣ – التنظيمات التطوعية شبه النقابية هى بدورها أحد القنوات الهامة فى تنظيم المشاركة السياسية للمواطنين عامة ولأعضائها بصفة خاصة . وهذه تختلف عن النقابات المهنية بحكم أن عضويتها غير اجبارية لممارسة المهنة . وهى ليست من حيث القوة التنظيمية بنفس درجة النقابات المهنية . ومثل هذا النوع اتحادات أساتذة الجامعات والكتاب والفنانين ، والجمعيات العلمية كجمعية الاقتصاد والتشريع . ورغم أن هذا النوع ليس بنفس القوة التنظيمية التى للنقابات الا أن له أو لبعضه على الأقل تأثيرا معنويا وأدبيا هائلًا على الرأى العام المصرى . وبالتالى فمن المهم تقوية هذه التنظيمات التطوعيةوتسييسها جزئيا – على الأقل فيما يتصل بالقرارات والقوانين التى تقترب من مجال نشاطها واهتماماتها .

• وظيفة التنشئة السياسية

من الأهمية بمكان أن ندرك أن الجماعات الوسيطة تقوم الى جانب تعظيم المشاركة السياسية للمواطنين فى صنع القرار ، بوظائف أخرى تخدم نفس هذا الهدف بشكل غير مباشر ،

وعلى الأمد الطويل . من هذه الوظائف مايمكن أن نسميه بوظيفة التنشئة السياسية . أن أحد لوازم الديموقراطية هو « المواطنة النشطة » – أى الشعور بالانتماء ، ومتابعة القضايا العامة ، والتعود على إبداء الرأى فيها ، واكتساب بعض المهارات التنظيمية . وعناصر « المواطنة النشطة » تكْتسب وتتراكم من خلال الاسرة والمدرسة ووسائل الاعلام وعضوية التنظيمات المختلفة . وإذا كانت خبرة معظم المصريين فى الاسرة والمدرسة ، واذا كانت وسائل الاعلام الحالية ، لاتساعد كثيرا على اكتساب معظم عناصر « المواطنة النشطة » ، فان خط الانقاذ الأخير لاكتساب هذه العناصر هو التنظيمات الوسيطة ، وخاصة النقابية منها . فهذه الأخيرة بحكم ضرورة عضويتها لممارسة المهنة ، وبحكم ارتباطها العضوى بأسباب العمل والمعيشة والرزق ، وبحكم استمراريتها النسبية التى تفوق استمرارية الاحزاب والحكومات ، فإنها تمثل آليات استراتيجية فى عملية التنشئة السياسية . المهم أن تستخدم امكانياتها فى هذه التنشئة .

- **التنظيمات الوسيطة والنظام الحاكم**

التنظيمات الوسيطة كعصب حساس من أعصاب الديموقراطية فى مصر ليس عصباً مكشوفاً مثل الاعصاب الأخرى . فبينما يستطيع النظام الحاكم بسهولة نسبية أن يتحكم فى نتائج الانتخابات النيابية والاستفتاءات العامة ، وبينما يستطيع بسهولة أقل أن يحاصر السلطة القضائية ، فإن قدرته على النفاذ الى التنظيمات الوسيطة والتحكم فيها هو أبلغ الأمور صعوبة . فتزوير الانتخابات فيها ليس أمراً سهلاً . واذا نجح النظام فى السيطرة على بعضهافهو لاينجح فى السيطرة على بعضها الاخر . وسيطرته فى ذلك البعض على أى الأحوال هى سيطرة مؤقته ، ويعطى فى مقابلها الشيىء الكثير . ثم ان النظام لايعتبر أى واحد من هذه التنظيمات الوسيطة خطرا داهماً عليه لعدم قدرة أى منها على القيام بانقلاب سياسى عسكرى . هذه الخصائص وغيرها تعطى التنظيمات الوسيطة قدرة نسبية اكثر من غيرها على الحركة والمناورة والالتفاف لكى تؤثر على القرار .

الفهرس

مصر
تراجع نفسها



- ولد في المنصورة في القطر المصري عام ١٩٣٨.
- تعلم في جامعات القاهرة، وكاليفورنيا وواشنطن (سياتل)، حيث حصل من الأخيرة على الدكتوراه في علم الاجتماع السياسي عام ١٩٦٨.
- أثناء دراسته في أمريكا، كان رئيسا لمنظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا (١٩٦٥ ـ ١٩٦٦).
- قام بالتدريس في جامعات القاهرة، وواشنطن، وانديانا ـ بردو، ودنيور، والجامعة الأمريكية في بيروت، وجامعة كاليفورنيا (لوس انجلوس).
- قام بأبحاث ميدانية في عدد من الأقطار العربية، وعمل مستشارا لعدد من الهيئات العربية والدولية.
- له عدة مؤلفات بالعربية منها: سوسيولوجية الصراع العربي ـ الإسرائيلي، كيسنجر وصراع الشرق الأوسط، عروبة مصر، اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة، ومصر في ربع قرن (١٩٥٢ ـ ١٩٧٧).
- من مؤلفاته بالانجليزية: المجتمع العربي يتحول، بدو المملكة العربية السعودية، التحضر في العرب، النظام الاجتماعي العربي الجديد «The New Arab Social Order»، وعشرات المقالات حول قضايا الوطن العربي والعالم الثالث.
- يشغل في الوقت الحاضر منصب أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية في القاهرة، ورئيس الشؤون العربية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

٣٠ قرشاً

دار المستقبل العربي